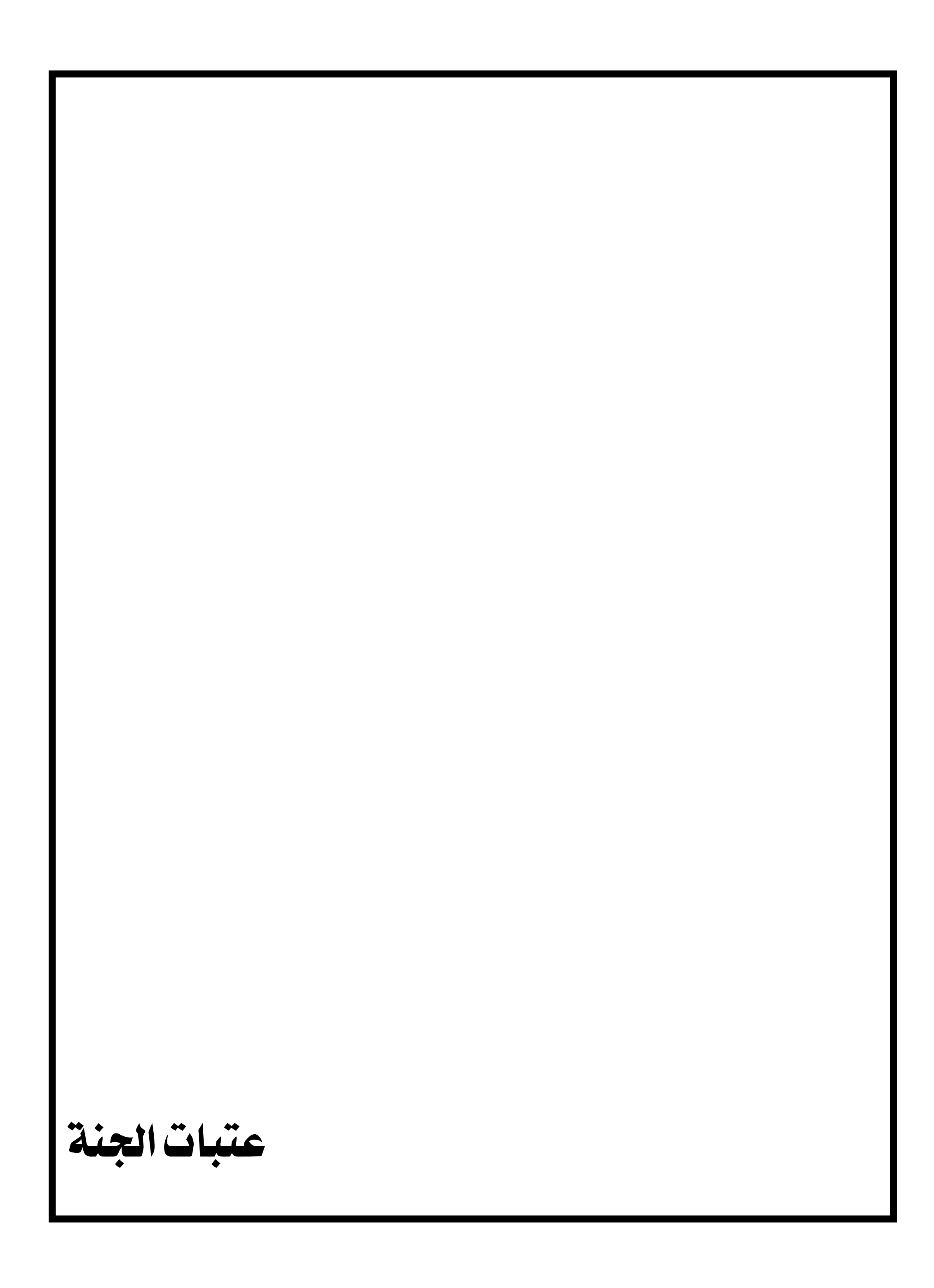
فتحى إمبابى

عتبات الجنـــــــة

أسطورة الاثنى عشر


عتبات الجنة

عتبات الجنة

الكتاب: رواية

المؤلف: فتحي امبابي

الطبعة الأولى 2014

الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب

الإخراج الفني: فتحي امبابي

رقم الإيداع بدار الكتب:

رقم الإيداع الدولي:

عتبات الجنـــــــة

أسطورة الاثني عشر

فتحي امبابى

رواية

الهيئة المصرية العامة للكتاب
2014


البحر الأبيض
ليبيا
مصر
الصحراء
الليبية
شاد
السودان
أفريقية الوسطى

النيـــــل

على شرف أسطورة الاثني عشر ضابطاً
في خط الاستواء
قاتلوا دفاعاً عن وادي النيل العظيم

1ـ ملازم عبد الوهاب طلعت، قتل في واقعة الرجاف[1] في 10 نوفمبر سنة 1888م، برتبة صاغ.
2ـ ملازم سالم خلاف قتل في واقعة (الرجاف) في 10 نوفمبر سنة 1888م، برتبة يوزباشي.
3ـ ملازم محمد الفولي، قتل في واقعة (الرجاف) في 10 نوفمبر 188م، برتبة يوزباشي.
4ـ ملازم عبد الواحد مقلد، توفي بسبب مرضه جنوب بحيرة فيكتوريا[2]، برتبة يوزباشي.
5ـ ملازم إبراهيم حليم، توفي بسبب مرضه جنوب بحيرة فيكتوريا برتبة صاغ.
6ـ ملازم أحمد سليمان، نقل من الاستوائية إلى الخرطوم قبل سقوطها سنة 1885م.
7ـ ملازم حسن سليمان، نقل من الاستوائية إلى الخرطوم قبل سقوطها سنة 1885م.
8ـ ملازم محمد فوزي، نقل إلى الخرطوم قبل سقوطها سنة 1885م.
9ـ ملازم عبد المبين شلعي، ترك مع باقي القوة مديرية خط الاستواء، برتبة يوزباشي.
10ـ ملازم علي شمروخ، ترك مع باقي القوة في مديرية خط الاستواء، برتبة يوزباشيي.
11ـ ملازم محمود العجيمي قتل في واقعة ريلي[3]، برتبة يوزباشي.
12ـ ملازم مصطفي العجيمي، وصل إلى مصر سنة 1889 مع حملة ستانلي، برتبة يوزباشي.

---

1) محطة الرجاف العسكرية: تقع على بعد **375** كيلومتر من خط الاستواء. دارت فيها معركة بين الجيش المصري والدراويش في **10** نوفمبر **1888** م.

2) ترك عبد الواحد مقلد وإبراهيم حليم أثناء عودتهما إلى مصر مع بعثة الإنقاذ (حملة ستانلي) بأمر أمين باشا، بجهة (كيتيجا) في جنوب بحيرة فيكتوريا، لدى المبشرين الإنجليز، وماتا هناك.

3) واقعة ريلى بين الجيش المصري والدراويش.

إهداء

إلى ضباط مصر وجنودها

الذين يقاتلون معركة الإرهاب

رتب الجنود والضباط في القرن التاسع عشر
وعلامات الرتب والشارات
والمرتبات

الرتب في القرن التاسع عشر	المهمة	المرتب بالقروش	علامات الضباط والجنود	الرتب في الجيوش العربية المعاصرة
نفر		10	شريط	جندي
أومباشي	رئيس عشرة	25	شريط أحمر على الصدر	عريف
جاويش	-	30	شريطين	رقيب
باشجاويش	-	40	ثلاثة أشرطة	رقيب أول
صول قول اغاسي	معاون يسار	60		مساعد أول
ملازم ثاني	معاون ثاني للرئيس	250		ملازم
ملازم أول	معاون أول للرئيس	350	يحمل على صدره جهة اليمين نجمة فضية	ملازم أول
يوزباشي	رئيس مائة	500	نجمة وهلال من الفضة	نقيب
صاغ قول اغاسي	معاون يمين	1200	هلال من الذهب و نجمة فضة	رائد
بكباشي	رئيس ألف	2500	هلال و نجمة من الذهب	مقدم
قائمقام	نائب أمير الألاى	3000	هلال و نجمة من الذهب مرصع بالماس	عقيد
أميرلاي	أمير آلاى	8000	هلال و نجمة من الذهب مرصع بالماس	عميد
لواء	أمير لواء	11000	نجمان داخل الهلال	لواء
ميرميران	أمير الأمراء		ثلاثة نجوم داخل الهلال، النجوم من الذهب المرصع بالماس	فريق
سر عسكر	الرئيس العام للجيش وقائد القواد			مشير

العتبة الأولى

سكرات الموت



ضرب الإسكندرية 11 يوليو 1882

- 1 -

على بوابة القصر الخارجية كسرت طرقات عنيفة صمت الليل، استيقظ البك مفزوعا، دفع عنه جاريته الرومية، وقام غاضبا يغادر مخدعه الوثير، نادى خادمه أن يحضر سوطه، كي يؤدب الحيوان الذي تجرأ على أن يعكر صفو نومه، في الباحة الحجرية وقف رسول يسابق ملاك الموت، انحنى أمام البك، وهمس يخبره أن الجدة تدعوه للحضور إليها، صرخ به، ألم يكن بوسعه الانتظار حتى الصباح؟ أجاب العجوز: "سيدنا البك، الله وحده يعلم، إذا كانت شمسه سوف تشرق عليها".

ألقت الجارية على كتفه معطف السمور الذي خلعه عليه السلطان الغازي عبد الحميد خان الثاني[4] تقديرا لبلائه في مفاوضات معاهدة سان استفانوس[5]، قفز إلى مركبته، وهو ينفض عن باله حروب الموسكوب[6]، والضعف والوهن الذي نخر في الدولة "العلية"[7].

---

4) السلطان الغازي عبد الحميد الثاني: تولى السلطنة في 7سبتمبر عام 1876، قام بتنظيم مجلس عمومي "برلمان " للإمبراطورية العثمانية في 24 أكتوبر 1876، يتكون من مجلسين، الأول ينتخب أعضائه الأهالي، والثاني تعين الدولة أعضاءه، وأصدر في 23 ديسمبر 1876 القانون الأساسي للدولة مشتملا على 119 مادة، ثم أعلن الأحكام العرفية بعد مرور شهرين على إصدار الدستور.

5) معاهدة سان استفانوس: وقعت في مدينة آيا استفانوس 3 مارس عام 1878م بين الدولة العثمانية وروسيا، وفيها مزقت أجزاء واسعة من الإمبراطورية العثمانية لصالح الروس، ونصت على تخلى الدولة العثمانية عن غالبية الأراضي التابعة لها في البلقان، تدخلت بريطانيا لمواجهة النفوذ الروسي، فوقعت معاهدة دفاع مع الدولة العثمانية في 4 يوليو 1878، واستولت على قبرص كعربون لمساندتها تركيا، رفضت بقية الدول الأوروبية اقتصار حصول بريطانيا وروسيا على الغنائم والامتيازات، فعقدت في برلين معاهدة برلين 13 يوليو 1878، نجم عنها تمزيق الإمبراطورية العثمانية، ووضعها تحت المراقبة وحماية حقوق الأقليات، ومن نتائجها احتلال فرنسا لتونس والجزائر، وتعد هذه المعاهدات بداية تدخل إنجلترا في الشأن المصري، والذي توج باحتلال مصر في يوليو 1882،.

6) حروب الموسكوب: مصطلح أطلق على الحروب التي دارت بين الإمبراطورية العثمانية والإمبراطورية الروسية طوال ستة قرون من القرن الثاني عشر وحتى القرن التاسع عشر.

7) الدولة العلية: عُرفت الدولة العثمانية بأسماء مختلفة في اللغة العربية، لعلّ أبرزها هو "الدولة العليّة "، وهو اختصار لاسمها الرسمي" الدولة العليّة العثمانية"، كذلك كان يُطلق

وسط زمهرير شتاء 1882 ركضت الخيول على الطريق الترابية باتجاه الجنوب، والحوذي يحثها بسياطه، مع السحر ظهرت الأضواء الخافتة لقرية تقع جنوب مدينة منوف العلا، وقد تحلق حول المشاعل جماعات القرويين، يترقبون الخبر الذي طال انتظاره.

ترجّل البك عن عربته، وأسرع يشق الزحام الذي اكتظ به الدرب الضيق، يقوده عمدة القرية، والفلاحون يفسحون له الطريق باحترام وأدب شديدين، وأمام دار طينية واطئة أكلها القدم، أحنى قامته، وغاص في صحن الدار، بين النسوة المتشحات بالسواد، توقف العمدة أمام باب خشبي متآكل، وتركه ليدلف وحيدا إلى قاعة غطيت جدرانها بالسناج، غارقة في العتمة.

هاجمه عطن مسكون برائحة الموت، على ضوء مشعل زيتي لمح جسدها الضئيل مكوما في حرام من وبر الجمال فوق قبة الفرن، تحوم حوله وشيش أشباح هائمة، وقف حائرا، وذهنه يتساءل. "هل ماتت؟". صعد من بحراية الفرن[8] إلى مصطبة القاعة. امسك بيد شابها تجاعيد مُوشَّجة بالأسى، كانت دافئة، مال على أذنها يهمس:

- "نينا[9]، أنا جيت، سلامتك يا نينا".

دعا الله أن يسمح له بأن يودعها قبل أن تلفظ أنفاسها، غفي مستعيدا وجه أمه وهي تموت بين أحضانها، يرى جدته تشيح بيدها إلى الشبح الجاثم على كتف أمه الأيسر، تسأله بدمدمات غاضبة أن يرجئ كتابة سيئات ابنتها، في اللوح الذي ستقابل به وجه ربها يوم القيامة، ويضيفها إلى كتابها هي، وهي تعده أنها ستموت قريبا وعليه أن يصبر، وتعود تنظر بوجه بشوش باتجاه الشبح الجاثم على كتفها الأيمن، ترجوه ألا يكف عن كتابة حسنات ابنتها التي توشك أن تلاقي وجه ربها.

تذكر أن أمه أفاقت، وأشرق وجهها الحلبي بابتسامة، وقبضت على كفه بفيض من الحنان، وهمست تخاطبها: "يا أمه أنت سيئاتك كتيرة،

عليها في الدول العربية، خصوصا بلاد الشام ومصر، "الدولة العثملية"، اشتقاقا من كلمة "عثملى "Osmanlı - التركية.

8) البحراية: منطقة تعقب باب القاعة، وتقع أمام الفرن مباشرة، وتجلس فيها النسوة لعمل الخبز.

9) نينا: كلمة عامية تعنى الجدة

هو أنت ناقصة"، واستدارت يسارا وهمست: "متسمعش كلامها بحق جاه حبيبك النبي"، عايزاها تكون رفيقتي في الجنة"، واستغفرت ورددت الشهادتين، ولفظت أنفاسها لتنساب روحها إلى بارئها، وانطلق العويل.

بعد عام غادرت جدته قصره إلى دار أمها العتيقة، استحلفها أن تبقى تؤنسه، ويكفيها راحة أيامها الأخيرة، دون جدوى، وفي النهاية استسلم أمام إصرار نساء يرغبن في قضاء أيامهن الأخيرة وحيدات.

شعر البك برعشة خافتة من يدها الخشنة، كانت روحها تهيم في هلوسات غابرة، ترى نفسها جالسة أمام النشع[10] تفلى ملابسها من حشرات الدنيا؛ بق وقمل وبراغيث، ونفحة باردة من الصبا حملت معها شبح فتى يافع بزغ عليها، وهو يخاتلها بأزرار بذته الميرى اللامعة مثل ربيع كاذب، كان حفيدها الحسيني الذي بلغ الرابعة عشرة، يأتي لزيارتها في أول إجازة له من المدرسة الحربية، الخالق الناطق عبد المحسن ابن خالتها الذي عاركته طيلة حياتها، مفضلة عليه أغاوات ومشايخ وتركمان وفرنسيس، سمعها تهلوس مخرفة:

- "عبد المحسن يا ابن خالتي، رجعت من النار أزاي يا وله".

نشبت أناملها المعروقة في يده المترفتين بالنعمة، شعر بكلابات من سعير تجذبه إلى الجحيم... لماذا كان يرتعد؟ ولماذا يرهبها و يخشاها؟ ولماذا كان يحبها؟ استجمع شجاعته، ومال عليها، يطلب منها أن تخبره بما تريد، همست بصوت يخيم عليه ظل الموت:

- "أوهبني ابن سيدك عبد المحسن".

أمسك جبهته يلوم غباءه، كيف فاته الأمر؟ ولكن كيف يمكن أن يستعيد من حبل المشنقة ضابطا تهمته رفع راية العصيان المسلح، والمشاركة في مؤامرة لاغتيال أمير البلاد، بيد أنه لم يكن لديه النية على محاجاتها، عزم أمره، وقال "أمرك مجاب يا نينا".

أشرق وجهها العتيق بابتسامة باهتة، مدت يدها أسفل حشيتها، وأخرجت لفافة أوراق قديمة، تضم حجة الأرض ووصية بدفنها بجوار أمها،

10) النشع: مستنقعات تظهر مع قدوم فيضان النيل في المناطق الواطئة بالدلتا.

ألقت في يده قطعة من المسكرات كانت تحملها له دوما أثناء طفولته، أوشك أن ينفجر في الضحك، وبدلا من هذا انهمر في عويل طويل.

رحلت في شهقة معذبة، قبل جبينها فوجد جسد طفلة صغيرة، دثرها في معطفه السمور فاختفت داخله، همس "ليس أقل من عطية السلطان".

نادى على العمدة، فجاء متجهما يحبس دموعه، حملها إلى خارج القاعة، سار ينكفئ في أجساد الجالسين، وخلفه وجهاء القرية وأعيانها، عندما ظهر على باب الدار انفجر العويل في سماء القرية الصغيرة.

* * * *

-2-

ألقى قائد الحرسجية لسجن القلعة إلى المساجين باليمك [11] العفن، فتقاتل عليها رجال تاهت ملامحهم من قسوة الجوع، ابتعد الحسيني عبد الغفار عازفا عن الطعام، منشغلا بأخبار تناقلها المساجين عن استقالة رياض باشا من منصبه اعتراضا على تخفيف الأحكام على قادة التمرد، واستبدالها بالنفي، وقيام الأميرة والدة الخديوي، يساندها الضباط الشراكسة بضغوط هائلة لخوزقة الخونة في ميادين عامة، لتلقين أولاد الفلاحين درسا، يمتنع عليهم بعده أن يرفعوا رؤوسهم فوق حذاء الخديوي، ورغم ذلك جثمت جثة نافقة برائحتها على الأنفاس، تقول إن قادة الثورة رفعوا التماسا يلتمسون شفاعة ملكة بريطانيا العظمى.

قاوم رغبة في القيء، تحامل على نفسه وزحف على أرضية السجن الباردة، ليتكوم بجوار الحائط الحجري، غط في نوم كئيب، من كوة الزنزانة أنار ضوء ذاكرة الماضي؛ صفير القطار الخديوي، يتهادى إلى داخل محطة مصر، حاملا الخديوي توفيق في حراسة جيش الاحتلال.

... قبل ذاك الصباح الأسود طلب منه شريف باشا[12] ناظر النظار أن يرحل إلى العاصمة على وجه السرعة، كي تنقل رسالة شفوية إلى قادة

---

11) يمك: اسم يطلق على الطعام المقدم للمساجين في السجون.

12) محمد شريف باشا: ولد عام 1826، التحق بالمدرسة الحربية، والتحق بمدرسة سان سير saint syr لدراسة الفنون الحربية في باريس، وبلغ رتبة فريق، تولى وزارة الخارجية عام 1857م في عهد الوالي سعيد باشا، وتولى مناصب سياسية متعددة، وتولى عام 1868 رئاسة المجلس المخصوص في عهد الخديوي إسماعيل. لم يشارك في مساوئ القروض، وكان موقفه من التدخل الأجنبي مشرفا، تولى رئاسة الوزارة عدة مرات، ناهض التدخل الأجنبي، والحكم الاستبدادي، ومن دعاة إنشاء مجلس نواب وحياة ديمقراطية لدولة حديثة، وهو صاحب أول دستور مصري قدم مسودته للمجلس النيابي المنتخب، وأقره المجلس النيابي في يناير 1882، كان من زعماء الثورة العرابية، عارض مطامع بريطانيا في سلخ السودان عن مصر، توفي سنة 1887م، (عن عبد الرحمن الرافعي عصر إسماعيل الجزء الثاني صفحة {228-242} الناشر دار المعارف الطبعة الرابعة).

الثـورة، يناشـدهم عـدم التسـليم، وضـرورة المقاومـة، والصـعود بقـواتهم إلى الصـعيد والسـودان إذا لـزم الأمـر، وسـيعمل كـل جهـده لمـدهم بـالجنود والميرة[13]، عنـدما رآه يقـف مكـبلا بالدهشـة، اسـتدار عائـدا إلى مكتبـه، وهـو يترنـح ليكتـب رسـالة لم تصـل لأحـد، ولم يطلـع عليهـا سـواه، وبعـد أن ألقـى بريشـته في محبرتـه المذهبـة، طلـب منـه قـراءة الرسـالة قبـل أن يضـعها في مغلفها حتى يتبين خطورتها.

"إن الوطن الذي كان على وشك أن يملك دستوره للمرة الأولى في تاريخ البلاد، وأن يكون له مجلس نيابي منتخب، أضاعهما إصرار القوى الغربية على إجهاض ميلاد أمة عريقة، لهو في أمس الحاجة إلى فضيلة الحكمة والشجاعة، فإن كنتم قد خسرتم معركة التل الكبير، واحتل العدو القاهرة، فمن الواجب أن تسلكوا في مواجهة الغزاة أساليب الحرب المعهودة في وادي النيل، فكل الذين خسروا معاركهم ضد الغزاة، صعدوا إلى الصعيد الأعلى، تاركين المقاومة للشعب، حتى استجمعوا قوتهم؛ هكذا هزم الأميران مراد بك وإبراهيم بك حسن باشا القبودان، وزير السلطان عبد الحميد الثاني وهو في أوج مجده، وهذا ما حدث مع عسكر بونابرته، ومحمد على باشا الكبير أثناء حملة الجنرال فريزر عام 1807.

هذا هو التاريخ العسكري إن كنتم لم تقرأوه فاتبعوه، ولتعلموا أن الثورات لا تموت أبدا، حتى ولو نزعت نصال المقاصل رءوس قادتها، ولكنهم القادة إذا وهنت عزيمتهم وانهارت إرادتهم، وفضلوا مصالحهم، وجبنوا عن حماية الشرف الوطني".

---

13) مـيرة : مصـطلح عسـكري تسـتخدمه الجيـوش العربيـة الإسـلامية، طعـام يـدخره الجنـود أثناء الحرب.

مهرها بخاتمه وأعطاها له، وطلب منه الرحيل **على وجه السرعة**، وهو يحذره **بالا يخاطر بوقوعها في يد أحد.**

ترحل غير قادر على النطق مخلّفا الإسكندرية مكللة بالحداد، وأمواج بحرها تهدهد صخورها المكلومة بأحيائها المحترقة، وبيوتها التي هدمها القصف المدفعي للبحرية البريطانية، تسأل الأسباب التي جعلت الأميرال سيمور [14]، يتوارى خلف حجج واهية كي يحرق المدينة، ويدك أبنيتها فوق رؤوس أبنائها، وسط ابتهاج وتهليل الخونة.

تبلغ العاصمة في الرابعة صباحا، يحدوك الأمل أن تلهب الهمم، وتوقد العزائم، وعقلك يصنع الخطط لمغادرة القوات المصرية المحتشدة في قشلاقات[15] العباسية إلى الصعيد الأعلى، على ظهور السفن التي سيقدمها البحارة عن طيب خاطر لإنقاذ الجيش الوطني.

يداهمك العار والخزي، تغيب روحك في غياهب اليأس، وتحاصرك الحيرة، انتهى كل شيء، واستسلم قادة الثورة إلى الجنرال (دورى لي)[16] قائد الخيالة البريطانية، لا تعرف ما يتعين عمله، وضباط ثكنات العباسية يخبرونك وهم يسرعون بمغادرة قشلاقات العباسية؛ أن الخديوي الذي باع نفسه للأجانب أصدر مرسوما بإلغاء الجيش في 19 سبتمبر سنة 1882، وتجريد جميع الضباط الذين شاركوا في العصيان من رتبهم وأملاكهم، وحرمانهم من حقوقهم المالية، لتبقى الدولة المصرية بلا جيش، فماذا تفعل؟ ولماذا أنت هنا؟

تسألهم عن مكان يأويك، يشيرون عليك بالعودة إلى قريتك، أو الصعود إلى ثكنات المقطم التي أقيمت على عجل ضمن تحصينات الدفاع عن القاهرة، ولم تحتلها القوات البريطانية بعد، تشق صحراء العباسية تحيط بك الكآبة، وهناك يستقبلك الضباط الراحلين بتعجب من ضابط

---

14) أميرال سيمور: السير بوشان سيمور قائد الأسطول البريطاني في بوغاز الإسكندرية، ضرب الإسكندرية في 11 يوليو 1882. (عبد الرحمن الرافعي الثورة العرابية صفحة 296 الناشر دار المعارف الطبعة الرابعة 1983).

15) قشلاق: كلمة تركية ومعناها (مسكن العسكر، ثكنة الجيش، منزل العساكر)

16) جنرال دورى لي: Drury Lowe قائد فرقة الفرسان بالجيش البريطاني في موقعة التل الكبير واحتلال القاهرة. (عبد الرحمن الرافعي، الثورة العرابية، صفحة 398، الناشر دار المعارف، الطبعة الرابعة 1983.

يدخل على جواده بوابة المعسكر حين ينبغي الرحيل. لا تجد إجابة سوى القول إن لديك مهمة أخيرة يجبرك واجبك على القيام بها.

يتفهمون، ويلقون أوامرهم للجنود بألا يتركوا الثكنة إلا بعد أن يجهزوا لك الطعام، ومأوى للنوم، ويقدمون لجوادك المتعب مدود تفيض بالعلف، ويودعونك عائدين إلى قراهم وقد خلعوا عنهم الميرى.

* * * *

تتمدد وحيدا حيث السماء قريبة، بانتظار قدوم شريف باشا من الإسكندرية، كي تخبره بالإجابات المفجعة. يتلوى النيل أمامك موشج بالغموض، تسأل نفسك هل انتهيت من أخر المهام المستحيلة التي أوكلت إليك؟ تلاشى الجيش الذي بناه محمد على باشا، وأتاح سعيد باشا [17] لأبناء الفلاحين الترقي في صفوفه لرتب كبار الضباط، بعد أن كان حكرا على أغراب الأرض من أتراك وشراكسة وألبان وأرناؤوط، فلم يمض عقدين حتى قاموا بثورة، الآن أصبحت البلاد تحت أقدام الإمبراطورية البريطانية.

---

17) محمد سعيد باشا: هو ابن محمد علي باشا، ولد سنة 1822م تولى الحكم في الفترة بين 1854م حتى 1863م، كان يحب المصريين ويكره الأتراك والشراكسة, ويميل للأوربيين، ومن إنجازاته: تخفض الضرائب على الأرض الزراعية، وإسقاط المتأخرات على الفلاحين، قام بتطهير ترعة المحمودية وإتمام الخط الحديدي بين القاهرة والإسكندرية. كما مد الخط الحديدي بين القاهرة والسويس وفتحه للمواصلات سنة 1858، اهتم بالملاحة التجارية الداخلية والخارجية فأنشأ شركتين للملاحة إحداهما نيلية (1854) والأخرى بحرية (1857).
من أهم إنجازاته التي غيرت وجه مصر، هو إصداره اللائحة السعيدية" في 5 أغسطس سنة 1858، التي منحت الفلاحين حق تملك الأرض، والسماح للمصريين الترقي في سلك الضباط في الجيش. وفي المجال الاجتماعي والثقافي أصدر لائحة المعاشات للموظفين المتقاعدين وأصلح مجلس الأحكام، والقضاء الشرعي. ومنع نقل الآثار المصرية إلى الخارج التي كانت نهباً لتجار الآثار والمغامرين.
أهم إصلاحاته الحربية تقصير مدة الخدمة العسكرية لجميع الشبان على اختلاف طبقاتهم، وعنى بظروف معاملة الجنود وتحسين الغذاء والمسكن والملبس ، وكان ميالا إلى ترقية الضباط المصريين.
خاضت مصر في عهد سعيد باشا حربين، الأولى حرب القرم التي استمرت بعد وفاة عباس باشا وأرسل سعيد باشا نجده إلى الجيش المصري واستطاعت تركيا وحلفاؤها بفضل بسالة الجيش المصري التفوق على الروس وإبرام الصلح بينهما سنة 1856م في مؤتمر باريس..

تحمل الرياح آذان الفجر من جامع السلطان حسن، تصلى ركعتين لله، تسأله أن يزيح عنك غمة ثقيلة، تحمل خرائطك التي ستوضح عليها سير المعارك في الجبهة الشرقية، وأسباب هزيمة الجيش، على باب الثكنة ترى الأرجوان يسبق الشمس قبل صعودها من جوف الشرق البعيد.

طرق جوادك الأرض بحوافره وقد شق عليه ثقل ما يحمله، تربت على عنقه، تطالبه برحلة أخيرة، يكب السير على الطريق الهابط إلى القاهرة الفاطمية، وأمامكما يبزغ نور الصباح من وسط الضباب، يكشف عن أعلام ورايات وبيارق الزينات تخفق على قلعة الجبل.

تخترق الدرب الواقع بين مسجدي الرفاعي والسلطان حسن، إلى شارع محمد على، تبلغ ميدان باب الخلق، كان مزدحما تصدح أرجاؤه بالموسيقى العسكرية، تنتشر فيه خيالة الشركس والحرسجية ورجال الخفر شاكي السلاح، يفتشون بين العابرين عن ضباط العصيان، يداهمك القلق، فسلطان باشا[18] رئيس مجلس النواب المنحل، الذي كان يقود مقاومة الاحتلال بالأمس، أصبح اليوم قائدا لقوات ضمت خليطا من البدو وسرايا الجيش النظامي الموالية للخديوي، واندفع يفتش العاصمة وأرجاء البلاد للقبض على كل من شاركوا في الثورة، بمن فيهم أصدقاؤه القدامى، توطئة لقدوم الخديوي من الإسكندرية في حماية جيش الاحتلال، الآن تشعر بفرط حماقتك.

توقف عن لوم نفسك، ثمة واجب يحتمه عليك ولاؤك لشريف باشا الذي وضعك تحت رعايته، وأنت تخطو خطواتك الأولى في مدرسة العباسية الحربية، تقاتل باشجاويشية الأرناؤوط [19] وهم يحاولون نزع كنيتك، لتتلاشى جذورك، وتتحول لمجرد عبد لقيط في جيش مولانا الوالي.

---

18) محمد سلطان باشا: ولد عام 1825، انضم إلى الثورة العرابية طمعا في الجاه، ولما انتصرت الثورة أسندت إليه رئاسة مجلس النواب، ثم انقلب عليها وانضم إلى الخديوي، واتصل بالإنجليز واتخذوه أداة لرشوة القبائل البدوية وإفساد طائفة العمد والأعيان، وكان له أثر بالغ في الهزائم التي حاقت بالثورة، وفي تثبيت الاحتلال وأطلقت يده في القبض على أنصار الثورة وظهر بمظهر الجبروت والطغيان، أنعم عليه الإنجليز بوسام سان جورج وسان ميشيل جزاء إخلاصه لهم، وأنعم عليه بلقب سير. (عبد الرحمن الرافعي الثورة العرابية صفحة {476-477} الناشر دار المعارف الطبعة الرابعة 1983).

19) الأرناؤوط: كلمة تركية تطلق على سكان ألبانيا الواقعة في بلاد البلقان، الواقعة على بحر الأدرياتيك شمال اليونان. مع الفتح العثماني للبلاد العربية هاجر الكثير من أبناء هذه القومية واستوطنوا في سوريا ولبنان والعراق والأردن ومصر وتونس والجزائر، ولايزالون=

صيحة جأر بها قائد الخيالة اندفع على أثرها الفرسان باتجاه فم الخليج، يطاردون عددا من طلاب الأزهر، تجمعوا لمناهضة الخديوي الخائن، عندما تواروا فتح الطريق أمامك لعبور الميدان، تتقدم باتجاه باب الشعرية.

غصَّ شارع عباس الأول بحشود القادمين من كل حدب وصوب يرتدون أزهي ملابسهم، وأصحاب المحلات يوزعون الحلوى والشربات، وأمام ساحة محطة السكك الحديدية تجمع كبار موظفي الدولة، والأعيان والتجار، تتساءل كيف تغيرت طبائع الناس بمثل هذه السرعة؟

من يملك الإجابة؟ تعبر ميدان باب الحديد مذهولا وسط قرع الطبول وحمى الزغاريد والأفراح، مشوشا بدماء الفلاحين التي سالت على رمال التل الكبير، جثثهم الملقاة في العراء، تنهشها مخالب العقبان وأنياب الضباع، يا الله رحمتك، كيف نفهم مشيئتك؟!

على السلالم الرخامية المؤدية للمحطة وقف كبار ضباط الجيش من الشراكسة يتيهون زهوا، يهمس في أذنك أفندي شاب ويبتعد مسرعا "ألم تعلم أن مرسوما صدر بحل الجيش!".

تتوارى عن الأنظار، وتتسلل إلى داخل المحطة، فات وقت التراجع.

شقت صفارات قطار الخديوي وضجيج عجلاته فضاء المحطة، تجمع المستقبلون في صفوف، يتقدمهم الجنرال (ولسلي)[20] قائد جيش الاحتلال البريطاني، وبجواره الدوق "أوف كنوت" [21]، سلطان باشا ورياض باشا، والسير إدوارد مالت المعتمد البريطاني. تهادى القطار المزين بالأعلام ولفظ أنفاس مرجله الضخم، عزفت الموسيقى العسكرية مارش الغازي عثمان

= يحتفظون بلقبهم الأرناؤوط، في سوريا ولبنان والعراق والأردن ومصر وتونس والجزائر، ولايزالون يحتفظون بلقبهم الأرناؤوط.

20) جنرال سير جارنت ولسلى: **Sir Jarnet Wolsely** القائد العام لحملة الجيش البريطاني على مصر وصل الإسكندرية **15** أغسطس **1882**، لم يكن مشهودا له بالكفاءة و لا ممن امتازوا بالنبوغ في معارك سابقة، بعد هزيمة العرابين واحتلال القاهرة انهالت عليه الألقاب فنال لقب لورد، ولسلى أوف كايرو، تولى في **1884** قيادة الحملة على قوات المهدى في دنقلة، وهزم، وتولى **1903** قيادة الجيش البريطاني في حرب البوير وباء بالهزيمة، (عبد الرحمن الرافعي ـ الثورة العرابية صفحة **0 371** الناشر دار المعارف الطبعة الرابعة).

21) الدوق أوف كنوت : نجل الملكة فيكتوريا وقائد الألاى الأول (آلا الحرس) – (عبد الرحمن الرافعي ـ الثورة العرابية صفحة { **366**} الناشر دار المعارف الطبعة الرابعة **1983**).

باشا[22]، تكاد تضحك، فالثناء على الخديوي لا يختلف كثيرا عن الثناء على عثمان باشا، كلاهما هزم، وإن كان الأول قاتل في ميادين الحرب من أجل الإمبراطورية العثمانية، فإن الثاني قاتل ضد وطنه داخل قاعات قصوره، وحرم الفلاحين أن يعبروا إلى المستقبل.

نزل الخديوي وأطلقت المدافع إحدى وعشرين طلقة تحية لقدومه، وتقدم المستقبلون يتلقونه بالتهاني، كان وجهه مصفرا يشوبه الامتقاع، وخلفه ظهر شريف باشا رئيس الوزراء، تاه شيخ الأزهر بين المستقبلين، كانوا يدفعونه إلى الخلف، دفعه الشيخ العباسي إمام مشيخة الأزهر السابق والقادم، بكوعه إلى الوراء، وهو يصيح بالدعاء والثناء على مولانا الخديوي المعظم، ويستمطر الحماية الإلهية على جنوده من الملائكة وفرسان الملكة المعظمة، ردد الحاضرون الدعاء بحماس، وكل منهم يحاول أن يرى الخديوي التائه بين جنرالات الإمبراطورية.

شاعت أصداء مدافع من القلعة ترحيب بعودة الخديوي من الثغر منتصرا، لا تفهم كيف تصبح المحروسة كالحرباء، تستبدل روح الحرية، بجلد الخيانة، ها هم الذين أصدروا عرائض مناصرة الثورة، وطالبوا بالجهاد، ووقعوا فتوى خلع الخديوي بتهمة الخيانة، والخروج عن الشريعة، يتدافعون لاستقبال السلاطين الجدد.

قبضة حديدية تجذبك باتجاه مكتب ناظر المحطة، لتجد نفسك في مواجهة شريف باشا، يهرب الدم من وجهك، وأنت تعيد إليه رسالته التي حملك إياها منذ أيام قليلة دون أن تفض، لتلقى إليه بالحقيقة المفجعة، لقد سلم عرابي باشا نفسه إلى قائد لواء الفرسان جنرال "دورى لي". تعجز قدما الباشا عن حمله، يهمس: قالوا ومصدقتش، قبضوا عليه أزاي؟ إيه اللي حصل، هو البارودي[23] فين؟ في الصعيد؟

- محمود باشا البارودي نصح عرابي بإخلاء القاهرة، وإغراق القليوبية والشرقية بالنيل، لتعطيل الإنجليز، ومصادرة جميع المراكب، وشحنها

---

22) الغازي عثمان باشا: قائد القوات العثمانية في حصار مدينة (يلفنة - **Pleven**) تقع إلى الشمال الشرقي من صوفيا عاصمة بلغاريا قرب الحدود الرومانية، (محمد فريد بك المحامي - تاريخ الدولة العلية صفحة **629** . الناشر دار النفائس - الطبعة الأولى **1881**).

23) محمود سامى باشا البارودي: أحد كبار قادة الثورة العرابية، ورئيس وزراء الحكومة التي أقرت أول دستور مصري يناير **1882**، وهو شاعر من شعراء النهضة.

بالذخيرة، والانسحاب إلى الصعيد، لكن عرابي رجع منزله، وارتدى ملابس التشريفة، وأمام ثكنات العباسية طلب الإذن بالدخول، وسلم نفسه وسيفه إلى الجنرال دورى.

- يحتمى في معطف الملكة! فاكر نفسه مين؟ نابليون بونابرت؟!

- أسير حرب.

- أسير حرب! أما فلاح صحيح، لا كان له في الحرب ولا في السياسة.

غشاه دوار، همس: "كنا قد شرعنا في بناء أمة، ولم يعد لدينا سوى قطيع من الأنعام، يرأسها خروف يغثو في زريبة للذئاب.

دفع الياور بكرسي قريب نحوه، اتكأ عليه يتقى السقوط، كان ينظر إليك بسخط، وعيناه تلتمعان بدموع تنظران جدران محطة القطار الشامخة، همس: كنت فاكر أنها ستكون مفخرة يتباهى بها المصريون، ليه رفض الحزب العسكري قبول تعديل الخديوي على الدستور، ضاع كل شيء. تطلع إليك مستفسرا عن بقية الجيش، وأين ذهب القادة.

- "أودعهم سلطان باشا السجون والمعتقلات، واللي مسلمش نفسه قبض عليه من منزله، ومن تمكن من الهرب قام أعوانه بالإرشاد إليه، دلوقت سلطان باشا هو صاحب الحول والطول في العاصمة".

قبل أن تخرج خرائطك ترى مركبة الخديوي تتحرك للأمام وسط أعلام الفيالق البريطانية، مال الياور على الباشا ينبهه إلى ضرورة الرحيل حتى لا يلاحظ غيابه، قام متثاقلا يلملم جسده بصعوبة، تقدم عائدا نحو الموكب وعشرات المستقبلين يفتحون الطريق لفخامته.

وسط دوى المدافع شق موكب الخديوي الطرقات في حراسة خمسة آلاف جندي بريطاني اصطفوا على جانبي الطريق، تسلل اليوزباشي من بوابة المحطة الجانبية، يود لو يستطيع التخلص من بزته العسكرية، من جلده، هو الهرب أو الموت برصاصة غير متوفرة الآن.

ذاك اليوم المشئوم أطبقت عليك صيحات الخيالة الشراكسة كما تطبق الفخاخ على الطرائد، اندفع أحدهم نحوك على جواده بمهارة فرسان الأناضول ممزقا سترتك العسكرية، رفع طربوشك على ذؤابة سيفه، ارتفعت قهقهات زملائه الفرسان، يستمتعون بمطاردة يؤججها غليل الثأر،

تنساب خيوط الدم على وجهك، يبلل طعمها شفتيك الجافتين، يتقدم الثاني في هجوم كاسح قبل أن يتوقف بغتة ليصعد جواده عاليا في الفضاء، ويهبط بقائميه الأماميين على صدرك، تسقط على الأرض، ترى صفحة السماء في زمن الظهيرة، وحولك تشع وجوه بالكراهية والاحتقار.

انقضوا بخيولهم، وسياطهم، وهم يسخرون بصخب، تسمعهم:

- فلاح نفر وبس، يستحيل يكون ضابط.
- فلاح يأكل روث بهائم.
- فلاح يخدم عبد في بيوت الأكابر.
- فلاح خنزير مرسيس، يحارب أسياده!
- (فتة) وانتهت.
- لعنة الله عليكم، تقاتلون جيوش إمبراطوريات، وأنتم خنازير، كلاب يعضون يد أسيادهم.

حولوا جسده هدفا لحوافر جيادهم، تطارده لكنتهم التركية التي كرهها منذ اللحظة التي طرقت مسامعه في طوابير المدرسة العسكرية.

على الطرف الغربي للميدان، وقف عدد من جنود الإمبراطورية يشهدون خيالة الشركس تمرّغ ضابط مصري شاب في الوحل، مشهد لا يعنيهم، وقد انتهت حملة الغزو إلى نزهة على ضفاف النيل الأزلي، والأهرام أعجوبة الدنيا، وقد دكت البحرية الأعظم بلاد تنبع من سحر التاريخ، الآن صار وادي النيل قطعة في متحف بريطانيا العظمى، "عاشت الملكة، وأطال الله عمرها، وليغمرها الرب ببركته، وتعلو كلمته في الأعالي".

نهض متحاملا على الألم، يرى خرائطه يتداولونها بغضب، وهم ينظرون الاستحكامات العسكرية للجيش المصري، رفع أحدهم الخرائط العسكرية واتهمه بالخيانة، ليتحول مصيره إلى جحيم مجلل بالعار، وضعوا أصابعه على أحجار الأرصفة، وسحقوها بكعوبهم، وفي قلب الميدان شيدوا مشنقة.

هدرت عظاءة تشاهد التاريخ، بلكنة اسكتلندية قادمة من أرخبيل (شتلاند)[24] يأمر خيالة الشراكسة بالتوقف.

---

24) شتلاند: **Shetland** أرخبيل جزر تقع في بحر النرويج وهي جزء من إسكتلندا

لم ينتبهوا للصوت الآمر لميجور ستيوارت هيجنز قائد سرية الحرس، وربما لم يفهموه، لكن طلقة من غدارته حطت على ميدان باب الحديد بخيمة من الصمت البارد، كانت أوامره تقضي على الفرسان الشراكسة بتسليم خرائط الضابط المصري، هذه إهانة أخرى، وبعد مداولات طويلة امتثل قائد خيالة الشركس لنصيحة رفاقه بالتراجع، فقدم عن طيب خاطر خرائط اليوزباشي لجيش الاحتلال، وعادوا يستكملون طقوس الإعدام.

صوب الحرس الاسكتلندي بنادقه نحوهم، هرشوا رؤوسهم تحت تهديد لا يحتمل اختباره، يتذوقون المهانة في حيرة، كبحوا عواصف غضب صحرائهم التترية، وهم يتذوقون قسوة الاختيار المر بين الخضوع عنوة أو الخنوع بكياسة لجبال الجليد وقوة البحر.

نكس الشركس رؤوسهم، لينتهي المشهد على انسحاب مكلل بالعار، وخرائط عسكرية للاسكتلنديين، والسجن لأولاد الفلاحين، وأمر بحمل الضابط إلى المستشفى العسكري البريطاني، كي يعيدوا صحته التامة، قبل أن يقدم إلى المحاكمة، مرحى بالعدالة البريطانية.

*   *   *   *

"العدالة البريطانية" حلم ناعم ظل يساوره، وهو داخل قفص من الجبائر، وجسده الفتي يلتئم بفضل الإرادة الحديدية للراهبات الايرلنديات الكاثوليكيات، اللائي وضعن رعايته نصب أعينهن، وعلقن على سريره أيقونة القديسة الشافية استير الدينارية، وابتهلن إلى السيدة العذراء بشفاء مريض شاع عنه؛ أنه الضابط الذي كان ينوى اغتيال ابن الملكة البروتستانتية.

تطاردك كوابيسك بظلال مواقد حجرية تتناثر في المستنقعات، تحت سماء معتمة، وقطعان ذئاب جائعة، وقِرَبْ [25] لماعز مقطوعة الرأس، تطارد الفلاحين العائدين لدورهم، وجنيات ترقص حول شجرة جُمَّيز عملاقة، تسكن زواياها غيلان وشياطين، وتبرق على أطرافها عيون عصافير جنة.

---

25) قِرَبْ: جمع قربة، تصنع من جلد الماعز بعد سلخها، وتستخدم قديما في الريف في صناعة الألبان، وفي المدن في السقاية

تحملـك إلى ضـريح سـيدي إبـراهيم الدسـوقي، يتمنـى عليـه أن يحملـك إلى حيث السـماوات العـلا، ليغتابـك شـبح يمتطـى جـوادا حديـديا، يـنفس مـن منخاريـه حلقـات دخـان، يتقـدم بـك داخـل أكمـات كثيفـة مـن مسـتنقعات البردي، تتخللها صليات من ألسنة النيران.

تفيـق مـن حمـى اللـهاث، وسـط بحـيرة مـن عـرق غزيـر، تسـتجمع شـتات أفكارك، بحثا عن صفاء يمكنك من فهم المصير الغامض الذي ينتظرك.

في صـباح أحـد الأيـام البـاردة مـن شـهر ديسـمبر تلمـح إحـدى الراهبـات موميـاء بيضـاء مـن عكـاكيز وضـمادات قطنيـة لشـبح يجـوب العنـبر، خرجـت تعـدو تـدعو رفيقاتهـا، اجـتمعن حولـه وهـن يـوشمن صـدورهن بالصـليب، ويتمـتمن الـدعاء للسـيدة العـذراء، وسـيدة الشـفاء اسـتير الدينارية، مبتهجات بعودة الروح لمريضهن.

تعـبر لهـن عـن عرفانـك، ويجعلـن منـك سـرهن الشـيق، يـزلن الجبـائر واحـدة بعـد أخـرى، وكـأنهن يسـرعن بـك لمصيرك المحتـوم، فقـد صـدرت أوامـر القيـادة بنقلك إلى سجن القلعة للمحاكمة بتهمة الخيانة وعصيان أمير البلاد.

*   *   *   *



طالب في مدرسة أركان حرب

-3-

قلعة الجبل؛ أسوارها الشاهقة وقبابها المتوجة بالمآذن، جامعها الذي شيده محمد على باشا، إيوانات وعروش مهجورة، يصعد البعض من أقبيتها المظلمة لسدة الحكم، ليسقط آخرون من عروشهم إلى زنازينها المعتمة.

يتعثر البك وهو يهبط سلالمها الحجرية في طابور من الجرذان، تقوده إلى نفق من الظلمة، تفتح المزاليج تحت تأثير المال، وكتاب ممهور بتوقيع شريف باشا ناظر النظار بالإفراج عن الشاب، وإعادة رتبته العسكرية بعد تخفيضها لرتبة ملازم أول، مع عقاب بالنفي إلى السودان.

في مَحْبَس موشح بظلال العالم السفلى ووجوه تالفة صرخ قائد الحرس وهو يدفع مشعله في وجوه الأحياء الموتى ينادى اسمه:

- الحسيني عبد الغفار بن مزارع، إفراج بأمر معالي شريف باشا ناظر النظار.

في قبو معبق بالنتن، فك قائد الحرسجية الأغلال الصدئة عن قدميه وزنديه، وصعد به دهاليز القلعة، على باب النصر تنفس البك الصعداء، ودفع الجسد المتهالك إلى عربة تنتظره، وأسرع إلى مرفأ القصر العيني، ليستقلا ذهبية حملتهما إلى القلعة السعيدية، الكائنة بثكنات القناطر الخيرية[26].

---

26) ثكنات القناطر الخيرية أو (القلعة السعيدية): أنشأها الخديوي سعيد باشا والى مصر، ليجعل منها معسكر الجيش الرئيسي، ومقرا للمدرسة الحربية، ولمواجهة الهجوم النهري على المحروسة، ونقل بها مدرسة المهندسخانة، ثم قام تحت ضغط الأستانة على تسريح ضباطه، بعد

أودع البكباشي رستم أوجلي قائد ثكنات القناطر الضابط في اسبتاليا الأشلاق، وطلب من طبيب الثكنة أن يعتني به العناية اللازمة، وتركه البك ومعه عجوز لخدمته، قبل أن يرحل شكره الشاب لإنقاذه حياته، ابتسم البك، وقال مرتاح الضمير:

-"الشكر لستك بدرية، اهتم بصحتك، عشان نينا ترضى عنى".

*   *   *   *

ليال مضت، داوم الطبيب على مداواة القروح المنتشرة في جسد الضابط الشاب، الذي داهمته الحمى وغرق في كوابيسه، والعجوز تواليه بعنايتها، تختاله صورة غامضة لأمه التي أخذتها المنية وهو في الرابعة، ليهرب به أبوه من خيام البدو الواقعة على "كوبانية" قناة السويس إلى جدته بدرية، يتركه ويرحل ثانية مختفيا من مطاردة رجال السلطة، يكبر في أحضان المرأة التي لم يعرف سواها، أما، وجدة، وراوية حكايات، وأساطير، وتهتكات هستيرية، لا يكف عن لوم أبيه الذي وضعه بين يدي عجوز جُنت، ولم يعد لديها من العقل إلا قليلا.

يجن عقلك، كيف تعيش في كنف امرأة تستحضر بدعواتها شياطين من الجحيم، وتسافر بوعيها إلى ماض مجهول، تخاطب رجالا ونساء لا تراهم، تذكرها ذئبة كاسرة تقفز من فوق قبة الفرن إلى أحد أركان القاعة الموشاة بضوء شاحب لمشكاة زيتية، تهاجم شيطان رآه بأم عينيه يجلس منزويا يحمل قرونا حمراء، ترجمه بلعنات على العذاب الذي أوقعه بها وبأمها صديقة، والأذى الذي ألحقه بأبوها المنصور أبو حجاج، وابن خالتها عبد المحسن الشقي، الذي قتلته اندفاعاته الخرقاء نحو الحرية.

يتوسل إليها وهو يبكي دموعا من بخار ساخن، أن تتوقف عن إنزال لعناتها به، فهم يضاعفون سنوات عذابه. تجيبه ساخطة " هو أنا في أيدي غيرها أخفف بيها وجعي"، يولول ولولة عفريت يحترق ويتلاشى في اللهب.

أن أتاح لهم الاختيار بين العمل في مطابخه، أو الحصول على وظائف مدنية، وأمر بتكسير السفن الحربية ، وبيع أخشابها خردة.

تصاب بالفزع، وتهرب في الصراخ، عل أحدا يأتي لينقذك من براثنها، لكن أحدا لا يأتي سوى الليل، تأخذك في صدرها المعروق إلى قبة الفرن الدافئ، تمد يدها إليك بالمسكرات، تسرد عليك حكايات تمضيان بها ليالي الشتاء القارص، قرب الفجر تستيقظ على نار دافئة، تبتسم بدرية:

- معلش يا حسيني ده حساب قديم، أصل أنا كان لي أبين وولدين، وح يكون لي من العذاب عيارين، يا رب يا واحد أحد من غير اثنين.

تشرع في غنائها الباكي "عايزة أمشي من الدنيا، تعذبت ما فيه الكفاية، جنة أو جحيم ما يهمش، يتهيأ لي ما فيش غيرها نار وقايدة في صدري، يا رب سامحني وأنا راضية باللي تقسم لي بيه"، "هو الواد ده اللي مخليني عايشه، لولاه كنت مت من زمان واستريحت.

* * * *

تغادر فراشك للمرة الأولى إلى شرفة عنبر الاسبتالية الخارجية المطلة على النهر، تتمدد على دكة خشبية وأمامك بحارة المرفأ منهمكون في تجهيز السفن وصيانتها، تنظر في ذهول إلى السلاسل اللانهائية لصيرورة الأمواج الخمرية، بينما النهر الذي فقد دهشته للعالم لا يتوقف عن الجريان.

تصبح الشرفة مجلسك المفضل، تشاهد بملل السفن الشراعية تتوالى على المرفأ، وعلى سطحها عشرات الفلاحين حفاة عراة إلا من قمصان الكتان، تشرَئِبُّ أنظارهم إلى ضباط أتراك وشراكسة، يدفعونهم من سطح المراكب إلى البر، وحوافر الجياد المهتاجة تبعثرهم في الأنحاء.

تترى وجوه، قادمة من أزمنة قريبة، وأحداث هائلة، وفي لحظة تدرك مثل رؤيا، أنك تسكن بقايا جيش العصيان.

كان يوما سائما، بدا بعرض عسكري للأورطة العسكرية الأولى المشكلة من الفلاحين الذين أعيد استدعاؤهم من جيش العصيان الذي جرى تسريحه، سادت الفوضى، وسرت إشاعات حول نية الخديوي إرسالهم للدفاع عن الدولة العثمانية ضد الموسكوب، إشاعات أخرى سرت بأن العمارة البحرية العثمانية حررت عرابي من براثن الأسطول الإنجليزي، وأنه

عائد للحرب، بعد تدخل السلطان للصلح بينه وبين الخديوي، و هذا ما ينبغي أن يفعله المسلم مع أخيه المسلم ضد أعداء الدين، ما لم يكن معروفا هو قدوم مكاتبات من حكمدار السودان تطلب إرسال تعزيزات عسكرية عاجلة لوقف انتشار الثورة التي قام بها درويش يدعى المهدى سيطر على السودان الغربي، وبدأ يهدد الخرطوم.

لمح جنوده الذين خاضوا معه معركة التل الكبير، يقيء بهم جوف السفن، وفرسان الشراكسة يدهسونهم بسنابك الخيل، وهم يفرقعون بسياطهم، يدفعونهم إلى رصيف المرفأ الضيق، ارتدى زيه العسكري، وسار يجر جسده المتهالك، وقد قرر الخروج في مواجهة خاسرة أخرى.

بدا الطريق الواصل بين شرفة الاستباليا والمرفأ طويلا، تقدم ليقف حائلا بين جنوده، وبين خيالة الشراكسة، نفرت الجياد ودارت تثير الغبار، وهو يحاول التماسك، استدعى أمين بلوك الأورطة ينادى في الجند ويدعوها للانتظام، ليحيل الفوضى الضاربة بين الجنود إلى طابور عسكري لا يمت لطوابير السُخرة بصلة.

حل الصمت محل الجلبة المعتادة، وتحولت وقفة الانتباه إلى جدار صلد واقترب المشهد من روح الثورة، صاح على جنوده بالانصراف، طارت الطواقي والعمائم متبوعة بشيلان حلقت في الفضاء مثل شهب في السماء، التف حوله أصدقاؤه القدامى، يحاول تبين ملامحهم، غشاه الضباب وسقط مغشيا عليه، حملوه إلى مستشفى، وقائد المعسكر يسأل أركانه عن اسم هذا الضابط الشاب، الذي دافع عن شرف وحدته العسكرية، الأمر الذي يستوجب الذبح بالمقاصل الأميرية.

* * * *

بعد أن انهى الشيخ عمر الشلح صلاة الجمعة، أشار إلى ابن أخته الفتي؛ عبد المعز بالبقاء، وسأله إن يستعد للسفر معه إلى القناطر الخيرية، فقد وصلت إشارة إلى العمدة من المديرية، تنبئه بأن نظارة الحربية قبلت انضمامه للجيش المسافر إلى السودان، وسأله الذهاب إلى شيخ البلد، كي يتسلم قرار إلحاقه بالحملة.

كانــت الأم تخلــط دموعهــا بــالخبز الــذي ســيأخذه معــه أصــغر أبنائهــا العشــرة في ســفره الطويــل، والــذى نادتــه باســم أبيــه "أبــو يوســف"، الــذي وافتــه المنية قبل ولادتــه، فنشــأ يتيمــا، كــان قويــا عفيــا، يــنم جســده عــن قــوة هائلــة، حظــى بمحبــة الجميــع، ونــاداه زمــلاءه في المعهــد الأزهــري بطنطــا "أبــو المكــارم"، لأخلاقه الرفيعة، وسجاياه الزاهرة.

وكانــت دعــوة النــاس لــه عقــب ختمتــه للقــران الكــريم بالشــيخ أبــو يوســف، باعثــا لــديها لأن ترجــو خالــه الشــيخ عمــر الشــلح، وتتوســل إليــه، كــي ترســله لدراســة علــوم الــدين في المعهــد الــديني الأحمــدي الأزهــري بطنطــا، ولم يخيــب ظنهــا، فــداوم علــى دراســته، وحصــل علــى الثانويــة الأزهريــة في السادســة عشــر مــن عمــره، وبــدلا مــن التوجــه إلى الأزهــر الشــريف في القــاهرة، قــرر خالــه أن يصــحبه معــه إلى المديريــة الاســتوائية، معلنــا للجميــع أن هــذا في مصلحة ابن أخته، وهو يراه في قرارة نفسه خير من يخدمه في الغربة.

قــام الخــال بعمــل الــلازم، وتوجــه إلى عليــة القــوم طالبــا مــنهم التوســط لــدى أصــحاب الفخامــة مــن المســؤولين لإلحاقــه بالحملــة المتوجهــة إلى خــط الاســتواء، وها هو قد نجح.

في ليلــة رحيلــه عكفــت أمــه، علــى إعــداد الــزوادة الــتي سيســد بهــا رمقــه أثنــاء ســفره، وهــى تعلــم أن ابنهــا الــنهم إلى الطعــام (بشــكل يــثير ســخرية الجميــع)، ســيموت مــن الجــوع، وان طعــام الجــيش لــن يقــيم أوده، بينمــا أخوتــه الــذكور يبــدون ســعادتهم للــتخلص مــن نفقــات دراســته، ومــن معــدة حمــار لا يشبع، وأن خزين الدار سيتخلص من عبء معدته النهمة.

في الصــباح البــاكر غــادر الشــيخان عمــر الشــلح وعبــد المعــز قريتهمــا الواقعــة قــرب طنطــا، حــاملان زوادة مــن الخبــز والقــرص والقــراقيش، والجــبن الحادقــة، وغيــارين مــن الملابــس، وقفطــان، وجبــة مــن ذات الطــوق (الكاكولة)(27)، وطربوش وشال، فبلغا القلعة السعيدية في الظهيرة

*   *   *   *

---

(27) الكاكولة: رداء رجل الدين الأزهري

قبل غروب الشمس وصل قادة القوات المتوجهة إلى السودان، أطلق البروجي نوبة جمع، لاستعراض القوات التي بدت مثل عمال العونة، طلب القادة مهلة لتدريب القوات، وإعادة الضبط والربط للعسكر، قيل إن سردار الجيش المصري سير أفلين وود [28]، المعين حديثا، أعطى تعليماته بسرعة التخلص من هذا التجمهر الخطر، حتى لا تشتعل ثورة من جديد، وأضاف باستخفاف: "لديكم الزمن الكافي في البحر".

قالوا بدهشة: في البحر يا سعادة الفريق!

- على ظهور السفن، على ظهور الجمال، دربوهم أو تخلصوا منهم.

ثلاثة عشر ألف جندي من جيش الثورة المهزومة اصطفوا في ساحة المعسكر، موزعين على خمسة آلايات[29] مصحوبة بطوبجية الصواري، غادروا إلى ميناء السويس، حيث تنتظرهم السفن التي ستقلهم إلى ميناء سواكن الواقع تحت سيطرة الجيش المصري، تاركين وراءهم القوات البريطانية ترتع على أرض الوطن، وشعور يقبض على النفوس بأنهم لن يروا الأرض التي ولدوا على ترابها، وترعرعوا بين حقولها، وكأن حلم الحرية الذي داعب خيالهم يوما، تحول إلى عقاب بالموت.

* * * *

28) أصدر الخديوي محمد توفيق أمرا عاليا في **10 يناير 1883** بتعيين سير (أفلين وود) سردار للجيش المصري ، ورئيس أركان حربه، وأعطاه رتبة فريق، وأنعم عليه بلقب باشا.

29) قاد الألوية المتجه إلى السودان لمقاومة الثورة المهدية أميرلاى سليم بك عونى، أميرلاى سيد بك عبد الرازق، اللواء إبراهيم باشا حيدر، أميرلاى رجب بك صديق، أميرلاى عباس بك وهبي،

أسطورة الاثني عشر



بكباشي أركان حرب

- 4 -

وقف في ردهات نظارة الحربية بانتظار السماح له بالمثول أمام اللواء محمد رءوف باشا [30] قائد المحكمة العسكرية التي أصدرت أحكاما بالإعدام ضد قادة الثورة، وهو يضرب أخماسا في أسداسا فيما إذا كانوا ينوون إعادة محاكمته، عندما سمح له بالدخول، وجده منكبا على قراءة ملفات عسكرية خاصة باثني عشر ضابطا جرى محاكمتهم بتهمة التورط في مؤامرة ضد أمير البلاد، رفع اللواء رأسه، يتأمل الضابط الشاب الذي كان عضوا في بعثة الجيش المصري لمدرسة المشاة الفرنسية، ولم يتجاوز الواحدة والعشرين، قال بتوجس غامض:

- " لما بدأت الثورة كنت في السودان، لما رجعت كانت مصر منقسمة بين حزب يشايع عرابي وحزب يشايع الخديوي، أنت كنت مع أي حزب؟".

- حزب الثورة. نظر إليه مليا، وأضاف:

- " يمكن لو كنت عاصرت بداية الأحداث، كنت اخترت حزب الثورة".

كبح نفسه عن سؤاله؛ ولم حكمت عليهم بالإعدام؟"، لكنه اكتفي بالصمت، أشار الباشا إليه بالجلوس، واستطرد بنبرة باردة أنه تم اختياره لمهمة تتطلب ضابطا كفؤا.

اعتصم بالصمت بانتظار ما سوف يعرفه بعد قليل، أخبره الباشا أنه بناء على توصية عليا صدرت الأوامر بتولي قيادة حملة لإمداد مديرية خط

---

30) محمد رءوف باشا: ولد لأب من صعيد مصر ولأم حبشية الأصل، عمل كقائد برتبة قائمقام للكتائب المصرية التي تشكلت منها في بعثة الخديوي إسماعيل لضم أعالي النيل للحكومة المصرية، بقيادة صمويل بيكر، أقر بيكر لمحمد رءوف قائد القوة العسكرية التي رافقت بيكر للمديرية الاستوائية بهمته ونشاطه و نجاحه. ثم عاد وانتقده بسبب اتصاله بأبو السعود تاجر الرقيق بحكم زمالته له أثناء الدراسة، بناء على تعليمات الحكومة المصرية وضع نفسه في خدمة الجنرال غوردون حاكم السودان ولكن غوردون آثر إبعاده. أصبح حاكم هرر بعد احتلالها في 1875. وحاكما للسودان بعد استقالة غوردون في الفترة من ديسمبر, 1879 وحتى فبراير /نيسان 1882. تولى رئاسة المحكمة العسكرية لقادة الثورة العرابية التي انعقدت في 28 سبتمبر.

الاسـتواء بـالمؤن، والعتـاد العسـكري، وأورطـه مـن الجنـود، وأشـار إلى نقطـة في خريطة لوادي النيل تبعد آلاف الكيلومترات، وقال:

ـ هنا على خط عرض {5^0}، واضح يا أفندي؟

ـ تمام افندم.

ألقى باثني عشر ملفا لضباط محكوم عليهم بالنفي:

ـ ح تاخـد معـاك اتناشـر ضـابط مـن جـيش العصـيان، دلوقـت هـم في إجـازات ليودعوا أهاليهم، وح ينضموا إليك تباعا ومعاهم أسرهم.

ـ تمام افندم.

ـ مهمـة ثانيـة موكلـة إليـك مـن هيئـة أركـان الجـيش المصـري، ونظـارة الـري والأشـغال، بقيـادة بعثـة مـن المسـاحة العسـكرية لاسـتكمال عمليـات رفع قطاعات أعالي النيل الأبيض وقياس تصرفاته حتى المنابع، واضح؟

ـ واضح يا افندم.

يسـتطرد: أي أسـئلة أو استفسـارات ح تلاقـى الإجابـة في هيئـة الأركـان، ح تتحرك بعد عشرة أيام، فيه عندك أي طلبات؟

هز رأسه نفيا، قال اللواء كمن يحدث نفسه:

ـ " مش عاوز تشوف والدك والست والدتك؟".

ـ " أزور قبر جدتي".

هز اللواء رأسه متفهما، وقال وهو يتطلع إليه بشفقة:

ـ "يرحمها الله، متجوز؟".

هز رأسه نفيا، عقب اللواء بجدية:

ـ "مسموح لكل ضابط باستصحاب زوجته، وأطفاله، وخادمين.

همس بحيرة: "وسعادتك وأنا ح أخدم مين؟".

أراد اللـواء أن يقـول: "أنـت في خدمـة الخـديوي"، لكنـه يعلـم أن هـذه العبـارة لـن ترضـى شـابا خـرج لتـوه مـن سـجن القلعـة عقابـا علـى عصـيانه أميرها، ود لو يقول: " أنت تخدم الجيش". تقدم يصافحه:

ـ "حسيني أفندي، شرف الضابط خدمة وطنه".

أمام قـبر جدتـه "بدريـة" قـرأ الفاتحـة والصـمدية، ودعـي لهـا بالرحمـة، ودخـل إلى مقـام الشـيخ العريـان وصـلى ركعـتين، ثـم توجـه إلى القريـة، حيـث لا أب يسـتقبله، ولا أم تلقـاه بـبحيرة مـن دمـوع، جـاء الجميـع للسـلام، والسـؤال عـن

الأحـوال، كـانوا منغمسـين في عـالمهم الكئيـب، دار الحـديث حـول شـئون شـتى، كـان ينتهـي بحـديث ظـاهره مـع العـرابين، وباطنـه ميـل واضـح إلى الخديوي، فالثورة لم تكن من شيمتهم.

فرغـت المنـدرة وأصـبح وحيـدا، وجـاءت عمتـه تعـرض عليـه ابنتهـا هـاجر، الـتي لم تبلـغ التاسـعة، وهـي تؤكـد إن جدتـه بدريـة أوصـت لـه بهـا قبـل موتهـا، رأي طفلـة تقـف في مخاطهـا مرعوبـة، فكـر... لـيس لـديك شـيء هنـا، اقطـع حبـل خلاصـك بعـالم تمضـي عنـه إلى الأبـد، لترحـل في الصـباح البـاكر، تـأتى عمتـك جريـا، تنبهـك أن البنيـّة في حاجـة لوقـت قبـل السـفر، تقـول وأنـت علـى ظهر جوادك:

- "يـا عمـة الأحـوال خطـرة، ووضـع الجـيش مـش مسـتقر، كفايـة أتحمـل مسئولية نفسـي، مش ناقص عَيلة بتضرع".

* * * *

علـى طريـق الكـافور الـذى يمتـد علـى القـوس الجنـوبي لمركـز بلبـيس، ركـض الملازم صـواري محمـد فـوزي السـلحدار، علـى جـواده الأشـهب، باتجـاه الأبعاديـة الـتي وهبهـا محمـد علـى باشـا، لجـده شـوكت باشـا بـن يلمـاز بـك السـلحدار، مكافـأة علـى الخـدمات الجليلـة الـتي قـدمتها أسـرته، مـن بعيـد أطلت مبـاني الإسـطبلات الكـبيرة المشـيدة مـن الحجـر الأجـر، والـتي حـوت أجـود أنـواع الخيـول الـتي أحضـرها أبيـه وأجـداده، أثنـاء مشـاركتهم فـى الحـروب، الـتي دارت علـى امتـداد البحـرين؛ الأحمـر والأبـيض المتوسـط، ومحمـد علـي باشـا ينشئ إمبراطورية من العدم.

صـهل جـواده الـذي كـان رفيقـه في معـارك التـل الكـبير، وهـو يتفـادى التعثـر في الحفـر، وجـذوع الأشـجار، الـتي يسـيره نحوهـا قائـده اللاهـي عنـه في أفكـاره، انتبـه الملازم، وربـت علـى عنـق جـواده باعتـذار، وعـاد يسـأل نفسـه، كيـف سيسـتطيع أن يخـبر زوجتـه الخـاتون (ورد الجنـان)، إنـه قـد صـدر قـرار بإبعاده إلى المديرية الاستوائية، وأن عليه مغادرة القصر خلال أيام.

أمـام بوابـة الإسـطبلات، تقـدم نحـوه سـائس الخيـل العجـوز، وهـى يـنحني، وثـب الفـارس الشـاب مـن علـى ظهـر جـواده، وألقـى إليـه بمقـوده، سـأله بصـوته الأجش، ذي الرنين:

- الفرسة عملت أيه يا عم حسن؟
- ولدت يا سعادة الباشا، وجابت مُهر.
- والله، لك الحلاوة.

ضحك العجوز سعيدا، وقال وهو يفك السرج: ربنا يطول عمرك يا سعادة الباشا، ويزيدك من خيره، كريم زي المرحوم الباشا أبوك، كان كل ما فرس تولد، يقول نفس الكلمة.

- ومين اللي ولدها؟
- سمعان أفندي البيطري، وسيدي الباشا الكبير.
- هو جدي جوه؟
- سعادتك عارف، هو حد يقدر يقرب منها إلا في حضوره، معاه الخاتون الكبيرة، والبيه الصغير. عض الفارس شفته السفلى، وضاقت عينا الصقر النافذتين، اللتان تزينان وجهه الأحمر المدور، غمغم يخفى توتره.. هه وبعدين يا عم حسن.

من باب عنبر الخيول اندفع طفل في الثالثة من عمره، إلى أحضان أبيه وهى يصرخ:

- بابا، بابا، جدى سمى المهر على أسمي. حمله من إبطيه، ورفعه عاليا.
- سماه أيه؟ قال الطفل بغضب: يعني أنت مش عارف أسمي.
- لا مش عارف، وأنا يعنى ح افتكره أزاي.

قال الطفل يناكده: طيب أنا ح أقول لجدى عشان يخاصمك.

انزلق من بين يديه واندفع إلى الداخل، وهو يصيح: بابا جه يا (دده)[31].. بابا جه.

خلع الفارس صدريته، وجلس القرفصاء يمد يد المساعدة لرجل عجوز، تبدو عليه ملامح النبل والسمو، كان عمره يناهز التاسعة والسبعين، توارت تجاعيد وجهه الأصهب فى جلال جذوره، التي تمتد لأكثر من خمسة قرون خلت، تولى أجداده قيادة الرعيل الأول لفيالق الانكشارية، والتي طلب السلطان (أورخان) عثمان من الدرويش حاج (بكتاش)، أن يضفى على الفيلق بركاته، فأخذ يغطي رؤوسهم بقطع من عباءته، وقال له: "إن وجوه الفيلق الذي أنشأته ستكون بيضاء وضيئة، وسواعدهم قوية، وسيوفهم بتارة، وسهامهم حادة، ولن يبرحوا ميدان القتال إلا وقد انعقدت

(31) دده (Dede): جد (والد الأب أو الأم)، باللغة التركية

لهـم ألويـة النصـر"، وهـى نبـوءة تحققـت علـى امتـداد ثـلاث قـرون، قبـل أن تتحـول فيـالق الانكشـارية إلى وبـال وبـلاء، أوقـع كـوارث محققـة علـى الدولة العثمانية، أدت إلى انهيارها فيما بعد.

تمتم الجد وهو عاكف على تنظيف المهر:

- مهر قوى زي أبوه، خلاص مسافر؟
- أيوه يا جدى.
- واختك ألفت؟
- لا طبعا مش ح تسافر، جوزها سالم أفندي رفض أنها تسافر معاه.
- خليها "تيجي" تقعد معانا هي وبنتها.
- أمرك يا باشا.

نـاول شـوكت باشـا المـلازم المهـر الصـغير، فحملـه، نظـرت الأم إلى وليـدها من ركن عيناها، دعي طفله كي يشاركه حمله، وقال:

- يلا نحط مراد الصغير في حضن أمه.

حمـلا المهـر، ووضـعاه أمـام الأم، احتضـنته برأسـها، ولعقـت جسـده المنـدى بلسانها، ولكزته بخطمها فتدحرج بسعادة.

وقـف المـلازم فـوزي أمـام جـده صـاحب القامـة الفارهـة، وتبـادل معـه حـديثا حـول موعـد سـفره القريـب، لمـح زوجتـه (ورد الجنـان) تخـرج مـن كابينـة خيـل تقـع في مـؤخرة العنـبر، وخلفهـا فرسـتها جلنـار، حيتـه بمـودة، وقالـت أنهـا سـوف تتريض في مضمار الخيل، وتلحق به على الإفطار.

تابعهـا حـائرا إذا كـان يـتعين عليـه أن يخبرهـا أم ينتظـر، قبـل أن تغـادر باب العنبر، نادها قائلا: أنا مسافر بعد ثلاث أيام.

التفت إليه وقالت وهى تبتسم: تروح وترجع بالسلامة.

- ح أقعد حوالى سنة، سنتين الله أعلم.
- ليـة محمـد أفنـدي؟ مسـافر إسـطنبول، خـدني أنـا ومـراد معـاك، أزور بابـا وماما خاتون.

فتح يديه وقال بيأس، وابتسم باعتذار: أنا مش مسافر الشمال.

- أمال فين تسافر محمد أفندي؟
- أعالي النيل، عند اللي بياكلوا البشر.
- ليه محمد أفندي؟

تقدم ناحيتها وهمس: أوامر الجيش بالإبعاد.

- يعنى أيه إبعاد؟

- نفي مستتر. استطرد: تحبى تجي معاي؟ مسموح باصطحاب الزوجات والخدم بسبب طول المدة.

- ومراد بيك الصغير؟

- نسيبه هنا مع جده.

- طبعا أنت زوجي، وأنا أسافر معاك آخر بلاد العجم والمسلمين،

انتفخت أوداجه، وغمرته السعادة، قال يحاول أن يتيح له فرصة التراجع، وهو على يقين أنها لن تفعل:

- خليكم أنتم هنا مع مراد، حرام نسيبه وحده، لسه صغير.

ولدهشته وافقت وقد بدلت رأيها، وكأنها بانتظار سبب تتعلق به، قالت وعيناها ترحلان لبعيد:

- معكم حق، حرام نظلم أبننا الصغير، ممكن أسافر أنا وهو اسطانبول، أشوف (بابا) و(آنا جوهر عدن).

هز رأسه مستسلما، استدارت راحلة، وعندما امتطت فرستها، كانت تشعر بحرية لم تذق طعمها منذ الليلة الأولى لزواجها به، تلك الساعات المريرة التي عانت منها الأمرين وهى يلجها، بدت بعدها الحياة سجن صغير، يضيق كلما جمعهما الفراش، مع الوقت انتقلت إليه مشاعر النفور التي تقبض على أنفاسها، فتحاشى القدوم إلى غرفة نومها، واحترم رغبتها، مبقيا على ما يجمعهما من واجب، وعرف، وتقاليد.

* * * *

وهو في طريقه إلى القصر قطع الطريق عليه خولي الأبعادية، وا نحنى يعفر رأسه في التراب، وهو يرجوه، ويتوسل إليه أن يأخذ أبنه معه:

- خد الواد مسعد معاك يا سعادة الباشا، خده "يونسك".
- اللّه!.. هو أنت لحقت تعرف يا حاج مصطفى.
- هو فيه حاجة تستخبي؟ أمانه عليك خده معاك.
- أنت عاوز تتخلص منه؟
- هو يطول، دا له كبير الشرف.
- لو عاوز يجي مفيش مشكلة، هو "جاله" استدعا من الجيش؟

- تصدق يـا باشـا، بعـد مـا الـواد رجـع مـن الحـرب، وشمـر دراعـه واشـتغل معانـا، قلـت أجـوزه، ويعقـد جـنبي يسـاعدني، ومراتـه تسـاعد أمـه، ملحقنـاش، جالنــا الخفــير يقــول فيــه إشــارة مــن مــأمور بلبــيس للمحــروس بســلامته، (جريينا) للعمدة لقينا استدعاء بالأمر السامي.
- ربنا مش كاتب لك أنه يساعدك يا حاج مصطفي.
- مش كاتب لي يساعدني، خلاص يساعد جنابك يا باشا.

* * * *

علــى مائــدة الفطــور، اقــتحم مســعد بــن رئــيس الأنفــار، وخــولي الأبعاديــة القاعـة مبتهجـا، وهـو يصـيح بصـوت جهـوري: أسـمع يـا باشـا، أنـا مسـتعد أجـي معاك طبعا، ومن كل بد، أنا أفديك بروحي بس لي شرط.
- أنت ح تتأمر علينا يا مسعد؟
- أبدا يا باشـا مـش شـرط يعـني.. أعتـبره رجـاء، اعتـبره فعـل خـير، صـدقة، دا أنا ابن الخولي بتاعك.
- طيب قول عاوز أيه؟
- جوزني يا باشا، عاوز أجوز. أدخل دنيا.
- سهل، من حقك تاخد مراتك معاك.
- ما أنا عارف يا باشا.
- طب لما أنت عارف عاوز أيه، ما تقول وتخلص.
- مش ده الطلب ..
- أمال أيه الطلب؟
- العروسة.
- مالها؟
- جوزني البت مبروكة بنت عم حسن السايس.

اختلج وجهه الملازم، وافتر وجهه عن ابتسامة مبهجة وهو يقول:
- مبروكة مرة واحدة، أنت قد مبروكة يا مسعد.
- هو أنا لوحدي؟ ماهي ح تخدمني أنا وسعادتك.
- لا الموضوع ده يخلصه لك الباشا الكبير.
- برضه نفسك معاه.

لفحته موجة من هجير، أصلته بها زوجته، قال بخيبة أمل:

- بس الوقت مش في صالحك يا واد يا مسعد.
- اللي فيه الخير يا باشا يقدمه ربنا.

* * * *

عقب صلاة العشاء جلس الأئمة الموزعون على البلوكات الستة يعطون درسا حول مكارم الأخلاق والجهاد في الإسلام، وأبطال الفتوحات الإسلامية في فجر الإسلام، وعصور الفتح الأولى في بلاد الفرس والروم، وكان الحديث يعرج على فتوحات الدولة العثمانية وسلاطينها، والدور العظيم لمحمد علي باشا، وابنه البطل الفاتح إبراهيم باشا، وينتهون بالدعاء إلى الخديوي محمد توفيق بطول العمر والصحة.

في أحد الأيام شاهد جنود البلوك الثاني بيادة الشيخ الشاب يقرأ في كتاب قديم غير القرآن الكريم، عندما علموا أنه سيرة فارس اليمن الملك سيف بن ذي يَزن، طلبوا منه بإلحاح أن يقرأ لهم ما حوي من أساطير، ومن أسرار النيل العظيم، قال ووجهه ينبسط :

- يعنى أنت يا نفر أنت وهو عاوزين كده؟
- أيوه يا شيخنا؟
- من كل بد.
- يا سلام... طب وماله.

مد يده إلى الكتاب، وبدلا من حديث صلاة العشاء، أعتلى الدكة وتربع، وضم الجبة على جسده الضخم، وضبط العمامة على رأسه، وقال:

قال الراوي الشيخ عبد المعز أبو المكارم راوي سيرة أبى الأمصار، وسائق النيل من أرض الحبشة إلى هذه الديار، إنه كان في قديم الزمان، وسالف العصر والأوان، ملك بأرض اليمن ذو عزة وتمكين، اسمه الملك ذي يزن، له وزير عاقل يدعى (يثرب، واضح البيان، وفصيح اللسان، قرأ في الكتب القديمة، والتوراة وكتاب عيسي، وصحف الخليل، أسم سيدنا محمد عليه السلام، الذى يظهر الإسلام، ويبطل أديان أهل الكفر والطغيان، فعرف الباطل وتبع الحق،

فكتم إسلامه عن قومه أجمعين، ثم أن الملك ذي يزن أمر بعرض جيشه فكان، أربعمائة ألف فارس قناعس[32]، وأربعمائة ألف عمالقة غَطَارِسُ[33]، وأربعمائة ألف مدرع ولابس، وأربعمائة ألف بالعمد والبلط والفؤوس أسود عوابس، فأخذ الملك الفرح، وأقسم باللات والعزى وحق الأصنام الشوامخ، أن ما من ملك من ملوك الشرق والغرب أعز جاها منه، ولو في أقاصي الأرض جالس.

كانت الضوضاء الناجمة عن قضاء العساكر لحاجيات ساعات الليل التي تسبق التوجه إلى النوم تنتشر في الماعون، رويدا رويدا انتبهت الأسماع، وتوجهت الأفئدة، إلى الصوت الجهوري القوي، الذى تسلل في فضاء الماعون، حاملا أخيلة الحكاية، وتوهمات الأسطورة، حتى بلغ قوله "

أن الوزير يثرب قال إن في الشرق ملكا يدعي (بعلبك)، له قوة وبأس، وعنده عساكر وفرسان أبطال كالأسود الدَّجَّالُ[34]، عددهم بعدد الحصى والرمال، ينبت التبر فى أرضه، ولديه قبة من الذهب، تحتها كنز من سائر الجواهر، وبستان أشجار وفواكه، طيوره تسبح بحمد الله بكل لسان، ولسان العرب فيها غالب، وقصر أسكنه حريمه، يزيح الهموم ويزيل الغموم، وتحيطه البهجة من كل جانب. فلما سمع الملك كلام وزيره، صار الضياء في عينيه ظلام، وقال وحق اللات والعزى، لأسير لهذه الملك وأسقيه الْمَوْتُ الزُّؤامُ[*].

خيم الصمت على الماعون، وسكن الطير على رؤوس العسكر، وأفاض الشيخ الفتى وأسهب، حتى انتصف الليل، فأطلق البروجي النفير، يدعو الجنود للمهاجع.

* * * *

---

30) قناعس: مقنعة

31) غَطارِسُ : جمع غِطرِسٌ جمع غِطرِسٌ ـ مُتَكَبِّرٌ، مُتعَجرِفٌ، مُعْجَبٌ بنَفْسِهِ

32) الدَّجَّالُ : ماءُ الذهب

في القلعة استلم اليوزباشي كساوي القوات المتمركزة في مديرية خط الاستواء من إدارة المهمات، وفي هيئة الأركان تسلم خرائط النيل، ومخطوطة بعثة سليم بك قبودان[35] الاستكشافية إلى منابع النيل الأبيض، في قصر عابدين تسلم الهدايا المرسلة من الخديوي إلى رؤساء قبائل وملوك ممالك خط الاستواء، وقد مهرت بملاحظة "تسلم شخصيا يدا بيد".

في نظارة المالية استلم من أمين بيت المال كشوفات نفقات المديرية الاستوائية، وطالبه بالتوجه إلى الخزانة العامة وتسَلمْ رواتب الجند المتأخرة. طلب تأجيلها ليوم آخر، ألقى البك إليه أذونات الصرف وهو يخبره أن الرواتب استقطعت بصعوبة، وقد تأتى غدا فلا تجدها، لحظتها سيأكل جنود وموظفو المديرية الاستوائية لحمك حيا، وتساءل مبتسما إذا كان يعلم أنهم يأكلون لحم البشر، في نظارة الحقانية أعطاه وكيل الحقانية حقيبة قضائية بالأحكام، وطلب منه تصديقها من فخامة ناظر الحربية.

* * * *

كان الطريق الواصل إلى قصر سلطان باشا مضاء بالمشاعل والزينات، واصطفت عربات علية القوم، وصدحت الحديقة بالموسيقى، في البهو الداخلي حيث وقف سلطان باشا وسط أعيان البلاد يتيه خيلاء في حلة "الفراك" يتدلى على صدره وسام سان جورج الذي أنعمت به عليه الملكة، وقد فاح من حوله رائحة التزلف والنفاق، سمع أحد الموظفين يقترح أن يكون يوم إنعام ملكة إنجلترا عليه بلقب "سير" عيدا للمصريين.

توقفه يد ياور شريف باشا، يسأله بعينين زجاجتين: "رفعة الباشا يريد أن يعرف سبب وجودك، يشرح الأمر، يغيب دقائق، ويعود ليصحبه إلى الإيوان الكبير، يأخذ حافظة الأحكام إلى الباشا الجالس بصحبة الخديوي وعدد من النظار، يقف وحيدا يتساءل "متى يمكن مغادرة المحروسة؟ هذه مدينة لم يعد يربطك بها صلة... في تلك اللحظات الكابية يداهمك آخر شيء تود أن تسمعه؛ صوتها الذي يحمل في ثناياه إيقاع آلة التشللو:

---

35) بكباشي سليم بك قبودان: قاد في عام 1842 أول بعثة استكشافية في العصر الحديث للبحث عن منابع النيل الأبيض، وبلغ غندوكرو، ولم يبق على بلوغ خط الاستواء سوى أربعمائة كيلومتر.

- طيب قول إنك هنا عشان نسلم عليك.

تلتفت لتحيتها، تراها بصحبة ضابط إنجليزي يلف ساعده حول خصرها، ويده الأخرى ترتفع بكأس من الكونياك. يطلب من رفاقه اللحاق بهما إلى الحديقة الخلفية للقصر.

تخف وطأة اللحظة وهي تغادر بالسرعة التي هلت بها، لكنها تعود وتجذبه من ساعده إلى حيث وقف ثلة من الضباط الإنجليز الشبان، تعتمر رؤوسهم بفوضى عقالات ولاسات بدوية، وكل منهم يتعلق في ساعده فتاة من بنات العائلات الأرستقراطية، والجاليات الأوروبية. تقدمه إلى خطيبها تشارلز هاملتون كابتن سلاح الفرسان، تخبره بإنجليزية ركيكة أنك ضابط في جيش عرابي، يزيح عن وجهه طرف "اللاسة"، وينحني نحوه بسخرية:

- "أكيد، التقينا من قبل".

- لا أعتقد.

- سيدي، إذا أردتم أن نلتقي قريبا، دلوني على موقع ثكناتكم، يستدير محدثا رفاقه: "هل لديكم عنوان لثكنات الجيش المصري".

تسري غصة في الحلق، وأنت تستمع إلى ضحكاتهم، وكي لا يزيد شعورك بالحرج يجذب ساعد فتاة يونانية إلى الحلبة ويشاطر الراقصين موسيقى الفالس.

تصبحا وحيدين في ضوضاء، لكنها وللسخرية تخبرك أنه أسلم، وأنه مؤمن بربنا، وقلبه طيب، تلمح وجهها الخمري يتألق بلوحة غامضة من اللامبالاة، تغمغم: "هو قريب العائلة الملكية، الموضوع مشى بسرعة، الباشا وافق، جدي رفض، أعمامي على سنة الباشا". أضافت بدلال، وهي تكابدك: "ح كون زوجة عليها حق الطاعة لزوجها، زي ما أمرنا الدين".

تبتسم بتشفي، وتسألك أين ستذهب؟ تقول" خط الاستواء". تلجمها الدهشة وتهتف: "ياه.. آخر الدنيا"، يشرق وجهها وتهمس بثقة: "ح كلم الباشا يطلب من السردار يبقيك هنا جنبي"، لا تستطيع أن تكبح نفسك عن القول إذا ما كانت ترغب في الإبقاء على سرية احتياطية بعد مغادرة القوات قلعتها.

تتجاهـل إهانتـك، وتضـيف أن لـك في قلبهـا مَعـزّة خاصـة، ح أزوجـك مـن أختي الصغيرة، يتساءل عقلك عن نساء ليس لتهتّكهن حدود، تغمغم:

- "لن يحتفظ قلبك بمكان لمهزوم".

يـدعوك يـاور نـاظر النظـار، حيـث ينتظـرك شـريف باشـا في حجـرة جانبيـة، تقـف أمـام الرجـل الـذي لـن تجـود بـه مصـر لعقـود، والـذي أراد بنـاء مسـتقبل لهـذا الـوطن وفشـل، يسـألك ووجهـه كالصـخرة إذا كنـت تريـد أن يلغـى أوامـر سـفرك، وأعطـف أنـك لـن تجـد مـن يرعـاك. تقبـل يـده في امتنـان، وكأنـك تقبـل كـف أبيـك الـذي لم تـره، وترجـوه ألا يفعـل، يربـت علـى كتفك، وهو يشير إلى ياوره كي يعطيك محفظة الأحكام.

في نهايـة الـرواق تراهـا تجلـس جـواره علـى أريكـة تتصـدر القاعـة، وكأنهـا تنتظـر ظهـورك، وكفهـا ترتـاح علـى فخـذه، يبتسـم الكـابتن بوجهـه الأحمـر وشـعره الأشـقر القصـير، وكأنـه اكتشـف لتـوه سـركما الخفي، يرفـع كأسـه يحييـك وهـو يصـيح: "مـن أجـل الـذاهبين لخـط الاسـتواء"، ويضـيف بوقاحـة:" لا تأخـذك الراحـة هنـاك، فسـوف نطـاردك". تقـف مـذعورة، وتهرع خلفك، تسألك أين تنوى الذهاب في هذه الساعة المتأخرة؟

- محطة السكة الحديد.

تسمع رنة التشللو الغاضبة وهي تهمس بغيرة:

- "بتكدب علي؟ ح تروح تنام عند واحدة تانية".

تحـط براحـة كفهـا علـى صـدرك، تـدعوك بصـوت نـاعس لا يتحمـل الـرفض: "نـام هنـا، ح خلـيهم يفضـوا لـك حجـرة الـزوار"، وأضـافت بصـوتها المبحوح: "هو سكر خلاص، لما يمشى ح اجى لك".

يـا الله علـى نسـائك... تسـتدير راحـلا وتغـادر القصـر سـيرا علـى الأقـدام، تأخـذك النسـائم إلى حيـث تهـب بـرودة منعشـة، علـى شـاطئ النيـل تعـود بـذاكرتك إلى تلـك الأيـام الـتي بزغـت فيهـا الهويـة الوطنيـة مـن ركـام القـرون، وتوحـدت الآمـال القوميـة للأمـة بجميـع طبقاتهـا وفئاتهـا وطوائفهـا؛ الأحـزاب، دعـاة الإصـلاح المـدني، الحضـر والريـف، الأعيـان والتجـار، مشـايخ الأزهـر، مطارنـة الكنيسـة، حـبر اليهـود، اجتمـع المصـريون بـلا خـوف مـن تـدخل رجـال الـدرك وجواسيسـه، وقـد انتشـى الـوطن بجـذوة الحريـة والأمـل في بنـاء دولـة الدستور والمساواة.

أيام نادرة في تاريخ العسكرية المصرية، كنا نسير نحن الضباط من أبناء الفلاحين في طرقات المحروسة، رؤوسنا مرفوعة أمام الأتراك والشركس، والأهالي يتطلعون إلينا بفخر، يستوقفونا ويعانقونا في الدروب والحارات، ويقدمون الشربات، تزغرد النسوة في الشرفات، وتلقى البنات من خلف المشربيات ورود المودة والإعجاب.

انتهي حكم الخلافة المطلق، وبدأ عصر جديد من الحرية المدنية والسلام الأهلي، نبت وترعرع حول معنى غامض في العقول، قوى في القلوب، هو مصر والمصريون.

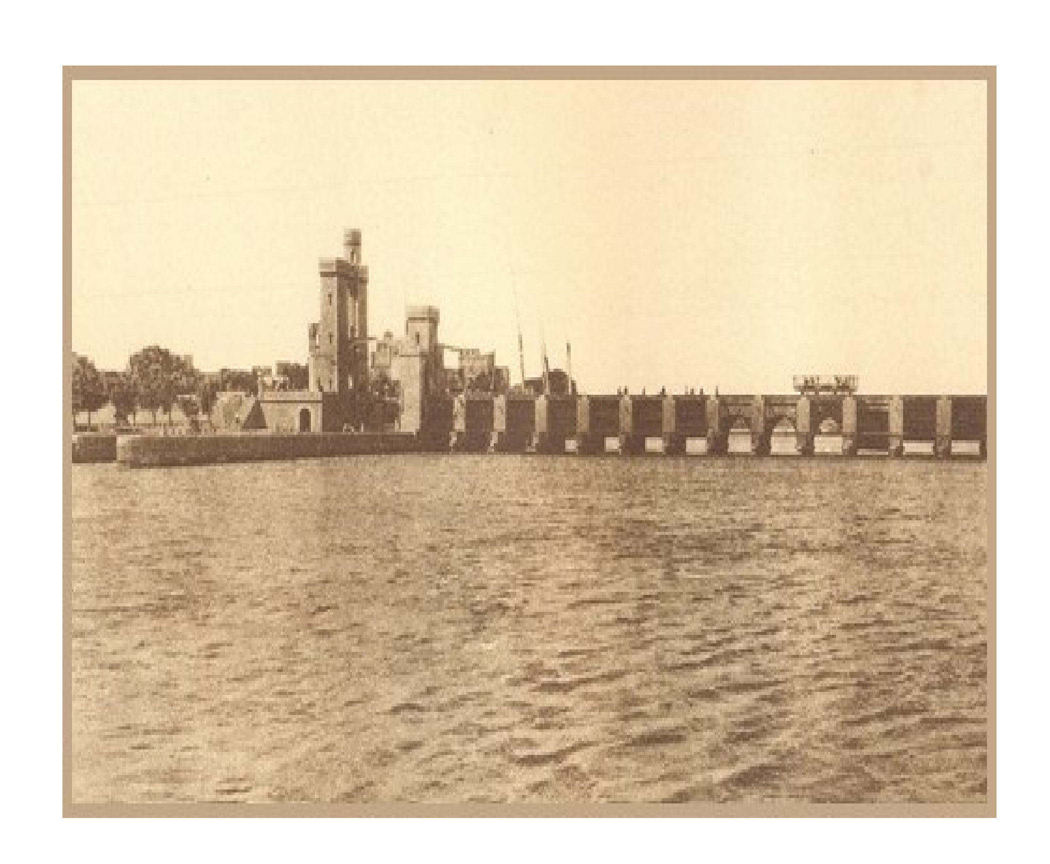
الآن، ضاع كل شيء، وأضيف إلى نير التبعية إلى دولة الخلافة العثمانية، أصفاد الاحتلال البريطاني، لتمزق الوطنية المصرية التي استيقظت لتوها من كفنها بين أصولية الشرق وحداثة الغرب.

تدخل ثكنات القناطر، وقد تحولت ساحة الأشلاق إلى جرن تجمع فيه من تبقى من جنود الجيش الذي أرسل إلى السودان، يتجولون في أرجائه بهرج وفوضى، و يجلسون جماعات بانتظار شاعر الربابة الذي سيغنى لهم عن بطولة مغتصبيهم؛ أبو زيد الهلالي سلامة، الظاهر بيبرس البندق دارى، سيف بن زي يزن.

في الميناء كان طابور من الحمالين ينقلون إلى جوف السفن المهمات والميرة المتوجهة إلى المديرية الاستوائية[36]، وغاطسها يغوص في مياه النهر تدريجيا، وعندما خيم الليل أوقدت المشاعل، واستمر الحمالون في عملهم حتى فرغت الأرصفة.

* * * *

36) اشتملت المؤن والميرة على مائة وخمسون قنطار مسلي، خمسون إردب ملح، عشرون قنطار بن، سبعون قنطار دخان، تسعون قنطار صابون، مائتان وستون أقة سبرتو، مائة وثلاثون ثوب قماش ترومية، ثلاثمائة زراع قماش كسوة، مائة وعشرون ثوب قماش كوبري، ثمانمائة وستة وعشرون زوجا من أحذية جلد الجاموس، ثلاثمئة طربوش بزرايرهم، خمسون صندوقا من هدايا متنوعة من الخرز والنحاس هدايا لزعماء القبائل.



القناطر الخيرية

-5-

- ده نايم.
- لا ده ميت.
- هو أنت كنتي شفت ميتين قبل كده؟

شعر الحسيني بيد ناعمة رقيقة، تهز وجهه برفق: "أهه ميت".

وصوت صبي يحذرها: "ح يصحى".

- لا مش ح يصحى.
- يا بنتي ابعدي عنه أحسن لك.

أستقيظ من إغفاءة القيلولة، لتلتقي عينيه بعيني طفلة في الرابعة تحدق فيه، وتحذر شخصا آخر لا يراه، صرخت الطفلة بفزع، وانطلقت تجرى وخلفها طفل في السادسة من عمره، جذب الحسيني حملات بنطاله فوق فانلته الصوفية، وقام إلى بهو الصالة الخارجية، ليرى امرأتين صغيرتين، وفي أعطافهما اختفي الطفلان، نظر مكشرا إلى الطفلة، دفست وجهها المبتسم في حضن أمها.

اعترضه الطفل، ووقف يحملق فيه بجرأة، ضرب بقدمه الأرض ووقف انتباها وهو يؤدى التحية العسكرية:

- "جعفر أحمد سليمان، حملة خط الاستواء" افندم.

اغتصب ابتسامة، ونظر نحوه من أعلى، وسأله:

- "حضرتك مسافر خط الاستواء لوحدك".
- معاى، أبوي وأمي وعمى وزوجة عمى افندم.

نظر الحسيني إلى الطفلة التي كانت تتابعهما بشغف، وسأله:

- مفيش حد تانى؟
- مريم بنت عمى افندم.

- ومين أبوك افندم؟

نادت امرأة شابة ترتدي برقع: "جعفر، شنو تسوى، تعال هنا"، جذبته لكنه تخلص منها، وعاد يشد من قامته وقال بحماس:

-"يوزباشي بحري أحمد سليمان افندم، وعمي ملازم أول بيادة حسن سليمان افندم".

تطلع الحسيني إلى الطفل المنتصب أمامه وسأله: "اسمك إيه افندم؟".

- جعفر أحمد سليمان افندم.

- جعفر أفندي، تقف حرس على نينة، ومراة عمك وبنت عمك.

- تمام افندم.

- وما تتحركش من قدامهم.

حاول الطفل أن يعبر عن استيائه، لكن الحسيني داهمه: "تمام افندم!".

- تمام افندم.

- انصراف جعفر أفندي.

في الساحة الخارجية لبهو الضباط أدى ثلاثة ضباط التحية العسكرية، تقدم أقدمهم، كان طويل القامة متين البنيان، لعينيه قوة نيران هائلة، تلمع بشرته كالنحاس القاتم، تمتد جذوره إلى السودان:

- ملازم بحري أحمد سليمان؛ حملة خط الاستواء، افندم.

- ملازم سواري سالم خلاف؛ حملة خط الاستواء، افندم.

- ملازم بيادة حسن سليمان؛ حملة خط الاستواء، افندم.

تطلع في بيان الضباط الاثني عشر، يوزع المهمات عليهم.

- ملازم بحري أحمد سليمان، عاوز تقرير عن حالة السفن.

- تمام يا فندم.

- ملازم سواري سالم خلاف، قيادة البلوك الأول والثاني.

- تمام افندم.

- ملازم حسن سليمان، مأمور المخازن والمؤن والمهمات والسلاحليك.

- تمام افندم.

نادى الملازم أحمد سليمان رئيس المراكبية المعلم أحمد نقد بن محمد نقد[37] وتوجها إلى المرفأ، ومع غروب الشمس ابلغه أن صناديق صيانة وابور النيل لا تزال في الإسكندرية، وأن السفن في حاجة إلى صيانة.

- محدش عاوزنا نقعد هنا ساعة، وأضاف بسخط: الجميع عاوز يتخلص من جيش العصيان.

- "حضرتك مقدرش أتحرك من غير معدات الصيانة"، وأضاف: "يومين في القناطر الخيرية، أفضل من شهرين في بحر الجبل".

- محمود أفندي العجيمي وأخوه مصطفي في الإسكندرية ليعقدوا قرانهم، أبعت لي تلغراف بمأمورية لإحضار مهمات الصيانة معاهم.

على العشاء، طلب الملازم خلاف، تدريب القوات، تحدث الحسيني بطريقة لا تسمح بالتعقيب: غير مسموح بتدريب أحد.

وعقب الملازم حسن سليمان يرجوه صرف ملابس الجنود، حتى يعتلوا سطح السفن كعساكر جهادية، وليسوا عمال للعونة[38]، وطلب خلاف السماح لهم باستقبال محمود ومصطفي العجيمي.

- مش كلكم كنتم مع بعض في السجن؟

* * * *

في الهزيع الأخير من الليل طرق عسكري الخدمة مخدع الحسيني يخبره بوجود ضابطين على البوابة، في حالة سكر بَيِن، خرج غاضبا تحمل له الرياح صدى قهقهتما، على الطريق الخارجي وجد شابين فتحا

37) محمد نقد: كان من أهم مصاعب استكشاف أعالي النيل الأبيض هو عبور المراكب البخارية والشراعية والذهبيات، الجنادل الواقعة بدءا من جنوب أسوان، ما استلزم تفكيك بعضها ونقله على ظهور الجمال، وتمكن محمد نقد المشهور بإشرافه علي صناعة السفن وأعمال الملاحة النيلية إذ ذاك، صاحب حملة بيكر إلى أعالي النيل الأبيض، أمام شلالات عمكة تمكن من تعدية أربع ذهبيات وإحدى عشرة قياسة (مركبا متوسطا)، وتعذر تعدية باقي المراكب البخارية والشراعية الكبيرة(الشلبيات) بسبب تلاطم قاعها بالجنادل، واستلزم بعضها الإصلاح اعلن "محمد نقد" المشرف الفني علي العملية تأجيل نقلها إلى الموسم التالي، عقب هبوط النيل قام على إزالة الأحجار الناتئة في تلك الجنادل. وقد استخدم 2000 عامل ، وبلوك ، وفرقة من جنود التفجير (اللغمجية) ، في 2-10-1870 استطاع العمال تعدية " وابور المنصورة وبردين وتلحوين من شلال عمكة إلى البحر الأصلي وأعقب ذلك تعدية المركب البخاري "الصافية" ثم مركبين بخاريين آخرين وهكذا عبرت المراكب الست البخارية هذا الشلال في طريقها لخدمة أغراض الحملة الاستوائية قبل نهاية أكتوبر عام 1870م.

38) العونة: السخرة

أزرار سترتيهما الميري، أحدهما ممددا على دكة خشبية من فلق النخيل، والآخر أسود اللون، بدينا قصير القامة، وفي عينيه حَوَلٌ، كانا عاريا الرأس، يتبادلان اللكمات، وقد ألقيا مخلتيهما العسكرية وزجاجات الخمر الفارغة، لاحظ الحسيني وجود كدمة في عين الضابط البدين، سأله: "ومال عينك؟".

حاول الوقوف انتباه، وقال إنها إصابة في معركة كفر الدوار.

من المقعد اعترض صوت غليظ:"متصدقوش يا بيه، عينيه سليمة زي زرقاء اليمامة"، واستطرد وهو مستغرقا في الضحك:" بيتحجج أحسن الإنجليز يعرفوا أن هو اللي ضرب قطارهم المدرع بالمدفعية الصاروخية".

لكزه كي يصمت، لكنه استطرد وهو يلتقط أنفاسه:

- "طب أنت ضابط بيادة، مالك ومال الطوبجية، مبتسمعوش الكلام ليه، أهو الموت جالك يا تارك الصلاة".

نظر الحسيني إلى الضابط الواقف أمامه مستفهما، فقدم إليه نفسه قائلا:

- "ملازم بيادة عبد المبين شلعى، حملة أعالي النيل"، وأضاف معتذرا أنهما يحاولان ألا يدخلا الثكنة وهما على هذه الحالة، لكن الشاب الآخر دفع صديقه جانبا، ليجد الحسيني يطل عليه من أعلى، قال وهو لا يزال ممددا، يحاول أن يتبين ملامح الحسيني:

- "حضرتك عاوز مين؟ قصدي عاوز إيه؟".

- عاوز إيه؟ قوم يا أفندي لم نفسك، وسلم نفسك للسرية بتاعتك".

ضحك الفتى بأعلى صوته: "سلم نفسك، سلم نفسك، كل حاجة في الدنيا دي سلم نفسك، مفيش حاجة اسمها حرر نفسك".

- الكلام ده يا أفندي في الملكية مش في الميرى.

- أبدا والله العظيم، مين قال إن فيه في الدنيا دي ملكية [39]، كله ميري يا باشا، سيدي [40] عبد الرحيم علمني ضرب النار وأنا عيل عنده خمس سنين، وقال "عشان الدياب ماتكولاكش يا ولد ولدى"، أبوي عمدة منقباد رماني في الجيش، وقالي "عشان تحمى الدستور يا ولدى"، ها

39) ملكية: يقصد حياة مدنية.

40) سيدى: تعنى في الريف جدي أي، والد الأب، أو الأم، وليس السيد.

.. ها.. دستور يا سيادي، قلت يا حاج هو أحنا ح نخاوى الجان، قال يا عبيط ده دستور مصر المعظمة، مصر الجديدة، دخلنا الميرى وقامت هوجة، عرابي ضد الخديوي، وشريف باشا ضد رياض باشا، والبارودي ضد رفقي، سألت مين مع الدستور، قالو لي عرابي، عملت بنصيحة أبوي خدت إعدام، طلع سيدي شيخ عرب منقباد على القصر وحول الإعدام لنفى، حضرتك بقي عاوز إيه؟ قصدي عاوز مين؟".

لانت ملامح الحسيني، قال بشفقة:

- "ميصحش كده يا حضرة الضابط، ادخل الأشلاق".

- "ليه ميصحش كده، جناب الخديوي سرح الجيش، وقال لنا يلا أنت وهو يا فلاحين يا ولاد الكلاب على غيطانكم، قلنا مع السلامة يا أبوي، ما هي آخرة خدمة الغز علقة"، وتجشأ، ثم استطرد: "وبعدين طلعت في دماغه، يرجع اللي طردهم من الجيش للجيش من تانى، معرفش منين جت له الفكرة الجهنمية دي؟! قلنا ماشي ما أحنا خدامين عند اللي جاب الأميرة أمه، لكن تصريح العودة للخدمة اللي معاي يبدأ من بكرة، وأنا بقي بصراحة مش مستعجل قوى، هو أنا لابس ميرى، أنا أهه اعتبرني مدني، عاوزنى أمشي من جنب الأشلاق، أوامر سعادتك أمشي، وأجي لحضرتك الفجر، قبل كده يستحيل". قالها والمؤذن ينهي أذانه.

تبادل الحسيني وشلعى النظر، طلب من شلعى أن يأخذ باله منه، وقال وهو يستدير عائدا إلى الأشلاق:

- طيب زي ما أنت عاوز يا حضرة الضابط.

* * * *

في الصباح تقدم ضابطان لقائد الحملة:

- ملازم بيادة عبد المبين شلعى حملة أعالي النيل.

- ملازم بيادة على شمروخ حملة أعالي النيل، واستطرد شمروخ بخجل واعتذار: "أسف يا افندم على اللي حصل امبارح".

قال الحسيني بتجاهل: "هو فيه حاجة حصلت امبارح؟"

-أاا أصل.

- يلا يا أفندي سجل نفسك في إدارة الأورطة، واستلم مهماتك.

في الظهيرة انضم إلى الحملة الضابطان السادس والسابع، ملازم محمود العجيمي سلاح الطوبجية، وشقيقه ملازم مصطفي العجيمي، سلاح المشاة، يصطحبان عروسيهما الشقيقتين، صبيتان في مقتبل العمر، أقاموا لهما حفلا صغيرا، وعشاء أصرت النسوة على تقديمه بأنفسهن.

عندما أوغل الليل، اجتمع الرجال يشربون القهوة على شاطئ النيل، قال الملازم خلاف للجالسين وهو يضحك ضحكة مقتضبة، أن الخطأ الذي يرتكبه ضابط مغفل هو اصطحاب زوجته معه، فما بالك بمن يتزوج كي يصطحب زوجته معه.

عقب الملازم أحمد سليمان: "قصر ديل".

عارضه شلعى: "أبدا النساء متوفرات في المديرية الاستوائية".

تدخل شمروخ وهو يرتجل نغما:

- "متوفرات زي الغزلان في المراعي".

- وحضرتك ح تكون الدكر بينهم".

قاطعه خلاف: "لا يا افندم النساء متوفرات زي الحمير الوحشية".

- وحضرته ح يكون البغل بينهم".

قال شلعى وهو يتراجع إلى الوراء:

- "يسلم بقك يا افندم بالضبط كده".

قال شمروخ: "يا افندم مقدرش أعقب على حضرتك، بس حضرته عرفت منين"؟

قال شلعى: "طبعا لازم أعرف، مفيش حاجة تستخبى علي؟"

قاطعهم الحسيني وقام مغادرا:

- "يلا يا حضرات، إحنا ح نتحرك في الفجر".

مع حلول ساعة الفجر الكاذب اشتدت الحركة في الثكنات، سمع الجميع صوت الشيخ عبد المعز أبو المكارم يؤذن لصلاة الفجر، فتجمع الجنود للصلاة خلف أئمة الأورطة، بينما أمَ الشيخ عمر الشلح الضباط.

قبل انبلاج الصباح أنطلق البروجي بنوبة جمع الجنود، اصطفوا في طوابيرهم، قدم قائد الحملة تمام القوات إلى اللواء رءوف باشا الذي تلى كلمة قصيرة عن مهمتها، فأشار إلى الدور الهام الذي لعبه الجيش المصري في السودان والممالك الواقعة حول منابع النيل، وما قامت به الحكومة

المصـرية مـن إقامـة المـدارس والمستشـفيات، وشـق الطـرق وخطـوط البريـد، وإنشـاء العاصـمة الخرطـوم، ونـوه إلى فرمـان[41] الخـديوي سـعيد باشـا، والـذي حـدد هـدف الحكـم المصـري في السـودان، وهـو تعمـير الـبلاد، ورفاهيـة العبـاد، وإقامة شـعائر العـدل، ونشـر الـيُمن، ومنـع الإتجـار بـالرقيق، ثـم تطـرق إلى مـا قـام بـه الخـديوي إسماعيـل لاسـتكمال مـا بـدأه أجـداده، بإرسـال حملـة للاتصـال بمنطقـة بحـر الجبـل والـبحيرات، وذلـك لتأسـيس أسـباب التمـدن والعمـارة وتوسـيع دائـرة الزراعـة والتجـارة، ودفـع الأحـوال الوحشـية وتمهيـد الطـرق وتأمينهـا والتـآلف مـع الأهـالي، ثـم اختـتم حديثـه بـالقول: "منـذ أيـام غـادرت ثكنـات القنـاطر خمسـة آليـات مـن الجـيش لمواجهـة الصـراع الناشـب في السـودان حـول عقيـدة الإسـلام الصـحيحة، لكـن عنايـة الله العلـى القـدير مَنـت علـيكم بالصـعود إلى أعـالي النيـل، فمـنكم مـن سـينعم الله عليـه برؤيـة مسـرات الأرض رأي العـين، ومـنكم مـن سـيبلغ أدراج السـماء، ومـنكم من سوف يقف أمام عتبات جنته"، ثم هتف ثلاثا والعسكر يرددون وراءه:

- "عاش مولانا الخديوي المعظم".

تردد صدى الهتاف، فإذا تلاشى، أعطى أوامره بالتوجه إلى السفن.

علـى الطريـق المجـاورة لنهـر النيـل نهبـت الأرض مركبـة تجرهـا أربعـة خيـول مطهمـة، بـين فينـة وأخـرى يطـل مـن نافـذة العربـة وجـه سـيدة شـابة في مطلـع العشـرين تخفـي دموعهـا، وتسـأل الحـوذي أن يسـرع، توالـت لسـعات السـياط، والحـوذي يـدعو الله أن ينجيـه مـن عقـاب الباشـا الكـبير، الـذي سيحاسـبه حسـابا عسـيرا، تـرك قريـة "باسـوس" وراءه، وأطـل النهـر تطـاردهم نبـاح الكـلاب الضـالة، عـبر قـرى ملفوفـة في عبـاءة الظلمـة، دخـل قريـة القنـاطر الخيريـة مـع أذان الفجـر، غمغـم يـدعوا الله أن يقـي المـرأة (الصـغيرة) وابنتها عناء المجهول، ثم قال لنفسه "أنت الآن تعلم".

فـى مرفـأ القلعـة السـعيدية ألقـت المشـاعل ضـوئها الباهـت علـى سـرايا العسـكر، وهـي تصـعد إلى (المـاعون) "التمسـاح"، لتعـود سـاحة الثكنـات خاويـة يحيـق بهـا السـكون، أطلـق وابـور النيـل صـافرتين، تبعتهمـا دفقتـان مـن البخـار، ليتحـرك إلى عـرض النهـر، تهـادت السـفن واحـدة بعـد أخـرى تغـادر

41) صدر من المعية بتاريخ ربيع الأول 1272 دفتر 1883، عام 1855 دفاتر الأوامر نمرة 4

المرفأ، شاهد البكباشي رستم أوجلي آخر السفن توشك على مغادرة المرفأ، فاستدار عائدا لمكتبه، يفكر في دعوة عشيقته للقدوم، مع صندوق من الروم القوى، ضربة عنيفة انخلعت لها البوابة الخارجية جعلته يستعيد رشده، وأمامه كان الحوذي يحاول بكل ما أوتي من قوة أن يسيطر على الخيول التي اقتحمت البوابات.

اقتحم مكتب القيادة امرأة شابة من بنات الذوات، ومعها طفلتها، وقفت أمام رءوف باشا تبكي بحرقة وتسأل عن زوجها، قبل أن ينطق البكباشي بكلمة، حدجه اللواء بنظرة قاسية، وعاد يبتسم بعطف للمرأة الصغيرة، يسألها بلطف أبوي: "ومين حضرتك؟"، أجابت وهي تفهق: "ألفت السلحدار زوجة اليوزباشي سواري سالم خلاف، هو فين؟ هم سافروا؟".

- تقصدي ملازم سالم خلاف.

- عندكم ملازم وعندي يوزباشي وبكباشي وفريق، هو فين؟

- "معك حق افندم، وأضاف: "حضرتك حفيدة شوكت باشا السلحدار، نظرت بغضب وهي تخشى أن يمنعها عن اللحاق بزوجها، قامت تضرب الأرض بقدميها، ترجوه: "يا باشا أنا بسأل حضرتكم، هم سافروا؟"، وقبل أن يجيب تركته إلى الشرفة الخارجية تنظر إلى النهر، ثمة سفن شراعية تتلكأ وهي تغادر المرفأ.

استدارت نحوه: "هم دول؟"، وأضافت تستعطفه وهي تبكي:

- "وحياة ولادك، بنتي لازم تعيش مع أبوها؟"، أومأ بعينيه، فاندفعت تجرى نحو المرفأ، وابنتها متعلقة بها، والحوذي خلفهما يحمل الحقائب.

كانت أخر السفن الراسية "الأمير طوسن" بدأت في الإقلاع، على المؤخرة وقف الملازم على شمروخ يتابع النوتي يحرك الدفة للخروج من المرفأ، طارده صراخ جعله ينظر نحو السيدة الصغيرة التي قدمت تجرى نحوه، تلوح له أن ينتظرهما، قفزت على ظهر المركب، والنوتية يمدون لها يد المساعدة.

ساد الاضطراب على ظهر السفن، والملازم شمروخ يهدئ من روعها، من أعلى صاري السفينة الأخيرة تناقل جنود الإشارة رسالة إلى الملازم سالم خلاف، السيدة حرمكم وابنتكم على ظهر السفينة "الأمير طوسن".

* * * *

-6-

في فجـر أحـد أيـام ينـاير عـام 1883 غـادر مرفـأ ثكنـات القنـاطر بـاخرة القيـادة "النيـل"، وفي المـؤخرة قطـر وابـور "الخرطـوم"، "مـاعون"[42] نقـل الجنـد، يحمـل الأورطـة التاسـعة، وبينهمـا أفـردت ثـلاث "شـلبيات"[43] وخمـس "قياسات"[44] قلوعها، تدفعها رياح قوية باتجاه أعالي النيل.

علـى مرفأ ملـوي وقفـت البـاخرة "النيـل" في عـرض النهـر لالتقـاط الضـابطين الثـامن والتاسـع، صـعد أحـدهما إلى ظهـر البـاخرة، تاركـا زميلـه يتبـادل عناقـا حـارا مـع والـده، أعطـى الشـيخ ابنـه خطابـا موجهـا إلى قريـب لـه، يعمـل موظفـا في المديرية الاستوائية.

- قريبك يا ولدى، معشانش تكون وحيد في غربتك".
- حاضر يا أبا، ريح بالك، كله خير بإذن الله".

تـابع الشـيخ أبنـه يصـعد البـاخرة، وغمغـم، وهـو يمسـح دموعـه، مستسـلما للمقـدر والمكتـوب: "ربنـا يحرسـك يـا ولـدى"، وأشـار لهـم: "ربنـا يحرسـكم يـا ولاد، تروحوا وترجعوا بالسلامة".

عـانق العرابيـون زميليهمـا بحـرارة، نبـه المـلازم عبـد الواحـد مقلـد صديقه، تقدما من قائد الحملة:

- ملازم طوبجى إبراهيم حليم، حملة خط الاستواء افندم.
- ملازم طوبجى عبد الواحد مقلد، حملة خط الاستواء افندم.

* * * *

---

42) ماعون الجند: مركب بحري لحمل الجنود يتم قطره بوابور بخاري

43) شلبية: مركب شراعي كبير

44) قياسة: مركب شراعي متوسط

أبهـر [45] الليـل، وتـداعت أصـواته خافتـة، تـتري علـى المـاء أضـواء ديـروط الشريفة، ارتفـع صـوت اصـطدام ارتـج علـى أثـره وابـور النيـل، قفـز الحسـيني مـن مرقـده وانــدفع يجــرى علــى ســطح الوابــور، حيــث وجــد مقدمـــة الســفينة الشــراعية "ســواكن" تركــب ظهــر الوابــور، والمــلازم بحــري أحمــد ســليمان يعنـف عسـكري الحراسـة، الـذي وقـف يـدافع عـن نفسـه، ويقسـم أنـه صـرخ علــى "آدم الزنـديق" ريــس السـفينة ســواكن دون جـدوى، بصـعوبة تمكــن الرجـال مــن تخلـيص السـفينتين مــن بعضـهما دون خسـائر جسـيمة لتعـود القافلة إلى الإبحار.

في ظـل الفوضـى الناشـبة اسـتدعى قائـد الحملـة المـلازم أحمـد سـليمان لتقـديم تفسـير لهـذه الأوضـاع، أجـاب بأنـه لا يمكـن قيـادة قافلـة بحريـة دون سرية إشارة بالأعلام، ولم يكن هناك وقت. كنا متاخدين من الدار للنار.

- ما تعمل سرية إشارة.
- محتاج عساكر تقرا وتكتب.
- أفرزهم، اختارهم من حفظة القرآن، من طلاب الأزهر.
- تمام افندم.
- ضم سرية المساحة، الملازم إبراهيم حليم وعبد الواحد مقلد يساعدوك.

* * * *

بحـث المـلازم شمـروخ عـن الصـول عطيـة وش الفـار لتوزيـع نوبـات الخدمـة الليلـة، فقيـل لـه إنـه في مـاعون الجنـود، توجـه إلى المـاعون علـى مـتن قـارب المناوبة، وعنـدما صـعد وجـد الهـدوء مخيم، والعسـكر يجلسـون صـامتون في ظـلال المشـاعل، وصـوت الشـيخ الفتـى يأتيـه حـاملا حكايـات الأسـاطير، تـوارى وجلس فـى المـؤخرة، وجلـس يسـتمع إلى الشـيخ عبـد المعـز أبـو المكـارم وهو يقول:

سـارت العسـكر في الصـحارى القفـار حتـى بلغـوا بيـت الله الحـرام، فترجـل الـوزير وسـجد، فغضـب الملـك، وسـأله السـبب، فقـال أعلـم أيهـا

---

45) البهرة: وهو إبهار الليل بمعنى انتصف وتراكمت ظلمته، وذهبت عامته وبقي نحو ثلثه.

الملك العظيم، أننا أتينا منزل الملائكة الكرام، وبيت الله الذى خلق السموات السبع، وبسط الأرضين، واثقلها بالجبال الرواسي، وخلق الشمس والقمر، والحجر والمدر، والفلك الأكبر، والليل الأعكر، والصبح الأصفر، والبحر الأزفر.

فسأل الملك الوزير: تقول هذا بيت الله الذى خلقنا، فما بالنا نعبد اللات والعزى وتلك الأوثان ، فنزل الملك وطاف حول البيت، فأعجبه عجبا شديدا، فمال قلبه إلى هدمه، ونقله إلى مدينته، كي يفتخر به على ملوك الأرض في الشرق والغرب، فقال له الوزير أيها الملك الكبير وصاحب العلم الشهير، أن للبيت السعيد رب يحميه، فلا تطع نفسك، فتندم حيث لا يفيد الندم

ولما أراد الملك هدم البيت الحرام، دعي المهندسين وأرباب الصنائع، وأمرهم بهدمه، وعندما أقبل الليل ونام وأصبح الصباح، وجد نفسه مُتوَّرماً ورما فظيعا وأصبح في حجم الفيل، وجسده مثل فار مسلوخ، فزعق وصاح، فدخل عليه أرباب دولته، فأخذهم الذهول، وقف الوزير يشرب بين يديه وقال: يا ملك زمانه، وفريد عصره وأوانه، هذا سهم رماك به رب هذا البيت، فأن لم تصرف نيتك عن هدمه، ستهلك، فارجع عن ما أضمرته من شر وفجور، وأمن بالواحد القهار، منشئ الليل والنهار، فأجابه إلى هذا، وأعلن توبته، حتى لا يكون من الهالكين، وقال آمنت برب هذا البيت الجليل، وصدقت برسالة إبراهيم عليه السلام، أتم تسليم.

يقول لكم الراوي الشيخ عبد المعز أبو المكارم: فإن الملك ذا يزن قال أشهد أن لا إله إلا الله، واشهد أن إبراهيم خليل الله. وأمن بعالم الشهادة والغيب، وأمر عسكره بأن يؤمنوا برب الأنام"، فأجابوه لما طلب، وأعلنوا دخولهم دين الإسلام(*).

في الأيام التالية غاب الملازم شمروخ عن مائدة العشاء، استفسر الحسيني عن سبب غيابه، قيل إنه يمضي الليل في الماعون، علق قائلا: إن ضابطه متفان في عمله.

أدار الملازم شلعي وجهه يخفي استرابته، تسأل القومندان إذا ما كان يشك فيما يفعله صديقه، قال وهو غير قادر على التوقف عن الضحك:

- سعادتك اللي تشوفه.
- أيه فيه حاجة غلط؟
- أبدا مش عاوز أشوه صورته عند حضرتك.
- ليه، ماله؟
- إمام البلوك الثاني صوته حلو في الإنشاد، كل ليلة يغني للعسكر.

اكتفى القومندان بالصمت، وهو يفكر؛ أن زمن الرحلة طويل، والغناء يخفف عن الجنود، في الليالي التالية تزايد رواد الماعون، وتنامت الأحاديث عن جمال صوت الشيخ الصغير.

* * * *

رست الحملة على مرفأ مدينة أسيوط، وبدأ تحميلها بإمداداتها من الحبوب، طلب شمروخ إجازة لزيارة أهله في منقباد، طارده الضباط ونساؤهم، كي لا يعود إلا ومعه عروس، حاول التملص من إلحاحهم، وأرسلت الزوجات الصغيرات رسائل واضحة مع أزواجهن، "حضرة الملازم على أفندي شمروخ، عد لنا ومعك زوجة من بنات الأصول". ضحك وقال: "جربت حظي وفشلت، والزيارة دي وداع أخير".

أمام إصرارهم، تعلل بأنه لا يستطيع أن يجد عروسا بين يوم وليلة تصحبه إلى آخر بلاد الكفرة"، شجعه الحسيني بأن الحملة ستبقى عدة أيام، يمكنه الزواج بثلاثة نساء"، وأضاف مصطفي العجيمي "وأربعة لو شاء"، وعقب أحمد سليمان وابتسامته تشع من عينيه نجوم زاهرة، "ولو هو صادق النية، لا بد وأن يجد في بنات العم اللي تتمنى أن تلحق به لآخر الأرض".

عقب شمروخ: "الدنيا قسمت بالحظ مش بالعدل، وأنا سيئ الحظ"، حدث الحسيني الملازم شلعى: "مش أنت صديقه الصدوق؟".

-"أيوه يا افندم، أوامرك". ونظر من طرف عينيه ناحية شمروخ واستطرد: "عاوز إيه حضرتك وأنا أنفذه فورا".

- تنزل معاه الإجازة ومترجعوش إلا ومعاه عروسه، شاء أو أبى.

- "أنا!!".
- أيوه أنت، أمال أجيب مين؟ ومسموح لك أنت كمان بالمحاولة.

انخرط شلعى في الضحك، قال شمروخ مرحبا: "جهز نفسك وتعال ليه لا، مين عارف؟"، هرش رأسه شلعى وكأنه طريدة وقعت في فخ.

على البر لاحقت عائلات الضباط شمروخ وشلعى وهما يبحثان عن مكاري ينقلهما إلى منقباد بتعليقات ساخرة، ونصب مطبخ الميدان، وانتشر الجنود للتدريب على الضبط والربط، وفي الجوار جرت أحاديث النسوة، حيث يحلو للسيدة حباب أن تحكي بزهو نسب قبيلتها الشكرية، القرشية الهاشمية، جدهما شكير بن إدريس، بن عبد الله الجواد بن جعفر بن أبي طالب ابن عم الرسول عليه السلام، وجدها حسن عوض الكريم أبو سن، الذي أذاق لملوك الفونج[46]، والهمج[47] والركابية[48] مرارة الهزيمة، ثم تنشد لابنها جعفر، نسبه الشريف:

"نحن الغر ملوك الدار ونسر الجنة جدنا جعفر الطيار"

في اليوم الثاني حملت السفن بالقمح، والسكر الأبيض، وجاءت برقية من كولونيل ستيوارت الضابط الموفد من الحكومة البريطانية لدراسة الوضع في السودان، يطلب من قومندان الحملة أن يعرج على مدينة الأقصر، كي يصطحب رسامة فرنسية إلى (لادو)، للقاء خطيبها الذي يعمل لصالح الحكومة المصرية.

---

46) الفونج : أسم قبيلة، ذهب فريق من المؤرخين إلى أنهم ينحدرون من المجموعة النيلية بالسودان وينتمون إلى الأصول القديمة لقبيلة الشلك الذين كانوا من أوائل النيليين الذين اتصلوا بالعرب منذ دخولهم السودان، اختلطوا بالنوبيين وتزاوجوا مع القبائل العربية واعتنقوا الإسلام، تأسست مملكة سنار عام 1504 بالتحالف بين الفونج والعبدلاب، وتعتبر مملكة سنار أول دولة عربية إسلامية قامت بالسودان بعد انتشار الإسلام واللغة العربية اهتم ملوكها بالعلم، فأقاموا رواق السنارية في الأزهر بالقاهرة من أجل طلابهم المبعوثين إلى هناك.

47) الهمج: من كبري القبائل بولاية النيل الأزرق استقرت في الروصيرص وضواحيها، حكمت جنوب النيل الأزرق قبل دولة الفونج وشكل الهمج الوزراء الأقوياء والمحاربين الأشداء في مملكة الفونج.

48) الركابية: قبيلة الركابية من أشراف آل البيت، ينتهي نسبهم إلى جعفر الصادق وموسى الكاظم حتى الحسين بن علي، وهي من القبائل التي أدخلت الدين الإسلامي في السودان وأسهمت في نشر الخلاوى واشتهروا كقبيلة صوفية في فرع من فروعها هم (الصادقاب).

أثنـاء تحميـل جـوالات البصـل الأخـيرة، وقفـت علـى المرفـأ عربـة تجرهـا الخيـول، وعلـى متنهـا الضـابطين، وخلفهمـا عربـة محملـة بصـناديق ضـخمة، كان ظهورها يدعو إلى الاستبشار خيرا.

هـبط الملازمـان يضـحكان، رحـب بهمـا الجميـع، وعلـى وجـوههم علامـات الترقـب، بعـد قليـل نـزل جسـد ضـئيل، لفتـاة ترتـدى خمـارا يغطـى وجههـا، أسرعوا يهنئون الملازم على بالزواج السعيد، وهو يجيبهم:

- على أيه؟ مش أنا، باركوا له هو.

مضـى وقـت قبـل أن يفهمـوا أن العـروس ليسـت لشـمروخ، وبـين الدهشـة والـدعابات المرحـة، والحقائـب الـتي حـرص عبـد المـبين علـى العنايـة بهـا أثنـاء نقلـها، وقـف علـى شمـروخ علـى جسـر السـفن منـتفخ الأوداج، يرفـع سـاعديه لأعلى معلنـا أنـه لا يـزال حـرا طليقـا، وأن صـديقه وقـع في الفـخ، ومـا أن اسـتقر الجميع على ظهر الباخرة أعطيت التعليمات بالتحرك.

* * * *

ضفائر سهيلة

أقـام الضـباط وعـائلاتهم حفـل زفـاف للعروسـين، جلـس شـلعى في ملابـس التشـريفة، وبجـواره سـهيلة ترتـدى فسـتانا أبـيض مـن السـاتان الموشـج بزهـور الـدانتيل، وأمامهمـا رقـص المـلازم شمـروخ علـى موسـيقى الجـيش وسـط الزغاريـد، وهـو يهتـف: "سـعيد الـنبي سـعيد، والعاشـق في جمـال الـنبي يغنـى بالصـلاة عليـه، أنظـر بعينـك وصـلى علـى النبي، ما شاء الله ما شاء الله". يا أخي هوةةةةةةة.

دخـل عـدد مـن الجنـود السـودانيين عـراة الصـدور، يلفـون خصـورهم بـأثواب بيضـاء، يرقصـون علـى أنغـام الربابـة والـدفوف رقصـة الصـقرية[49]، وبيـنهم وقـف أحمـد سـليمان وأخـوه حسـن في مواجهـة كـل منهمـا الآخـر، في قمـيص

49) رقصـة الصـقرية: رقصـة قبائـل الشـكرية يقـف رجـلان في مواجهـة كـل منهمـا الآخـر، يمـثلان صـقرين وبينهمـا تتمـدد فريسـة علـى الأرض، يمـدا سـاعديهما إلى جانبيهمـا في انحنـاءة يسـيرة كجنـاحين، ويتقـدما تجـاه الأخـر علـى قـدم واحـدة، وجـذعيهما منحنـى إلى الأمـام، صـقران يتقتلان، يركل كل منهما الأخر وهما ينزعان أحشاء الضحية.

وسروال أبيض، وطاقية مشغولة بألوان زاهية، يتقاتلان كصقرين حول الفريسة التي تمددت على الأرض عارية.

جلست العروس متجهمة، وخمنت النساء أنها ليست على طبيعتها، وأثار الهمس ذاك الجزء الأحدب الذي برز على ظهرها.

تساءلت سنية، إذا كانت العروس حدباء، قالت أختها: "يا عيني عليك يا عبد المبين أفندي"، قاطعتها أميرة: " يا ريت يكون على حد كده، مصيبة تكون مخاوية تعبان".

ضحكت صفية: "يعنى العريس أعمى".

عارضت أميرة: "طب ليه ميكونش على أفندي وقع صاحبه في مصيبة.

استنكرت حباب وهمست، "كيف لعلى أفندي أن يترك بنت عمه لغريب". وأضافت: والله أنتم طيبين.

شهقت النسوة: "يعنى أيه؟".

همست: "يعنى لو كان فيه الخير مكانش رماه للطير".

- قصدك أيه يا حباب؟

- "يعنى ليه متجوزهاش هو؟"، وأضافت بزهو: "في قبيلتنا لا تخرج بنات الشكرية لغريب، حتى ولو كان فيها ما يعيب".

وأضافت وهي تنظر زوجها بفخر: "شنو ليش أنا تزوجت ابن عمى، والله في سماه لو خيرت بملك الروم والعجم ومعاه ذهب قارون، لاخترت ابن عمى".

دار العراك بالتحطيب، وارتفعت الضوضاء، وانهمك الجميع في أحاديث جانبية، وجلس شلعى بابتسامة تموج بالطيبة، تعبر عن الرضا بمصيره، وأفعال القدر، هذه الصبية المليحة ستشاركه رحلة المجهول.

طلب الجنود الشيخ عبد المعز أبو المكارم أن يحكي لهم ما تجود قريحته من سيرة فارس السمن، فتصدر الفتى الدكة وعدل من جبته وعمته وتربع، ثم أنشد:

يقول لكم الشيخ عبد المعز أبو المكارم، أن الملك سيف وجد نفسه وحيدا فريدا على العمود، وما عنده أحد، فبكي وأن واشتكي تقلبات الزمان، وما تأتيه الليالي النائبات من الحرمان، فأنشد يقول صلوا على طه النبي الرسول:

وعد الإله على الخلائق جارى ... ومنفذ في السر والإجهار

انشأ الخلائق من بدائع صنعه ... فتبارك الله العزيز البارى

جار الزمان على حتى أننى ... لم ألق من بين الورى انصارى

أن شاء أنقذنى وفرج كربتى ... فيبدل الإعسار بالإسار

يا من عوائده الجميل بفضله ... وبجوده يعفو عن الاوزار

كيف السبيل ولم اجد لي راحما ... مما بليت به ودمعى جار

يا قادر يا قاهر يا غافر ... يا صاحب العظمات والأقدار

ادعوك مطرا فأنت وسيلتى ... وكذا مجير لي ونعم الجار

* * * *

علـى العشـاء خلعـت العـروس طرحتهـا، انفـرج النتـوء الـذي يثقـل ظهرهـا، عـن ضـفيرتين غليظـتين، لينسـدل شـلال مـن الشـعر الحالـك، امتـد حتـى أعقاب أقدامها، هتفت النسوة تباركه:

ـ"سبحان الله وأشهد أن لا إله إلا هو العلى القدير".

علـى فـراش الليـل رقـدت العـروس جسـدا بـلا مشـاعر، تقبـل عبـد المـبين سـلوكها المتوقـع، ففـي اليـوم الثـاني مـن نزولـه منقبـاد، والجميـع يحـاول إجبـار صـديقه بـالزواج مـن بنـات العـم، اقتحمـت وسـط ذهـول الحاضـرين فتـاة سـافرة مجلس العمدة، وسألت وفي عينيها دموع سخينة عبد المبين:

ـ"هو أنت يا حضرة الضابط متجوز".

ـ "لا.." هزت رأسها واختفت.

في تلـك الليلـة لم يهـدأ شـلعى عـن سـؤال صـديقه عنهـا، وهـو يراوغـه، لكـن شـلعى صـرح لـه بـأن دمـوع عينيهـا تطاردانـه، قـرب الفجـر طـرق بـاب صـديقه، وبينمـا شمـروخ يفـرك عينيـه مـن النعـاس، فاجـأه برغبتـه في الـزواج من ابنة عمه، إذا لم يتقدم للزواج منها، بعد عناء طويل عرف قصتها.

كانـت تعشـق أخيـه الأكـبر العـايق، السـكير الفاسـد والفاسـق، طـرده أبوه، فرحـل دون أن يفكـر فيهـا، ومنـذ سـتة أشـهر أرسـل رسـالة يقـول فيهـا إنـه تزوج، وأن زوجته السويسية حامل في طفله الأول.

في الصباح طرق عبد المبين شلعى باب العمدة، وسأله الزواج من ابنة أخيه، وبعد مداولات عائلية، وأمام إصرار الصبية، عقد شلعى قرانه، وها هي جواره، تعلن أن جسدها ملكه، بينما قلبها وروحها في مكان بعيد.

قبل أن يغفو في النوم، مسد شلعى شعرها الطويل وهو يدمدم بالأغنية التي طالما سيهدهدها بها أثناء نومها، والتي ستبكي طويلا كي تسمعها مرة ثانية:

دلدلي شعورك الطوال خديني مزوسط الجبال يا سهيلة

* * * *

على بعد مئات الكيلومترات ذوت أضواء المشاعل الزيتية، لعرس أخر أقيم في قصر شوكت باشا السلحدار الكائن بمديرية الشرقية، كان العريس هو الشاويش مسعد بن مصطفى الرفاعي رئيس أنفار وخولي الأبعادية، والعروس مبروكة بنت عم حسن، كبير ساسة إسطبلات القصر، لم يلق مسعد المعارضة المتوقعة من الفتاة التي بلغت السادسة عشر من عمرها منذ أيام، والتي كانت زهرة الأبعادية، ونوارتها، تهافت عليها الخُطاب، وهى مختبئة وراء جدار من الرفض الصلب، حتى أوشك أبوها على قتلها في أحد الليالي، عندما ضرب عنقها بمدية تقشير حوافر الخيول، فحادت عنها بسرعة وهبت لها الحياة، تاركة ورائها ندوب زادت عنقها الطويل فتنة.

طوال الليل دقت الطبول، وعزفت المزامير، وارتفع الغناء والزغاريد احتفالا بالعرس، ورقص الفلاحون، والفلاحات، وعلى كنبة مرتفعة جلست مبروكة مخضبة بالحناء، الموسومة على كفيها وساقيها، وعيونها الناعسة التي أضجت مضاجع الشبان، مرسومة بكحل ساحر لا يعرفه أولاد العرب، تتابع بوهج شبح غير مرأى يطوف في الأنحاء.

في نهاية الليل أطفأت المشاعل، وتوجه الجميع للنوم استعدادا للسفر إلى القاهرة، كان قد أسند إلى الملازمين محمد فوزي ومحمد الفولي قيادة السفينتين الصافية والمنصورة، المحملتين بالأسلحة والعتاد الحربي من مرفأ القصر العيني، واللحاق بحملة خط الاستواء، والانضمام إليها قبل عبورها جنادل (عبكة).

وقف الملازم محمد فوزي بين يدى جده شوكت باشا، يودعه الوداع الأخير، فتح العجوز خزانة سرية، وأخرج رزمة من المال، ووثائق مكتوبة بخط همايوني، وطلب منه

أن يتوقف في (شندي)، ويتوجه إلى قلعة (شنان)، ليلتقي الشيخ ريحان الطيب ود سالم، ليقوم بالبحث عن عظام الجد الأكبر يلماز بك، ويواريها التراب، في مدفن لائق.

في مخدعه وقف الملازم محمد فوزي أمام زوجته (ورد الجنان)، أبنة أحد التابعين الكبار للصدر الأعظم، تطلب منه بصوت بارد أن يطلقها قبل أن يغادر القصر، كانت رغبتها أشد وطأة عليه من كتيبة (دلاة) تعتوره بسيوفها الحادة الماضية.

قال بصوت يحمل رنة رجاء:

- مقدرش، سامحيني عشان خاطر ابننا مراد.
- طلقني، وإن لم تفعل، سأوزع الصدقات والأموال على مجاذيب ودراويش أولياء الله، كي يدعون عليك بألا تعود من منفاك، وأن تموت وحيدا، بلا أهل ولا أحباب.
- ليه كل ده؟

أضافت: وسأطوف بكل السحرة والمشايخ لتحل عليك اللعنة .

في الصباح الباكر غادر قصر السلحدار (باتجاه القصر العيني بالقاهرة)، ضابط من سلاح الصواري يمتطي جواده، يتبعه ابن الخولي الشاويش مسعد مصطفى الرفاعي، يقود عربة تحمل أمتعة قائده، وبجواره جلست عروسه ابنة سائس الخيول، منكسة الرأس لا تدرى أي مستقبل ينتظرها، بين سيدها المتيمة به، وزوجها المغرم بها.

*   *   *   *

-7-

وقف مبهوتا وسط أعمدة معبد الكرنك، يتأمل الإزميل الذي نحت اللغة المصرية القديمة بدقة تفوق الكمال، سار في طريق الكباش يتأمل تماثيل أبو الهول الرابضة مثل حرس أسطوري لبوابات العالم الغامض، ومسلتان شاهقتان من الجرانيت، تتصدران الصرح الهائل للمعبد، لمحها تقف محنية أمام تمثال عملاق للملك رمسيس الثاني، ترسم واجهة المعبد، وهي تزجر صبي من أبناء الأقصر كي يتوقف عن الحركة.

- مدموازيل فرانسوا دي سابل؟

أوْمَأت وهي تضرب بفرشاتها لوحتها: "ماذا تريدون مسيو، هل أعترض طريقكم؟".

- ملازم أول عبد الغفار.

أجابت بنبرة حادة وهي لا تزال منحنية منهمكة في لوحتها: "وبعد؟".

- لديَّ أوامر بنقلكم إلى مديرية خط الاستواء

التفتت نحوه، سامقة مثل شجرة سرو، وتساءلت بغضب:

- هل أنا مقبوض عليَّ؟ ما هي رتبتك؟ خطيبي كازاتي كابتن.

هاجمه نبرة صوتها المثير؛ خليط من الفيوليت الثقيل وتون السي على بيانو مفخم بالأساس، جذبته من ساعده إلى مكان الصبي، حدثته برجاء:

- "من فضلك قف هنا للحظات، أحتاج رسم وجهك على تمثال رمسيس".

وقف غاضبا وقد انطبعت في ذهنه حمرة شفتيها الغليظتين، وجهها الأبيض المشوب بالحمرة، زرقة عينيها، ساقاها النبيلان. استقامت وأشارت بأنها انتهت: "تقدر تمر عليَّ في الفندق، لو لم يكن لديك مانع"، وعادت للوحتها. سألها: "متى يمكننا الرحيل"، قالت بلامبالاة: "سأخبرك الليلة".

*   *   *   *

في بهو أحد فنادق مدينة الأقصر، جلست مع أصدقاء لها في حالة سُكْرٍ بين، وبصحبتها الفتى الذي جعلته "موديل" لرسومها، كسيدة تمتلك الروح الكولونيالية، لاحظ المفارقة بين سمرته الشديدة وجلبابه الناصع البياض، ورأسه الملفوف بلاسة من الحرير المقصب، شعر بالفضاء يخيم عليه ثقلا، وأن شيئا يدور بين الفرنسية والفتى، لمح يدها أسفل المنضدة تعبث بجسده، تحاشى النظر، وعندما استقام جذعها، وجد أن الوقت مناسب للرحيل، استأذن، وأخبرهما أنه سيرسل من يقلها.

شعرت الفرنسية بالإهانة، سألته إلى أين يرحل في هذا الوقت المبكر، أخبرها أنه عائد للحملة المخيمة على مرسى الدير البحرى، ابتسمت وألقت رأسها للخلف وقالت بالفرنسية:

- "أنه لا ينوى أن يخبر خطيبها بأنها تخونه".

هتف: ماذا؟

ركنت بجذعها على صدر الفتى، وهمست بصوت ثقيل جعل الرعدة تسري في أوصاله: "طالما أننا سنكون معا في هذه الرحلة الطويلة علىَّ أن أخبرك بأمر".

- تحت أمرك.

- "ليس بمقدوري مقاومة المراهقين، يشعلون في الرغبة".

أصيب بالخرس وحار جوابا، وهو مشدوها بصراحتها، ووقاحتها، كان أصدقائها مشغولون بمداعبة راقصات شرقيات، انحنى باحترام، وتحرك منسحبا، لم تتوقف عن الابتسام، وعند الباب لوحت له قائلة:

- بزتك العسكرية تثير في حكة.

"À part cve defavlt la, je sves parfait" (50)

* * * *

في صباح يوم دافئ من أيام مدينة الأقصر صعدت مدموازيل فرانسوا دي سابل الباخرة النيل، شاهدها تميل بجذعها، وهي تحمل لوحاتها الزيتية، يتبعها الفتى يحمل حقائبها، وعلى كتفه حامل للرسم، تولى النوتية

---

50) فيما عدا ذلك أنا كاملة

إرشادها إلى قمرتها، من الطابق العلوي تصاعد صراخها مستنكرة إذا ما كان هذا أفضل ما يقدمونه على ظهر هذه السفينة، هبط يسألها سبب صياحها، قالت: "وتستطيع أن تفهم الفرنسية؟".

- وما علاقة الفرنسية بمكان نومك؟
- لابد وأن يكون لديك مكان أفضل من هذا؟
- آنسة أنت على ظهر باخرة حربية.
- وكيف أرسم في هذا المكان الضيق؟
- لم يذكر كولونيل ستواريت أن علينا أن نوفر لك استديو للرسم.
- "لماذا تقول هذا؟".
- كي أذكرك بأننا لسنا في مونتماتر.
- ماذا؟ هل تحاول أن تؤثر فى؟

أطلت رؤوس النسوة من قمرات عائلات الضباط، يتابعن المشادة الجارية أمامهن، قال:

- "آنسة يمكنك استخدام السطح، على الأقل ستجدين ما ترسميه".
- "وأحمل اللوحات والحامل والألوان صعودا وهبوطا".
- "افرغى حقائبك الآن، وسوف أجد حلا.

على السطح وقف الملازم أحمد سليمان يشرح لعدد من الجنود قواعد تبادل الإشارات بين السفن، موضحا ضرورة احتلال جندي الإشارة موقع واضح لزملائه، ووقوف كلا من المرسل والمستقبل في وضع متقابل، لرؤية حركة الأعلام بوضوح، وضرورة استخدام المنظار المكبر أثناء الضباب أو بعد المسافة، وأن لون العلم يجب أن يكون مختلف عن المنظر الخلفي للمرسل، وأضاف بابتسامته المتألقة "يعني أيه يا نفر أنت وهو؟ مش ممكن تستخدم علم أزرق وخلفك البحر، أو علم أخضر وأنت في حقل برسيم، وإلا تكون بهيم، يلا انصراف".

في الصباح الباكر نصبت الفرنسية حامل اللوحات، في مكان قصي على سطح الباخرة، قبل أن يقفز إلى قارب التفتيش على بقية السفن وجدها منهمكة في لوحة معبد الكرنك، تبادلا النظر ، وفي المساء عرض عليها أن تترك أشياءها في مخزن على سطح الباخرة.

في أسوان تسلم برقية تفيد بأن السفينتين الصافية والمنصورة غادرتا بولاق وعلى متنها الأسلحة المخصصة للمديرية الاستوائية.

* * * *

شقت القافلة طريقها فوق النيل النوبي[51]، وأمام جزيرة فيلة ظهرت معابد الإلهة إيزيس، عند وادي كلابشة ضاق النيل وتحول شفيره إلى صخور ، ظهر معبدان نُحِتا في الجبل، أشرقت واجهتهما بتماثيل هائلة لرمسيس الثاني وزوجته نفرتاري، أصابها مس من جنون، سألته أن يسمح لها بالنزول، خمن أنها ستمضي وقتا طويلا، أعطاها إحدى القياسات، وعندما لحقت بالقافلة في نهاية اليوم كانت تحمل له مشاعر الامتنان.

ذات صباح وجد بورتيه لوجهه ملقى على فراشه، متى اقتحمت قمرته؟ قبل أفول الشمس اقتحمت قمرة القيادة وألقت أمامه كتيبا ملونا لإشارات التخاطب بالأعلام البحرية، كان واضحا بسيطا، صنعته من كرتون مقوى، وزخرفت حواشيه، في كل ركن تركت مربعا للحروف العربية، شكرها بعِرْفان، واستدعى خطاط الحملة كي يكتب بقلم البوص الحروف بخط نسخ، فبدا وهو يعرضه على طاولة العشاء تحفة فنية، طلب من ملازم حليم رسم كتيبات مماثلة، وتوزيعها على جنود الإشارة، لكنه لن ينسى السخرية التي حملتها زاوية فمها اليسرى.

أبحرت الحملة فوق الهضبة النوبية، وعلى مرمى الأفق امتدت الصخور عارية من الكساء النباتي، والنهر قويا شابا يقتحم الشلالات والجنادل، عند وادى حلفا انبسط النيل واتسع، وفي اليوم السادس عشر لمغادرة ثكنات القناطر، وصلت من المقدمة إشارات تطلب من السفن التوقف، لقد بلغت الحملة جنادل (عمكة)[52].

51) النيل النوبي: يمتد بين خطى عرض {31^{0}}، و{015:30}، تصب فيه روافد النهر الوافدة من جبال الحبشة، التي تمنحه القدرة على مواصلة رحلته في الصحراء الإفريقية الحارة نحو الشمال.

52) شلالات عمكة: تقع ضمن الجندل الثاني لنهر النيل قبل موقع بلدة حلفا بمسافة قليلة.

أفرغت السفن أحمالها، لتنقل على ظهور الإبل إلى حيث يعود المجرى صالحا للملاحة، وعكف الجنود على تطهير المجرى، وحفره إلى عمق يسمح بتعويم السفن.

ارتفع غاطس السفن، وجرها الجنود بالحبال، والنوتية يراقبون قاعها من الاحتكاك بقاع النهر، في نهاية اليوم انتهي الميكانيكية من فك محركات ومراجل الوابورين، ونقلها إلى البر، ثم قام العسكر بجرهما ضد التيار بعد ارتفاع غاطسيهما.

عشرة أيام مضت في عبور الجنادل، وفي اليوم الحادي عشر أعيد تحميل السفن بالمؤن والمهمات، وتركيب المحركات والمراجل، مع غروب الشمس رأى النوتي أشرعة في الأفق، رفع منظاره المقرب، صاح منبأ باقتراب سفينتين.

رست السفينتان الصافية والمنصورة بجوار الباخرة، طويت الأشرعة، ألقى البحارة بالحبال إلى سطح الوابور، وقاموا بربطها بأوتاد الباخرة الحديدية، قفز الضابطان العاشر والحادي عشر من الضباط الاثني عشر إلى سطح الباخرة النيل، وخلفهما الشاويش مسعد الرفاعى يحمل أمتعة سيده، وخلفة زوجته الصغيرة تحمل بقجة ملابسها، وتتعثر على ظهر الباخرة الخرطوم، وقد أصابها الدوار. في قمرة القيادة تقدما إلى قائد الحملة:

- ملازم محمد الفولى سلاح الصواري، حملة خط الاستواء، تمام افندم.
- ملازم محمد فوزي سلاح الصواري، حملة خط الاستواء، تمام افندم.

تسلم الملازم أول الحسيني عبد الغفار بيان الأسلحة والذخيرة [53]، وخطابات موجهة للجنود والضباط وأسرهم، تضمن بريد اليوزباشي خطاب موجه إلى حكمدار الخرطوم، وخطابا من خاله البك يدعو له بالتوفيق،

53) ضمت أسلحة الحملة اثنين وخمسين صندوقا يحوي خمسمائة وعشرين بندقية "ريمنجتون، **Remington** "، ومائة وستين صندوقا تحوي مائة وستين ألف خرطوش، وثلاثمائة قاذفة ذات كبسول، وثلاثمائة صندوق تحوي ثلاثين ألف حشوة للقاذفات، وستين صندوقا تحوي ستمائة قنبلة يدوية، ثلاثة مدافع جبلية عيار **80** مم، ثلاث آلات لقذف اللهب، وخمسة وعشرين صندوقا تحوي خمسة آلاف كبسول، وألف قذيفة مدفع، وثلاثمائة صاروخ ناري.

ويعاتبه لعدم اصطحابه زوجة من بنات أعمامه، وينبئه بوجود خطاب خاص به من نظارة الحربية، يتضمن توصية رئيس الوزراء شريف باشا بإعادة رتبته العسكرية التي سُحبت منه.

في الليل كان الضباط وعائلاتهم في انتظاره، على الجانب الآخر من القاعة وقفت فرانسوا سامقة ممشوقة، ترتدى فستان سهرة أسود يكشف عن مطلع نهديها، وأسدلت شعرها طويلا على كتفيها، تابعت الشابة الفرنسية نساء صغيرات، يرتدين ملابس السهرة، يتقدمن بصحبة أزواجهن يهنئن قائدهن في المنفى، افتتحت ألفت هانم الحديث، بصوت سمعه الجميع:

- مبروك يا حضرة اليوزباشي، أول ترقية لضابط في الثورة بعد هزيمة عرابي باشا"، وأضافت: "إن شاء الله ربنا ح ينصرنا".

صفق الجميع بحماسة، وكأن الثورة توشك على دخول قصر عابدين، التقطت فرانسوا أحد أشهر الأسماء المصرية "عرابي باشا"، أيهرطق هؤلاء، أم أنها في آلا تابع لجيش العصيان، في منتصف القاعة وضعت مائدة طعام مغطاة بالمفارش البيضاء، وتقدم النـدُل [54] يصفون أدوات المائدة المصنوعة من الخزف الصيني والفضة، وكأنهم في قصور القاهرة.

استرعى الملازم بحري أحمد سليمان انتباه الحضور، وضحكته تشرق من بريق عينيه، دفعت زوجته نحوه بصندوق فاخر، توسطه التاج السلطاني، أخرج منه طربوشا من الجوخ الأسود مزينا بشريط وزر ذهبيين، وقدمه للحسيني، وهو يقول: حباب قالت لي ما يصير أن قومندان الحملة يسير بين الجنود من غير طربوش جديد".

حاول الحسيني الرفض، لكن الملازم أحمد سليمان قال بمودة:

- "افندم، النبي قبل الهدية".

- "مقدرش، قريب تيجى ترقيتك".

- " كل شيء بوقته، حضرة اليوزباشي، سأحكى لك قصة هذا الطربوش، كانت مهمتنا في حرب القرم غلق مضيق (كيرتش)[55]، وعدم

54) النّادل : من يقوم على خدمة القوم في الأكل أو الشراب . والجمع : نُدل. المعجم الوسيط.
55) كيرتش: **Kerch**

السماح للبحرية الروسية للخروج من بحر (أزوف)[56] إلى البحر الأسود، وبعد ليلتين اكتشفنا أننا محاصرون، وكلما حاولنا الهجوم صبت مدافع قلاع الموانئ الروسية نيرانها فوق رؤوسنا، سألت القبودان قائمقام (قورقماز أرسلان)، حضرة افندم من يحاصر من؟".

هرش قفاه وقال: "كلام جميل سليمان أفندي، من يحاصر من؟ هذا سؤال كبير لن أنام حتى أرسل (ططرى)[57] إلى اسطانبول، لكنه أرسل توصية بترقيتي إلى رتبة يوزباشي"، في اسطانبول، أنعم عليَّ السلطان عبد الحميد خان الثاني بنيشان مجيدي، دورت في بازرات اسطانبول على أفخم طربوش واشتريته، ورجعت أخوض معركة جديدة، وأشار إلى حباب واستطرد: هذه المرة استوليت على مينائي الذي رسوت عليه أخيرا.

قاطعته وهي تهز رأسها نفيا: "لا، لا، أنت بس مو واخد بالك، أنت ما تعرف أنك كنت معركتي من زمن واجد ".

ابتسم بحيرة، استطردت تتحدث إلى الجالسين:

- " لما حضر إلينا وأبوه من إسكندرية، وأنا كنت صغيرة، اللي صار في الدار ما حدث من قبل، شهران قعد في دارنا، قلب حياة الشكرية، موائد وولائم، وأمي تقول: "علينا نفعل شنو، ونسوى شنو، وأنا أسألها لشنو يا أمي تاعبة نفسك"، تقول: "يا حباب من أجل خاطر عيون الولد الزين أحمد، وأنا أسألها شنو أحمد هذا؟ تقول لي ابن عمك سليمان، أنظره من خلف الباب ألاقيه يجلس بجوار أبيه متعاظما وكأنه الزير سالم. لما سافر قلت لنفسي يا حباب هذا الولد الزين بيصير لك"، وأشارت نحوه: "هذا اللي يقول أنا معركته، لا يدري أني قلت لبوى يا بوى، يقول أبوي نعم يا حباب، أقول نسافر إسكندرية وإلا بناتها يخطفون الولد الزين ابن أخيك سليمان".

لمعت عيناه بألق سعيد، وقالت وهي تنظر في عينيه:

- "أنت قومندان البحر، وأنا قومندان البر".

---

56) بحر أزوف: SEA OF AZOV

57) ططرى: رسول يحمل مراسلات الدولة والباب العالي

قام الملازم محمود العجيمي صاحب الدور المشهود في أنشاء تحصينات الدفاع عن قلعة (يلفنة)[58] في حرب القرم الثانية، وقدم لليوزباشي علبة أنيقة وهو يقول: " من أجمل ما وجدت في ضاحية "تقسيم" باسطانبول.

رفع غطائها وأخرج شارتين للكتف لرتبة اليوزباشي مشغولتين بخيوط الذهب، قال: أيه رأيكم افندم؟ كان الآميرلاي محمد عبيد سيعلقهما على كتفي، ولكن تعلمون ما جرى".

شرع يثبتهما على كتفي الحسيني وهو يقول: "وأريد القول إن زوجتي سنية هانم، قالت لي، ميصحش أن يسير وعلى كتفه رتبة ملازم أول"، وعندما انتهي ابتسم وقال: "أنت الآن قائدنا".

صفق الضباط، وعندما حل الهدوء قدم له سالم الفولى طاقما من الأزرار النحاسية اللامعة، وتبعته صفية هانم زوجة مصطفي العجيمي وقدمت له سجادة صلاة أحضرها والدها من مكة المكرمة، أميرة هانم زوجة حسن سليمان قدمت قفازين من الصوف صنعتهما بيدها، وقالت إنها صنعتهما من أجل زوجها، لكنه أحق بهما الآن، دفع الملازم عبد المبين زوجته سهيلة، تقدمت بصعوبة من فرط خجلها، وبين يديها سلة مغطاة بشرشف أبيض ناصع، وعندما وضعتها أمامه، قالت "هذا بخور يحرسك من الحسد".

هرج قليل اختفت بعده النسوة، ودون عمد أدار الملازم على شمروخ وجهه ناحية المرأة الفرنسية، وهو يربت على معدته: "أنا جعان"، وقال بحيرة إنه ليس لديه ما يقدمه. انحنت إليه وهمست بابتسامة قائلة: "لديك أنا".

- بتقولي إيه حضرتك؟

غمزت عينيها بتواطؤ: "قدمني إليه، هدية فاخرة؟"، أصدر صيحات تعجب ضاعت وسط النساء اللائي دخلن وخلفهن عساكر الخدمة يحملن الطعام، وألفت هانم تطلب من الجميع العودة إلى المائدة، انهمكوا في تناول الطعام، وهم يتبادلون الحديث.

---

58) موقعة يلفنة: وقعت في 20 يوليو 1877، أثناء حصار (يلفنة ـ **Pleven**) التي تقع شمال شرق العاصمة البلغارية صوفيا، قرب الحدود الرومانية، قاد الدفاع عنها عثمان باشا، ضد الحصار الروسي بقيادة جنرال تودلين، ونتج عنها هزيمة الجيش العثماني واستسلام عثمان باشا، للجنرال الروسي والقيصر إسكندر الثاني. (محمد فريد بك المحامي – تاريخ الدولة العلية صفحة 629 . الناشر دار النفائس – الطبعة الأولى 1881).

قبـل أن ينتهـي الطعـام جـاء صـوت المـلازم شمـروخ: "افنـدم عنـدي لحضـرتك هديـة" تطلـع الجميـع نحـوه وهـو ينظـر إلى فرانسـوا، قـال لا أعـرف إن كانـت تـروقكم أم لا؟"، صـفق بيـده وهـو يشـير ناحيتهـا: "أقـدم لكـم الآنسـة فرانسـوا. لوهلـة بـدت الهديـة تحمـل معـاني كـثيرة، لكنـه أضـاف: "سـتعزف لكـم مقطوعـة خاصـة". نظـروا حيـث انهمكـت المـرأة الفرنسـية في اللعـب بأصـابع البيـانو قبـل أن تنـتظم ضـرباتها لتعـزف مقطوعـة لشـوبان، عنـدما انتهـت وقفـت وقالت:

- "كان عليَّ أن أقدم لك أنا الأخرى تهنئة ما، هل هي مناسبة؟".

- مـن كـل بـد"، رفعـت فسـتانها قلـيلا وا نحنـت تبادلـه التحيـة، وقالـت بصـوت يحـوي جرسـا خاصـا: "سـأعزف لـك أخـرى"، وفي هـدوء شـرع الضـباط يستأذنونه الانسحاب.

سألته: "أسمعتها من قبل؟".

- نعم، ضوء القمر لبيتهوفن"، عزفتها أوبرا القاهرة.

جلسـا يتبـادلان الحـديث، قالـت: أنـت تـترك في كـل مـن حولـك انطبـاع جيد، لدى أيضا.

- يجـب أن أعـترف، هـذه أفضـل ليلـة مـرت علـيَّ منـذ زمـن طويـل. أرجـو أن تكون مشكلة اللوحات قد حلت".

ضـحكت: "كـابتن سـأقبل بغرفـة مخـزن علـى سـطح البـاخرة"، كانـت لا تـزال جالسـة علـى مقعـد البيـانو تضـم سـاقيها، وتحركهمـا يمنـة ويسـرى، أجاب: "ستجهز لك صباحا". وكأنهما يعقدان صلحا.

- "تعلمين، اللوحات التي رسمتها عن الصبية والنهر بها عنف وقسوة".

انعقد وجهها بغضب: " هل تتلصص عليَّ؟ من أعطاك الحق؟".

نظرهـا صـامتا، وقـام، قـال: "سـوف نتحـرك بـاكرا، يجـب أن أذهـب". تركهـا تضم فستانها الواسع على ساقيها وهى تتابعه يغادر القاعة بغيظ.

في الصـباح اعترضـته وهـو في طريقـه إلى قمـرة القيـادة، كانـت تجلـس أمام لوحتها، قدمت له مقعدا وقالت: "هل تمكني من أن أقدم لك نفسي".

وقفـت ثـم انحنـت تقـدم نفسـها بطريقـة احتفاليـة، ثـم اسـتقامت، امـرأة تنتمـي إلى قبائـل الغـال القديمـة، سـامقة، جسـد مـن رخـام، ووجـه بيضـاوي،

دارت نصف دورة وكأنها تستعرض جسدها، فدرات معها خصلات شعرها تكشف عن عنق عريض همست بصوت دافئ:

- "فرانسوا دى سابل، رسامة من مونتماتر، لأب كان قسيسا من القساوسة الثوريين، التقى أمي في روما وهو في رحلة إلى الفاتيكان، وانخرطا سويا في الدفاع عن كميونة باريس، خلال متاريسها عاشا قصة حب كُنت نتيجته، فلما مات بالسل عادت أمي تعمل موديل للرسامين، لقاء متع دنيوية ورضاء ذاتي، أما أنا فكبرت بين أرصفة مونتماتر، والحى اللاتيني، تسكعت في باريس، وفلورنسا، وتنقلت في أرجاء مدينة فينيسيا المترعة بفنون عصر النهضة، الذي انتصر للروح الفردية، وفي روما تعرفت على مايكل أنجلو، ودافنشي، وكابتن رودولفو كازاتى، وحانته الرخيصة، هذا أنا؛ هل فهمتني؟"

- أتعتقدي أن من السهل على المرء أن يفهمك؟

- "تعتقد أنى شخصية متقلبة المزاج".

- بقدر ما تعتقدي أنك فنانة.

شهقت: أهذا مدح أم قدَح؟

- أرجوك لا تبدئي الشجار.

تابعته وهو يرحل ، تقاوم خروج سيل الشتائم التي أصلته بها إلى العلن.

صعد الجند إلى السفن، وخفقت الأشرعة، وعازم أن يحتفظ بمسافة بينهما، لكنها دست له على العشاء، كتيب يشبه كتيب الإشارة، ضم رسوم لراقصة الكان كان، تحمل علمين من أعلام الإشارة، تشير في كل وضع من أوضاعها الراقصة، لحرف لاتيني، عندما قرأها رفع رأسه نحوها، كانت تحرك شفتيها الغليظتين، تعيد ما كتبته:

- "هذه أنا".

في اليوم التالي أعطته كتيب لرجل شبه عارٍ، يشير في كل صورة بالأعلام لحرف لاتيني، عندما قرأها، أشارت إليه هذه المرة دون أن تهتم بالآخرين وهمست بابتسامة عليها ملامح الطيبة:

- "هذا أنت".

لم يـتمكـن مـن رفـع رأسـه، في اليـوم الثالـث ألقـت علـى الطاولـة أمـام الجميع، (وهي تبتسم بإغواء)، مجموعة ثالثة، تحمل عبارة:

- "كابتن، متى تضاجعني؟".

اعتقـد أن علاقـة خاصـة نشـأت بينهمـا، لكـن سـرعان مـا أفـاق وهـو يلمحهـا تحـدق جامـدة الملامـح، في ذكـورة صـبية نـوبيين يسـبحون عـراة في النهر، عندما لمحته، ابتسمت بعينين خاملتين، وأشارت نحوهم دون خجل:

- "لا تلومني، سبق وحذرتك، أنا حددت شروطي".

اسـتغرقته الصـدمة، وفاتـه أن يلاحـظ أنهـا كانـت تتـابع عيـنين جاحظتين بالشهوة للشاب اليوناني الذي كان يراقب بنهم الفتية العراة.

* * * *

خط عرض ﴿ 18° ﴾



الملك نمر

(ملك شندي وآخر ملوك السعداب)

-8-

صار النيل أسير جرف من صخور نارية أعطت له اسمه "بطن الحجر"، على البر شيد المصريون القدماء قلعتا (سمنة) و(كوما) للدفاع عن الحدود الجنوبية لدولة الفراعنة، ونقشوا على الشفير الصخري مناسيب النيل، بعد الشلال الثالث اتسع النهر وأصبح وعرا، تنبثق من قاعه آلاف الجزر والكتل الجرانيتية الصلبة، تكسب تياره سرعة وتدفقا واندفاعا.

أبحرت الحملة على ظهر ثعبان خرافي، تلوى في بحر الرمال اللا نهائي، مخترقا بقايا قلاع شهدت المعارك التي دارت بين إسماعيل باشا(59) الذي قتله تهوره، وملوك الشايقية(60)، أرسل مقدمته، لمناوشة فرسان الشايقية، فأطبقوا عليهم كالضواري، وقتلوهم شر مقتلة، فطار صوابه، وتقدم في جيشه إلى حلة "أم بقر" الواقعة قرب "كورتى" الواقعة قرب خط عرض $\{18^0\}$، فامتطت مهيرة بنت الشيخ عبود شيخ بادية (السوارب) هجينها، وهتفت في قومها: "هيا بنا للدفاع عن بلادنا".

قاتل الخصمان قتال الأبطال، واقتحم مشاة الشايقية خطوط النيران المصرية، يعتقدون أن الأحجبة التي تدلت من أعناقهم ستحميهم من الموت، وبعد ثلاث ساعات كان قد سقط منهم ثمانمائة قتيل، في الصباح احتوى

---

59) إسماعيل باشا: ثالث أبناء محمد علي باشا، الكبير، وقائد أول حملة للسودان في العصر الحديث، جردها عام **1820** لضم السودان تحت السيادة المصرية، وكان الأمير إسماعيل في السابعة والعشرين من عمره، قتل مختنقا بالدخان في ديسمبر **1822**، في مؤامرة أعدها له الملك نمر ملك شندي، ردًا على إهانة وجهها له إسماعيل. الرافعي، عبد الرحمن"فتح السودان ."*تاريخ الحركة القومية، وتطور نظام الحكم، ج3 عصر محمد علي*، مكتبة الأسرة. القاهرة: **(2000)** مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص **170–171**

60) موقعة الشايقية: جرت في **4** نوفمبر **1820**، أمام قلعة كورتى، بين مقدمة الجيش المصري بقيادة إسماعيل باشا وضمت ثمانمائة فارس، وقبيلة الشايقية، وضمت ألف فارس، وألفان وخمسمائة من المشاة المسلحين بالسيوف والحراب، يتقدمهم رؤساؤهم مسلحون بالبنادق والسيوف والدرق، دعاهم إلى الطاعة ودفع الجزية ، وتسليم السلاح والخيل، أجابوه أنهم يقبلون الجزية بلا حرب، وأما السلاح والخيل فلا يسلمونها إلا بالحرب، علهم يفوزون وتبقى لهم.. نعوم شقير-تاريخ السودان الناشر دار الجيل **1981**

النهر عشرات الجثث وخضب بالدماء، وبعث إسماعيل باشا إلى نجوع السودان يعلن الأمان لكل من يأت مسلما، ومن لم يأتي سيحل به الانتقام. ثم تقدم إلى كورتى فأحرقها، وأقام على تخومها بانتظار المدد حتى جاءه الجنود والمدافع، فشرع في مطاردتهم ودمر قلاعهم واحدة بعد الأخرى، عندما أسرت قواته أبنة الملك "صبير" أكرمها إسماعيل باشا وردها إليه، فجاء لتلك المكرمة مسلما طائعا، واستسلم بعده الملك عمر، وفر الملك جاويش برجاله إلى "المتمة" واستسلم هناك.

* * * *

عند محلة "أبو حمد" التوى المجرى عائدا إلى الجنوب، أبحرت السفن في مواجهة التيار المتدفق بقوة الرياح، قرب محلة "بربر" قام الصول عطية وش الفار بجلد عددا من الجنود، بسبب تقاعسهم عن الخدمة"، وعند نهر عطبرة انتشرت عقوبة الجلد، هذه المرة قال وش الفار أن الفلاحين كسالى، ودواؤهم طعم السياط، لحظتها ينعدل السايب، و يخاف المربوط، أثار نواح أحد المعاقبين إنْتِبَاه شلعى وهو يبكي تحت ضربات السياط:

- "آه يا ابا، دم في (خراى)، ومغص في جنبي، ويضربوني ضرب البهايم في السواقي".

أمسك به من ياقته وهو يصرخ عليه أن يتوقف عن البكاء، وأن يكون رجلا، أجابه: "رجاله يا افندم، بس المرض مالهوش كبير". كان يعاني من ارتفاع درجة الحرارة، ويشكو من إسهال مخلوط بالدم والمخاط، فرز طبيب الحملة المرضى فبلغوا ثلاثة وأربعين مصابون بالدوسنطاريا، أقيم معزلا طبيا في سفن السلاح، وقد بلغ عدد الإصابات مائة وثلاثين جنديا، مات ثلاثة عشر بفعل التسمم.

* * * *

شندي

على سور الطابق العلوى للباخرة النيل تابع الملازم فوزي المرأة الصغيرة تلتحف بآخر أضواء الليل، وهي تنسحب أمام الصباح، وتعبر هاربة إلى قارب صغير، نقلها إلى الباخرة الخرطوم، حيث يقيم ضباط الصف، التفتت نحوه بنظرة ذعر، ثم توارت في غلائل الفجر.

منذ غادرت الحملة جنادل عبكة تحاشت الالتقاء به، وكان قد ضاجعها مرتين، منذ غادرت سفينتي السلاح مرفأ القصر العيني، هذه المرة كانت غاضبة، بكت، رجته ألا يدعوها إلى قمرته ثانية:

- أنا امرأة متزوجة.
- "هي العفة حطت عليك فجأة؟".

انطوت على نفسها كما فعلت كل مرة ضاجعها من قبل، وتركته يرحل وحيدا داخل جسدها، فلما بلغ مراميه، جمعت ذاتها المنكسرة، ولملمت عريها، وهي تود لو تواتيها الجرأة أن تقول له، إنها ما سلمت له نفسها إلا شفقة بوحدته، وهي ترى الخاتون تصده عن فراشها، وتغلق على نفسها باب مخدعها، ليبق وحيدا في ردهات القصر...

ودت لو تقول للسيد الذى تربت منذ نعومة أظافرها وسط خدم وعبيد لا يعرفون أمامه كلمة "لا"... الآن أنا زوجة تحاشت زوجها خوفا من أن يكتشف أن بكارتها أريقت في مداود الخيول... استدارت إلى الخلف، تراه يقف أعلى السفينة، تطلعت إليه بعينين صافيتين مغرورقين بالدموع، ورحلت في صمت.

في ضوء الصباح الشفيف بزغت "شندي"، بمبانيها ذات الطابق الواحد، ألقت الباخرة الخرطوم مراسيها على مشرع [61] شندي، وبجوارها ماعون التمساح، ووقفت بقية السفن في عرض النيل، استقبل الأهالي عسكر الجهادية بمشاعر عدائية، وسُمعت تكبيرات على المآذن في غير أوانها، شددت الحراسات، وقام الملازم طوبجي محمود العجيمي بتدريع جانبي الوابورين، ونصبت المدافع خلف الدروع، وانزل المرضى على نقالات في

61) مشرع: مرفأ نهرى

هـدوء، تـابعهم الأهـالي يعـبرون سـوق الرقيـق، إلى مشـفـي شـندي الحكـومي، حيث استقبلوا بصمت مريب.

شــق المـلازم محمــد فــوزي المــدي، وهـــو يســير في طرقــات شــندي، يتبعــه الشاويش مسـعد الرفـاعي، يبحث عـن قصـر الملك "نمـر" ذي الطـابقين، علـه يـرى المكان الـذي قتـل فيـه جـده الأكـبر يلمـاز[62] بـك السـلحدار، والـذي عـبر فيهـا عـن مثـل نـادر للـولاء للعائلـة العلويـة، عنـدما ألقـى بجسـده علـى إسماعيـل باشا[63] كي يقيه الموت محترقا، فمات كلاهما مختنقان بالدخان.

في الغســق بلغــا قلعـــة "عبــد الــرحيم شـــنان"، ســأل عـــن صــديق قــديم لشـوكت باشـا، أمـام بوابتهـا الشـرقية ألتقـي بالشـيخ ريحـان الطيـب ود سـالم، اسـتمع الشـيخ العجـوز الموغـل في القـدم متوجسـا لحـديث الضـابط الشـاب، وقـد بـدا لـه مثـل جـده "يلمـاز بـك" غـافلا عـن مـا يجرى في السـودان، وبـين فينـة وأخـرى كـان يسـأله إذا كـان أحـد لاحـظ قدومـه، قـال المـلازم، وهـو يقـدم للشـيخ كيسـا مـن النقـود، أن جـده شـوكت باشـا أوصـاه ببنـاء قـبر لأبيـه "يلماز بك"، وقراءة ختمة القرآن الكريم، رحمة على روحه".

تنـاولا القهـوة، ونفثـا الـدخان، وحملـه الشـيخ تحياتـه للباشـا، وطلـب ألا يـذكر اسمـه إذا اسـتخدم الـبرق، سـأله المـلازم: متـى يمكـن أن يعـود للقائـه، فاسـتنكر الشـيخ، ونعتـه بالجاهـل، وطلـب منـه أن يرحـل وألا يعـود ثانيـة، وودعه وهو على يقين من أن الحفيد سيلقى مصير الجد.

رحـل الشـاب حـائرا، وطـوال الطريـق إلى المرفأ لاحـظ الحقـد يشـع في نظـرات الأهـالي، وكـأن التـاريخ يعيـد نفسـه... تـذكر حكايـات أبيـه وجـده شـوكت باشـا عـن المدينـة الواقعـة علـى خـط عـرض {16:7^0}؛ "شـندي" عاصـمة مملكـة (السـعداب) أحـد بطـون قبائـل (الجعليين)، والـتي قامـت علـى أنقـاض مملكـة مـروى القديمـة، انـتقم المـك[64] "نمـر" مـن إهانـة الأمـير الـذى ألقـى في وجهـه بغليونـه، بعـد أن فـرض عليـه جزيـة قـدرها ألـف أوقيـة مـن الـذهب، وألـف جمـل أصـهب، وألـف ناقـة منتجـة، وألـف بقـرة، وألـف شـاة وألـف عبـد وألـف جاريـة، وهـو مـا لم يكـن بمقـدوره، إذ أن جـيش الباشـا كـان قـد

---

62) يلماز : لا يسئم، قوي الإرادة **Yımaz**

63) جاء على ذكر سيرته في حاشية سابقة

64) المك: تعنى الملك في اللهجة العامية السودانية

سلب غالبية ممتلكاتهم، الغليون الذي ألقاه إسماعيل باشا في وجه الملك الذي تمسك في عزة وفخار بانتسابه إلى العباسيين انتهي بمذبحة، في البداية أظهر الملك الامتثال، وأضمر الغدر للابن الوحيد الباقي على قيد الحياة لمحمد علي باشا، والذي كان مفخرة أبيه بين الأوروبيين كرجل دولة شاب، لكن لله في شؤون عباده علات، في اليوم الذي سبق موته أنشد الشيخ عبود شيخ بادية السوارب[65] للأمير:

أيا راكبا يسري على متن ضامرا … إلى صاحب العلياء والمجد والبرّ

ويطوي إليه شقة البعد والنوى … ويقتحم الأوعار في المهمة القفر

وينهض من مصر وشاطئ نيلها … وأزهرها [66] المعمور بالعلم والذكر

لك الخير أن وافيت شندي[67] قف بها … وقوف محب وانتهز فرصة الدهر

وألق عصا التسيار في صرح أنسها … تجد كل ما تهوى النفوس من البشر

فاعتقد أن القصيدة كتبت في مديحه، ما جعله يدخل على ملك السعداب ويهينه، وكان الملك نمر قد علم بما قاله الشيخ عبود السوارب للأمير إسماعيل، فأنشد يقول ما أنشده رجل حصيف:

يا راقد الليل مسروراً بأوّله … أن المكاره قد يطرقن أسحارا

لا تفرحن بليلٍ طاب أوّله … فربّ آخر ليلٍ أجّج النار[68]

في مساء ذاك اليوم أقام ملك السعداب مأدبة عشاء وحفل بالدلوكة على شرف الأمير المصري الذي سبق وأن هزمه غروره، فأكل وأصحابه وشربوا الخمر، وأثناء الحفل حاصر دار الضيافة ثلاثمائة فارس وأربعون

---

65) قصيدة ألقاها الشيخ عمر المغربي في مدح الملك "بادى أبو ذقن ملك فونج وسنار" الذي حكم في القرن السابع عشر بعد غزوته التي فتك فيها بقبائل الشلك، وجبال تقلى. نعوم شقير، تاريخ السودان، الناشر دار الجيل **1981**، صفحة **105**.

66) يقصد الأزهر الشريف : المصدر السابق

67) البيت في الأصل: " لك الخير أن وافيت سنار قف بها.. وقوف محبٍ وانتهز فرصة الدهر" المصدر السابق

68) قيلت الأبيات للشيخ عدلان شيخ الشكرية اللاهي عن المكائد التي يديرها له أخوه وأعوانه عام **1804** : المصدر السابق صفحة 119

عبدا مـن خاصـة رجـال الملـك، وأحاطوهـا بالقصـب وأشـعلوا بهـا الـنيران، فـاجتمع عليـه أعوانـه يقـوه الموت حرقـا، فمـات مختنقـا، ومـن نجـا نكـل بـه الجعليـون وخوزق، في انتقام مريع.

قوبـل النبـأ في القـاهرة بالـذعر والغضـب الشـديد، وانطلقـت ريـاح الانتقـام، وشـن محمـد بـك الـدفتر دار يعاونـه "محـو بـك" حربـا ضـد الجعلـيين تؤججهـا شـياطين الـدمار، فطـاردهم وقاتلـهم، وقطـع الأيـدي والأرجـل، وجـدع الآذان، وقتـل الآلاف وحـرق "المتمـة" و"بربـر"، و"تـوتى"، ولم يـنج الأسـري مـن الانتقـام، وحُملـت نسـاؤهم الأحـرار سـبايا إلى القـاهرة، وتحالفـت قبائـل الشـكرية مـع الـدفتر دار، وطـاردت الفـارين مـن أعـوان الملـك الهـارب، وتعقبـت قبائـل الشـايقية الجعليين طمعا في أراضيهم.

وجـازى الباشـا محمـد علـى حلفـاءه؛ فـأعطى الشـكرية منطقـة البطانـة، وجعلـوا "سـوق أبـو سـن"، القريبـة مـن "القضـارف" عاصـمة لهـم، ومـنح الشـايقية أراضٍ للجعلـيين، وفي 1857م أصـدر الخـديوي سـعيد عفـوا عامـا عـن كـل من حمل السلاح ضد الغزو المصري، بمن فيهم عائلة الملك نمر.

*   *   *   *

غسـل العسـكر مـاعون الجنـود وسـفينة السـلاح بالمحاليـل المطهـرة، ونبـه علـى الجنـود ضـرورة الاهتمـام الشـديد بالنظافـة، وغسـل اليـد قبـل الطعـام وبعـده، وفي رواح اليـوم الثالـث سـأل فتـى عـن شـخص يـدعى يلمـاظ، فخـرج إليـه فـوزي، فـألقى إليـه ببقجـة بهـا ملابـس سـودانية، اسـتدعي الشـاويش مسـعد والشـيخ عبـد المعـز، وسـاروا خلـف الصـبى يرتـدون الـزي السـوداني، والذى لم يخفى بياض وجهه.

أمام قلعـة شـنان وجـد الشـيخ يجلـس أمـام قـبر بـني حـديثا، وسـط دراويشـه، يقـرأون القـرآن الكـريم، وثـلاث ذبـائح مـن الأبقـار معلقـة مـن خطـاف، رفـع عبـد المعـز كمـه، وخلعـوا أحـذيتهم، وشـرعوا في الوضـوء، وأم الشـيخ عبـد المعز صلاة الجنـازة علـى يلمـاز بـك، فلمـا انتهـوا مـن الصـلاة والـدعاء للمـوتى بالرحمـة، وزع الشـيخ لحـم الـذبائح علـى اليتـامى وذوى السـبيل، وأسـرع

مسعد في همة إلى مساعدته، ورتل الشيخ عبد المعز آيات الذكر البينات، صمت الحضور، واستمعوا لحلاوة صوته، وجمال تلاوته.

مال الشيخ ريحان على الملازم وهمس:

- "يا زول عساكركم بالشفخانة، تاخدوهم معاكم ولا تتركونهم".

- "صعب يا شيخ، يموتوا منا في الطريق".

- "يموتوا في الطريق، يموتوا بقطع الرقاب، يموتوا في الحريق، كله موت مقدر عند ربك ذو الجلال".

ضاقت عيناه مصعوقا، في الطريق حاول أن يعرف من الفتي ما يخفيه، لاحظ عيناه لا تغيبان عن الخنجر الذي يتدلى من خصر الشاويش مسعد، أخذه عنوة، وأعطاه له، ومسعد ينبهه: يا سعادة الباشا دا عهده ميري.

أمسك به الفتى، يقلبه بين يديه، قبض الملازم بأصابعه الحديدية على كتفه، ونظراته الصقرية تخترقان عيني الصبي، همس في أذنه:

- " ممكن جدك يكون قتل جدي؟".

- "وين جدي شاف جدك يا زول".

- "قول إيه اللي بيحصل؟".

- "الأنصار[69] تبي تدخل الاستبالة وتقطع رقاب العسكر".

- وإيه اللي مانعهم؟".

- "الأهالي يخافون منكم".

أعلنت حالة الاستنفار، وجمعت العساكر واخلي البر، وفي عتمة الليل احتل الجنود الطريق الواصل بين مشرع شندي والمشفى، تسلل شمروخ وحسن في جلباب وعمامة سودانيين، وفي هدوء غادر المرضي من عسكر الجهادية المشفى، عائدين إلى معزلهم في سفينة السلاح الصافية.

قبل الغلس[70] دارت ماكينات الوابورين، وضرب الهواء بطون الأشرعة، وخرجت القافلة إلى عرض النهر، وقد أصبحت على بعد يوم من الخرطوم.

* * * *

---

69) الأنصار: عندما أعلن محمد أحمد بن عبد الله أنه الإمام المهدى، انضم أتباع ومشاعين في أرجاء السودان، كان يشكلون في مواطنهم تحت قيادة الفقهاء جماعات من الأنصار والأتباع للدعوة المهدية.

70) الغلس: ظلام آخر الليل قبيل البلجة.



ذهبية على النيل

العتبة الثانية

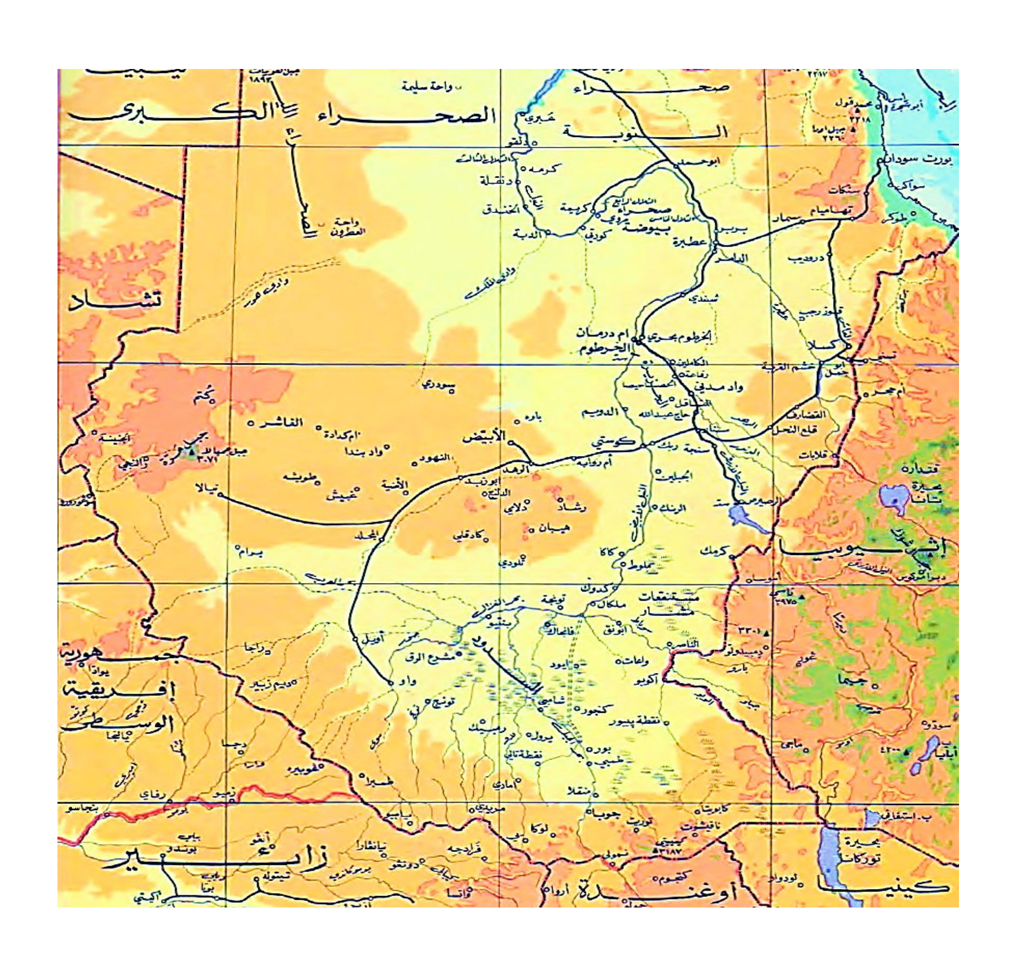


. . يأتيه الليل بجثث نافقة

تكثم على أنفاسه . . يختنق . .

يدفعها عنه دون جدوى . .

وبانتظار الموت . . لا يجد سوى النيل ملاذ


الصحراء الكبرى
النوبة
تشاد
الخرطوم
أم درمان
كسلا
الأبيض
الفاشر
إثيوبيا
جمهورية إفريقية الوسطى
زائير
أوغندة
كينيا

السودان

-9-

الخرطوم

فبراير 1883

أطفأت المراجل، وطوت السفن أشرعتها، بانتظار دخول الميناء، شدت حباب على يد ابنها، ووقفت تشهد مسقط رأسها، وقد طفا وسط مرج من الألوان؛ ذهبية مضفورة بشمس الصباح، رمادية من الطين الذي خلق الله منه البشر، صفراء من صحراء القبائل العربية التي استوطنتها، سوداء من لون سكانها الأصليين.

تهادى قارب بجوار الباخرة، وصعد منه معاون الميناء، يتبعه شيخ يرتدى جلبابا وعمامة ناصعتين البياض، بدا مثل نخلة في وادي النيل، تشهد التاريخ ولا تهتز بمجرياته، قدم الحسيني التحية العسكرية للصاغ، وتوجها إلى قمرة القيادة، ووقف الشيخ يتفرس في الأرجاء، يسأل النساء:

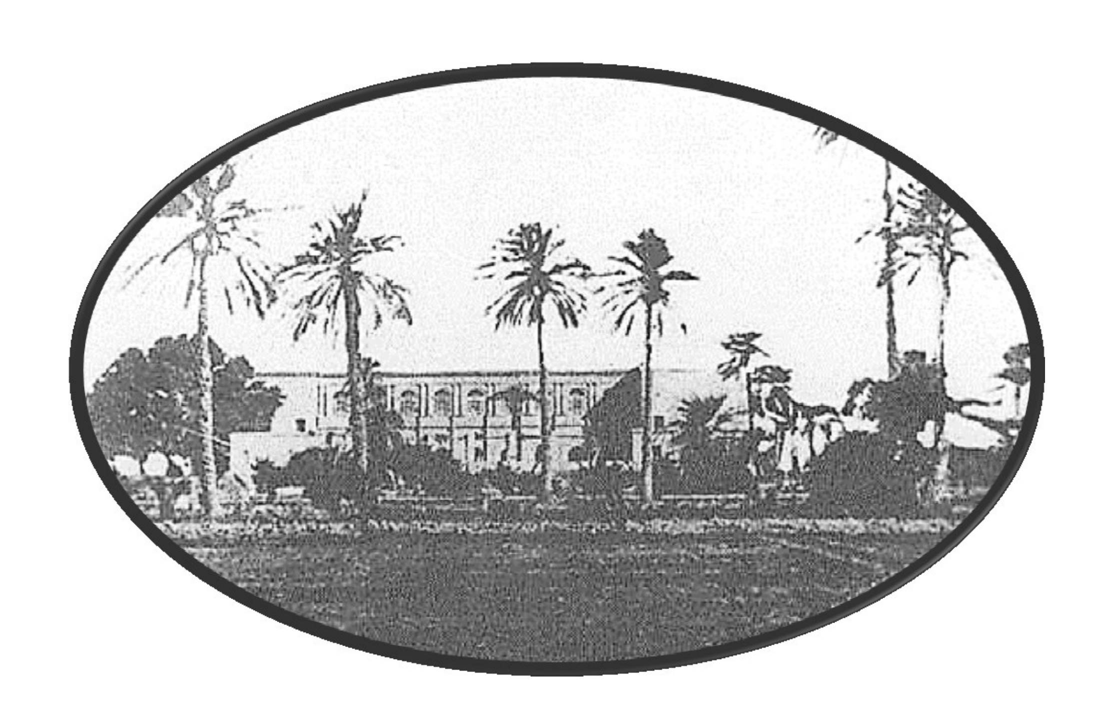
- "يا بنتي، وين مرة أحمد أفندي سليمان".

اندفعت حباب، تقبل يد والدها الشيخ إدريس الدغيم أبو سن، حط بكفه الرخصة على رأسها، فسقطت على الأرض تقبل أقدامه، وصوتها يشنج بالبكاء، طفرت الدموع من عيون النساء، وقد جذبهن طعم الضحكة العالية، التي تفيض بحَلمَ وورع، لا يملكه سوى أهل السودان، ربت على كتف ابنته، فحلَّ بها الأمان، أسرعت تقدم ابنها، وهي توشوش في أذنه: "بوس أيد جدك يا جعفر". نظر الصبي لسحر هذا الشيخ الذي غير حال أمه، وتقدم بخجل، رفعه إلى صدره، واحتضنه بحنان:

- "تعال يا ابن الغاليين".

أسرع ملازم يقبل يد الشيخ، ويهتف: "عمى، أنا حسن ود سليمان أخوك"، رنت ضحكة الشيخ واحتضنه:

-"ابن الحبايب، تعال في حضني".



1880

قصر الحاكم المصري في الخرطوم

غادر الملازم أحمد سليمان قمرة القيادة، ليلتقي عمه وحماه، احتضن كل منهما الآخر، كان يجمعهما طول القامة، وقهوجية اللون، وسحر ابتسامة السودان، وقبل أحمد يده، سأل الأب ابنته بعتاب:

- "وين مرة حسن؟".

كانت تتوارى خلف النسوة، تخفي خجلها، جذبتها حباب عنوة:

- "بسم الله ما شاء الله تبارك ما خلق، هادى زوجتك يا حسن، زين ما اخترت، أهلا يا بنت الكريم، أبوك الشيخ عبد الواحد البيطاش له فضل علينا، فتح لنا داره يوم كنا أغراب، ندور ورا الشيخ أحمد أبو سن[1] وهو بالسجن، وهسه أنت مرة ابننا، بارك الله فيكِ.

وكى لا تثقل المدينة (التى أنشأها المصريون حديثا)، على القادمين من ثورة مهزومة، راحلين إلى أراض مجهولة، أخفت الخرطوم عنهم عيون المجاذيب، التى بثها المهدى فى الأزقة والدروب، تتجسس على ما يجرى، و تنتظر الوقت المناسب لتنقض عليها كي لتسقط فى حجر الدرويش الذي أذاع بين قبائل العرب؛ أن سيد الوجود أتاه فى اليقظة، وأخبره أنه المهدي المنتظر الذي سيملأ الأرض عدلا بعد أن فاضت جورا وظلما، الموكول به العودة بالمسلمين إلى أصول الدين، بعدما لم يبق من الإسلام إلا اسمه، ومن القرآن إلا رسمه.

---

1) فى 16 يناير 1857 زار سعيد باشا والى مصر السودان، ولم تعجبه الأوضاع، فأقر إخلاء السودان، والتخلي عنها، لكن أعيان البلاد ومشايخها توسلوا إليه بإلحاح أن يعدل عن رأيه، وقالوا إذا أخليت البلاد عمت الفوضى، وربما لحق أذاها مصر، فعدل عن رأيه وأمر بعدة إصلاحات، فضم الخرطوم وجزيرة سنار في مديرية واحدة، ونظم البريد بين الخرطوم ومصر وسيرها على الهجن على طريق (كورسكو)، وخفض ضرائب الأطيان والسواقي، ومنع الجند من جمعها، وأناط ذلك بمشايخ البلاد، وقرر جمعها بعد الحصاد وليس قبله، وأمر بعقد ناد من الأعيان في الخرطوم للنظر في راحة البلاد، وأعلن عند وصوله (بربر) أبطال تجارة الرقيق، وأنشأ محطة عسكرية على نهر (شُبت) لمراقبة تجارة الرقيق وقطع دابر النخاسين، وقد رأى ضرورة لزوم تقريب السودان إلى مصر، فقرر إنشاء خط للسكك الحديدية بين حلفا والخرطوم، إلا أن ميزانية مصر لم تمكنه من إخراج المشروع إلى حيز الوجود.

كان سعيد باشا قد اصطحب معه اراكيل بك الأرمني، وعندما نظم المديريات ، عزل على باشا شركس وعين اراكيل بك حكمدار للخرطوم، وقد امتاز بحسن السياسة ولين العريكة، وقد أنكر مشايخ الشكرية وغيرهم على سعيد باشا تعين نصراني من غير دينهم حاكما عليهم، فأبو مقابلته وجمعوا جموعهم للثورة عليه، فركب أراكيل بك هجينه وسار وحده حتى أناخ بين يدهم، وقال "أن كنت أنا السبب في عصيانكم فها أنا بين أيدكم افعلوا بي ما شئتم، على أن تعودوا إلى الولاء، إذ يعز على أن تخرجوا عن طاعة ولى أمركم بسببي"، فعجب زعماء الثورة على جرأته وحسن أسلوبه وطابت نفوسهم، ورجعوا عما عزموا عليه، وصحبوه إلى الخرطوم، وعلم سعيد باشا خبر الحادثة، فبعث في طلب زعماء الثورة، فأرسل له الشيخ أحمد أبا سن شيخ الشكرية، والفقيه إبراهيم عبد الدافع صاحب تاريخ سنار، فسجنهما في الإسكندرية مدة ثم أفرج عنهما وأرجعهما إلى السودان بعد أن حلفا يمين الطاعة. ناعوم شقير، تاريخ السودان، دار الجبل، بيروت، طبعة 1981، صفحة {221 / 229،228}

- "العفو يا ابا". قبلت يده، وقد أوجد العالم لها أبا حين عز الأب.
- جهزوا أغراضكم وتعالوا. استطرد موجها حديثه لزوجها:
- "كلم مرتك يا حسن".
- حالا يا عمى.

تبادلت النسوة الوداع، وبكين، وحباب تقول: " وين أروح أنا، هسه أجي؟".

سأل الشيخ ابنته: "هادول نسوان الضباط العرابين". ونادى زوج ابنته:

- "يا احمد يا ود سليمان، كلهن ينزلوا في ضيافة الشكرية"، وأضاف مشددا: "ما يرحن ثكنات الجيش، هسه نبعت الحنطور يجيبهن.

انطلقت العربة تشق شوارع الخرطوم، وفي حي "حلة الصبابى" المخيم بالأشجار، اقتحمت حباب بوابة الدار الكبيرة، وهي تولول وتنادى أمها: "وينك يا أماي".

جمع البكاء والضحك والعناق والقبلات فرح العائلة، والأب يشاهد زوجته وأبنائه ويضحك.

من الدار الواقعة في الحي الذي يرتوى بريح الصبا، خرجت عربتان مطهمتان إلى الميناء، لتحمل عائلات الضباط من المرفأ، لتنزل في ضيافة كرم القبائل العربية العريقة.

* * * *

شقت الأورطة التاسعة شوارع الخرطوم، التي اختارها الميرلاى عثمان بك جركس البرنجى مقرا للأورطة الخامسة التابعة لحملة محمد على باشا، لموقعها الكائن على رأس دلتا النيلين الأزرق والأبيض، ثم جعلها خورشيد باشا عاصمة للسودان، فأحضر المهندسين والحرفيين من مصر لإعمارها، وأقام الجسور لحمايتها من الفيضان، وأعاد تخطيط أحيائها، وتشييد أبنيتها الحكومية على نمط المدن الحديثة.

سار العسكر في صفوف متراصة إلى ثكنات الجنود بحي العرضى[2]، تتقدمهم الأعلام والموسيقى، وسط زغاريد النساء، وتهليل

---

2) العرضي: الجيش

الأطفـال، يقلـدون سـير العسـكر علـى الطبـول والنقـارات، وعلـى سـلالم الميناء الحجرية جلس المرضـى، بانتظار عربات تقلهم إلى مستشـفي الخرطـوم العسـكري، والخلـق تفـر مـن حـولهم، وكـأنهم يحملـون الطـاعون، في الظهيرة حضر شبعى وشمروخ ومعهما عربات تجرها البغال.

قبـل مغـادرة القـوات مـاعون الجنـد، أنتحـى الشـاويش مسـعد بالباشـا الصغير، وطلب منه وهو يضحك أنه يريد ألا يقضـي فـترة إقامة الأورطة في الخرطوم، وسط ثكنات الجند.

- عاوز تقعد فين؟
- عاوز أخد بيت أنا ومبروكة.
- لية؟
- يا افندم أنا لسة مدخلتش دنيا، البت "معصلجة" مش عارف لية؟
- طب والبيت ح يعملك أيه؟
- أهه.. نروق ونستريح، والباقي على الله.

شـعر فـوزى بأوداجـه تنـتفخ، وفكـر أن هـذا سيسـهل عليـه أيضـا اتصـاله بالمرأة الصغيرة:

- وماله.. طيب ح أشوف يا مسعد.
- الله يعمر بيتك يا سعادة الباشا، ويعلى مراتبك كمان وكمان.

* * * *

أمـام بوابـة المستشـفى الـذي غـص بـالجرحى مـن محـاربي القبائـل المواليـة للحكومـة، رفـض الحـرس السـماح لهـم بالـدخول قبـل موافقـة المـدير، في مكتـب القومنـدان تلقـى شـلعى مـن البكباشـى طبيـب يوسـف الـدمنهوري رفضا قاطعا، قال إنه لا ينقصه وسط الحرب الدائرة، سوى أن يسمح بدخول الشـفخانة[3] جـيش مـن الدوسـنطاريا، رجـاه شـلعى أن يجـد حـلا لعـلاج جنـوده، نصـحه القومنـدان بإقامـة معـزل طـبي في مـاعون الجنـد، وسـوف يـوفر لـه الأطباء والأدوية اللازمة.

3) شفخانة: شفاء خانة، مستشفى فى اللغة التركية.

في مكتب الأفراد لاحظ شمروخ أن الصول الجالس على المكتب ينظر إلى شلعى بتمَعُنْ، وبُؤبُؤ عَيْنيه يدور في محجريهما، وكأنه يرى الموت يصعد من مقابره، أنهي كتابة الأدوية المطلوب صرفها، وقام يدور حول نفسه في حاله مشوشة، سأله شلعى بجفاء:

- مالك يا حضرة الصول فيه حاجة غلط؟ خلصني عاوز أرجع الأشلاق.
- قدم الصول كرسيا للملازم وطلب منه الجلوس:
- "صنقر يا زول[4]، هسه قاعد؟".
- ما أنا قاعد قدامك.
- من وين تجى؟
- جرى أيه يا حضرة الصول حتفتح معاى تحقيق؟
- "أعذرني يا زول واشرب الجبنة[5]"،
- عبد المبين أفندي شلعى. هذا اسم حضرتكم؟
- أيوه.
- عبد المبين أفندي أنتم من السودان؟

* * * *

---

4) صنقر يا زول: تعنى فى اللهجة العامية السودانية اجلس يا رجل.
5) الجبنة: تعنى القهوة فى اللهجة العامية السودانية.

الدار الكبيرة

بعد أن أصبح حاكما للخرطوم، شيد أحمد بيه أبو سن ناظر نظار الشكرية الدار الكبيرة من الطوب الآجر المنقول من بقايا مدينة سوبا، والأخشاب التي وزعها موسى باشا حمدي[6] على الأهالي، استنكر إخوته الأمر، فقال بسخرية "ما عاد يليق العيش في زرايب، صار الشكرية أرباب حكم، ولازم يا زول يكون لهم دار في العاصمة"، عندما وافته المنية أوصى أخيه الأصغر عوض الكريم[7] باستكمال بنائها.

في صحن الدار الكبيرة نحَرَت الإبلَ، وسط صراخ الأطفال وعراكهم، وصخب النساء الصغيرات وضحكاتهن، وارتفع دخان المواقد، وانهمكت الإماء تحت إشراف سيدة الدار "أم الزين"، في صنع الطعام[8].

تغمض مريم عيونها وتبكي فريدة وهما تريان فورات الدم تنطلق غزيرة من نحور البقر، تطيب أميرة من خاطر ابنتها، وتجرى فريدة غاضبة تدفن رأسها في صدر أمها، وهي تشير إلى خوار بقرة ذبيحة وتقول: "سامعة يا أمي تبكي، البقرة تبكي"، تمسح ألفت دموع ابنتها، بينما تهدل الدموع من عيونها.

وفي زرائب الدار الخلفية يقف جعفر وسط أبناء عمومته فخورا بنفسه، وبأبيه القوم ندان البحري، يكايدهم بأنه المسافر إلى البرارى والغابات، ليصطاد الوعول والغزلان، ويقاتل الأسود والنمور، وأنهم ليسوا سوى رعاة بقر وأبل، ما يتسبب له عن أذى شديد، فعدلان ابن خاله عوض الله لا يقبل بأن يهدد غريب زعامته لأطفال الدار، يتقاتلان، يقاوم جعفر بضراوة خصمه الذي يكبره بأعوام، يأمرهم عدلان بأن يجتمعوا عليه، تدافع عنه مريم وفريدة، ليأتي دورهما في العقاب، يطلب جعفر أن يتحمله عنهما:

---

6) موسى باشا حمدي: حكمدار السودان السادس عشر (1863ـ1865) قدم خدمات جمة، وقابله أهل البلاد باحتفال عظيم، وأرسل إلى المديرين ومشايخ البلاد وأعيانها فعقد معهم مجلسا وسن قوانين جديدة، فجعل منهم نظار أقسام ومعاونين، وأعطى كل فلاح "سركيا" بيده ليعلم ما عليه من ضرائب، فتحسنت جباية الأموال، وقمع عدة ثورات في كردفان ونقلى، وأوقف تعدى الأحباش على الحدود، وحصن مدينة (القلاقبات) وأقام حولها استحكامات منيعة وحصنها بالمدافع وأورطتين من عسكر الجهادية. نعوم شقير، تاريخ السودان، دار الجيل، بيروت، طبعة 1981، صفحة 230

7) عوض الكريم أبو سن: حصل على رتبة الباشوية عام 1872، وكان له الفضل فى تأمين سنار من تمرد أنصار المهدى الذي قاده الشريف أحمد طاها، وهدد به "أبو حراز" فى مايو 1882.

8) أطباق الطعام سودانية: مَفْرُوك واللايُوقْ والوَيكَة والروب، والكَمُونِيّة والجَقاجِق والفَشْفَاشْ:

- يا ود الشكرية الكثرة تغلب الشجاعة.
- "وشنو فيه يا ابن المصري؟".
- "أنا من ود الشكرية، وجدي جعفر الطيار، يا عدلان يا ابن عوض الله".

يظهر شبح لشخص قادم، يختفي الفتيان، يكتم جعفر آلامه، ويطلب من الطفلتين ألا تخبرا أمه، ترى حباب أبنها يخفي دموعه، ويمشي وهو يتأرجح كمن يسير على الجمر، تصاب بالخبل، توشك أن تقتل الجميع، يتوارى أبناء العمومة من شراسة عمتهم، وهم يتوعدونه بالعقاب، وهم يعيرونه بمن يحتمى بالنسوان.

يغادر الرجال إلى الثكنات، تدفع "أم الزين" ابنتها إلى الشونة، تهدر فيها:
- "إيش تسوى يا بنية؟".
- شنو يا أماي.
- خدي صحباتك السوق، اشترى اللي يعز عليك تلاقيه في بلاد السود، خديهن "ضوخانة زنانة"[9]، روحي عن نفسك وعن صحباتك.

تابع الملازم أحمد سليمان صيانة سفن الحملة، وقد تحولت المنجرة[10] إلى ساحة عراك، بين ورش النجارة والبورجية[11] وورش القلفطة[12]، وقف يشكو حاله لقومندان الترسانة، الذي عنفه:
- " محدش فاضيلك. شنو! أنت يا زول، أحمد ربنا، أنى سمحت لك تدخل أحواض الصيانة". وأضاف: " أنت نسيب الشيخ إدريس بيه أبو سن؟".
- نعم حضرتك. جنابك لازم تساعدني، السفن حالتها سيئة.
- "خلص صيانة هياكل السفن هنا، وكمل الباقي في ترسانة (ود شلعى) القديمة".

* * * *

9) ضوخانة زنانة: حمام النساء.
10) المنجرة: ترسانة الخرطوم البحرية أقامها خورشيد باشا لصناعة السفن، أطلق عليها الأهالي (المنجرة)
11) ورشة البورجية: ورشة ثقب الأخشاب.
12) القلفطة: حبال قطن منقوع فى زيت جوز الهند، توضع بين الألواح الخشبية للسفن لمنع تسرب المياه.

اقتحمت النساء سوق الخرطوم كإعصار، تجولن بين سوق البلح والبخور والعطور، وفي سوق القماش ابتعن ثوبا سودانيا من الحرير، في الظهيرة دلفت حباب بهن إلى حمام النساء، ترددن لكنها زجرتهن:
:"شنو فيكم يا بنات، ما تريدون فتنة راجلكم؟".

كان استنكارا يصعب مواجهته، جلسن في قاعة الحمام، وحباب تنبئهم بالهول القادم، هسه تيجى البلانات، حبيباتي الحلوات، من منكم تبى تدير حلاوة".

- "حلاوة!".
قالت بلهجة تعليمية ساخرة: "نحن السودانيات نعمل الحلاوة بطريقة جميلة، تنظف جسمك وبتعطيك نعومة ولا أحلي.

تدافعت الشقيقتان صفية وسنية جوارها: "أنا.. أنا.."، وحباب تقول:

- "كلكن بإذن الله وبمشيئة الله وعلى بركة الله، من أجل خاطر الزول المسكين راجلكم".

دخلت الإماء حاملات إناء به سائل له لون العسل الذهبي، دفعت فرانسوا البلانة عنها، هتفت حباب: حبيبتي أنت اللي خسرانة، لك حق، ما أنت ماليكيش راجل، عشان تصيري حلوة وناعمة.

نهرتها فرانسوا، وطلبت عودة الجارية ثانية، واندمجت معهن، يرحل الألم وتحل بشرة ناعمة مدرجة بحمرة الورد.

وسط البخار الساخن جلست النسوة في مناشفهن، مستسلمات للارتخاء الجميل، وحباب تقطع الفاكهة، وتقول بنبرة هادئة:
- " هسه أسوى لكم الدلكة، تخلى بشرتكم كيف رقة الياسمين".
- " الضلكة".
- "الدلكة"، "شوفي يا حبيباتي الحلوين، ما سمعتن عن المثل السوداني اللي يقول، "ما في مرة تمت دلكتها".
- " بتقولى إيه يا خالتي"؟
انهمكت حباب في خلط الفواكه، وقد خيم على المكان سحر عالم ألف ليلة وليلة وقالت: "صلوا على النبي الكريم"، غابت النساء في فتنة حمامات الشرق، وأجبن: "عليه ألف صلاة وسلام".

ـ تحكي لكم حباب بنت الشيخ إدريس بيه أبو سن، حفيدة جعفر الطيار، من هاجر الهجرتين، وأقنع نجاشي الحبشة باستقبال المهاجرين، وخسر ذراعيه وقدميه، فأخبره الرسول: إن الله أبدله جناحين يطير بهما في الجنة، صلوا على النبي العدنان.

ـ عليه ألف صلاة وسلام.

ـ هسه يا نسوان الضباط العرابين، أحكي لكم كيف المرة السودانية تسحر راجلها، وتخليه يوم الدخلة خاتم سليمان في صابعها، هادى "دلكة المحلب" من أذكى وأجمل الدلكات، ومستحيل تتزوج "مرة" سودانية من غير دلكتها، تاخدها معاها من بيت أبوها لبيت جنازتها، قصدي عرستها.

وضعت الإناء على النار، تقلب ما فيه: "دلكة الدخلة" يا حرائر العرب، يا بنات المسلمين أول ما تستخدمه العروس وين ما تدخل غرفتها، ويتمدد العريس في ليلة دخلتها، وهو في شوق لفتنتها، تستحي عنه كيف ما نصحتها خالاتها، وتمد تجيب زبدية[13] فيها دلكة المحلب، تدلك بيها صاحبنا الغلبان، ظهره شوية وصدره شويتين، ويا ويلي على مفعول هادى العطر على المسكين، ما يشم رائحته، ويشعر بأيدين عروسته، نهدها يحتك مرة في صدره، مرتين في ضهره، طبعا يا بنات من غير تقصد، أيوه ما تكونوا سيئات النوايا يا حلوين.

ـ يحصل إيه يا خالتي؟

ـ أصبرى يا حبيبتي؟

توزع عليهن الدلكة: هاذي رهيبة، حاسبي على بدنك يسيح وعضمك يشف يا سنية.

ـ أزاي يا خالتي؟

ـ لما تصير بشرتك كيف الزبدة الناعمة، و يحضنك راجلك راح تسخني، وطبعا ح تسيحي عليه يا عينية.

تنفجر النساء في الضحك، تستفيق سنية من غفوتها، تهمس بصوت ناعس: "كملي يا خالتي".

13) زبدية: إناء لتناول الحساء

كـان الضـحك هـذه المرة عارمـا، فقـد اسـتكثرن علـى تلـك المـرأة الرقيقـة، الضامرة، الصغيرة العينين، أحلام الشبق الأنثوي، لكنها لم تأبه بهن:

- "يضحكوا على مين، عاملين مؤدبات، الحب مفيهوش أدب يا خالتي".

- يا حنينة يا موزة، يا بخت محمود افندي العجيمي.

أجابتها بنبرة تمثيلية: "تشكرات كثيرات يا خالتي".

- "أمـا بعـد يـا بنـات الأصـول، فـإن العـروس اللـي أوقعـت نفسـها في شـرك الصـياد، وكـل ذنبهـا أنهـا نفـذت وصيـة خالاتهـا بلعـب دور الضحيـة، فينقلـب عليهـا عريسـها انقـلاب عزيـز مقتـدر، يأخـذها في أحضـانه، وقبـل أن تسـتوعب مـا جـرى، تسـقط الزبديـة مـن أيـدين الصـبية، وتنـدلق بقيـة الدلكة، وكيف ما قال أهل السودان، ما في عروس تمت دلكتها".

في الليـل انفرطـت النسـوة مـن حـول فرانسـوا، تـابعتهن تتسـربن خلسـة، وتخـتفين داخـل القيعـان المغلقـة، حيـث وقـف الرجـال يخلعـون عـنهن أثـواب الحرير، تتفتق عن أديم مترع بالعطر، وأبدان مشتعلة باللذة.

خفـف أحمـد عـن جسـد زوجتـه ثوبهـا، وشـرع يخلـع قميصـها، دفعتـه، وقامـت تحمـل ابنهـا النـائم، وهـي تتوعـده بـألا يغتالـه النـوم، وإلا سـتغتاله هـي، تسللت لتضع الصبي بجوار أمها، سأل أبوها: "منو هذا؟".

قالت والخجل يعتصرها: "جعفر يا باتى يبى ينام في حضن جدته".

في الـرواق الخـارجي اصـطدمت بهـا أمـيرة تحمـل ابنتهـا مـريم، وهـي تسـألها بوقاحة: "أحط البنية دي فين؟".

- هاتيها.

أخـذتها حبـاب وعـادت إلى حجـرة نـوم أبيهـا، طرقـت البـاب ثانيـة ودخلـت تضع الطفلة في صمت جوار أمها، لمحت الأسنان اللؤلؤية لأبيها يسألها:

- "ومنو هادى؟".

- مريم بنت حسن

وخرجـت تجـرى والخجـل يعصـف بهـا، هـذه المـرة لم تسـطع أن تكـتم الضـحكة الهـادرة الـتي عصـفت بهـا، كانـت ألفـت تقـف في الـرواق الخـارجي تحمـل فريـدة، أخـذتها حبـاب وهـي تـردد لنفسـها: "يـا كسـوفك يـا حبـاب شـنو أقـول لبـاتي"، لكنـه أعفاهـا مـن السـؤال، وتـرك الفـراش إلى كنبـة مجـاورة، وأدار ظهره وغط في النوم.

في الصباح خرجت النسوة من مضاجعهن وبشرتهن موردة بحمرة الدماء التي جرت في عروقهن ليلا، وكل واحدة منهن تحمل الماء الساخن إلى حيث يتحمم رجلها، وكلما التقت نظراتهن انفجرن في ضحك مكتوم.

* * * *

هذه ليلة المواجهة، فكرت مبروكة ابنة الحاج حسن سائس الخيول أنها لن تستطيع أن تتفادى المحتوم، سوف يعلم ابن الخولي، وهما على بعد الدنيا من قريتها أنها ليست الزوجة البكر، التي لم يمسها رجلا من قبل.

كان ينهي حمومه، يغني مسرورا، جمعهما ظلام الليل ، وبينما كانت أفكارها المشوشة تأخذها إلى الصدفة التي جعلتها تشاهد سيد القصر الصغير، يغادر مخدع زوجته مطرودا، لتراه قادما كل ليلة وهو يترنح من السكر إلى إسطبل الخيل، لكي يخفي عن الجميع ورطته التي أوقعه فيها عدم قدرة زوجته الخاتون على تحمل هول ذكورته.

وفي المرة التي سقط فيها غائبا عن الوعي، كان القيئ يغمر ملابسه، أخذته إلى الداخل، ونضت عنه ملابسه، وغسلته، وهى لا تدري هذا الهول الذى تروح إليه، ليستيقظ الباشا الصغير في أحضان ابنة السائس، وعندما ولجها تلك الليلة والليالي التي تلتها لم يلقى منها معارضة، كذلك الصراخ والغضب والألم الذي واجهه من "ورد الجنان"، ظنه رضي وقبول، بينما الأمر لم يتعدى لدي ابنة السائس سوى الاستسلام لابن الباشا وصاحب السلطان، الطيب مع خدمه، المهذب مع أبوها، أما الألم فلم يكن سوى مقدار كستبان[14] من جرة خضوع الخدم لأسيادهم.

لكن أول الليل (وللغرابة) مر على مبروكة بنشوة وسعادة عارمين، وهى تقلبت بين زراعي شاب، يتناولها كحنطة قمح مغموس في العسل الإلهي للحب، وعندما أشرق الصباح كانت على استعداد لاستقبال الفاجعة برضا وقبول، بكل ما ينوي زوجها من الحكم عليها؛ الرجم، الذبح، أو الموت غرقا في النيل، لكنه أختفي ليعود في آخر الليل يمسح عنها دموع الخطيئة بمشاعر الغفران، ونهر المحبة.

---

14) كستبان: مقياس في حجم إصبع الإبهام

وطوال الأيام التالية وحتى مغادرة الحملة الخرطوم، لم يتمكن الباشا الصغير من الاتصال بها، وكأن جنية العشق أخفتها في جزر "الواق واق السبعة".

* * * *

في الدار الكبيرة حاولت فرانسوا أن تتوارى من بهجتهن، في عالم الوحدة، لكنهن لم يتركوها لوحشتها، ففي المساء اجتمعن حولها، أخذنها إلى حمام ساخن، ودهن جسدها بالطيب من البخور والدلكة، وقبل أن تؤذن مآذن الخرطوم لصلاة العشاء، لفت النسوة جسدها العاري في ثوب سوداني من حرير زاهي بألوان البهجة، فبدت مثل شجرة سرو يتوهج على قمتها وجهها الثلجي وعيناها الذكيتان، نظرت فرانسوا إلى المرآة بعجب وقالت بحزن:

- "والآن، هل ستقدمونني هدية إلى رجالكم".

ترجمت ألفت عبارتها وهي توشك على الموت ضحكا، أصبن بالغضب، وألقوها بكل ما تصل إليه أيديهن من وسائد، وهتفت أميرة:

- "إذا أكرمت اللئيم!".

طالبتهن بالتوقف وهي تعتذر، طرقت حباب رأسها بطرف أصبعها:

- "وإياك أن تفكري وإلا ذبحتك"، تتابعن يهددونها بالويل لو فعلت.

- "أتحبوهم إلى هذه الدرجة؟"، والآن، ماذا سأفعل بما فعلتموه بي؟".

أعادت أميرة هندامها، وسوت صفية خصلات شعرها المطلة من الثوب الذي لف منتصف رأسها، قالت فرانسوا وهي تبتسم بعذاب:

- " أخبريني ألفت، ما الذي سأفعله؟".

- إنه يجلس وحيدا في قمرته في الباخرة النيل؟

استطردت وهي تهز ساقيها بتوتر: "تقدموني خدمة للقومندان؟".

قاطعتها حباب وقالت بحزم: "لا يا ستي نقدمه خدمة لك".

- "أنت صعبانة علينا".

- "هيا الحنطور في انتظارك على البوابة، ياخدك الميناء، قارب بانتظارك، يوصلك الباخرة، والباقي عليك".

دفعتها النسوة الصغيرات، والعربة تنطلق إلى الميناء، لاحقها صوت حباب ألا تخبره بما فعلن، وبسطت ألفت يديها كمن يبسط بساطا:

- "مع السلامة يا كليوباترا".
- "ماذا؟ وهل أنا ذاهبة لأنطونيو".
- أنطونيو وقيصر وبومباي وكل أباطرة روما.
- فكرتك عنى وحشة قوى.

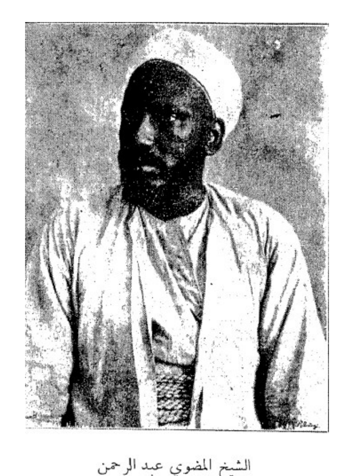
تحت المطر الغزير تسلل شبحا على ضوء النجوم ملتحفا بساري، إلى الباخرة، سمع اليوزباشي طرقات خافتة، كانت تخفي وجهها المبلل وتقول:

- "من فضلك عاملني مثل هدية، جارية أتتك في سارى من الحرير".

حملها بساعديه وألقى بها إلى الفراش مبقيا على طرف الساري في يديه، تدحرجت مغمضة العينين لتنضوي عن عري، حاولت أن تخفي بساعديها ما يمكنها منه.

اقترب هامسا وهو يحتويها بجسده: "دعينى أغطيك".

* * * *



الشيخ المضوي عبد الرحمن

منذ الصباح الباكر تهيأت الدار الكبيرة لاستقبال عوض الكريم باشا ناظر نظار الشكرية، وحكمدار السودان وسنار السابق، انفردت "أم الزين" بزوجها وطالبته بالتدخل للإبقاء على زوج ابنتها في الخرطوم:

- "قلبي مقبوض واكلني على البنية، دير شيء قبل ما تندم".

انتفض وكأن نار لسعته: "شنو زوج بنتك مو راجل، تبيه يحتمى في مرته"، نادى ابنته، يطلب منها أن تبقى معهم لحين، بكت حباب، هاجمته زوجته بنظراتها، فما بال الرجال بمشاعر النساء، ليبقى الندم يعصر القلوب، أمام المصير الذي أعده القدر لرجال الشكرية ونسائها.

تــوارد أعيــان الشــكرية، وحضــر الضــباط فــي الــزي الســوداني[15]، دار الحـديث عـن الثـورة العرابيـة، قـالوا إنهـم تعرفـوا علـى بعضـهم أثنـاء انضـمامهم للحــزب الــوطني الســري[16]، بعضــهم كــان مــن حــرس الشــرف الــذي حمــل الدســتور مــن الحكومــة إلى مجلــس النــواب، وأغلــبهم خــاض الحــرب ضــد الغــزو البريطاني تحت قيادة الأميرلاى محمد بك عبيد.

وحكــى الشــيخ "المضــوى عبــد الــرحمن" مــن زريــة الشــيخ إدريــس ود الأربــاب، أبــن الأزهــر الشــريف، قصــته مــع المهــدى، الــتي بــدأت بعــد انتصــاره في موقعــة جبــل قــدير، وأبيــد فيهــا جــيش الحكومــة المؤلــف مــن أربعــة آلاف عســكري، الأمــر الــذي أعتــبره النــاس تأييــد مــن لــدن الله ســبحانه، ودليــل قطعــي علــى عجائبــه ومعجــزات، هــاجرت إليــه كــي أقــف علــى الحقيقــة، فوجــدت حولــه خلــق مــن أخــلاط النــاس، فقهــاء وعلمــاء ديــن آمنــوا بأنــه المهــدى المنتظــر، لا اســترابة وارتيــاب، وخلفهــم كافــة العــوام، ومــنهم مــن رأى أنــه ســاحر، انتصر في الحرب باتصاله بالعالم السفلى، واستخدام الجن والعفاريت.

سأله حسن: يا فضيلة الشيخ، كيف حسمت أمركم؟

- ارتبــت فيــه، مــا كــان بالإمــام العــادل المنفــذ لشــرع الله، أبصــرته يــؤثر أقاربــه وأخصــاءه عنــد توزيــع الغنــائم، وبعــض أعوانــه عصــابات تهــاجم قوافــل التجــار، يقتلــون خلــق الله وينهبــون أمــوالهم، وهــو يعلــم الأمــر، فــلا ينكــر علــيهم ذلــك، ولا يوقــع بهــم القصــاص، ولــو اكتفــي بــأن يــؤمن بــه مــن يــؤمن، ومــن لا يفعــل فعليــه وزره لهــان الأمــر، لكنــه قــال إن ســيد الوجــود أخــبره بــأن طاعتــه واجبــة، وأن مــن لم يتبعــه، وأنكــره فهــو كــافر، ودمــه هــدر، ومالــه غنيمة، وتعلمون أركان الإسلام خمسة، ليس من بينها الإيمان بالمهدى.

ســأله اليوزباشــي -الــذي كــان علــى موعــد قريــب للقــاء عبــد القــادر باشــا- عن رأيه في حاكم السودان.

- رجــل زيــن وعســكري مقــدام، أحــل الطمأنينــة بــين الأهــالي، وأطفــأ الثــورات الــتي قامــت في الجزيــرة وســنار، يــدعو عليــه المهديــة بــالقول: "اللــهم يــا قوى يا قادر أكفنا عبد القادر".

15) الزي السوداني للرجال: جلباب أبيض وعمامة، وملفحة ومركوب.

16) الحــزب الــوطني الســري: تأســس فــى حلــوان وضــم أغلــب زعمــاء الثــورة العرابيــة، وأطلــق أولى منشــوراته فــى 1878، طالــب بإعــادة الأمــلاك الخديويــة إلى الحكومــة المصــرية، وإلغــاء تخصــيص عائــدات الســكة الحديديــة للقــرض الممتــاز، وضــم ســائر الــديون فــى ديــن واحــد تضــمنه وتراقبــه الأمة، ورفض التدخل الأجنبي فى الشأن الداخلي

علـى مـدخل القاعـة ظهـر رجـل ضـخم مهيـب الطلعـة، وحولـه عـدد مـن المسلحين، تدافع أبناء الشكرية يقبلون يديه، قال الباشا:

- " شـنو يـا إدريـس تـدير علـى "حزازيـر"[17]، صـاروا جميعـا سـودانيين، ويـن ولاد أخوك؟

تقدم الملازمان يقبلان يده، مسد رأسيهما بمودة:

- "مرحلين على المديرية الاستوائية؟".

- "نعم يا سعادة الباشا".

- "مرحلين ولا منفيين يا ود سليمان".

- "يا سعادة الباشا ما يخفي عليك شيء".

- وأنت شنو رتبتك؟

قال أحمد سليمان بابتسامة ثقيلة تخفي شعوره بالحرج: ملازم.

- "شنو زوج بنتك هذا؟ يتقدم ولا يتأخر، مو قلت صار يوزباشي؟".

- "الثورة العرابية يا باشا ما تركت له شيء.

تجهم ناظر الشكرية وسأل عن ابن أخيه الآخر، فقال الشيخ:

- نفس الطينة، شنو تقول في ود سليمان، شطار كيف أبوهم.

- "ومـين في الشـكرية (كـد) أبـوهم سـليمان!"، وهسـه خبرونـي لـيش الجيش يتمرد على مولانا الخديوي؟

لاحظ الباشا النظرات المتبادلة بين الشقيقين، فقال للأكبر:

- "اسمـع يـا أبـني، اليـوم مـا في كـبير ولا صـغير، بـدى أسمـع جميـع ولاد الشكرية، ها يا حسن إيش بدك تقول؟".

- يـا سـعادة الباشـا العـالم أتغـير، والنـاس عنـدها رغبـة في الـتخلص مـن الاستبداد، وبنـاء دولـة حديثـة، تنبـذ سـلطة الفـرد، وتـديرها سـلطة منتخبـة مـن عموم الناس، ولها مرجع أعلى فوق السلطات.

- يعنى إيه يا ود سليمان مرجع فوق السلطات؟

- يـا عمـى، في الدولـة الحديثـة المواطنـون أحـرار متسـاوون، جمـيعهم تحـت القانون سواء. والدستور أسمى القوانين، حتى الخديوي عليه الانصياع له.

- وشنو دخل الجيش؟

- أحنا لا أتراك ولا عبيد مجلوبين، إحنا ولاد الشعب.

---

17) حزازير: ألغاز

- ها، أولاد الشعب، والدستور هذا سلطته فوق السلطان أمير المؤمنين، وخليفة رسول الله عليه الصلاة والسلام؟

- " خليفة رسول الله إنسان يجوز له الصواب وعليه الخطأ.

ضحك الباشا ضحكة مجلجلة، يرى الأمر كطرفة:

- "يعني أنتم يا ولاد سليمان تبو دولة مفيهاش كبير!، هدا خطأكم يا إدريس، ليش تركتم أخوكم يتزوج مصرية؟".

- "ما أنت تعرف يا باشا، كنا ندور في أبونا الشيخ أحمد أبو سن شيخ الشكرية والفكي إبراهيم عبد الدافع، والناس ضيفونا وأكرمونا حتى وقع سليمان في غرام الإسكندرية، ونسوان إسكندرية، شو نسوى أنا".

- "شنو أسوى أنا مع ابن أخوك الثورجى هذا، يريد تدمير أي سلطان، هذا يحكموا عليه بالإعدام مو بالنفي".

- يا باشا أنت الكبير، وأمرك واجب النفاذ.

دخل العبيد يحملون العشاء، انكبوا يأكلون، والعقول مشغولة بما سوف يأتي عقب العشاء، الذي بدأ بشجار، هاجم فيه الشيخ عبد الله ناظر شكرية "القضارف" الحسيني، عندما أعاد المرة تلو المرة أن عرابي كان مشغولا في مواجهة حصار البحرية البريطانية للإسكندرية.

- "يا زول، معقول هذا"؟

- الخديوي والسلطان رفضا مطالب الثورة برفع عدد الجيش.

حاول الشيخ إدريس التأكد من مخاوف بزغتِ لتوها:

- وهسه إذا الإنجليز يحتلون مصر، وين الجيش المصري؟

- بعد هزيمة الثورة أصدر الخديوي مرسوما عاليا بإلغاء الجيش المصري.

تراجع الباشا وهو يلقى برأسه إلى الخلف:

- أنتم منو؟ شو تسوون؟

خيم الحرج على العرابين، خطر لخلاف أن يقول: " نحن فلول جيش مهزوم"، لكنه اكتفي بالقول إن ما يشغل مصر والسودان هو تحديث البلاد، وبناء سكك حديدية تربط شمال الوادي بالبحيرات العظمى.

الفولى هرب من الجدل الدائر، ومال على عوض الله ابن الشيخ إدريس، وسأله بابتسامته التائهة أن يدله على ماخور يعج بالنساء، أجابه بتواطؤ، "أن حي الحريمات يزدحم بالمواخير".

فـوزي هـزَّ كتفيـه متجـاهلا الأمـر، وتـذرع بـالقول إن السـودان أكثـر غموضا من الثورة العرابية، هاجم ناظر شكرية القضارف الحسيني

- "حضرة اليوزباشي، هسه تقول مفيش جيش مصري يحمى السودان".
- لما اسـتقرت الأمـور أعـاد الخـديوي اسـتدعاء الجـيش، وأرسـل إلى سـواكن خمسة آلايات مصحوبة بطوبجية الصواري.

صاح الباشا: "أهه، عرابي باشا نسى السودان، وسمو الخديوي ما نسى".

شـعر الضـباط العرابيـون بالأزمـة، وكلمـا أوغـل الليـل سـاد الوجـوم، وبـدت النهايـات السـعيدة بعيـدة المنـال، فالسـودان لم يكـن في حسـبان الثـورة، ولا في اعتبار قادتها، كانوا منشغلين في بعث الفلاحين من شرنقة التاريخ.

فيمـا بعـد غـاب العـزاب عـن دار الشـكرية، وأقـام الحسـيني في عـرض النهـر، وأقنـع الفـولى حلـيم ومقلـد بقضـاء الليـل معـه وسـط غـوانٍ يشـتعلن بمجـرد الملامسـة، وصـدرت الأوامـر إلى فـوزي وشـلعى وشمـروخ بالإبحـار بخمـس سـفن إلى الترسـانة القديمـة في مشـرع "ود شـلعى"، مـا أعفـا الجميـع الإجابـة عن الاتهام الموجه إلى الحكومة المصرية بالتخلي عن السودان.

* * * *

علـى إيقـاع دقـات الـدفوف، ارتفـع ذكـر الله في سـاحة إحـدى الخـلاوي بقريـة (العيلفـون)، تمايـل ظـلال المجاذيـب والـدراويش تحـت المشـاعل، يهتفـون بـذكر الله الحـي القيـوم، والمنشـد يهـيم عشـقا فـى مـديح رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم، ، تصـدر الشـيخ عمـر الشـلح في رداءه الأزهـري ضـبط الإيقـاع، تقـديرا لنزولـه في ضـيافة صـديقه، ورفيـق دراسـته في الأزهـر الشـريف الشـيخ المضـوي عبـد الـرحمن، وكـان قـد عـاد إلى قريتـه هـو وأسـرته هاربـا، بعـد أن التحـق بالمهـدي فيمـا أسمـاه دار الهجـرة فـى (قـدير)، بعـد انتصـاره على حملة الشلالي، ثم تراجع عن ذلك.

كـان الشـيخ عمـر الشـلح، قـد اصـطحب معـه زمـلاءه مـن أئمـة الحملـة، وكـانوا يتيهـون بالـذكر وقـد بلغـوا مـن النشـوة في الوجـد الإلهـي منتهـاه، وخاصـة أن مضـيفهم غمـرهم مـن كـرم السـودان فـيض مـن المحبـة، ومائـدة عـامرة بالـذبائح، وهـو لا يتوقـف عـن اسـتدعاء ذكرياتـه عـن حيتـه مجـاورا

للأزهـر الشـريف، ورواق المالكيـة، والحيـاة في دروب قـاهرة المعـز لـدين الله، حتـى دخـل علـيهم رسـول مـن الشـيخ أحمـد عبـد الغفـار مـن عـرب كنانـة (كركـوج)، وكـان أحـد اتبـاع المهـدي، فنهـرهم عـن فعـل المعاصـي، واتبـاع البـدع الـتي نهـى عنهـا خليفـة رسـول الله الإمـام المهـدي، وانتحـى بالشـيخ المضـوي في حجـرة، ينقـل لـه دعـوة شـيخه للعـودة عـن مخالفـة الإمـام المهـدى والهـرب مـن صحبته.

دار حـديث طويـل وجـد الشـيخ عمـر الشـلح نفسـه متورطـا فيـه، ارتفـع الصـياح في سـاحة الـذكر قادمـا مـن الـداخل، توقـف الحضـور، ووقـف المشـايخ علـى بـاب الحجـرة يسـتمعون إلى الجـدال الـدائر بـين الرسـول وكـبير مشـايخ الحملة:

- كيف بالله تدعوا المسلمين للامتناع عن ذكر الله.

أجـاب الرسـول موجهـا حديثـه للـواقفين علـى البـاب: نعـرفكم أيهـا الحبـاب أن الإمـام المهـدي خليفـة رسـول الله صـلي الله عليـه وسـلم، وخـاتم الأوليـاء علـى الأطـلاق عنـد أهـل الظـاهر والبـاطن، ومعلـوم عنـد جميـع أهـل البصـائر، يأمركم بترك الطرق والامتناع عن البدع.

قاطعه الشيخ عمـر، فمـن هـو الـذي يُعلـم شـيخ أزهـري حاصـل علـى العالميـة الأزهرية صحيح الدين؟

- لـو أمعنـتم النظـر لعلمـتم أن الأمـر واضـح كالشـمس، فمولانـا وإمامنـا علـى نـور مـن الله وتأييـد مـن رسـوله، وموعـود بأنـه مـن يرفـع المـذاهب ويطهـر الأرض مـن الخـلاف، ويعمـل بالسـنة، حـتي لا يبقـي إلا الـدين الخـالص فتنبهـوا، وافتحـوا قلـوبكم وتوقفـوا عـن جميـع الطـرق والبـدع الشـيطانية، وتوسـلوا بالإمام المهدي عليه السلام، وعضوا عليه بالنواجذ"

- أعلـم أن مـا تقولـه أنـت هـو الـرجس عينيـه، فلـيس لـديكم علـى المسـلمين حجـة، والـدعوي بـأن شـيخكم تلقـى الأمـر مـن الرسـول في المنـام، مخـالف لظـاهر الشـرع، والمهديـة ليسـت نبـوة أو رسـالة وغايتهـا الخلافـة، فأنكارها لا يوجب كفرا ولا خروج عن الإسلام.

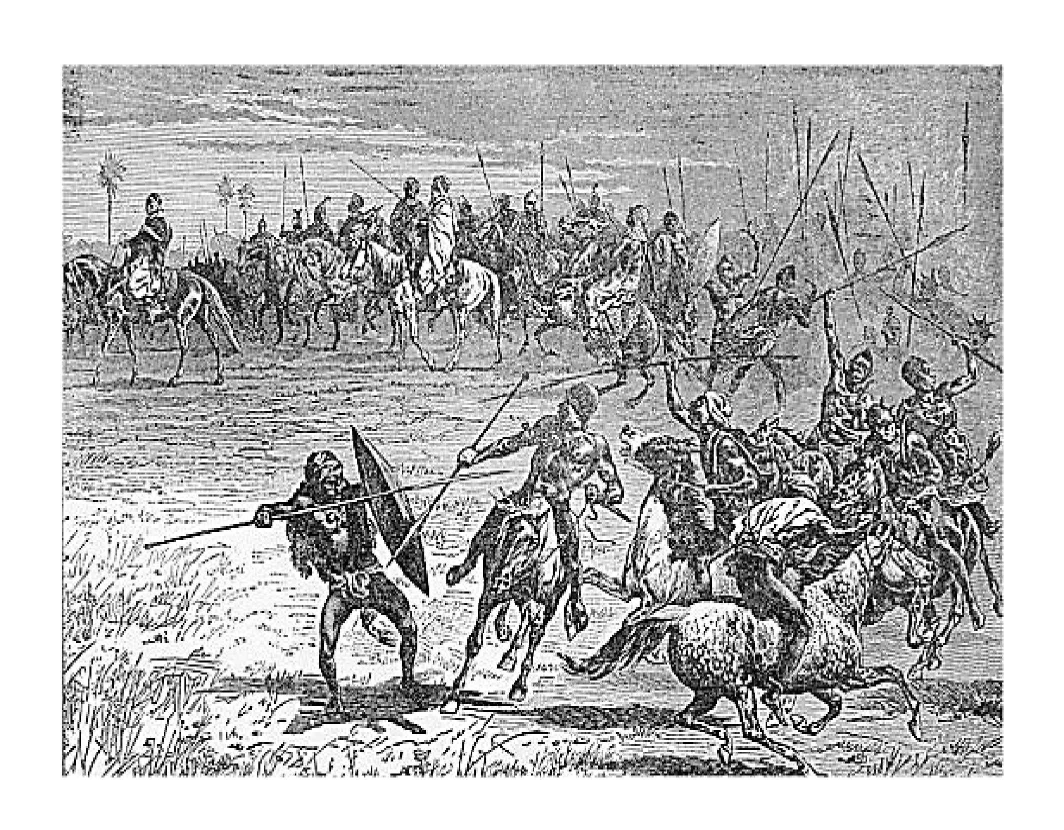
انفجـر الرسـول بالغضـب: يـا علمـاء السـوء تصـومون وتصـلون وتتصـدقون وتدرسـون مـا لا تفعلـون، فمـا سـوء مـا تحكمـون، تتبـاهون بـالقول، وتعملـون

بـالهوي وجلـودكـم وقلـوبكـم دنسـة، كـيـف يـدرك الآخـرة مـن لا تنقضـي مـن الـدنيا شـهوته، ولا تنقطـع عنهـا رغبتـه، بحـق أقـول لـك، أفسـدتم أخـرتكـم بفساد دنياكم

تـدخل الشـيخ عبـد المعـز يهـدئ الشـيخين، ويـوزع مسـكرات، علـى الحضـور، وهـو يقـول: يـا عمنـا، يـا مولانـا الـدين ديـن النـاس، والإسـلام ديـن الدنيا والأخرة، وعلـى الـدعاة أن ييسـروا ولا ينفـروا، يـا سـيدى فيها فيـه أيـه لما نـذكر الله، فيهـا أيـه لم واحـد يسـلم روحـه في محبـة الله، أنـا أحاسـبه؟ أنـت تحاسبه؟ لا يا مولانا.. الحساب حساب المولى عز وجل.

- يا صغير ح تعمل شيخ بجد.
- الكلام ملافظ.
- أنا أقول الحق، والحق ما فيه حلو ووحش.
- كـده، طيـب، سمعـت حـديث الرسـول عليـه الصـلاة والسـلام، "لا يـزداد الأمـر إلا شـدة، ولا الـدنيا إلا إدبـارا، ولا النـاس إلا شـحا، ولا تقـوم السـاعة ولا على شرار الناس، ولا مهدي معصوم إلا عيسي بن مريم"
- يعنى لا مهدى إلا عيسي، ويمكن لا يوجد مهدي مطلقا.

* * * *



- 10 -

يوم وطأت أقدامه الخرطوم في 11 مايو 1882، كان أول ما شاهده رأس الشيخ الشريف أحمد ود طه السماني معلق على أبوابها ، والمدينة خاوية من الجنود، عارية بلا دفاع ولا تحصينات، تنتشر حولها الثورة كالهشيم، يتربص بها الذئاب للانقضاض، والخوف والرعب يعصف بأهاليها ، بعد أن أرسل جيكلر باشا حكمدار السودان السابق حاميات العاصمة والجزيرة وسنار ، لدعم حملة الشلالي.

وسط هذا البحر الهائج فتح الفريق عبد قادر باشا حلمي خرائطه، يبحث عن مكان مناسب لتحصين موطأ أقدامه، استدعى من شرق السودان ست أورط من الجنود النظامية، وأنشأ ست أخرى من السود، دربها بنفسه، بعد أيام حمل البرق نبأ رفع الشيخ محمد الزين فكي[18] التكارنة راية المهدي، وزحفه في جموع هائلة من عربان "رفاعة الهوى" على سنار ، فأرسل السر سواري على أغا كاشف ومعه ألف من العسكر المدربة، فأوقع به في أبو شوكة هزيمة قاسية، وعاد برأس الشيخ محمد الزين إلى سنار .

كانت تلك أول انتصاراته، لكن البرق حمل هزيمة يوسف باشا الشلالي في جبل الجرادة، والتي خسر فيها الجيش ثلاثة عشر بلوكا من العساكر النظامية وألف وخمسمائة من

18) فكي: فقيه



الإمام المهدى

محمد بن أحمد بن عبد اللّه بن فحل

الباشبوزق[19] والخطرية، وكان المهدي قد خرج في فجر الاثنين 29 مايو 1882 شاهرا سيفه، يكبر ويقول، "أتانا الخبر من سيد الوجود بأن نوجه الجيش للحرب، وأن نكون يد الله ومشيئته في قتل أعدائه"، وهاجم زريبة الشلالي بخمسة عشر ألف من أنصاره فتمكنوا من أخذ عسكر الحكومة وهم مستغرقين في النوم، بعد أن أمضوا ليلتهم في بناء الخنادق والتحصينات، واستيقظوا والأنصار يعملون فيهم قتلا.

هو فن التحصينات المنيعة الذي برعت فيه العسكرية المصرية، وجغرافيا الخرطوم الواقعة على رأس مثلث ضلعاه النيلين الأزرق والأبيض، رأى قاعدته الجنوبية مفتوحة على الخطر، فأعطى أوامره إلى يوزباشي أركان حرب خليل فؤاد بغلق هذا الجرح المفتوح، بإنشاء خندق يصل النيلين، وحصنه بأبراج مسلحة بالمدافع والحرس، وفي اليوم الذي انهى تحصيناته، ذهب الخوف عن قلوب الأهالي وعادت الطمأنينة والأمن للمدينة.

وإزاء رغبة اتباع المهدي التي لا تهدأ في الاستيلاء على مدينة السودان الأكبر والأقدم، قرر تحصين سنار، فأرسل خليل أفندي فؤاد على متن الوابور "البردوين"[20]، ومعه عشرات البنائين وأدواتهم، وقام بإنشاء سور عريض يضم مزاغل لإطلاق النار، وخندقا عمقه ثلاثة أمتار وعرضه متران، وخلفه زربا[21] قويا من الشوك، ثم أعفى الأتراك من القيادة، لعدم تحملهم المسئولية، ووضع بدلا منهم أبناء السودان.

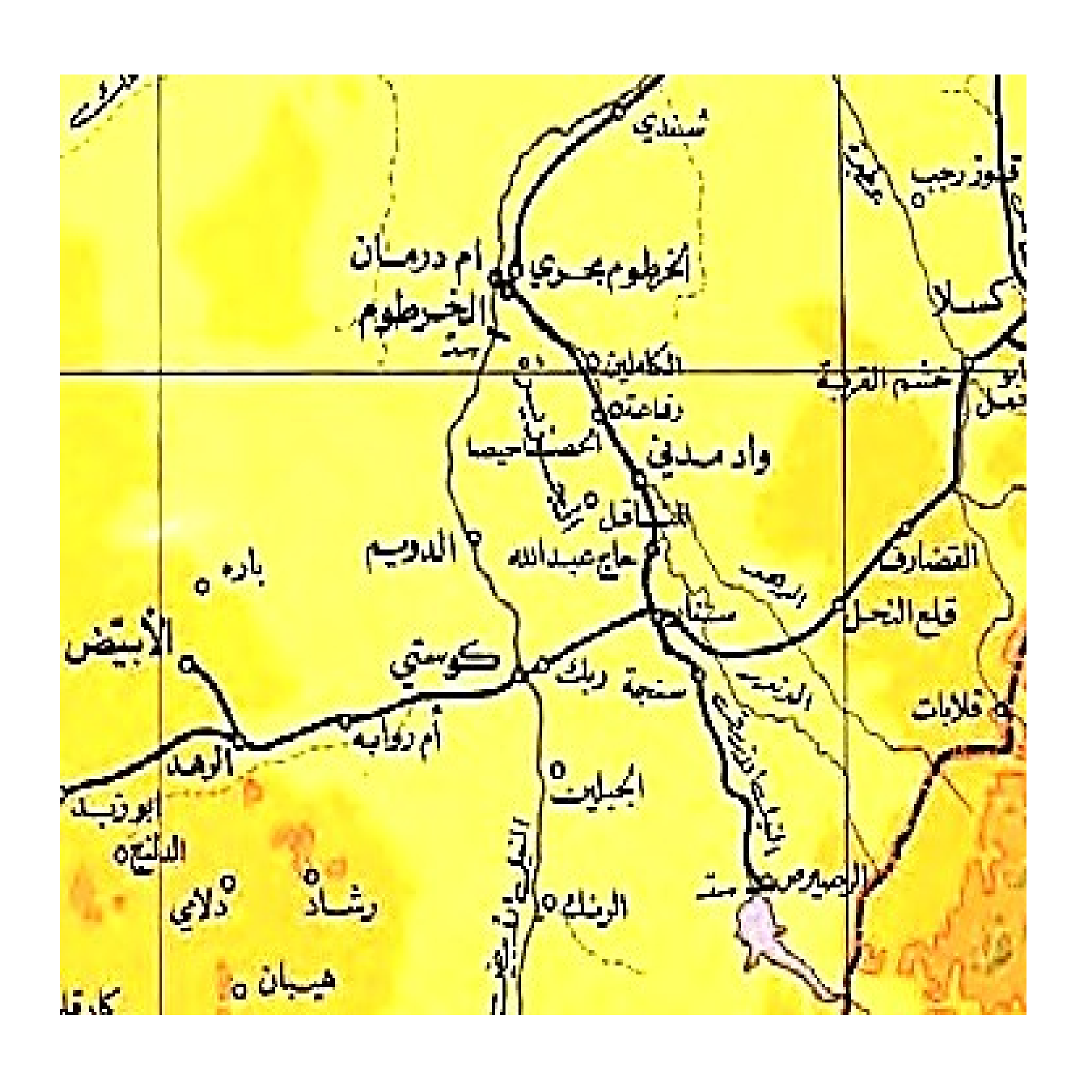
19) الباشبوزق: عناصر تألف منها الجيش قبل قيام محمد على باشا بتحديث الجيش المصري، معظمهم من الأكراد والألبان والشراكسة الذين يطلق عليهم (باشبوزق) أي، الجنود غير النظاميين، كانوا يميلون إلى الشغب والفوضى، غير خاضعين لنظام عام أو تدريب ثابت، وإنما كانت أعمالهم عبارة عن حرب عصابات وكر وفر، كان تنظيمهم خاضعا للانقلابات السياسية التى أملتها الثورات فى الولايات العثمانية، والمعارك والاختلافات التى الفتها حياة المماليك أثناء القرن الثامن عشر.

20) البردوين: أول سفينة بخارية تابعة للحكومة المصرية عملت فى السودان، وفى أعالي النيل

21) زَرْبًا: سباج أو سور.



الفريق عبد القادر باشا حلمى



الخرطوم ـ سنار ـ رفاعة ـ الدويم ـ الرصيرص ـ القضارف

معارك عبد القادر باشا حلمى

كان الدفاع عن سنار معركة الفريق عبد القادر حلمي الكبرى، وعندما زحف عليها الشيخ أحمد المكاشف في عشرة آلاف من الأنصار، راعه تحصيناتها، فتراجع متوجها إلى مشرع الداعي على بعد 20 ميلا من سنار، فحاصرها وقطع عنها خطوط التلغراف والبريد .

وأمام الحرائق المشتعلة غادر عبد القادر باشا الخرطوم في 2 يناير 1883 على رأس ألف وستمائة من العساكر النظامية، وألف من الباشبزوق، فالتقى الفقيه فضل الله ود كريف عند غابة قرب معتوق، وأوقع به هزيمة نكراء، وقطع الجزيرة إلى "كوة" على النيل الأبيض، وأرسل قواتها برا إلى ود مدني على النيل الأزرق، ونزل في الوابور إلى الخرطوم، فضم العسكر الذين دربهم من السود، وصعد النيل الأزرق في الوابور حتى بلغ مشرع الداعي في 24 فبراير .

خرج الشيخ أحمد المكاشف للقتال، فوجد القوات الحكومية في انتظاره، كبر الأنصار، وهجموا يرفعون سيوفهم ورماحهم، وقد تجاوزت أعدادهم خمسة عشر ألفا، تلقتهم القوات الحكومية برباطة جأش، وتبادلت صفوف العسكر إطلاق النار بانضباط تام، والأنصار يتساقطون وخلال ثلاث ساعات بلغت خسائرهم الآلاف بين قتيل وجريح، فأطلق الشيخ المكاشف نفير الانسحاب وتراجع مهزوما إلى جبلي (سقدي وموية)، وانتصرت القوات الحكومية وكانت خسائر عبد القادر باشا سبعة وعشرين جريحا، ولم يقتل أحد .

أمر عبد القادر باشا نائبه صالح بك المك بمطاردة الشيخ أحمد المكاشف فقصده في جبلي (سقدي وموية)، ودارت في 2 مارس 1883 معركة تلقى فيها أنصار المهدي هزيمة ثقيلة قتل فيها المئات، وحملت القوات الحكومية رأسي الشيخ

عامر المكاشف وصهره على رؤوس السناكي، وعلقت في سوق سنار، وفر أحمد المكاشف ومعه من فر إلى وادي برجوب في الجبلين، وهم يدعون الله:

- "يا رب يا قادر أعفنا عبد القادر".

وهو ما كان، فقد استجاب الله لدعاء الأنصار، وجرى عزله، وتعين علاء الدين باشا حكمدارا للسودان.

* * * *

غادر الحسيني الميناء، لاهيا عن طرقات سنابك الخيل، وقرقعات العجل، يفكر في لقائه المرتقب مع حكمدار السودان، أفضل قادة فن التكتيك والتحصينات، ما جعل الكثيرين يتساءلون عما دفع الحكومة إلى نقله إلى الخرطوم، والبلاد على حافة حرب مع بريطانيا، ولماذا قررت عودته من السودان، والمهدية يوشكون على دخول الخرطوم.

عبر سوق القش[22]، وحي الحريمات، والجامع القديم وسوق الشمس المغطى بالرواكب[23]، حتى بلغ حي موسى بك[24]، حيث ظهر العلم المصري[25]، يرفرف على سراي الحكومة[26]، التي كانت أعجوبة الخرطوم، والذي جزم زوارها من العرب، بأن الجن شارك المصريين في بنائها.

سلم اليوزباشي البريد للفريق، ولم يمض وقت حتى اكتشف أن الباشا مثل جميع من التقاهم في الخرطوم، يبحث عن إجابات شافية لأسئلة يصعب الإجابة عليها؛ ما هي نوايا الحكومة المصرية تجاه السودان؟، وفي

---

22) سوق القش: يضم تجارة أعلاف الخيول وسلاح الصواري

23) الرواكب: المظلل بخشب النخيل والدوم

24) حي موسى بك: أقدم أحياء المدينة، وسكنى الطبقة الراقية من الموظفين المصريين والترك والأجانب، يضم القنصليات وإرسالية التبشير الكاثوليكية

25) العلم المصري: علم أحمر، بوسطه الأهلة الثلاثة ونجومها البيضاء ترمز إلى مصر والنوبة والسودان.

26) سراي الحكومة: شيدها خورشيد باشا، وأعاد الحكمدار عبد اللطيف باشا بناءها بالآجر المنقول من بقايا مدينة سوبا.

النهاية أمسك الباشا رأسه متعبا، وغمغم يحدث نفسه، أن الخديوي الذليل ضحى بالدماء المصرية الغزيرة التي سالت على أرض السودان، وأضاف بنبرة أبوية: "حسيني أفندي، عليك أن تسافر إلى أعالي النيل وأنت مؤهل لخوض المعارك، وإذا هزمت في معركة، فلا تتخلى عن النصر في المعركة التالية".

وأضاف: "هذا الوادي شماله وجنوبه ملك أبنائه، مصريون وسودانيون سواء كانوا عرب أو أفارقة، هذه الحقيقة سوف تعلمها عندما تقف على خط الاستواء، سوف تشهد، بينما الجميع مستغرق في النوم، أغمص الباشا عينه متعبا، وقد جلل الحزن وقاره، وقف اليوزباشي حائرا، سمعه يهمس: "أنت لسه هنا".

- "بانتظار أوامر سعادتكم".
- "يلا يا افندي انصراف".

رحل وسط ضباب الأسى، وقد زادت كلمات الفريق همومه، لا يوجد لدى المحاربين خيارات سوى النصر أو الموت، وهو الآن مهزوم فأين هو الموت؟

هاجمه السؤال المعلق على رقبة التاريخ؛ لماذا عاد عرابي باشا بعد ساعات قليلة ليطرق ثكنات العباسية ويسلم سيفه إلى قائد الخيالة البريطانية؟ هل كان يعول على الشرف الأوروبي الذي نسجت حوله النخبة من المتعلمين أحلام التقدم والانعتاق الوطني، وأين هو الفارق بين زعيم الثورة وبين الخديوي؟ هكذا سيدي الفريق، أنا ضابط يحمل على كاهله عار الهزيمة.

لم يجد بانتظاره
رايات خفاقة ولا بروجي يصدح فى الفضاء بنوبة اللواء.
ولا تلك الطوابير التى تقام على شرف قادة الثورات المهزومة ينتظرهم التاريخ بمقعد النبالة والتكريم وهم على منصات الإعدام،
ليتم تجريده من سيفه المثلوم المكلل بعار الجهل العسكري، ثم ألقوا به فى غرف الثكنات الخلفية دون اهتمام يذكر، لتبق بيارق الهزيمة تخفق على صفحات التاريخ.

- وهذا نير ثقيل يا بنى، اذهب، ليكن الله في عونك.

* * * *

قبل الغروب أقلعت خمس سفن من ترسانة الخرطوم، متوجه إلى ترسانة "ود شلعى" القديمة، على مبعدة ظهرت ذهبية تتبعها، وقد حلق على

قلاعها شبح يُخفي وجه في وشاح أسود، وكأنه ملاك الموت، شعر شلعى برعدة، وهو يستعيد تلك الأطياف التي تطارده.

أمطره شمروخ بوابل من السخرية لوقوعه أسير ظنونه، لاحظا أن الملازم فوزي يستمع إليهما، وقد أخذه التفكير في أشياء غامضة.

في محلة "الجملاب" اصطدم قاع السفينة "الأمير طوسن" بقاع النهر، ألقى الملازم عبد المبين شلعى جام غضبه على المعلم قناوي، جوارهم توقفت الذهبية التي تلاحقهم، سأل الشبح الذي أثار مخاوف شلعى، الريس قناوي:

"-على وين مبحر يا زول؟".

- "بإذن الله على "ود شلعى".

- "في أمان الله، وعلى بركة الله".

* * * *

في بهيم الليل سمعت طرقات عنيفة على بوابة الخارجية للدار الكبيرة، بعد دقائق وقفت "أم الزين" تطرق باب ابنتها، تطلب منها أن توقظ زوجها وأخيه حسن، عندما أفاقا وجدا ابن عمهما يطلب منهما أن يلحقا به.

نهبت عربة تجرها الخيول الطريق المحاذي للنيل الأزرق، عند محلة الكاملين عبرت النيل على متن معدية صغيرة، وعلى تخوم محلة (رفاعة الهوى) أوقفتها جماعة من الملثمين، وأشارت عليهم بتفادي دخول القرية، والعبور في حماية فصيلة من فرسان (الباشبوزق)[27]، وصلوا "ود مدني" في الصباح الباكر، تناولوا الإفطار في خان على الطريق، ثم تحركت العربة باتجاه الشرق، فدخلت حلة "القضارف" عاصمة الشكرية في أول الليل.

كان هناك اجتماع يضم كبار أعيان ووجهاء مشايخ الشكرية، وعلى رأسهم جلس الرجال الكبار الثلاثة، عوض الكريم باشا ناظر نظار الشكرية، وأخوه علي أبو سن ناظر شكرية رفاعة، وأخوه عبد الله ناظر شكرية القضارف، شعر الضابطان بالحيرة:

- سعادة الباشا إحنا مش عارفين إحنا هنا ليه؟

---

27) الباشبوزق: خيالة من الأتراك غير النظاميين.

أزاح عبد الله أبو سن الشكوك، وقال إنه رأى أن حضورهما ينور الحاضرين. نظر الباشا إلى أخيه بنظرة غاضبة، وقال لهما:

ـ خلاص أنتم جيتم، وجودكم يفيد أهلكم.

كان السؤال المطروح على الشكرية؛ أي الجانبين يختارون؛ الحكومة المصرية التي جعلت للشكرية موقعا عظيما في الحكم، أو مسايرة ثورة المهدية الناهضة في عموم السودان.

قال الباشا إن التحالف مع الدرويش ليس مجرد اعتراف بنبوة المهدى، معناه الحرب ضد قوات الحكومة. قاطعه عبد الله ناظر شكرية القضارف: "والتحالف مع الحكومة المصرية معناه الحرب ضد السودان".

ـ وأنا ما نخسر دينيتي وأخرتي، وأتحالف مع كذاب، هذا ضد الدين.

ـ يا أخوي قبائل كتيره انضمت إلى المهدى.

ـ الحكومة المصرية أرسلت ثلاثة عشر ألف من العسكر للسودان.

ـ يا باشا، عبد القادر باشا يزحف على كراعيه يطلب استعفاءه، وقرار استعفائه وقعه الخديوي وأرسل بالفعل، حدث أحمد سليمان:

ـ "مو هيك يا ود العم؟".

ـ "نعم، وتم تعيين علاء الدين باشا حكمدار عام للسودان".

ساد الصمت، تنحنح ناظر رفاعة، وقال: "هسه مصير الشكرية كيف لعب القِمَار، إذا اخترنا الحكومة المصرية وانتصر المهدية، ح ينكلوا بالشكرية، ح يبيعوا أطفالنا رقيق، وياخدوا نسوانا سبايا، وإذا انضمينا إلى المهدية وانتصرت الحكومة المصرية نخسر موقعنا اللي بناه أجدادنا في ظل الحكم المصري، شنو نختار، على إيش نقامر؟".

أضاف ناظر القضارف: "وخصوصا إذا كان فرسان الشكرية سبب هزيمة الشريف أحمد ود طاها السمانى وتعليق رأسه على أسوار سنار".

صرخ الباشا: "تلومني يا ود أبوي، الحرب حرب، والقتل قتل، وإذا خرج السيف من غمده صار أعمى، ما يفرق بين الرقاب اللي يطولها، ولا الرؤوس اللي يحصدها، هسه أنت تشيع في صدور الشكرية الجبن".

مسد الباشا ذقنه، يحاول أن يهدئ من ثورته، أشار إلى الملازم حسن:

ـ "ايش تقول يا ود سليمان؟".

ارتسمت ابتسامة بلهاء على وجه أحمد سليمان، وطلب من الباشا أن يهدئ من ثورته، لكن الباشا قاطعه، وقال باستياء:

- "أنا نحدث في أخوك الصغير. شنو اسمك؟".
- حسن يا سعادة الباشا.
- شنو تنصحنا يا حسن، أعرف أنك ما تخاف تقول الحق.

كان اختيار الباشا لحسن غير مفهوم للجميع، وبدا وكأنه يبحث عن نصير في حرب اختلطت فيها العقيدة الدينية بالعقيدة الوطنية، وصراع بين العمائم والقبعات العسكرية، تحدث حسن سليمان دون مواربة:

- "مفيش قمار، لأنه مفيش اختيار بين دولة دينية ودولة مدنية ".

لم يفهم أحد ما يقوله، استطرد بحماس: الدولة الدينية من الماضي، والدولة المدنية من المستقبل، وإذا اخترت لأولادي مستقبل ح يكون مع الدولة المدنية، لا دولة المشايخ ولا الفقهاء.

سأله عبد الله ناظر رفاعة بسخط: شنو الدولة هادى اللي ما فيها فكي، وشيخ وعالم دين، شنو كافر أنت؟!

طقت عيني الباشا بالشرر: "أحسن القول يا ود أبوي، ما تنسى إنهم ضيفونا، وما تنسى حضوري"، وأضاف بتهديد: "والا تبى أقوم".

اهتز الحضور، وعنف على أبو سن ناظر شكرية رفاعة، أخوه عبد الله ناظر شكرية القضارف، الذي جلس ورأسه في الأرض، تحدث الباشا بغضب: "الكافر هذا اللي يدعى النبوة، ويتاجر في الرقيق، ويترك عصابته تسرق خلق الله، الكافر هذا تريد تزحف على كراعيك وتحط رقبتك ورقبة خوتك وولاد عمك ونسوانهم وعيالهم تحت مركوبه".

تدخل أحمد سليمان وتحدث في رزانة وحكمة: يا سعادة باشا ما في دولة خالية من فقيه وعالم دين، لكن أخي حسن يقصد موضوع مش واضح في القضارف، أنا واخى شاركنا في الحرب الروسية، والواقع اللي عشناه في الحرب، يقول إن الإمبراطورية العثمانية ضعيفة وتتفكك، اكتشفنا أن داء بلادنا الاستبداد، وأن قوة الدول في حرية أولادها.

وتحدث للجميع:

ـ السؤال المطروح هنا في القضارف، مالوش علاقة بالماضي ولا بالمستقبل زي ما أخوي حسن يظن، السؤال يخص الحاضر، يخص المأزق اللي ح يحول السودان إلى جحيم خلال السنوات القادمة، كيف ما قال الشيخ على أبو سن، على مين يراهن الشكرية، الحكومة المصرية ولا المهدية.

استطرد: "أنا ملازم بحري أحمد سليمان، اللي جدي جعفر الطيار ابن عم رسول الله، يقدر يقول بمسئولية، أن الخديوي توفيق رفع أيده عن السودان، ومفيش جيش يقدر يدافع عن السودان، مفيش حكومة مصرية تقدر تدافع عن مصالحها في شمال الوادي، عشان تشيل مسئولية جنوبه".

ساد الوجوم والإحباط والجميع يحاول استيعاب ما يقوله، سقط الأخ الأصغر عبد الله أمام الباشا على ركبتيه، وأمسك يديه يقبلهما، وعيناه مغرورقان بالدموع، أمسك الباشا برأسه وهو يقول:

ـ "شوى أسوى فيك يا ود أبوي".

ـ ما تسوى شى يا أخوي، أتركنى أمد حبال الود مع الدنقلاوى.

ـ مد كل حبالك يا عوض الله.

ـ من دون موافقتك ورضاك، هذه تصير خيانة، وأنا ما أخونك ولو أموت ويسيل دمى فداك يا ود أبوي، اتركنى أحمي الولاد من النخاسين، ونسوان الشكرية يصرن سبايا عند العويل.

* * * *

في صباح اليوم التالي، ودع الضابطين الباشا الذي ستتحقق نبوءته بعد سنوات قليلة، ويموت قهرا في سجون المهدى، عندما يجرد المهدى عليهم أنصاره، فيقتلهم ويسبى نساءهم وأبناءهم ويغنمهم.

تلقاهما الباشا على رأس حقول القطن بابتسامة واسعة بشوشة، وقال:

ـ "حق النبي سليمان أبوكم ما مات، وأضاف وهو يقلب أعواد القطن: توا أنا عرفت حكمة ربنا لما سعيد باشا حبس جدكم أحمد بيه أبو سن في الإسكندرية.

تقدمهم نحو مبنى كبير ترتفع من داخله صوت آلات حلج القطن وهو يتحدث: "لما أبوكم بعت يقول لي ح تجوز مصرية، وأظل في

الإسكندرية، قلت له ما يخالف ما دامت بنت ناس، إحنا جذورنا من الحجاز، وهسه نعيش على النيل في جنوبه، وأنت تعيش في شماله، لما بعت يقول لي يا باشا الولاد عاوزين يدخلوا جيش الخديوي، قلت له وماله يا سليمان، بيش يصير لنا عزوة وقادة على رأس الجيش، ويجي وقت يحكموا وادي النيل، ولما عمك إدريس قال الولد يريد يتزوج البنية، والبنية تريده، وايش اسوى يا باشا، قلت له نسوان الشكرية يصبين على كراعتهم ورا رجالتهم لأخر الأرض".

على بوابة المحلج قال وهو ينظر إلى الحقول: "زراعة القطن هادى علمنا إياها مصريين، والمصنع أول من أداره مصريين"..."اشربوا فنجان قهوة قبل ما تغيبوا عنى يا ود سليمان، نادى الميكانيكي: "عم حسن شنو الأخبار".
- ممتازة يا باشا.

تمتم بوجه كهل يفيض بالغيوم: قلبي يحدثني أن المهدى ح يخنق ود أبوي عبد الله كيف تخنق العرسة الفرخ الصغير"، هيا يا ود سليمان، ارفعوا رؤوسنا ومعاكم السلامة.

في "ود مدني" تسلما برقية تطلب منهما التوجه إلى محلة "ود شلعى"، للقاء الحملة التي ستغادر الخرطوم صباح الغد، عبر الثلاثة النيل الأزرق وتوجهوا برا قاطعين الجزيرة باتجاه الدويم.

* * * *

غادرت السفن محلة "الجبلاب" واقتربت من مشرع "ود شلعى"، على مقدمة السفينة "سواكن" جلس الملازم محمد فوزي السلحدار منفرج الساقين، يدخن غليونه وينظر في منظاره المكبر إلى النيل الأبيض يطوى الأفق، نادى على الريس آدم الزنديق، وطلب منه أن يستدعى الملازم شلعى، وبقي غارق في حلقات دخانه، يحاول أن يخترق الضباب، يصيغ السمع إلى الأصوات البعيدة التي تحملها الرياح، شعر بشلعى يقف وراءه بخطوة، قال دون أن يلتفت إليه:
- يا عبد المبين أنا فكرت في مشكلتك.
- مشكلة إيه يا فوزي افندي؟ أنت شايف عندي مشكلة!

- الأحلام اللي بتحكى عنها والشبح اللي خرب دماغك.
- تمام، جنابك عقلك كبير، يلم عفاريت وأشباح وجن وأنس، وكافة مخاليق ربنا؟
تدخل شمروخ يناكفه: أنت ح تتريق على فوزي بك يا افندي.
- أنا! نظر إلى شمروخ بغل واستطرد: أتفضل حضرتك، أزاي قريحة سعادتك فكرت في مشكلتي.
- محدش عندنا في مصر اسمه شلعى.
قاطعهما شمروخ: بالضبط يا فوزي أفندى، طول عمري أقول له أنت بنى آدم معندوش أصل.
نظر شلعى إلى صديقه باستياء: وبعدين يا فوزي افندي.
هز الملازم فوزي ساقيه الثقيلتين، واستدار يقيسه بعينيه، نقر صدره بأصابعه وهو يقول: "يعنى ده ميخلكش تفكر في حاجة؟".
- زي إيه؟

تلاشت إجابة الملازم فوزي وسط الضجيج الهائل المنبعث من النيل، استدار منزعجا: إيه ده؟ وقفز شاهرا سلاحه إلى مقدمة السفينة، وبجواره وقف عبد المبين يشهدان عشرات القوارب الصغيرة محملة بالأهالي يلوحون لهم، وهم يعزفون الموسيقى وينشدون الأغاني تقطعها زغاريد النسوة.

في المقدمة وقف الصول الذي لاقاه عبد المبين شلعى في مستشفى الخرطوم يشير نحوه وهو يهتف:
- "يا زول .. هذا عبد المبين أفندي ود ريحان جاد الحق ود شلعى".
- الغايب رجع بلده يا ولاد.
بهت شلعى وهو يتنصت للغناء القادم من القوارب الصغيرة:

يا الطال غيابه وغابت معاه الشمس
ياما سألت عليك النيل
ياما سألت السكك والمارين
عزت طيوفك... عزت دموع الحبيب
من يوم ما فتنا ضاع السنا
والقلب عن طيفك ديمة السؤال عليك

جملة وحيدة قالها الملازم محمد فوزي وهو يطرق صدر الملازم عبد المبين شلعى بظاهر كف يده:

- "هه، مش قلت لك مفيش اسم شلعى في مصر، يلا يا عم، أهلك أهم؟"

لم يكن لدى عبد المبين شلعى إجابة، كان يحاول أن يبقى على جسده متماسكا، بينما روحه تفرفر ذبيحة، وهو يغمغم: "هو أنا مين؟".

كان أقسى ما يثير الرعدة في قلبه، أن يكون عبد ساقه النخاسين من السودان وباعوه للجيش الذي بناه محمد على وأحفاده.

سار عبد المبين وسط أبناء محلة ود شلعى منوما، يعبرون به مساكنها ودورها المصنوعة من أعواد البوص وجلد البقر، وتاريخه ينبعث في ذاكرته لحظات من الوهج، وقفوا به أمام دار صغيرة، وتركوه وحيدا، حيث جلست عجوز عمياء، اقترب منها ببطء والتوتر يخنقه، وعندما شعرت به، مدت أصابعها المعروقة تتلمس وجهه، وهي تهمس:

- منو تكون؟
- عبد المبين ولدك.
- عبد المبين؟ عبد المبين أخذته السلطة يا زول، وغاب.
- وهسه رجع الغايب.

* * * *

في السابع عشر من مارس أبحرت وسط دموع الخرطوم السفن المتبقية من الحملة، وقد انضم إليها الضابط الثاني عشر من الضباط العرابين ملازم طلعت عبد الوهاب ومعه زوجته بثينة وأطفاله الثلاثة؛ الميرغني، وزينب، وعرابي، وخمسون جنديا من الجنود غير النظامية من الخطرية.

وسط النحيب والبكاء وقف على المرفأ رجال ونساء الشكرية يودعون أبنائهم، جرى جعفر يعتكف في قمرته مطلقا العنان لدموعه، توارت السفن عائدة لملتقى النيلين الأبيض والأزرق، لتستدير مقدماتها واحدة بعد الأخرى نحو الجنوب صاعدة النيل البيض.

على البر الشرقي وقف أطفال الشكرية يصرخون على السفن الراحلة، ينادون جعفر ومريم وفريدة، انتبه الطفل على طرقات أمه، تدعوه

للخروج إلى سطح الباخرة التي أوقفها اليوزباشي الحسيني لأجل خاطر سرية الخيالة المشكلة من صبية وقفوا على شفير النيل الأبيض يرتدون زي محاربين العصور الوسطى، و يحملون السيوف والدروع، يتقدمهم "عدلان" ود عوض الله أبو سن.

وقف جعفر على سطح الباخرة التي اقتربت من جسر النيل، صرخ عدلان في رفاقه من الصبية:

- سرية انتباه.

طرقت الخيول بأقدامها الأرض، وجرى عدلان ود عوض الله على جواده، يستعرض فرسانه الذين سيقاتلون وراءه الحكومة المصرية بعد سنوات قليلة، ويقتلون أمام الجيش الإنجليزي المصري أثناء غزوه إلى السودان تحت قيادة جنرال كيتشنر، وسيوارون التراب.

صرخ عدلان:

- "سرية تحية للقومندان بحري جعفر ود أحمد سليمان أبو سن".

امتشق الصبية سيوفهم ووضعوا النصال أمام أنوفهم.

أطلق اليوزباشي الحسيني صفارة الوابور ثلاث مرات، وجعفر الصغير يؤدى التحية العسكرية لابن خالة عدلان ود عوض الله.

ببطء شديد تحركت الباخرة النيل وكأنها تنتزع العظام من لحم الطفلين اللذين حلق ملاك الموت فوقهما، ليحصد رأس الأول سيوف قبائل (اللورين) على مناقع بحر الزراف، بينما سترشق طلقات المدافع الرشاشة الحديثة للجيشين البريطاني المصري صدر الثاني في معركة كررى[28] على تخوم أم درمان.

طوال كيلومترين ركضت الخيول على شفير النهر، وقد ساد الهرج وهم ينادون على مريم بت حسن ود سليمان أبو سن، وفريدة بت سالم خلاف، و يحيون ابن عمتهم جعفر ود أحمد ود سليمان أبو سن، حتى غابت

---

28) معركة كررى: تقع كررى شمال أم درمان عاصمة الدولة المهدية، دارت المعركة فى فجر الثانى من سبتمبر 1898 بين قوات المهدية والقوات البريطانية المصرية المسلحة بالمدافع الرشاشة الحديثة والبواخر الحربية، بلغت قوات المهدية 52 الف جندي، وشن الأنصار هجوما شاملا فى الفجر، ولم يستطيع أى من عساكرهم بلوغ خطوط العدو لكثافة النيران، بعد ساعتين من بداية المعركة تجاوزت خسائرهم بين عشرة ألاف قتيل و 30 الف جريح.

السفن فوق النيل الأبيض، في فضاء من كثبان ذهبية تتخللها أجمات من عقيق أخضر، ترعى بين جنباته جنيات لماعز أبيض، تعيسها[29] سرابيل بيضاء تلتحف سمرة داكنة، وعلى شفير النهر مدت عماليق الجان أعناقها ترتوي من الماء، وقد تقمصت سمة الإبل والبقر.

بين الجبلين ترامت أعداد هائلة من طيور تسربلت بالريش الأبيض، لا تعرف من الذي اختار لون الآخر، الطيور أم الرجال، وعلى ضفتي (بحر العبيد)[30] ترامت الملائكة تصدح أجنحتها بصوت الفيولينا، والآلات الوترية والنحاسية، تسأل الدخلاء أسباب قدومهم.

في الثامن والعشرين من مارس عبرت الحملة (ملاكال)، وتوقفت في محطة التوفيقة العسكرية، وضمت عددا من الإدلاء التراجمة[31]، وعندما أقلعت واجهت تيار نهر السوباط القوى.

* * * *

---

29) تعيسها: ترعاها.

30) بحر العبيد: Baher El Abiad

31) التراجمة: الوطنيون من أبناء البلاد الأصليين الذين عملوا مع الجيش المصري كأدلاء، والترجمة إلى لهجات القبائل المحلية.



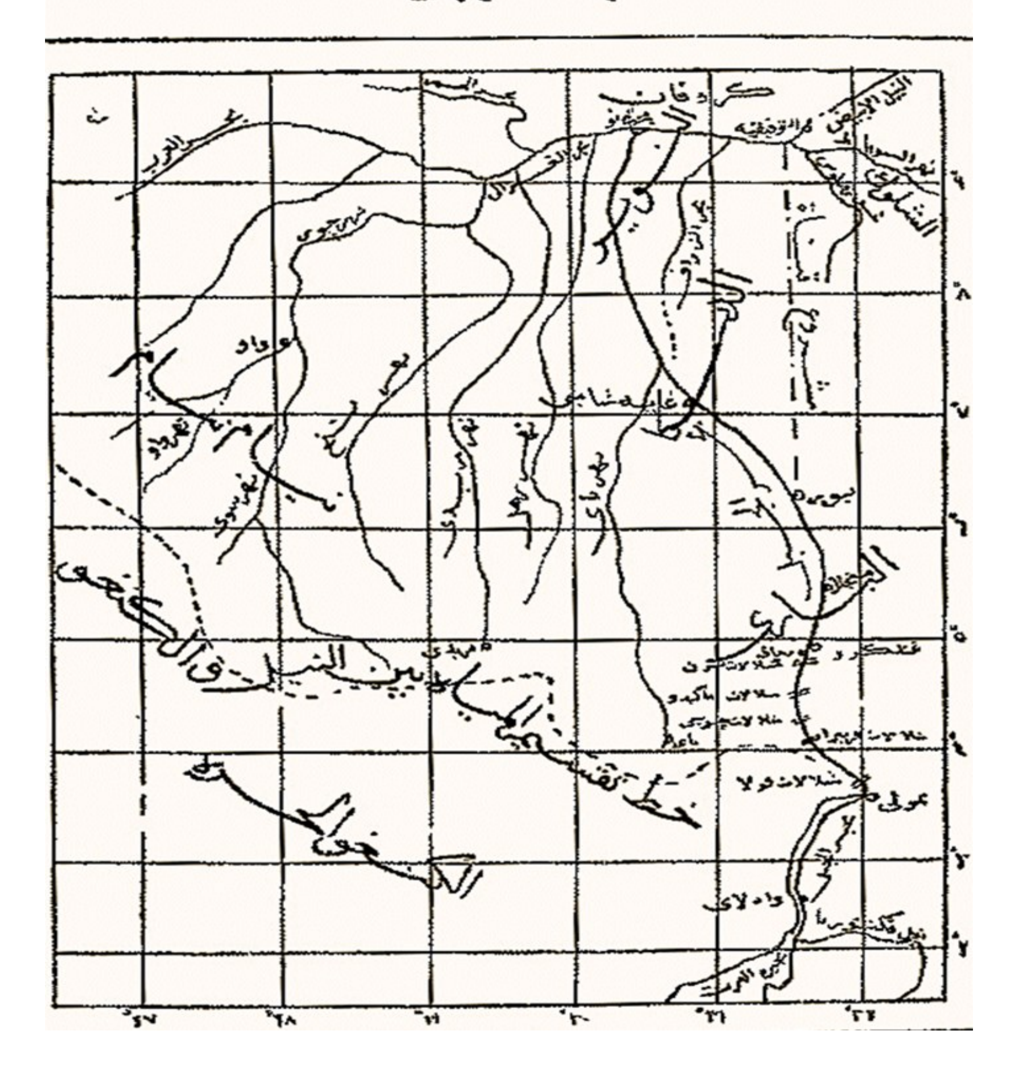
خط العرض ﴿ 10° ﴾

بحيرة نو



بحيرة "نو" . .
الماء الأزلي الذي انبثق منه الوجود الأول . .
هنا ظهرت البيضة الأولى . .
وخرجت منها الوزة "الصائحة الكبرى" . .
وانفتق الليل عن النهار . .
وانبثق التل الأزلي . .
ها هو المنفى، يأخذك إلى برزخ من نعيم الرب . .
وفردوسه . .
تلامس ميلادك البدئي . .
يا له من نهر، ويا له من رب يسكن علياءه . .

حوض بحر الجبل وملحقاته



- 11 -

ولجت الحملة بحر الغزال، في طريقها إلى بحر الماء الأزلي التي انفتق فيه النور عن الظلام، وانبثقت الأرض من العماء، وتوغلت داخل بحيرة "نو"[32] حيث كل شيء ينم عن اتساع هادئ، انعطف ثوران ميكانيكيان إلى مدخل بحر الجبل، ينخران أنفاسهما الفضية قرباناً للسماء، تتهادى خلفهما على سطح المياه المترامية طيور خرافية عملاقة، تسبح في طبيعة أخفت عريها البكر، تحت عباءة ثقيلة من ضباب أرخى سدله، على بطائح بحر الجبل.

من قلب المياه الأزلية صعدت الشمس من الأفق، تكشف عن ثعبان خرافي يتمدد بارتخاء لا نهائي، يشق طريقه بطرق غامضة لا يعلمها إلا هو، وقد ستر ضفافه بالمياه البدئي، على ظهره انبثقت جزر عشبية تسبح في العماء الأول، تطلعت ألفت إلى الأفق، حيث كل شيء يصعد نحو السماء، وهمست وهي تستند برأسها على كتف زوجها:

- يا رب سبحانك، أحنا في طريقنا للجنة.

على مقدمة السفن وقف الجميع يشهد ما يكشف عنه الضباب، كنبوءة تهبط من السماء، سرت الرعدة في الأجساد، وقد بزغ من حصن الضباب أشباحا أسطورية ترفع قرونها إلى السماء، وتطفو في فضاء ينعم ببياض لم يسبق رؤيته، وقد تحلق حولها قطعان غزلان وحمر وحشية، فإذا انزاح الضباب وصفا، بدت السفن تسبح وسط أسراب مؤلفة من آلاف الطيور تحملها على طيات السحاب.

---

32) بحيرة نو: NO تقع على خط عرض {90:30}

في البقاع الموحلة وعلى رمال الجزر الذهبية، وقف البجع يجس المياه بأقدامه، يغازل أسراب الكركي الواقفة بشموخ، وتندفع محلقة في خط طويل يميل بلا توقف، فتميل الأرض معها عن قبول ورضا.

أصيب الأطفال بالخبال، وهم يرون أبو معلقة يغوص برأسه في المياه ويرتفع بمنقاره ذي الكرة محملا بالسمك، همس محمود العيمى:

- "يا ترى، نهر للسماء أو برزخ للموت؟"

قال الحسيني: يمكن عتبات الجنة اللي حكت عنها الجدة.

سمعت السيدة حباب تقول: "هذا معلوم".

سأل زوجها بدهشة: شنو اللي معلوم؟".

- يا زول شنو أنت ما مسلم؟، النيل ينبع من تحت سدرة المنتهي، ويفيض من حافة الجنة، هكي تحكى الحكاية.

تمتم إبراهيم حليم: لو ينول البنى آدم منيته هنا؟

علق صديقه: "صبرا جميلا، لن ننال إلا ما قدر الله".

غام الوجود بالفرنسية، قفزت في النهر؛ أنثى تقدم نفسها لرجل. انتبه الوقوف على صوت ارتطام المياه، تبعها الجميع، وحل الصخب والضجيج.

* * * *

عبرت القافلة خط عرض {9^0} وأمامها مجرى بلا معالم، متتبعة الخرائط المساحية التي رسمت بمعرفة أركان حرب الجيش المصري بين عامي 1840 و1880، على مقدمات السفن وقف جنود سرية المساحة يسبرون غور المياه بالقامة[33]، يتفادون جسور وجزر لا ترى. ويعلنون قراءات الأعماق.

وقف الأطفال مسحورين بقطعان زراف وغزلان تطفو فوق الماء، وفيلة تتريض في الفضاء، تابعوا جزر عائمة تسبح باتجاه الشمال، وعلى ظهرها تمددت عائلة من الأرانب البرية تطلق ضغيبها[34]، وحولها اللقلق

33) قامة: وحدة قياس طولها ست أقدام تستخدم عادة في قياس أعماق البحر
34) ضغيب: صوت الأرانب

والشحرور الذهبي يقفز فوق البردي، وسربا من النسور مجتمع حول فريسة يمزقون لحمها أربا، ونمرا أرقطا يربض في المنتصف، ينظر نحوهم بعيون تشيع الرعب.

فتحت أفراس النهر أفواهها الحمراء للأطفال، ألقوا إليها بالطعام، فأجابتهم بتحية من خوار فرح، وأطلت رؤوس التماسيح بأنيابها الحادة، تراجع الأطفال فزعا، ورحلوا إلى نوم مضطرب، يحمل معه عيون زجاجية مكورة تنظرهم من تحت تيار الماء بتهديد.

يشهد فلاح الشمال مناقع شاسعة، سلسلة من بحيرات، نيلا بلا معالم، منبسطا بلا ضفاف، يمتد من خط عرض $\{10^0\}$ وحتى $\{5^0\}$، وقد اختفي البران، يتحول الوجود إلى سكون أزلي، يستره الماء.

قاد قومندان الحملة قافلته وهو يبحث عن مسار النيل، يرى الجسور الطينية محملة بسافانا البراري؛ بردي، وبوص، و(عنبج) [35]، يكثر البردي وتجتمع الحماة[36]، والصوالة[37]، تتهاوى منهارة تحت ثقل الرياح، واندفاع التيار، وغزارة الأمطار، يمتزج الطحلب بالأعشاب مكونا كتل عائمة.

تندفع الكتل العشبية وقد بلغ سمكها سبعة أمتار، تحمل داخلها أسماك وتماسيح وأبقار الماء، تخنقها في شراك الطبيعة المتوحشة، يتابعها الأطفال، يترقبون اصطدامها عند المنعطفات بحافة النهر، تقفز من فوقها إلى البر خنازير برية وثعالب وسحالي كانت مختفيه في أجماتها، يستقر بعضها عند أركان منحنياته الملتوية، تتراكم وتتكدس، تلتحم وتكبر وتتسع، تتحول مع الوقت إلى حواجز أو (أسداد) كما يسميها العرب، ومرة بعد أخرى يختنق المجرى الأصلي، ويوصد بسد يناوئه.

ومن حيث لا يتوقع تأتى الليلة التالية بريح معاكسة تمزق تلك الجزر والسدود إلى أشلاء متفرقة، ويسترد النيل حريته، ليعود الصراع الكوني

---

35) العنبج: نبات مائي على هيئة شجر صغير يتألف من غيضات سريعة النمو، يجاوز ارتفاعه ستة أمتار أعلى المياه، ويبلغ سمكه عضد الإنسان، يتكون من خشب إسفنجي ولب ليفي له أشواك خفيفة الانحناء وأوراق مبعثرة، معرش من جميع جوانبه بأزهار زرق، يصنع منه الأهالي أطواف بالغة الخفة، يستطيع الرجل حمله على كتفه، ويحتمل خمسة رجال.

36) الحماة: الطين.

37) الصوالة: ما أخرج من الحنطة ونحوها، كناسة نواحي البيدر

مـن جديـد بـين الأرض والماء والـريح، تتخلـق مـزق مـن تـراب، تشـكل جزائـر جديدة، وسدود نباتية مدهشة، وتفتح قنوات وتغلق أخرى.

يطعـم الأطفـال الفيلـة، يربتـون علـى خراطيمهـا بكفـوفهم الرقيقـة، تتابع الفيلة القافلة ما ظلت السفن قريبة من البر، فإذا غابت انهمرت دموع الطفلتين، واعتصم جعفر بالتماسك، يصعد أعلى الباخرة مرسلا تحيات الوداع، ترفع الفيلة خراطيمها، وتطلق نهيما[38] حزينا يحمل لوعة الفراق.

تستمر القافلة في سيرها تتابعها قطعان الحمر الوحشية، تقف على أسوار السفن، تمد خطومها إلى الجنود مرحبة، نفث ثورا وحشيا من منخاريه ضبابا كثيفا، وهرش الأرض بحافريه، جذبت أميرة الأطفال الثلاثة من أمام قرنيه، لتترك طعجة غائرة في سور الباخرة الحديدي.

تتحرك السفن وسط الجزر تخاتلها أشعة الأصيل، والنوتية يقفزون بين سطح السفن والجزر القريبة، انتبه الرجال على صراخ النسوة، وقد اكتشفن اختفاء الأطفال، انهارت الأمهات، قاد الحسيني الباخرة الخرطوم عائدا في الاتجاه المعاكس، والأمهات تنادى أطفالها.

دخل النهار العشية، وأطل الشفق، وعلى مبعدة كيلومتر وقف الأطفال الثلاثة يلقمون طائر أبو معلقة الطعام، وهو مستسلم للكسل الذي أوجده تلك الكائنات الودودة، عندما عادوا إلى القافلة كانت النساء تبكي أطفالهن، وأطفالهن ينظرون إلى الوراء يبكون صديقهم أبو معلقة، الذي وقف يتابعهم بدهشة وهم يبتعدون عنه دونما سبب مفهوم.

حمَل الرجال نساءهم مسئولية سلامة الأطفال، وقاطع الأطفال أمهاتهم، وقاد جعفر العصيان، وكلما انهارت طفلة في حضن أمها، أتى ولوح لها، تقفز من صدر أمها وتنطلق تجاهه، والتصقت الطفلتان بفرانسوا، أعطتهما لوحة وفرشاة، وجلس جعفر على كمرة القيادة متجاهلا أبيه، وعندما اشتكى لزوجته، ضمته في عريها الدافئ، وعزمت أن تلقن ابنها درسا يعرفه الفارق بين أبيه والآخرين.

---

38) نهيم: صوت الفيلة.

لمحه اليوزباشي يقف على مقدمة الباخرة، وبجواره الطفلتين يلقون بحبوب الذرة إلى طيور النورس، بعد قرابة الساعة لاحظ اليوزباشي المقدمة التي تحولت إلى حديقة من طيور الجنة، نالت السعادة الطفلتين، شعرت فريدة وهي تنحني على الأرض لتحمل حبوبا وقعت منها، بأحد طيور النورس يقف على ظهرها، ظلت منحنية لدقائق حتى لا تثير فزعه، لاحظ الحسيني جعفر يلتفت نحوه خلسة، غادر الكمرة وهو يقول للملازم أحمد سليمان: "ابنك عَنِيدٍ ".

- "ورثه عن أمه".

لمح الأطفال قدمين طويلتين تبرزان قبالتهم، رفعوا رؤوسهم لأعلى، سمع اليوزباشي يقول بصوت لا تنقصه الصرامة: "مالك يا جعفر، حد مزعلك؟".

قال الفتى بجرأة: "أنا! لا، حد مزعلك أنت؟".

- لا، عندي لك مأمورية.

انتبه الفتى أشار الفتى لنفسه: "تقول بجد"

قال الحسيني: "طبعا أنت وهم".

- شنو، سعادتك بتهزر، مفيش بنات في العسكرية.

- دلوقت فيه بنات في العسكرية وأنت مسئول عنهم؟

ابتسم الصبي وعاد يرى الأمر لا يتجاوز اللعب: "فاهم يا افندم.

- طيب أدى التحية العسكرية لقائدك.

شاهد الأب ابنه يؤدى التحية برصانة، وعندما استدار اليوزباشي عائدا إلى قمرة القيادة، استوقفه الطفل:

- سعادتك مقلتش أيه هي المهمة؟

فكر اليوزباشي للحظات يتفرس فيما حوله، ثم قال بطريقة احتفالية:

- "الطيور، أنت ضابط سرايا الطيور".

- الطيور، ياه!

قفز الطفل في الفضاء سعيدا بمهمته، وهو يصيح

- "الطيور أنا ضابط سرايا الطيور".

بعد يومين شاهد المقيمون في الباخرة النيل طفلا يقف على مقدمتها فاردا ساعداه وهو مغطى تماما بطيور النورس والحسون والزرزار.

في ذلـك الصـباح شـوهدت غـزال تقـف منصـاعة لكفـوف الأطفـال الصغيرة، حـل صـمت تـام قبـل أن تقفـز مبتعـدة إلى الـبرارى، في تلـك الليلـة نـام الجميـع علـى حكايـة الغـزال الـذي قـدم نفسـه إلى الأطفـال، فرانسـوا لم تـنم، وفي الصـباح كانـت علـى سـطح البـاخرة تغـط في النـوم، وبجوارهـا لوحـة لغـزال يرعـى العشـب في سـلام، وحولـه الأطفـال الثلاثـة تربـت أيـاديهم عليـه، تجمع الأطفال يتيهون بغزالهم ووجوههم المرسومة على لوحتها.

سـارت السـفن في مسـار ثعبـاني، وكأنهـا تـدور حـول تلـك الكائنـات الغريبـة، لا تطـرف لهـا طـرف، عنـد المسـاك الرابـع[39] الواقـع عنـد الكيلـو 1050 مـن المنـابع، ظهـرت أشـباح ملسـاء بـلا فـروع، خمنـوا أنهـا جـذوع أشـجار نصـبها بشـر، أشـار الفـولى متهكمـا إلى خلـو البطـاح مـن النـاس "شـجر بـلا بشـر!"، وأصـرت سـهيلة أن لتلـك الجـذوع عيونـا، وسـخرت النسـوة وقلـن بـل ملائكـة سـود تـراقبهم، قالـت صـفية تحسـم الأمـر: إنهـم حـراس الجنـة. أولـيس للجنة من حراس؟

حمـل المسـاك السـادس أعـدادا كثـرا، طلـب اليوزباشـي مـن شمـروخ أن يـذهب للتعـرف علـى ملائكـة الله في جنتـه، فـانطلق مسـلحا بمسدسـه وسـيفه، يخـوض في الضحاضـح[40]، أو تميـد الأرض مـن تحتـه، فيكمـل طريقه سباحة.

علـى بعـد كيلـومتر شـاهد رجـلا أسـود باسـق العـود يقـف علـى قـدم واحـدة، ممسـكا بحربتـه دون أن تبـدر منـه حركـة، حـاول المـلازم أن يتبـادل معـه حـوارا دون جـدوى، وعـاد يحكـى مـا قابلـه، علـى التخـوم القريبـة ظهـرت أعـداد متزايـدة مـن محـاربي الشـلك، لم تكـن تشـكل تهديـدا، لكـن طبـولا بدأت تسمع في الفضاء، وتصاحبهم في الطريق نحو الجنوب.

---

39) المساك أو السد النباتي: ظاهرة طبيعية فى نهر النيل، منعت الملاحة فى بحر الجبل عقودا طويلة، تحدث نتيجة اجتماع الرياح والأمطار والعواصف، وقوة التيار فى مجرى النيل، تؤدى معا إلى حدوث انهيارات فى جسور النهر، وتندفع كتل الطين المنهارة، بما تحمله من البوص والعنبج والبردى وتخلط بقطع الأشجار والأغصان الطافية على مجرى النهر، مكونة كتلا طافية يصل سمكها أحيانا إلى سبعة أمتار، لا تلبث أن تتجمع عند المنحنيات، وتزداد كثافتها وسعتها حتى تسد المجرى الملاحي للنيل تماما، ولمسافات طويلة تتجاوز عشرات الكيلومترات.

40) الضحاضح: جمع ضحضح، وهو الماء اليسير أو القريب القعر

أمسكت البراري بخناق القافلة عند المساك العاشر، وتوقفت السفن عاجزة عن الحركة، خلع الضباط بزاتهم، ووقفوا يقودون فرق العمل، وجنود المساحة يقسمون السد الطافي إلى مربعات، جز القصب والبردي بسيوف قصيرة، ويتولى أخرون حفر مربعات من الخنادق بالمعاول والبلط، يتبعهم النجارون يدقون أوتادا خشبية عميقة في الخنادق التي تم حفرها، وقام النوتية بربطها بحبال القلوس[41]، وقيدوها إلى جسد الباخرتين.

غاص العسكر تحت الماء بسراويلهم الكتان، وانهالوا على الكتلة العشبية الطافية، يفتحون ممرات مربعة في الجهة السفلية من المساك، تنطلق الصافرة محذرة الجميع، يندفع الوابور بقوة مقتلعا قطعة من السد، يحل الجنود أوتادهم، ويصعد الغطاسون إلى ظهر الباخرة، ويرتمون على ظهورهم منهكين وهم يرشحون عرقا وطينا.

تقدمت القافلة ببطء، اقترح شمروخ تلغيم السد، تمعن اليوزباشي فيه، وقال لا ينبغي استخدام ذخيرة الحملة في تكسير سد لا يعرف أحد طوله، لام شمروخ نفسه لأنه لم يخبره أنه يفقد جنوده، بسبب انهيار الكتل الطينية، وانقضاض التماسيح.

في كون من خلاء، وفي غفلة عن الخطر الكامن في البرية، قفز الجنود إلى أحد السدود الذي مزقوه لتوهم إربا، وافترشوا العشب منهكي القوى، سمعت خشخشة صادرة من أكمة مجاورة، ربما أرنب أو سحلية، لينتبهوا على فهد يقف بينهم، ساد الفزع وتعبأ الفضاء برائحة الخوف، والمفترس يعاين طرائده، قفز جندي يحاول الفرار، فاندفع نحوه، وبعد غرز أنيابه في نحره، وضع قدمه الأمامية على الجثة، يتحدى من ينازعه.

تعالت صيحات الذعر، خطف الملازم فوزي بندقية وقفز إلى السد، ارتكز على قدميه الثقيلتين مصوبا باتجاه الفهد، تلاقت عينا الصقر والفهد، استدار الأخير ناشرا رأسه لأسفل، مد قدميه الأماميتين إلى الأمام، برزت عظام كتفيه، يتحركان لأعلى وأسفل، وعندما باغت بالهجوم أطلق فوزي النيران، ليسقط الفهد على بعد أمتار منه.

---

41) القلوس: جمع القلس وهو حبل للسفينة ضخم.

في الثامن عشر من إبريل استيقظت القافلة على عشرات من محاربي الشلك يقفون على التلال القريبة، أطلق البروجي نفير الخطر، واستدعى اليوزباشي ضباطه، وأعطى أوامره بتشديد الحراسة على السفن، وربط السفن الشراعية بالباخرتين بسلاسل الجر، والتقدم أعلى النهر دون توقف.

* * * *

شقت السفن طريقها وسط ضباب كثيف، سمع جندي الإشارة الواقف أعلى سأرى دمياط خربشات وزمجرات دعته أن يحدق إلى السطح، ليرى قطيعا من الضباع تنهش فريسة تفور بالدماء الحارة، تحشرج صوته من الرعب، ليكشف الضباب عن "مساك" يسد مجرى النهر بأكمله.

استيقظ الضباط على طلقات النيران التي طارد بها جنديان قطيع الضباع، وكلاهما محميا بظهر الآخر، صدمة قوية أطاحت بالجندي من فوق سأرى السفينة ليسقط في ظلام النهر حيث انتظره تمساح يغفو.

ارتطمت الباخرة النيل في المساك، وغاصت فيه، أوقدت المشاعل، وأسرعوا يحذرون بقية السفن التي تدافعت تصطدم واحدة بعد أخرى بمؤخرات السفن التي تتقدمها.

قفز الضباط فوق "المساك"، وأسرع أحمد سليمان يكشف عن الأضرار التي لحقت بالسفن، كانت مقدمة الوابور الخرطوم تشق قاع السفينة دمياط، العبارة الوحيدة التي قالها الملازم "يجب إنقاذ الحمولة."

أطلق البروجي نوبة استدعاء، وقاد الريسان مكي وصديق الحرامي رسو المنصورة ورشيد على جانبي السفينة المنكوبة، وضعت السقالات، وتحت أضواء المشاعل حمل طابوران من الجنود جوالات الحبوب إمن جوف دمياط إلى السفينتين المجاورتين.

خلال إبحاره في بحر الجبل واجهته بقايا أربعة عشر من "المساكات والسدود"، تغلب عليها جميعا، والآن وهو قرب "حلة النوير"[42]، يواجه سد يقبض على مجرى النهر، ويمسك بخناق الرجال، كانت الرياح لا تكل عن إشعال نار الحرب بين الأرض والماء كي تقذف في مجرى النهر الأصلي

---

42) حلة النوير: تقع على النيل الأبيض على بعد 950.00 كم من منابع النيل.

كتـل هائلـة مـن الأحـواض العشـبية، تـذكر نصـيحة اللـواء محمـد رءوف[43] "السـدود والمسَـاكات تجعـل مجـرى النهـر ممتنـع علـى الملاحـة، ومواقـع ينطلـق منها اللصوص لشن غارتهم على السفن.

تحـت مطـر غزيـر قطِـرت السـفينة المنكوبـة إلى محلـة "النـوير"، لـرأب الأضـرار الـتي لحقـت بهـا، وأقـيم مخيمـا للجنـود خـارج القريـة، وتقـرر عمـل صـيانة سـريعة لسـفن هشـمت السـدود أجنابهـا، وفتـق قعرهـا بسـبب شـحطها في قـاع النهـر الرملـي، وطلـب مـن المـلازم فـوزي وضـع قناصـة علـى صـواري السفن لمواجهة خطر الضواري والتماسيح.

في محلـة النـوير قـام المعلـم نقـد بضـبط أرضـيات السـفن وفـك الرمانـات، وإعـادة لفهـا بحبـال التيـل، ورأب فتـوق جسـم السـفن وقلفطتهـا[44]، واسـتبدل بكـرات القـلاع المهشـمة، وتـولى المعلـم سـيد الـدمياطي، الـذي عـبر المـالح في أسـفاره بـين إسـطنبول وجـدة وصـيدا، رتـق الأشـرعة الـتي تمزقـت تحـت ضـغط الريـاح القويـة لمراكـب تصـعد ضـد تيـار النهـر، وفي جميـع السـفن أخـذ أحمـد سليمان على عاتقه ضبط ميول الصواري والدناقل، ودساتيرها.

حملـت الريـاح قـرع الطبـول، وارتفعـت في البطـاح ألسـنة الـنيران، وتنامـت الريبـة بـاقتراب الخطـر، وتحـت ثقـل شـعوره بأنـه سـيكون ضـحية هجـوم قريـب، أضـاف ورديـة للعمـل لـيلا تحـت المشـاعل، ثـم اسـتدعى المـلازم شمـروخ وقال "حان وقت اللغمجية".

تقـدم شمـروخ فصـيلة اللغمجيـة، يحملـون ألغـامهم، حيـث كـل شـيء أسـطوريا، النهـر الـذي اكتسـى بخضـرة زاهيـة، بـراري ترصـعها آجـام الـبردي، بطاح ممتـدة بمنـاقع الميـاه، تقـف علـى صـفحتها طيـور أبـو أبـيس بمهابـة تنظـر العابرين في برزخ بدا قاب قوسين أو أدنى من السماء.

علـى بعـد كيلـومترين، غـاص شمـروخ وفضـل الله الـدنقلاوى والجنـود أسـفل الهـويش الملغـم بـالخطر، وانـبروا يـزرعـون الألغـام في بـاطن الكتلـة الطافيـة، مـن بعيـد سُـمع بانتظـام دوى انفجـارات، وبـدأ النهـر يكشـف عـن نفسـه، في المسـاء ظهـرت سـرية اللغمجيـة علـى أطـراف المعسـكر، وقـد فقـدت

---

43) اللـواء محمـد رءوف: قـاد حملـة 1871 تحـت أمـرة صـمويل بيكـر، وكـان برتبـة قائمقـام، تمكن من إزالة ستين ميلا من السدود.

44) القلفطة: هي عملية سد شقوق السفن الشراعية بالقطن المنقوع في زيت جوز الهند

خمسة من جنودها، نتيجة احتباس بعضهم داخل كتل العشب، أو افتراس التماسيح، سقطوا متهالكين، تناولوا طعام ساخن أعد لهم على عجل، وغطوا في نوم عميق.

في منتصف الليل شعر اليوزباشي برعدة تسري في أوصاله وهو يحدد البعد الزاوي للقطب الشمالي عن خط الأفق، وارتفاع نجم الحسان، عندما رفع رأسه كانت الشابة الفرنسية تقف أمامه، تسأله عن علاقته بالنجوم.

- سبع درجات تفصلنا عن خط الاستواء.

- "وكم درجة تفصل بيني وبينك؟".

- "الفلاحون يكتفون بعشر درجات من العالم، بينما الإنجليز لا يملون عن ابتلاع الكرة الأرضية"، هذا هو الفارق بيننا وبين.

- هذه أفكار ضباط ثوريين.

ضحك وقال وهو يجمع أدواته: بينما أنتم الفرنسيون تعفون عن ملذات الدنيا، ولا ترغبون من العالم بشيء.

- اللعنة، أنت لا تكف عن السخرية.

- مدموازيل عمت مساء.

قالت بصوت به لوعة وإغراء: "تعال إلى غرفتي الليلة". لماذا لا تفعل؟

- آنسة، أنت تنتمين لرجل آخر، سوف التقى به وجها لوجه بعد أيام.

- ماذا هل استيقظ ضميرك، هل أقف أمام مُرَاءٍ؟

- المفروض أن أسلمك لمسيو كازاتي، سليمة دون أن يلحق بك ضرر.

- "سيد الأخلاق، لست طرد بريد!"، وأضافت بحنق:

- "اذهب إلى الجحيم".

- أشكرك.

* * * *

- 12 -

مدخل بيكر

أبحر شمروخ يرافقه جنديين للبحث عن مدخل بيكر[45]، مع نهاية الكتلة الطافية، ظهر ملتقى البحرين؛ الزراف والجبل، واتسع المجرى ليبلغ الأفق، رقت غلالات الضباب لتكشف في طياتها عن أشباح سامقة لملوك من عصور غابرة، وصوتا خافتا لقرع الطبول، تحسس مسدسه، وقفز يستكشف المكان، تسلق دغل يكشف عن زريبة تتوارى في وهدة من البطيحة.

عبر البوابة إلى ساحة ينتصب بها شجرة طلح عملاقة، ثمة باب يفضي لدرج، أوقد مشعلا وهبط إلى ممر سفلى، هاجمته رائحة نتنة، على الجانبين توالت غرف خالية من النوافذ، ثبت على جدرانها حلقات حديدية صدئة، وبقايا دماء، كانت زرائب لحيوانات بشرية.

صعد متحاملا على نفسه، حيث عاد المطر ينهمر، على حافة الجرف رأى أعدادا من رجال القبائل، مجتمعون حول قرد يرقص رقصات تعطى إيحاء لا يدري كنهه، تحرك عائدا وهو يفكر، إذا ما كان مدخل بيكر سيكون الموقع الملائم للهجوم.

عند شفير النهر شاهد القارب يتلكأ في خور جانبي. سبح حتى بلغه، وجد أحد الجنديين قد شطرت رقبته، والثاني مصابا بسهم في صدره، نزع السهم، وأسرع يجدف بالقارب حتى بلغ البر، حمل الجندي على ظهره، واندفع يبلغ قومندان الحملة بنذر الحرب.

---

45) مدخل بيكر: يقع عند نقطة التقاء بحر الزراف مع بحر الجبل، على خط عرض {7:20} درجات شمال خط الاستواء، وعلى بعد 800 كيلومتر من منابع النيل، سميت باسم سير صمويل بيكر *Samuel Baker*

قبل الغروب أطلق البروجي نفير الجمع، أعطى اليوزباشي أمرا بإخلاء المعسكر، على أن يكون الجنود في وضع محتل منذ الفجر.

في تلك الليلة دخل الحسيني قمرته وأخرج دفاتر المساحة، وبسط رسومات القطاعات العرضية لمجرى النهر، وشرع يكتب بريشة على سرك القيد المساحي:

اليوم: الثلاثون من شهر إبريل 1883

الموقع: خط عرض 7 درجات و25 دقيقة خط طول 30 درجة و43 دقيقة

800 كيلومتر من منابع النيل

مدخل بيكر نقطة تلاقي بحر الجبل وبحر الزراف

وشرع يرسم قطاعا عرضيا للنهر، وعندما انتهي بعد ساعتين من العمل المرهق، وقع على كروت القياس والرسومات، وأضاف:

رفعت القياسات والرسومات بمعرفة:

يوزباشي أركان حرب الحسيني عبد الغفار

الأورطة التاسعة

الجيش المصري

* * * *

في الفجر نفخ البروجي نوبة يقظان، زعقت المحركات، أعطيت أوامر التحرك، كانت الفرنسية لا تزال في القرية، أرسل من يستدعيها.

في بطء ابتعدت الباخرة عن المرفأ تحت المطر الغزير، يدفعها الرفاص إلى المياه العميقة، صافرة طويلة، تقدم بعدها وابور النيل صاعدا النهر تتبعه بقية الحملة ترفرف على أشرعتها رايات وبيارق القوات.

* * * *

الطوفان

شق البرق وضرب الرعد السماء، وفتح الكون بواباته، اندفعت شلالات المطر الغزير والسيول، وارتفع الماء من ينابيع الغمر، وتلاشت نتوءات الأرض في المناقع، ليبق الماء سيدا للكون.

في قمرة القيادة وقف يتابع فلكه العجيبة، تسبح وسط الطوفان العظيم، حيث العالم سماء مترامية الأطراف، ومطر لا يتوقف عن الانهمار، ونهر يتسع بلا توقف، وكل شيء يشي بسلام تام، حتى أخذه الظن أنه يسير في المكان الذي جمع منه النبي نوح عليه السلام زوج من كل ذكر وأنثى من خلق الله في أرضه.

تتساءل إذا كان ما تراه وهما، أم أنك في عالم أسطوري...

.. ها أنت تقف في الأرض التي أطلق الله منها طوفانه على عبيده العصاة، لكن تريث ولا تأخذك الأوهام، فلا أنت بالبار الذي هو نوح، ولا تحمل على ظهر فلكك الصالحين، ولا سراياك التي تغوص في الوحل جماعات من الخطاة، وليس ثمة من يوقظك من حلمك الأسطوري سوى جنودك يبحرون في المناقع، وقد اجتمعت عليهم فورات الأرض وماء السماء، يسبحون بين السماء وبحر المياه البدئية، تعبرهم قطعان الزراف، تلتقط أوراق الشجر وتلوكها بتمهل، وضبا يتثاءب على صوت الوابور، وقردة تضحك، وقطعان أفيال تطفو وسط أجناس بشر، يرقصون على هيئات لها رؤوس الطير وأبناء أوى، ترتفع من مؤخراتهم ذيول مشعرة.

يأخذك المشهد إلى حكايات جدتك عن الرجل الذي صُلب في القديم الغابر على صاري بلغ ارتفاعه السحاب، تسبح به سفينة خرافية إلى عين الشمس.

تعود من هلوسات الماضي وسحر الواقع، والفرنسية تعبر أمامك بغضب، ستلومك لأنك لم تذهب لإحضارها، تحدق ببصرك، ترى جني يلوح لك مهددا، صدمة عنيفة تجعلك تفيق من غفوتك على صوت الملازم شمروخ يقف أمام مقدمة الباخرة، يلوح لك ويصرخ عليك بالتوقف، تغادر قمرة

القيادة مسرعا، ينكشف الشاطئ بمئات الرماح، وقد طوق السفن شرك الطبيعة، ومحاربي القبائل.

صرخ الرجل المجنح ذو الرأس الملون بمنقار طائر خرافي، وقفز على الكتلة الطافية، هز حربته في وجه اليوزباشي، وأطلقها قوية أصابته في كتفه الأيسر، قبل أن يسقطه صريعا برصاص مسدسه، كان أول قتلاه في العالم الجديد، بعدها انطلقت مئات السهام تطلب الثأر.

حُمل اليوزباشي إلى المستشفى المقام في الطابق السفلى، حيث عكفت زوجات الضباط والجنود على العناية بالجرحى، وما أن انتهي من تضميد جراحه حتى تحامل على نفسه، وعاد إلى قمرة القيادة.

داخل مرمى السهام اندفع عشرات الجنود يحملون البلط والمعاول والسيوف، يخلصون مقدمة الباخرة من المساك الذي تعلقت به، وثب المحاربون في النهر تحت نيران البنادق، يسبحون تجاه سفينة جانحة، وصعدوا إلى السطح ليدور قتال متلاحم بين المهاجمين والمدافعين.

في الماعون وقف طابوران من الجنود واحدا خلف الآخر، يتناوبان تعمير بنادقهم وإطلاق النار، أوقع الانضباط الصارم لضابطي البيادة؛ حسن سليمان وعبد المبين شلعى خسائر فادحة بين المهاجمين.

أضرمت سهاما مشتعلة النيران في السفينتين بولاق والسلطانة، اجتمع الجنود يُطفئون الحرائق، ساد الارتباك في الحملة، لكن حسن وشلعى حافظا على وتيرة منتظمة للنيران.

مد البلوكان الثالث والرابع الحبال إلى السفينة الجانحة، وغاصوا في الأوحال يشدونها، جمع فتى صغير شتات نفسه، وحسن من هندام بذته، وجرى حاملا نقارته ليتقدم وسط الجثث الطافية طوابير الجنود، بعثت ضرباته المنتظمة الحماس، وتقدموا بالسفينة إلى الأمام.

قفز محارب على الكتلة الطافية، يلوح بحربته، لكن انفجارا قذف به عشرات الأمتار، قبل أن يسقط أمامك مباشرة على زجاج قمرة القيادة، وعيناه اللامعتان بين الأسود الفاحم والأبيض الشاهق تنظرانك، صافيتان خاليتان من الغضب، مثل طبيعة تولد من بحر العماء، حمله الجنود وألقوا به في النهر، وكأن الميلاد يفسد.

مـن خلـف تـدريع البـاخرتين فاجـأت سـرية الطوبجيـة المحـاربين بقـذائف مـدافعها، توقـف الوجـود وسـاد السـكون بانتظـار أن يخـف اللـهب المشـتعل علـى صـفحة النهـر، مـن مقدمـة الوابـور قفـز الملازمـان سـالم خـلاف وفـوزي يقـودان سـرية مـن عسـكر الجهاديـة يحملـون الفـؤوس والـبلط، و يحطمـون بقايا الكتل الطافية التي تعوق تقدم الوابور.

شـقت الحملـة طريقهـا وسـط صـمت مطبـق، يقطعـه الصـوت الرتيـب للمحـرك، وصـوت الرفـاعي يعلـن عـن أعمـاق النهـر، علـى حافـة المراكـب ارتكـز الجنـود شـاهري السـلاح، وعلـى الضـفة الشـرقية وقـف محـاربي القبائـل مـأخوذين، وهـم يشـاهدون الـبراكين تنبثـق بـالنيران مـن بـاطن النهـر وجانـب الباخرتين، تحمل محاربيهم إلى السماء.

علـى مرمـى الأفـق لاح مـدخل بيكـر، صـدرت الأوامـر إلى الجنـود بـاعتلاء ظهـور السـفن، الـتي كانـت تتقـدم بـبطء وانتظـام، مخلفـة وراءهـا عشـرات الجثث تنتشر على صفحة النهر.

أعطـى المـلازم أحمـد سـليمان تعليماتـه باسـتعادة سـرعة البـاخرة، لتبحـر متحـررة مـن الـبرزخ الكـائن بـين المـوت والمـيلاد، إلى النهـر الصـاعد في طقـوس العبادة، يطرق عتبات الجنة، يستأذن بالدخول.

عبرت القافلـة مـدخل بيكـر حيـث الميـاه **سَمْت** الكـون، قـاموا بـإداء صـلاة الجنـازة علـى سـبعة عشـر جنـديا قتلـوا علـى ظهـر السـفن، وأثنـاء الـدفن أطلـق حـرس الشـرف الرصـاص، وبـات الجميـع بانتظـار بلـوغ أولى مواقـع الحاميـات المصرية في مديرية خط الاستواء صباح الغد.

* * * *

توقـف المطـر وعـم الهـدوء، تتمـدد علـى مقدمـة السـفينة، تلمـس بأنفاسـك النجـوم الزاهـرة، هـو الـبراح الفسـيح الموشـى بالبكـارة، تسـتعيد رحلتـك الـتي بـدأت مـن ثكنـات القنـاطر، تصـعد علـى ظهـر النيـل، إلى الفـاطر في عليائـه، لتقـول في حضـرته؛ كنـا نعـيش بقايـا عصـر الإمبراطوريـات الكـبرى، تـدهس بأقـدامها نثـار الثـورات الـتي فجرتهـا الثـورة الفرنسـية... يـا ألهـي، تلازمـني الوحدة، ويسكنني الموت.

وقف شبحها جوارك، تغمغم وهي تقبض بيدها على مقبض سور الباخرة، والرياح تعبث بشعرها:

- "هذا الجمال الساحر.

تجيب بالصمت، يظهر ديمترى كاتب الحملة مترنحا، يعدل من ملابسه وعويناته، لا يحاول اليوناني أن يخفي نفسه، مضى زمن على الاعتقاد بأنه عشيق الفرنسية، وتبين ميله للتواجد وسط الجنود.

على ضوء النجوم اللامعة تتسلل إلى قمرتك، تتابع طريقة اقتحامها فراشك، ها هي تخلع مشدها، ثم تنحني وتخلع سروالها في سرعة، تطويهما بطريقة مرتبة، تقوم على دفنهما أسفل الوسادة بطريقة فظة، يسيئك ألا تلقى بهما كيفما اتفق، أو يخيفك كونك غارقا في مخاوف العنة، تقتحم الفراش، وتندس جوارك.

تلمح على ضوء القنديل جسدها الرخامي؛ جريما[46]، سامقا، تتجانس مؤخرتها مع مسحة ظهرها، زرافة تعبر مناقع بحر الجبل، تلتفت نحوك بعينيها الدعجاوين[47]، تنطويان على ذكاء وغضب، والتماع ببريق الحياة، لماذا تصر على اقتحام حياتك الخربة؟ تود تناول جرعتها الأخيرة، حتى ولو كانت "لادو" حيث ينتظرها خطيبها قد اقتربت، تستميلك، ترجوها ألا تفعل، تتمعنك بحنق، وأنت ممسك بكاس البراندى، تنتصب نصف انتصاب وتطيح بالكأس وهي تلعنك.

- ماذا بك، ماذا حدث؟

تتهمك بالوقاحة: "كيف لا تقدم لي كأسا؟ كيف تتجاهل وجودي؟

وتتحدث باعتذار، تغفو وتغرق في كوابيسك، تقاوم جثث نافقة، وتصحو لتغوص في جواثيم[48] ليلية، بحثا عن صفاء يمكننك من فهم مصيرك الغامض، يطل شبح يمتطي جوادا حديديا ينخر منخاراه صهدا، يركض على سطح مستنقعات معتمة، وحقولا خربة تتناثر على بيادرها مواقد حجرية تتقد بألسنة النيران، يرقص حولها ماعز بلا رؤوس، أنت ضابط غارق في تاريخ بلا تاريخ، صبي يسكن ماضيه هالة سوداء لشجرة

---

46) جريم: عظيم الجسم، المعجم :الرائد

47) دعجاء: عينان شديدتي السواد مع سعة المقلة.

48) جواثم: كوابيس

عملاقة تسكن زواياها غيلان وشياطين، وعلى أطرافها تبرق عيون جنيات، وترفرف أجنحة العصافير بألوان قزح.

- "كل رجل يغرق في كوابيسه يجد شبحا يسعفه من الغرق".

تدفس رأسها في جسدك، تأخذك من أفكار تشغلك عن الاستمتاع بها.

- خذ ما بين يديك الآن، واترك ما تفكر فيه للغد.
- كيف وأنا ملبوس بشرف ضابط سُرح جيشه.
- " لا تبكي ماضيك كامرأة مغتصبة، فليس هكذا يصيغ القادة العسكريون أساطيرهم".

يؤجج قولها ضحك صاخب وسخط عارمين، تلثم جبينها، تود لو تقول إن أساطير القادة العظام لا تتخلق في زرائب العبودية، كيف قيد القدر لي هذه السخرية، أغادر وطني على رأس حملة عسكرية، بعد أن احتلت أراضيه قوة أجنبية.

تلمحها تقف وهي ترتدى على عريها قميصك العسكري، تكشف عن ساقين إغريقيتين طويلتين، ترسم لوجهك بورتريها من ظلال أرجوانية وتقول بصوت ارتفعت فيه غلظة التشيللو:

- "لو نظرت بروح التفاؤل ستجد نواح مشرقة".
- "مثل؟"
- "بإمكانك أن تفعل ما فعله هانيبال بروما، غادر قرطاجة، وأعبر بجيشك إسبانيا على ظهور الأفيال، وسدد لبريطانيا ضربة عسكرية موجعة، يحلم بها كل القادة العباقرة".

تضحك وأنت تتجرع كأس الإهانة، متغاضيا عن مواطن السخرية، تنحني تطبع على وجهك قبلة من شفتين غليظتين، وتغمز بعينيها الرحبتين وتهمس بصوت "الفيول" الرخيم:

- " هناك جانب مشرق، لديك فرق عسكرية، بلاد بِكْرٌ خاوية، تسأل كل عابر أن يصير ملكا عليها، فكر في الأمر، وأصنع مصيرك. على الأقل أنت الآن في بلاد الأفيال؟".
- تسخرين بجلافة، ما الذي تريديه؟
- "ما الذي أريده؟". تطرق بإصبعها جبينه وتستطرد: " استخدم عقلك".
- "تريدين أن أتوجه بهذا الهراء لاحتلال لوندرة".

- "أنا أكثر حقيقة من لوندرة أو باريس، أنا هنا، تعال واحتلني".

- أرجوك خذي لوحاتك وارحلي إلى قمرتك، واسترخى في النوم، بعد أيام ستلتقين بخطيبك مسيو كازاتى.

تهمس بصوت رخيم ناعم مثل ضربات أصابع البيانو:

- "توقف عن هذا اللغو وأغزو جسدي، ضاجعني، أرجوك."

تغادر جسدك وترحل، تفكر في الإمبراطوريات والقادة العظام الذين يقاتلون لإنشائها، وأولئك الذين يعكفون بصبر وإرادة صلبة على توسيعها، وأشباه الرجال الذين يفعلون كل ما في وسعهم لهدمها...

الآن تمارسان الجنس بآلية مفرطة، ستفضي بها إلى ذروة النشوة، دون أن تبلغها أنت، عالمين منفصلين، تتوقف عن التفكير فيما يمكن أن تصبح عليه علاقة عابرة، رفيقة رحلة المنفى، لحظات مفعمة بنزيف التمزق، بانتظار اقتراب شوط المضاجعة الطويل من نهاياته، تكون قد امتلأت بالرضا، لينبهها حدسها أنه اقترب من بلوغ خواتيمه، تنتفض وتهرع مسعورة، وعيناها مغشيتان بالهلع، والخشية أن يفوتها ما تصبو إليه:

- "c'est bon, Je vais le boire... Je vais le boire... Je vais le boire...

تهز رأسك والأسى يخيم على وجهك، تاركا مهرة ترتعد مكشوفة للغزاة، ماراثون طويل تلتهمك بنهم، رعدة طويلة تبزغ من جذعك مارة بعمودك الفقري، وهي لا تتوقف دون رحمة، ولا أنت ترغب في أن تتوقف، ينفجر سائل الحياة كشلال تلعقه، تفتش في ثناياه، تنظفه مثل قطة تنظف أطفالها.

متعة مفرطة، أنتم الفرنسيون لا تعرفون الرأفة، فترات طويلة قبل أن تستدير إليه ترغب في تقبيله، لكنه يأنف أن يفعل، يلثم جبينها، تدس نهديها العامرين في صدره، تهمدان ويناما متعانقان، وقد هدهما التعب، قبل بزوغ أشعة الصباح يتابعها تكور مشدها، وسروالها الداخلي في راحتيها وتتسلل مغادرة قمرته.

* * * *

شامبى

على خط عرض {$7:10^0$}، وقف عسكر الجهادية على متون السفن، يشاهدون أعداد كبيرة من النساء والأطفال يهرعون إلى البر مذعورين، وقد أمسك بتلابيبهم الروع والفزع، يلوحون إلى الجند، ويستنجدون بهم، يتقدمهم شيخ ملتحى ينادى ويصرخ: "يا مصري.. يا مصري.. بالله عليك أنقذنا".

ها هي "شامبى"[49] تستقبلك بحرائقها كما ودعتك الإسكندرية بحرائقها، ترسل قاربا يأتي بالشيخ منهارا، تعلم منه أنه أمام مسجد الحامية، ومعلم كُتابها[50]، وأن من معه هم الناجين من أرامل ويتامى عسكر الحامية، الذين ذُبحوا ومُثل بجثثهم في هجوم محاربي الآجار، وأن بقية الحامية وموظفيها وأسرهم لازالوا تحت الحصار.

تهادى وابور الخرطوم إلى البر، يقطر خلفه ماعون نقل الجند، مدت السقالات، وأطلق النفير معلنا وصول النجدة، قفز عسكر الجهادية شاكي السلاح، وتقدموا نحو الحامية، حيث شُوهد العلم المصري يرتفع محترقا أعلى سارية الثكنة.

في أرجاء القرية اشتعلت النيران في الأكواخ، وتناثرت في الطرقات الموحلة جثث بَقَرت أحشاؤها، واقتلعت رؤوسها، وعلقت على أسوار المعسكر، طارد الجنود محاربي الآجار الذين كانوا يقومون بأعمال نهب وسلب مخازن الحامية، ويهربون بها إلى الأدغال.

فتح المحاصرون أبواب الحصن، وهم يهللون للنجدة غير المتوقعة، وقد بدت عليهم معالم الانهيار والجوع الناجم عن الحصار، وكان قومندان الحامية اليوزباشي عبد النور أغا السوداني قد قتل، ومعه خمسة وثلاثين من العسكر، أثناء محاولات لفك الحصار.

على الأراضي المنبسطة وسط حقول الفول والسمسم التي زرعها المصريون من عسكر الحامية، ركضت سرايا المطاردة لقطع الطريق على المهاجمين، وعلى حدود الأفق انتصبت في وقار وسكون أبدى،

---

49) شامبى: Shambe، تقع على خط عرض {07:10}. وهي أولى المحطات العسكرية التي أقامها الجيش المصري على بحر الجبل.

50) الكُتاب: مكان صغير لتعليم الصبيان القراءة، والكتابة، وتحفيظهم القرآن

عشرات من تماثيل مهيبة، نحتت من الجرانيت الأسود، ينبثق من مقدمات رؤوسها قرون شديدة الصلابة.

في العراء توارت القرية، وأطلت غابة "شامبى" ببهاء خلف سلاسل من الغدران والجداول، وعشرات من محاربي القبائل يرتدون البزات العسكرية التي نهبت من جثث القتلى، ويلوحون بالبنادق التي غنموها، أطلق البروجي نفيره، فتخندق العسكر مصوبين بنادقهم، بينما استمر الخطرية في المطاردة، التفت المطاردون إلى الخلف مأخوذون بصوته.

غاص الملازم فوزي فوق بساط من العشب الفاتح الخضرة، وظلال وارفة بعباءة الترفق، تسأله أن يحرر أفكاره ويترك لها العنان، حيث تنبض الحياة شامخة، في عالم من عذرية النضرة، تمتد أشجارها السامقة عشرات الأمتار نحو سماء الله دون تيه ولا غرور.

شاهد ساحرا يرفع ساعديه ويرقص بأقدامه، مغطى بأساور وحلقات من الريش والعظام، كان يشير نحوه وهو يصرخ بصحيات غير مفهومة، مر سهم بجوار وجهه، تمنى فوزي لو يستطيع الحديث معه، أو إجراء تفاوض يستعيد به البنادق التي استولى عليها محاربوه من سلاحليك الحامية.

ضاقت عينا الصقر، وصوب بندقيته وهو يرتكز على مقدمة فخذيه الثقيلين، يبدو مثل وحيد القرن في ثقله، وأطلق النار، سقط رجل المطر صريعا، لحظتها توقف كل شيء، لم تعد هناك معركة، بل فارون بالرعب، والدناقلة ينقضون عليهم، يقيدونهم في الأغلال، نادى رئيس الخطرية وأخبره أنه ليس من شأنه أن يأخذ أسرى، سأله أن كان يريد قتلهم، طلب منه أن يتركهم كي يعودوا إلى قراهم، أجاب الخطرى باضطراب أنهم يقيدونهم حتى لا يتمكنوا من مطاردتهم فيما بعد.

* * * *

جمع الجنود الجثث والأشلاء، وقاموا بصلاة الجنازة قبل دفنها في مقبرة جماعية، وفي مكتب قومندان شامبى القتيل جلس رجلان ملوثان بالدماء، يرتديان الزى العسكري المصري، أحدهما مصري والثاني من الوطنيين، كاد الجنود أن يقتلوا الثاني، وقد ظنوا أنه أحد محاربي الآجار،

يمثل بجثث القتلى وينهبها، لكن المصري دافع عنه باستماته، موضحا أنه الصول الذي يُشرف على مزارع المحطة، وأن الرجل هو مساعده "مانيبا" شاويش في الجيش المصري، ألقى بجسده عليه ليحميه من موت محقق، وهو الذي يعرف مكان عدد كبير من أهالي الحامية المختبئين في الأدغال.

وقفت النسوة على ظهر الباخرة النيل يستمعن إلى الحوار الدائر حول تشكيل بعثة إنقاذ، كان غالبيتهم يرغبون في الرحيل، فعلى البر الشرقي عادت أصوات الطبول ترتفع، وبدا أن هناك تحركات عدائية مريبة، ظهر الهلع على وجوه المدنيين الذين التقوا بهم على مدخل شامبى، حسم الشيخ جاد الحق الأمر عندما قال وهو ينظر بقلق ناحية الخطرية، أنه لا يوجد أسرى في حروب المديرية الاستوائية، الخاسر يباع لتجار رقيق.

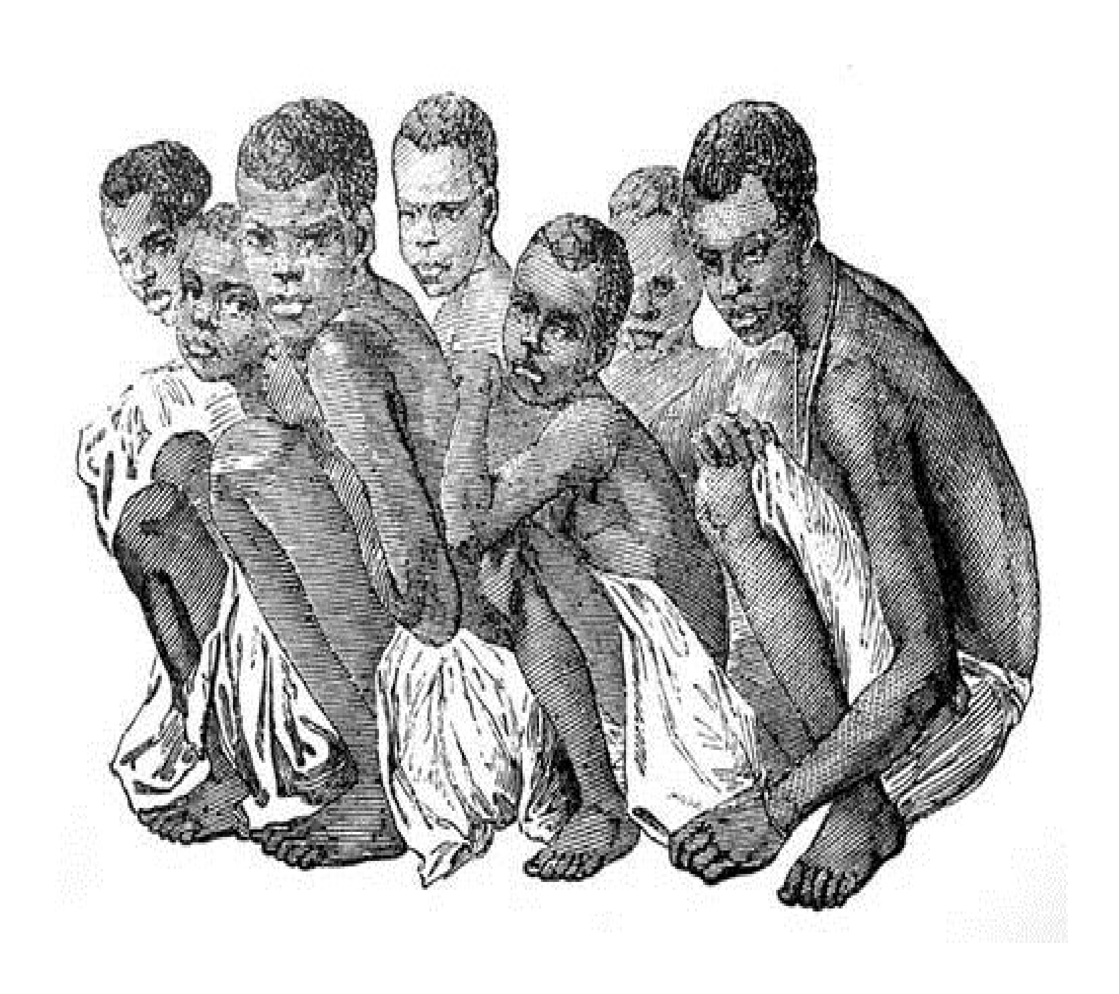
وسط الأحراش تقدم الشاويش "مانيمبا" سرية الإنقاذ، تراقبهم عيون بومها الساكن بالحكمة فوق فروع أشجارها العملاقة، وتودعهم بصوتها المقبض بالشؤم، على بعد سبعمائة متر في عمق الغابة انقشع المكان عن بقعة عارية تحيط بدغل كثيف، قلد مانيمبا ضحكات البابون، ولم تمض لحظات حتى ظهر من فتحة مخبأة عشرات النسوة والأطفال تنطق ملامحهم بالرعب والهزال، وكأن المذابح التي شاهدوها منذ أيام قليلة بانتظارهم، حمل العسكر الأطفال على ظهورهم واتكأت النساء على أكتافهم، وأسرعوا باتجاه المرفأ، وهم ينظرن إلى الخطرية بقلق.

خيم الغروب على شامبى، أطلق وابور النيل صفارات الرحيل، وأسرع الناجون يصعدون ظهور السفن، أخذ اليوزباشي تمام الجنود، وأعطى أوامره بالمضي قدما، ولم يمض الوقت حتى غادرت القافلة باتجاه الجنوب، وصوت الثورين الميكانيكيين ينخران الصمت الأبدي.

أثناء تناول العشاء اقتحم شمروخ القاعة وهو يدفع أمامه أحد عساكر التراجمة، كان يرتجف وهو يخبرهم أن العسكر غير النظامية من الدناقلة يقايضون الحاج سليمان الأسود على الأسرى الذين قبض عليهم في غابة شامبى، مقابل بنادق ريمنجتون[51].

إذا كانوا ينوون التمرد أيضا؟

51) ريمنجتون: Remington



سأل اليوزباشي إن كان يعرف موقعهم، قال شيئا عن مدخل بيكر، أزاح العشاء من أمامه وهو يردد:

- "لن أدخل لادو وعلى جبين الحملة عار بيع أسراها رقيقا".

أوضح شمروخ إنه يعرف الزريبة التي سيأخذون إليها الأسرى، وأضاف: حضرة اليوزباشي، أستطيع القيام بالمهمة.

* * * *

شارف بلوك المطاردة مدخل بيكر، كان المطر يهطل بشدة، والعتمة تنتشر في البراري، أوقف الوابور في عرض النهر، وتسلل متقدما جنوده، باتجاه الزريبة التي اكتشفها وهو يبحث عن مدخل بيكر، سُمع صوت إطلاق نار قادما من ناحيتها، اندفع الجنود يقتحمونها، شاهدوا عددا من الأسرى معلق من أقدامه في شجرة الطلح، وقد جعل منهم صيادو العبيد هدفا للتدريب على إصابة الأهداف.

أطبق الجنود على عصابة الرقيق، ودفعوهم تحت تهديد السلاح إلى حجرة جانبية، خرج سليمان الأسود عامل الحاج أبو السعود، يقبل يد الملازم، ويرجوه العفو، موضحا أن قافلته قادمة من قرية "ولسى" التي لا تتبع المديرية، دفعه جانبا، حمل مشعل، ونزل الدرج وتاجر الرقيق يتبعه، توالت القيعان مكدسة بحدقات سوداء لامعة، تومض بزعر وحيرة مروعين، وعلى رؤوسهم وقف رجال عصابة الرقيق يهددونهم بالسيوف المعكوفة بالصمت المطبق، لحين رحيل المصريين.

في الزريبة الأخيرة اصطدم بومض وحشي، عينان من نهر ساكن لا عواصف ولا أعاصير، تجريان على طبقات عميقة من الغرين، وألق من صفاء يبرق ذعرا، كانت تجلس هناك مقيدة بالأغلال إلى الجدران المخثرة بالدماء، ترفع رأسها بكبرياء بين الفتيات؛ أميرة قبائل "المبورو" التي تقطن المنطقة الشمالية لهضبة الكونغو، كل ما استطاع فهمه من ذاكرة تتهاوى أمام لعنة التاريخ ولا نهائية الجغرافيا، أن الفتيات اللائي يجلسن وحيدات في نهاية الزريبة كن مكرسات للعبودية.

أدار وجهه عن الوهج الذي لسعه، صرخ تاجر الرقيق وقد وجد حبل خلاصه: " عجبتك؟، دي هديتي لملك أو أمير، مخبيش عليك، طلبها مني

عمنا الكبير الحاج مسعود هدية للإمام المهدى، يا أخي خذ نصيبك من هذه التجارة الحلال ولا تسبب لي المشاكل يرحم والديك.

عاد ينظرها، أنثى مكتملة في الرابعة عشرة من عمرها، تحيط بها أربع صبايا أبكار، تنتصب بينهم في قيودها برفعة، حليقة الشعر، تحيط رقبتها حلقات من الفضة، تتدلى من أذنيها حلقات كثيرة، بشرتها الآبنوسية، ووجها الماهوجنى، اندلع كالحرائق، شيء لم يسبق له اختباره، ومضت عيناها اللامعتان بالشرر ثانية، شعر بها تزوم بزئير الهررة المتوحشة.

لم يكن هؤلاء من يسعى وراءهم، كان يريد محاربو الآجار الذين استسلموا لقواته من الخطرية"، وكأن التاجر عثر على طوق آخر للنجاة، نفى أي علاقة بأسرى شامبى، وأضاف أنه أمضى أسابيع يسوق هذه القافلة التي جمعها من القرى الواقعة على نهر ويلي شمال حوض نهر الكونغو، حتى الحكومة ليس لها شأن فهو عابر سبيل، وأخرج المصحف من صدريته مقسما أنه لا يخالف الشرع الحنيف، "بذلت جهدا ونضحت وعرقا وأنا أعبر بهم الغابات والمستنقعات، مات الكثير، وكلفوني الكثير، يا ريتني آخذتهم لمشرع الرق، ومكنتش وقعت في المصيبة دي".

أصر شمروخ على إخلاء سبيل الرقيق، تركه الأسود وعاد مسرعا يحمل كيسا ممتلئ بالريالات، وضعه بين يديه، كان يضحك، وفمه الغليظ يكشف عن أنياب نتنة: "لا غالب ولا مغلوب، خذ المال اللي يكفيك، نبيع الصبي بثلاثة دست ظروف جبخانة[52]، وخمس بنات ببندقية ريمنجتون".

تابع حرس الوابور عدد من القوارب تحمل أسرى محاربي محطة شامبى نحو الزريبة، وقد أوثقت أعناقهم بحبل غليظ، وأقدامهم بسلسلة حديدية ليدخلوا ساحة الزريبة تحت ضربات السياط.

وجدوا عسكر الجهادية بانتظارهم، وقد ركبوا أسوار الزريبة، خرج شاهرا سيفه، ليسمع للمرة الأولى النغم الرتيب لصرير سلاسل العبودية، وهي تغل سيقان المظلومين، أهذا ما يبحث عنهم؛ أسرى شامبى؟!.

---

52) جبخانه: كلمة تركية (Cephane) تعني الذخيرة، جبخانلك Cephanelik تعني مخزن الذخيرة. جبَخانة: مخزن العتاد الحربي والمواد الحربية كالمتفجرات.

في منتصف ساحة الزريبة وقفت فصيلة الإعدام تنفذ حكما بالموت على عسكر الخطرية بتهمة الخيانة، وقف الرقيق كالأصنام، ينظرون المحارب ينفذ حكمه على نخاسيهم؟

أمضى شمروخ الليل يكتب للبائسين صكوك حريتهم، وعندما بدأت ألسنة النار تخبو، كان لا يزال منكبا على طاولة صغيرة وهو يستمع بصبر لحكايات المختطفين وعذاباتهم، كانت الوجوه التي حررها لتوه، تشرق بطاقة شمس الحرية، رحلت النساء في جماعات، حاملات على رؤوسهن سلال بمؤن الطعام وزعها بنفسه، ويتطلعن له بشكر وعرفان، تابعهم يرحلون واحدا خلف آخر عائدين لقراهم، أرواح تتألق بمعنى الوجود الحي للسعادة البشرية، الحرية،

صبية بكر قدت من أشجار الكاكاو قدمت من أعالي خط الاستواء لتسلم جسدها لك وأنت غافل عنها..

العبودية، الرقيق، النفوس التي تباع وتشترى، روح النخاسة، شراسة النخاسين، تجارة البشر، حججهم الشرعية، حرية النفس الإنسانية.

تنفس الطبيعة الممتدة لغابات ومراعي السافانا الأفريقية، أشرقت روحه بألق العيون وبشر الوجوه التي تجد السير عائدة إلى قراها، وهي تحمل في جوانحها روح الحرية.

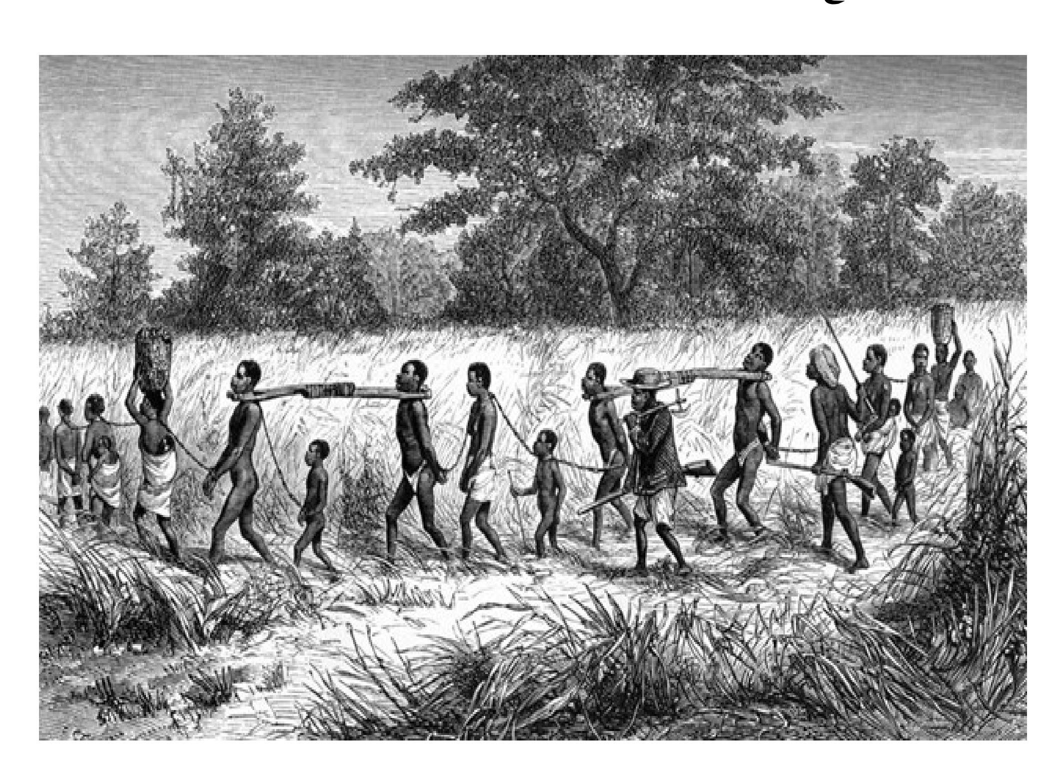
على ظهر الباخرة وقف الملازم الذي تعدى التاسعة عشرة، منتصب القامة، ينظرهم يجلسون القرفصاء صفوفا وجماعات، وعقله لا يتوقف عن التساؤل؛ ما الذي يحدث؟ أتشهد مسرحية هزلية؟ أم قدر لك أن يقذف بك مصيرك إلى مملكة العجائب، ترى ما لا يستوعبه عقلك، محفة تتهادى بتبطل كامرأة مغناج، تصعد من شفير النهر إلى سطح الوابور، يحملها عدد من فتية غطيت أجسادهم العارية لبدة الأسود، لمظهرهم نبالة الأمراء، تحط على سطح الوابور ببطء يشير زعيمهم، ويطلق لغة لا تفهمها.

في نهاية الوابور أنزل الشباب المحفة وتراجعوا باحترام، تبزغ انعكاسات ضوء الصباح محمل ببريق الأبنوس اللامع، مر كالعلقم أربع صبايا يافعات، وجهت كل منهن وجهها بكبرياء إلى الجهات الأربع، وقد ضفرن شعرهن الخشن في جدائل رفيعة تدلت على الجانب الأيسر من

وجـوههن بأسـلاك الـذهب والفضـة، كـانـت تـربض وسـطهن بشـموخ؛ ابنـة شـيخ قبائـل المبـورو تجلـس في منتصـف الـدائرة بـين وصـيفاتها، تنظـر حولهـا مختالـة، لا تـرى أحـدا، والكـون لا يحتـوى سـواها، تلاقـت عيناهمـا، غـدران صـافية، مجدولـة بوحشـية الغابـات، لبـؤة صـغيرة تترقـب في غمـوض بعيـنين واسعتين عالم الأنوثة، لبؤة لم تلمسها مخالب تليق بها.

والشـمس تصـعد مـن الأفـق غـادر الوابـور مـدخل بيكـر، في طريقـه إلى اللحـاق بالحملـة، وعلـى سـطحه جلـس عشـرات العبيـد المحـررين الـذين ينتمون إلى نهر ويلي شمال حوض الكونغو.

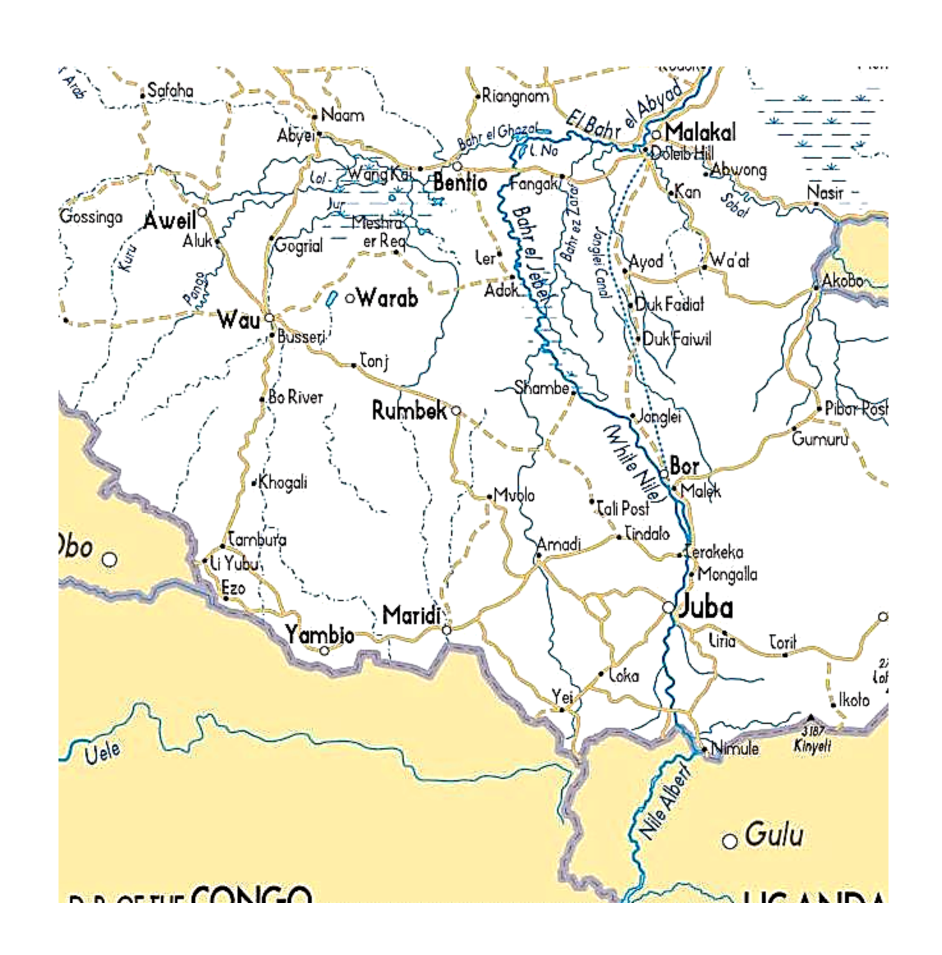
تـوارى مـدخل بيكـر خلـف ألسـنة الـنيران والـدخان المتصـاعد مـن زريبـة العبيـد، لتبـزغ أسـطورة المـلازم علـى شمـروخ الـتي صـكها علـى ضـفاف بحـر الزراف لتحلق مع العبيد المحررين إلى أفاق المديرية الاستوائية.



* * * *

العتبة الثالثة





Safaha
Naam
Abyei
Riangnom
El Bahr el Abyad
Malakal
Doleib Hill
Abwong
Bahr el Ghazal
L. No
Wang Kai
Bentiu
Fangak
Kan
Sobat
Nasir
Gossinga
Aweil
Aluk
Gogrial
Meshra er Req
Bahr el Jebel
Bahr ez Zaraf
Jonglei Canal
Ler
Ayod
Wa'at
Akobo
Warab
Adok
Wau
Busseri
Duk Fadiat
Duk Faiwil
Tonj
Shambe
Bo River
Rumbek
Jonglei
Pibor Post
Gumuru
Bor
(White Nile)
Malek
Khogali
Mvolo
Tali Post
Tindalo
Tambura
Li Yubu
Ezo
Amadi
Terakeka
Mongalla
Juba
Maridi
Yambio
Liria
Torit
Loka
Ikoto
Yei
Nimule
3187
Kinyeti
Uele
Nile Albert
Gulu

بحر الجبل

- 13 -

الجذور

على تخوم خط عرض {5⁰}، رست السفن في عرض النيل بانتظار دخول "لادو" عاصمة المديرية الاستوائية، على سطح السفن وقف الضباط العرابيون وعائلاتهم والجنود يشهدون العلم المصري يخفق عاليا في سماء الاستوائية، تشير نجومه وأهلته إلى مكونات مصر الثلاثة؛ مصر، النوبة، السودان بعرقية العربي والزنجي، سرت القشعريرة في الوجدان، لكز شمروخ كتف صديقه، وأشار إلى السماء:



- شايف يا وله، العلم المصري.

داخل قمرة القيادة شد اليوزباشي على أيدي ضباطه وقال:

- "مبروك يا حضرات، إحنا على خط عرض خمسة، بفضل مهارة أحمد أفندي سليمان"، قال خلاف:

- " رحلة طويلة من ثكنات القناطر الخيرية حتى لادو".

وعقب مصطفى العجيمى: "وصلنا، ألف حمد وألف شكر لك يا رب".

تقدموا يحيون قائدهم، ومساعده، ويتبادلون العناق والتهنئة بسلامة الوصول.

تهادي ماعون التمساح مقتربا من المرفأ، على متنه وقف عسكر الجهادية حاملين بنادقهم، في انتظار الأوامر بالنزول إلى البر، في منتصف الماعون وقف حول الشيخ عمر الشلح جهاديون من نوع آخر، جهاديون يرتدون الجبة والقفطان، ويعتمرون على رؤوسهم عمامة الأزهر الشريف،

جهاديون لا يحملون البنادق ولا السيوف، وإنما كتاب الله، يدعون إليه بالحسني والموعظة الحسنة.

تطلع المشايخ إلى جموع الأهالي، يستقبلونهم عراة عري آدم وحواء، بعضهم غلبه الخجل، وبعضهم غطي عينيه وهو يتعيذ بالله من الشيطان الرجيم، شعروا جميعا بأن مهمة عظيمة ألقيت على عاتقهم، هداية جماعات من الوثنين الكفرة، والزنادقة المفسدين الذين لم يطلعوا بعد على الدعوة لدين الإسلام الحنيف، ولم تصل قلوبهم رسالة التوحيد، وحده الشيخ عبد المعز الذى رأي عالم جديد من البكارة، عالم بدائي من قبائل وشعوب تعيش براءة الفطرة، وأن واجبه يدعوه كعالم لمد يد العون.

كان كابتن رودولفو كازاتى أول من صعد الباخرة، أشقر شاهق البياض، بدين يتدلى أمامه كرش صغير، اقتحم قمرة القيادة في معطف جلدى أسود ارتداه على الزي العسكرى الخاص بالجيش المصري، اندفع إلى قمرة القيادة وغادرها متجاهلا اليوزباشي، وهو يردد باستعلاء "ليس الآن كابتن"، واندفع يهبط درجات السلم المؤدى للطابق الأول، وهو يصيح:

- عزيزتي فرانسوا.. عزيزتي فرانسوا.

وجدها تقف بين نساء الحملة، ضمها بين ذراعيه، وأقسم بالرب يسوع أن أعصابه تحطمت في انتظارها، الآن هي بين يديه قطعة واحدة، وهمس بصوت سمعته النسوة:

- تحفة فنية وصلت لتوها من "غاليريا بورغيزي"[1].

أشار للحمالين بحمل أغراضها، تركته وذهبت تحيي النساء بحرارة، أمسك بساعدها وجذبها نحو السطح، من إحدى القمرات طاردها صوت فريدة: "فرانسوا".

التفتت وراءها فوجدت الأطفال الثلاثة يقفون في الممر، عادت تجرى نحوهم، احتضنتهم، سألتها مريم أين تذهب؟ قال جعفر بصوت واطئ كشخص مطلع: را يحة لجوزها.

نظرت إليه بعتاب، قال بانزعاج: "فيه إيه أنا غلط؟".

- أبدا، معاك حق.

---

1) معرض بورغيزي: بالإيطالية: (غاليريا بورغيزي) معرض فني يقع في روما، إيطاليا.

همست فريدة: "هو أنت ح تسيبى اليوزباشي؟".
زم جفر فمه محذرا: "أنت أجننت، ح توديها في داهية".
اتسعت حدقتا فرانسوا بابتسامة، ومالت تقبل الصبي من فمه، وقالت:
- أنا بكلم جنتلمان، واستدارت تقبل الفتاتين وتحدث أمه حباب:
- سيدة حباب أنت محظوظة، لديك رجلين.

بكت الطفلتان يطالبونها بألا تتركهم، جذبتها ألفت ودفعتها ناحية كازاتى، وهي تبتسم بمودة، انصاعت وعيناها تختلجان بأسى الفراق، تعانقت المرأتان، وألفت تقول: فيه إيه، هو إحنا ح نروح فين؟ ما أحنا ح نعيش في غابة واحدة.
كررت النسوة وهن يضحكن: "غابة واحدة؟".
صاحت أميرة: "يلا يلا يا ولاد، نشوف لنا قفص نعيش فيه".
وعقبت سنية بصوتها الناعم: "يلا يا ستات، يلا يا هوانم، كل واحد يدور على قفصه". سألت فريدة أمها وهي تحملها على صدرها:
- "ماما، هو إحنا ح نعيش في قفص؟"
قالت ألفت وهي تفتح يديها عن سعتيهما: "قفص كبيييييير.."
فتحت الطفلة ساعديها بفرح: هيييه، قفص كبيييير...
على سطح الباخرة تبادلت النسوة الغمز والضحكات المكتومة، وهن يتابعن فرانسوا تأخذ بيد خطيبها ناحية الحسينى وتقدمه له.
- "شوفوا يا أخواتي الولية البجحة".
- "بجحة!! دى فاجرة!!".
- "يا عينى على الراجل المدهول الغلبان، من أولها كده!".
- مشهد دراما كلاسيكى؛ زوج وزوجة وعشيق.
سمعوا فرانسوا تقول: "صديقى، يوزباشى الحسينى قومندان الحملة، وعقبت: "صنف نادر من الرجال".
همست ألفت: "شفتم بتقول إيه؟! صديقى".

تغير سلوك كازاتى، رفع حاجبيه واستعاد سلوك الجنتلمان، وانحنى يقدم نفسه:
- كابتن رودولفو كازاتى مساعد الحكمدار. وأضاف: "ألست صغيرا على رتبة يوزباشى؟"، ولم ينتظر إجابة، أسرع يحملها بين ساعديه متوجها

إلى سلم الباخرة، دفعته بلطف، وعادت إلى الحسينى تودعه، ضمته بحرارة، وقبلته من وجنتيه، وهي تهمس في أذنه:

- عزيزى لا تتوقع أن تتخلص منى سريعا، إياك.

هز رأسه جامد الملامح: مين؟ "أنا؟"

لوحت له وهي تختفي وراء سور الباخرة وهي تصيح: "من تعتقد؟".

أطلقت الباخرتان صافراتها، وتبادل جنود الإشارة بالأعلام نقل أوامر دخول الميناء، نزلت الأورطة التاسعة إلى البر تتقدمهما فرقة الموسيقى تعزف مارشا عسكريا، والمدفعية تستقبلها بإحدى وعشرين طلقة، رأى الجنود العلم المصري يرفرف في السماء، فكأن الوطن يتخلق من جديد، بجواره خفقت عشر رايات، يتوسط كل منها حيوان يرمز إلى أقاليم مديرية خط الاستواء العشرة[2].

تصدر أمين بك[3] حكمدار مديرية خط الاستواء المستقبلين؛ متوسط القامة، تهيمن على وجهه عيون نفاذة، ولحية سوداء غزيرة، عن يمينه وقف البكباشي عثمان لطيف وكيل المديرية، والقائمقام النور بك محمد[4] قائد قوات محطة لادو، وبجواره قائم مقام بخيت بك بتراكى[5]



البكباشى عثمان أفندي لطيف
وكيل المديرية الاستوائية

---

2) الأقاليم العشرة التى تتكون منها مديرية خط الاستواء: إقليم الرولRoll ، إقليم بور Bor، إقليم مكراكا Makraka، إقليم ل ادوLado، إقليم كيريKiri، إقليم دوفيلي Dufile، إقليم فويراFauvera ، إقليم لاتوك Latukal، إقليم فاديبك Fadibek، إقليم مونبوتو Monbuttu.

3) محمد أمين باشا Emin Pasha (28 مارس 1840 ـ1892) اسمه إيزاك إدوارد شنيتزر Isaak Eduard Schnitzer، ولد في اوبلن في سيليزيا"Schlesien"، ذكر بعض المؤرخين أنه ابن لتاجر بروتستانتي وأم يهودية، عمل طبيبا في ميناء ألباني خاضع لتركيا. تعلم اللغة العربية. غير اسمه إلى "محمد أمين" وادعى أنه تركي واتجه إلى سوريا ومصر ثم السودان، دخل الخرطوم مفلسا في ديسمبر سنة 1875م، قدمه جيجلر باشا كتابيا إلى كولونيل تشارلز غوردون باشا حكمدار السودان، استدعاه عام 1876م للعمل كطبيب للاستوائية، في 10 يوليو سنة 1878 طلب غوردن إطلاق يده في تعيين وفصل مديرى أقاليم السودان دون الرجوع إلى الحكومة المصرية، وافقت مصر في 12 يوليو بشروط معينة، ولكن غوردون أكد رغبته في تغيير جميع المديرين المصريين والعرب بأوروبيين بحجة خوف تجار الرقيق من الأوروبيين، واقترح غوردون تعيين الدكتور أمين بخط الاستواء ومسيو جسى ببحر الغزال ومسيو فردريك روسيت (الذي عمل قنصلا لألمانيا بالخرطوم) بدارفور، أبرقت مصر في 20 يوليو 1878 بموافقتها علي تعيين الأوروبيين الثلاثة في مناصبهم المذكورة.

4) قائمقام النور بك محمد: سوداني الأصل، ولد في سنار – التحق بالجيش المصري، عمل مع بعثة بيكر بالمديرية الاستوائية من 1869 إلى 1873 واشترك في العمليات الحربية بإقليم تاكه استدعى للخرطوم في سنة 1886م، شارك في القتال ضد المهدية في حملة لموطنه الأصلي سنار سنة 1884م.

5) قائمقام بخيت بك بتراكى: زنجي مسقط رأسه تاجالا Tagala، ذو قريحة وقادة وشهامة فائقة، اشترك في حملة الجيش المصري في المكسيك بين عامى 1863 – 1867م وحين عاد عين ملازما ثانيا ثم نقل إلى السودان، حيث عمل بالمديرية الاستوائية في عهد إدارة بيكر، رقى إلى رتبة قائمقام بالجيش المصري، وعين مأمور لإقليم مكراكا في 1878م.

واليوزباشي رودولفو كازاتى، يمسك يد خطيبته فرانسوا دى سابل، خلفهم الضباط والموظفين العاملين في المديرية[6].

على المنصة جلست السيدة سارة زوجة الحكمدار، وابنة زعيم قبائل المكراكا، قصيرة بدينة، ترتدى فستانا من الكتان الأبيض، يكشف عن نحرها، يطل شعرها من أطراف عمامة لفت بها رأسها في إشارة إلى كونها امرأة مسلمة، بجوارها جلست زوجات الضباط، لوحت زوجتا الملازمين محمود ومصطفى العجيمى لزوجيهما بمناديل بيضاء، كانتا سعيدتين باستقبال لم تتوقعاه.

على الأرض جلس شيوخ قبائل الدينكا، والمكراكا، والباري، وحولهم احتشد الوطنيين يلوحون بالتحية، وسمعت زغاريد النساء بألحانها الثلاثة؛ مصرية وسودانية عربية وزنجية.

وقف الحسينى منتصب القامة، تضئ بذته العسكرية أزرار نحاسية تبرق بلون الذهب، يتدلى من خاصرته سيف وغدارة، وقد وشى بنطاله الناصع البياض بشريطين من الحرير الأحمر، وخلفه أثني عشر ضابطا شاركوا في الثورة الدستورية الأولى، بعضهم درس العلوم العسكرية في باريس، بعضهم شارك حروب الدولة العثمانية، جميعهم مسَّه الحلم بمجد مصر القديم، جميعهم أصابه حلم محمد عبيد بإقامة الجمهورية:

- أورطة "انتباه".
- أورطة كتفا سلاح.
- أورطة جنبا سلاح.

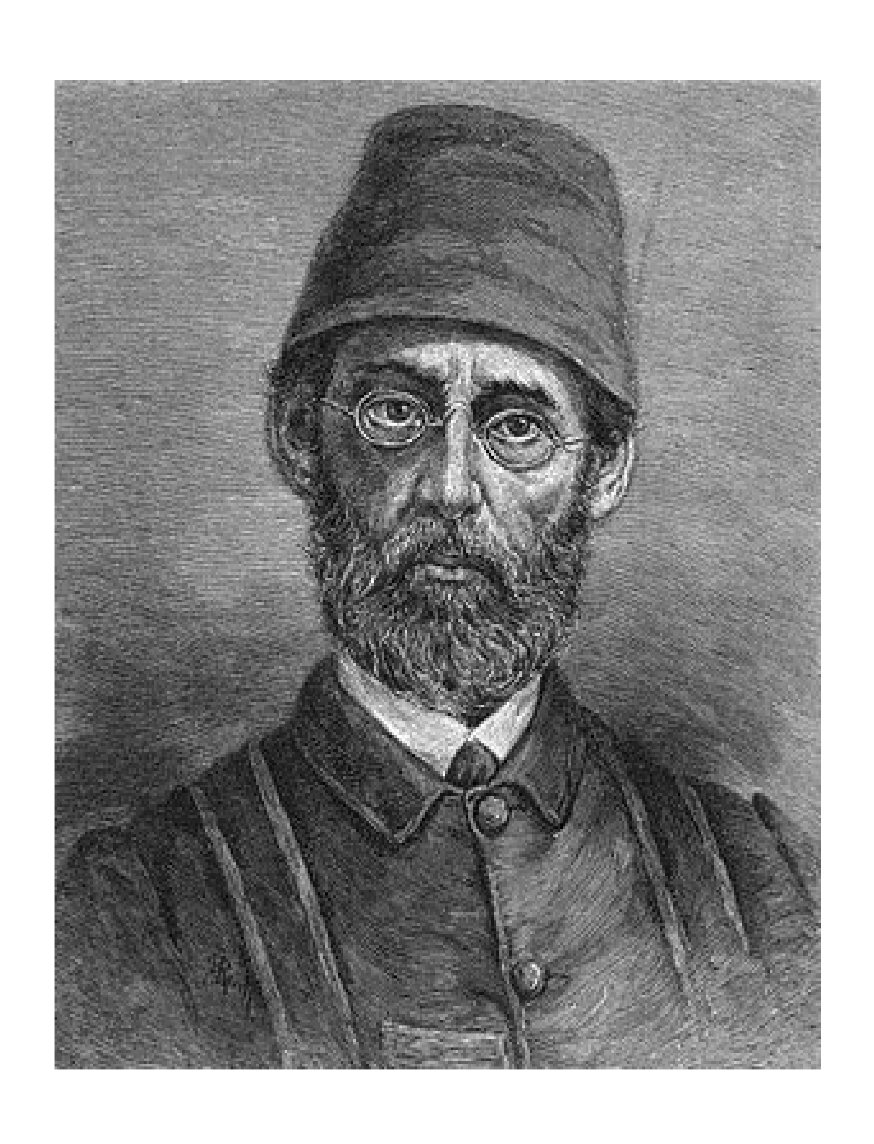
دقت أقدام الجنود، فاهتزت الأرض، رفع سيفه أمامه ووضعه باستقامة رأسه، وتقدم بخطوة منتظمة ليقف أمام الحكمدار.

تحدث أمين بك معبرا عن سعادته، بقدوم الحملة، مقدرا الجهد الذي بذله قادتها للإبحار ضد التيار، وضد الجنادل والسدود والمساكات، لكن القاصى والدانى يعلم معدن الجيش المصري وقدرته على تحمل الصعاب.

سلطان

---

6) موظفى المديرية في ذاك الوقت: أحمد رائف معاون المديرية الأول، والبكباشى عثمان لطيف وكيل المديرية، والقاضى الشيخ عثمان أرباب، والشيخ عثمان حميد أمام مسجد لادو، ومعلم المدرسة الحكومية، بقطر أفندي باسيلى رئيس قلم المستخدمين، فيتا حسان الصيدلانى.



محمد أمين باشا

ايزاك إدوارد شنيتزر Isaak Eduard Schnitzer

حكمدار المديرية الاستوائية

1888 – 1878

وذكــر أن الأورطــة التاســعة حملــت معهــا البــذور والتقــاوى لزراعــة محاصــيل جديــدة، فــالقوات المصــرية دأبــت علــى استصــلاح الأرض وزراعتهــا، حتــى لا تقاســم الــوطنيين طعــامهم، وانتشــرت بفضــلها بســاتين الليمــون والبرتقــال وأشــجار الرمــان، وقــد جعلــت مــن مقاومــة تجــارة الرقيــق هــدفا نبــيلا، فــوفرت فــرص عمــل للدناقلــة الــذين يعملــون في عصــابات الرقيــق، لكفهــم عــن الشــر، وسيشــهد التــاريخ أن الحكومــة المصــرية لم يكــن لــديها مطــامع في خــيرات الــبلاد التــى فتحتهــا، وســيدان لهــا بالفضــل بأنهــا كانــت أول دولــة متحضــرة في العــالم ترســل قــوات عســكرية، للقضــاء علــى تجــارة الرقيــق. حيــوا معــى الضــباط والجنــود الــذين جعلــوا الحريــة أهــم مــن الغنــائم، وأرســل قائــدهم قواتــه لتحريــر مــن قــدر لهــم الاســترقاق، وقــال لهــم اذهبــوا فــأنتم الأحــرار، فقــدموا الــدليل علــى المهمــة التــى حملــها الجــيش المصــري علــى عاتقــه مــن أجــل القــارة الســوداء، والتــى أوكلنــا بهــا مولانــا وســيدنا ســعادة الخــديوى توفيــق المعظم، حيوا معى خديوى مصر المعظم".

هتف نور بك محمد قومندان لادو وتبعته القوات ثلاثا:

- يحيا الخديوى المعظم.

*   *   *   *



النظام الإدارى في المديرية الاستوائية

1883 ـ 1876

- 14 -

..أين أنا ؟
وما الذي يجرى
أمامى ؟

..يا فضاء لا نهاية له.. يا طيور من فضة.. يا سماء من زبرجد.. يا نيل من جنة حكى عنه المصلوب على صارى يطال السحاب.. أهو الجحيم؟ أم النعيم؟

.. أين أنا؟ وما الذي أشهده؟ وما هذا العلم الذي يثير شعورا بالرفعة، أو يخلف انطباعا بالشفقة، وهم يعبث بعقلك؟ تأتى القبائل تنحنى صاغرة، تقدم لجيشك عرابين الولاء، أى مصير مُضمّخ بالرثاء؟

من أنا؟ من أكون؟ تعتورك أيام فاضت بالفخار، لتستيقظ على صباح ترفرف على سمائه رايات بالخيانة.

يطل السؤال المعلق على رقبة التاريخ.. لماذا تجنب البريطانيون اقتفاء أثر حملة فريزر، وقاد الثورة زعماء لم يتعلموا من الفن العسكرى سوى السير بانضباط، ليكتشفوا أثناء المعارك جهلهم، فالنظام ـ كما قال المارشال فوش ـ دليل البلهاء.

النظام دليل البلهاء

هنا على مبعدة آلاف الأميال من خط النار الذي تهاوى في التل الكبير، تتفتح حواسك على واقع جديد، برق يخطف الأبصار، دقات طبول، حلقات الراقصين، حشود غفيرة من القبائل يلوحون بالرماح، رجال ونساء وطيور وحيوانات جميعهم عراة كما خلق الله كائناته في نعيمه.

ع: عرى

مثل نهر.. مثل غابات..
سهول.. برارى..
مثل عصافير الزرزار..
غزلان وعول البرية

في فقاعة من زمن البكارة تحلق مع العلم الذي ارتفع خفاقا في سماء الفردوس الذي اصطفاه الرب لأوائل خلقه، توقظك من غفوتك رقصات وحشية لنساء ومحاربى قبائل المكاركا.

يطل على المشهد رسول قبائل "المبورو" يغطى رأسه

لبدة أسد، تحدث مع أمين بك الذي كان يستمع إليه باهتمام، وكلاهما يشيران بالأيدى والنظرات نحو الملازم على شمروخ، ينتهي الحديث، يتقدم الزعيم نحو الملازم على شمروخ وينحنى الرسول انحناءة قصيرة، يهمس أمين بك في أذن شمروخ، قائلا:

- "شمروخ أفندي، عندما نجلس الليلة على العشاء سوف تحكى لى ما حدث في زريبة بيكر؟".

* * * *

في المساء استقبل الحكمدار ضباط الحملة ونساءهم، كان يتحدث عربية ركيكة، قيل إنه تركي وقيل إنه ألمانى الأصل، يحمل جنسية ألبانية، وهو الآن موظف لدى الحكومة المصرية، جواره جلست زوجته، التى تولت بنفسها استقبال زوجات الضباط منذ وطأت أقدامهن مرفأ لادو، وقامت على رعايتهن بحنان أموى لنساء حديثات العهد بالزواج وأمهات صغيرات يصارعن الحنين إلى الوطن، أعطت لكل زوجة كوخا للإقامة وسط عائلات الضباط، وعندما قدمن للعشاء كن يشعرن بألفة بالغة للسيدة سارة محمد أمين بك.

.. عبيد في الوطن،
سادة بين الامم..
ام حشرات في نعيم ممتنع؟

دارت أحاديث كثيرة، زواج الأخوين العجيمى من أختين هما ابنتى العم، وكيف التحقت ألفت هانم السلحدار بزوجها إلى أقاصى المعمورة، والدور الذي لعبه القدر في إنجاز زواج السيدة سهيلة من الملازم شلعى، وعندما عرج الأمر على أحداث شامبى وتمرد قبائل الآجار، قال الحكمدار إنه يتحمل الذنب، لأنه وضع على قيادة إقليم الرول ضابطا من قبائل البارى، بلا خبرة سوى أنه من الوطنيين، ويعمل ترجمانا في الجيش.

استمع الضباط لأمين بك، وهو ينتقد نفسه ويلومها وكأنه يعذبها، كان يستمتع وهو يروى حكاياته، بأن يشار إليه كمحرر للعبيد، أشار إلى شمروخ موضحا أن الدناقلة قوم خطرين لا يؤتمنون، يقطعون اليد التى تحسن إليهم، وقال إن ما فعله في زريبة بيكر كان صوابا، سيعود على المديرية بنتائج طيبة، خاصة أن الصاغ منتصر يستعد لضم إقليم مونبوتو،

وقال إنه واجه الأمر نفسه فى محطة جوك الحسن، عندما كان في زيارة تفتيشية على إقليم الرول.

أثناء الطعام أعرب عن نيته في السفر على الباخرة "تل حوين"، ليلتقى زعيم قبائل البارى في الرجاف، وأنه حالما يعود سوف يناقش مع البكباشى نور بك محمد توزيعهم على الأقاليم، نظروا إليه بامتنان، وبدا لهم أن المدير يتمتع بالطيبة، قدم اليوزباشي امتنان ضباطه وشكرهم على حسن استقبال المديرية لهم، تجاهله ثم قال بغتة:

- "ألن تسألوا عن نوع اللحم الذي نتناوله الآن؟

رفعوا رؤوسهم مبدين إعجابهم بمذاقه، قال الحكمدار بصوت بارد:

- حتى ولو كان لحما بشريا؟

حلَّ الصمت، وتوقفت الأفواه عن المضغ، وتجاهل فوزي وشمروخ ما سمعاه، جرى بعضهم يقئ ما في جوفه، وتطلع أحمد سليمان لزوجته، صفق بأمين بك مستغرقا في ضحك، وهو يشير إلى فوزي وشمروخ:

- "أنتما من أصحاب القلب البارد، ستترحلان إلى إقليم مونبوتو، لمواجهة تمرد قبائل (الأبراموس)، وهز رأسه سعيدا وكأنه رجل يفهم:

- "ح تروحوا مع منتصر، إلى قبائل تأكل لحوم البشر، عموما رئيسكم الجديد بيحبه".

نظرت زوجته إليه بعتاب، وقالت كسيدة محنكة:

- "لا تسيء لسمعة منتصر أفندي"، وأضافت: "إذا كنت تريد أن تختبر ضباطك، فلا تفعل أمام النساء، لقد أثرت ذعرهن".

- طيب طيب، أعتذر.

- "الآن تعرفون من يحكم خط الاستواء، هذا سر أحب ألا يعلم به أحد خارج هذه القاعة".

عادوا يتناولون الطعام، وقد فقدوا حماستهم، وعندما انتهوا من تناول الشربات المسكر، أشارت السيدة سارة لهن، تلفت انتباههن كى يستمعن إليها، وهمست تحذر النساء من أن تغفل عيونهن عن أطفالهن، وأضافت مشددة: "لحظة واحدة، ولن تجدوهم".

قالت حباب: "شنو وين يروحوا".

- فين تروح الطيور المذبوحة، فين يروح لحم العجول، حباب هانم: "هنا".
وربتت على بطنها، وقفت سنية من هول الفكرة، وهي تشير إليها برعب: "هو أنت بتاكلى الأطفال؟

صرخت تنفى: "لا، لا، لا، سيدة، أنتم حديثى العهد بقبائل المديرية الاستوائية، يصعب عليكم التفريق بين من يأكلها ومن لا يأكلها

وسط هلع النسوة، ومخاوف الضباط، تبادل خلاف وزوجته ألفت نظرات مليئة بالكراهية، وعيناه تعنفانها... "لماذا جئت معى، أنت وابنتك؟"

طلب اليوزباشي من الحكمدار أن يأمر بوضع حراسة على أكواخ عائلات الضباط، استدار إليه ونقره بأصبعه في صدره قائلا: "جيد، وأنصحك أن تكون الحراسة من عسكر الجهادية المصري أو السودانى".

* * * *

أمام قادة المديرية قال الحكمدار لليوزباشى الحسينى "أطلعنا على ملفكم، وهو ممتلئ بالجد والاجتهاد"، وأضاف ضاحكا: "والتمرد والعصيان، هل هذا بسبب سفركم باريس، باريس تترك لمن يزورها ثلاث لعنات؛ النبيذ، والنساء، والثورة، هل درستم حقا فن الحرب؟".

- تاريخ الفن العسكرى، واستراتيجيات الحروب النابليونية.

- أين؟

- أكاديمية سان العسكرية.

زام الحكمدار وقال باهتمام إن لديه توصية من سعادتلو رئيس النظار شريف باشا يثنى عليكم، ويطلب العناية بكم، هل لديكم به قرابة؟

- هو أبى الروحى.

- هاها. أعرب الحكمدار عن رغبته في إنشاء مدرسة لتدريس الفن العسكري، وقال إنه الشخص المناسب لإدارتها، فأجاب بأن لديه مهمة أوكلتها إليه قيادة أركان الجيش ونظارة الأشغال خاصة برفع قياسات مجرى نهر النيل وتدفقاته.

ضحك، وقال: ستبقى معى"، وأشار إلى شمروخ: "وأرسل هذا الشاب الصغير إلى قدره، سيلتهمونه في مونبوتو.

وقف ضابط في الخمسين من عمره، يؤدى التحية العسكرية بجدية مسرفة، وصرخ: "تمام ضابط همام، لأجل خاطر عيون سيدنا ومولانا الحكمدار، كلنا فداك وتحت أمرك "، أخذ يمسح عن كتفيه غبارا غير موجود، نهره الحكمدار:

- "أقعد يا إبراهيم أفندي، أنت إيه جابك، سايب محطة مكراكا لمين؟".

انحنى قومندان مكراكا اليوزباشي إبراهيم جورجوري بدونية، وأخرج منديلا من الدمور يمسح به جزمة الحكمدار، وهو يقول:

- " نعل سعادتك فوق رقبتى، إحنا هنا خدامين جزمة سيادتك".

أشار عليه الحمكدار بالصمت، ومال على وكيل المديرية عثمان أفندي لطيف يسأله بحرص: "أين يقيم حضرة اليوزباشي؟".

- على وابور النيل؟

سأل بغضب، كيف تتركون الضباط دون تقديم الراحة الواجبة لهم، وأضاف بسخرية وهو يشير إلى الحسينى، "هذا موصى عليه من سعادتلو شريف باشا، ماذا بعد ناظر النظار؟ لا يوجد سوى أفندينا يا حضرات".

وجه حديثه إلى البكباشى النور محمد":

- أين بنات المبورو؟

- في الثكنات.

- جهز قوه تصحبهم إلى مونبوتو، وأرسل مكتوب لمنتصر أفندي كى يسلمهم بنفسه إلى الشيخ مبورو.

اعترض كازاتى وطلب أن يقوم بهذه المهمة بنفسه.

تساءل الحكمدار: "لماذا كابتن كازاتى، احتاجك بجانبى".

انحنى كازاتى يهمس لأمين بك ينبهه إلى أن هذا يقوى شوكة منتصر في حوض نهر الكونغو.

خلع الحكمدار عويناته ينظفها، وقبل أن يوافق على طلب كازاتى، تدخل النور بك وهو ينظر اليوزباشي:

- "لنعطي المهمة لصاحبها".

- "ها إيه رأيك؟"

قاطع كازاتى الحكمدار: "هذه ليست مهمة اليوزباشي سعادتك".

- مهمة من كابتن كازاتى؟

أشـار إلى الملازم شمـروخ، تبـادل العرابيـون النظـرات، قـالوا إن شمـروخ حديث العهد على مأمورية مثل هذه، لكن كازاتى قاطعهم وقال:

- "هذا قاتل، أعدم عساكره من الخطرية وهو بعد على حدود المديرية".

ضيق شمـروخ مـن عينيـه، ولم ينـبس بكلمـة سوى القـول إنـه تحت أمـر الحكمـدار، الـذي دعـاه للجلـوس بجانبـه، يتخيـل جثتـه ممزقـة بـين الضـوارى وعصابات الرقيق، سأله: "أنت اللى حررت الرقيق في زريبة مدخل بيكر؟".

- نعم افندم.

- وأعدمت الخطرية اللى تاجرت في الأسرى؟

- نعم افندم.

طـرق المنضـدة معلنـا بنـبرة سـاخرة، أنـه سـيتولى شخصـيا راحـة شمـروخ أفنـدي، لأنـه تصـرف بشـجاعة، وعليـه أن يعيـد للشـيخ "مبـورو" بناتـه بـالاحترام الواجـب، وأضـاف بنـبرة ودودة: والآن هـل سـتتعطفون علـيَّ ببريـد الحكومة؟"

قـدم اليوزباشـي صـندوقا يحـوي اثـنين وخمسـين ألـف ريـال، دفعـت الحكمـدار كـى يعلـن أن الحكومـة المصـرية أرسـلت الرواتـب المتـأخرة منـذ عام 1879، ساد الفرح القاعة، وانكب الحكمدار يقرأ خطاباته.

المكتـوب الأول مـن شـريف باشـا نـاظر النظـار ينبئـه بتقـدير الحكومـة المصرية لمشـروعات اسـتزراع محاصـيل وفواكـه جديـدة، يُعمـر بهـا المديريـة الاستوائية، وتطور الإقليم.

المكتـوب الثـانى مـن الجنـرال أسـتون باشـا، يعتـذر مـع تقـديره الشخصـى لمشاريعه، عن مده بما يطلبه من تقاوي، بسبب الحوادث التى تمر بها البلاد.

المكتـوب الثالـث مـن رئاسـة أركـان الجـيش، خـاص بالمهمـة الموكلـة إلى اليوزباشـي الحسـينى عبـد الغفـار برفـع قطاعـات أعـالى النيـل، وقيـاس تـدفقات الميـاه، لاسـتكمال دراسـة نظـارة الأشـغال والـرى بإنشـاء خـزان جنـوب أسـوان، وتضـمنت تعليمـات هيئـة الأركـان أن تـوفر المديريـة لليوزباشـى مـا يلزمـه مـن أفراد وتسهيلات من وسائل نقل وخلافه.

المكتـوب الرابـع مـن اللـواء رءوف باشـا يقضـى بالتأكيـد علـى ترقيـة حواش منتصر إلى رتبة صاغ.

المكتوب الخامس؛ من سلاطين باشا جاء فيه: "أن من معالم السخرية أن وصولي إلى الخرطوم، جاء وقت ظهور دجال يدعي أنه المهدي المنتظر، ويزعم أنه مختار من الله، وهو يخفي راية العصيان، التي نشرها في ربوع السودان، لكن الحكومة المصرية سوف تحل الأمن والسلام، بفضل الضباط "الأورباويون"، وما يملكونه من قوة شخصية، وحنكة عسكرية.

عندما انتهى طلب من عوض افندي مأمور المخازن وبقطر افندي رئيس قلم المستخدمين تقديم كشف توزيع مرتبات الجند والمؤن والكساوي على الحاميات العسكرية، وإرسالها في التو والساعة.

في تلك الليلة دارات خلافات على فراش الزوجية بين النساء ورجالهن، سهيلة أعطت ظهرها إلى شلعي، وهي تدفعه بفظاظة، كيف سمح ضميره بأن يأتي بها في بلاد تأكل البشر، حاول أن يأخذ الأمر على محمل الهذر، لكنها أقسمت ألا يمس شعرة منها، إلا بعد أن يعود بها إلى منقباد. تساءل وهو منزعج: "افرضي قعدنا ثلاث سنين"، قالت وهي تبتعد عنه: "ثلاث سنين، عشر سنين، متقربش مني والسلام".

في الغرفة المجاورة، تابعت أميرة زوجها الملازم حسن سليمان، وهو يطمئن على ابنته مريم، ملاك قمحي اللون يحمل خليطا من بشرته السوداء، وبياض زوجته وشعرها الفاحم السواد، شاهدت القلق يتدفق من عينيه، عندما تمدد جوارها، استدارت نحوه وهمست: "متخافش عليها، والله في سماه لو بياكلوا الجن مش البشر ما يقدروا يهوبوا ناحيتها، خد بالك أنت من نفسك يا أخوي وما تقلقش علينا".

حباب لم تنبث بكلمة، انتظرت حتى تمدد جوارها، ضمته بحنان جعله ينفث عن أفكاره: "غلطة ومش عارف ح نعمل فيها إيه؟ فعلا سالم أفندي كان عنده حق"، وأضاف وهو ينظر إلى السقف: "تعرفي، ح اتصل بعمي إدريس، يشوف قافلة راجعة الخرطوم، أبعتك معاها أنت وبشير وأميرة ومريم، لكن المشكلة أميرة مش ح توافق، ربنا يهديها. دفنت رأسها في صدره، تاركة نهديها العامرين ينغرزان بثقل جسدها الريان على جسده

..اخص عليك يا ابن عمي.. يعني أنا اللي ح أرضى أسيبك!

القوى، وهي تعاتبه في سرها، أخص عليك يا ابن عمي... يعني أنا اللي ح أرضى أسيبك.

في كوخ مجاور دعي محمود العجيمي أخيه لصلاة ركعتين شكر لله، لم يستفسر أخوه عن السبب، فالله يشكر ويحمد على أى حال، ولما انتهى زاد ركعتين وأربع، وعندما بلغ ثمانية، سأله: "يا أخى قل لى إيه الموضوع؟ ربنا يشكر على كل حال، بس اعرف عاوز تشكره على إيه؟"

- " وعاملى ضابط بياده حضرتك".
- خذنى على قد عقلى.
- "نحمد ربنا ونشكره، إن معندناش عيال، قلبنا يتاكل عليهم.

امتلأت الغرفة بالضحك، نظر إلى زوجته، وعيناها تغرورقان بالدموع:

- "خير اللهم ما اجعله خير"، لكنها لم تتوقف، نظر إليها شذرا، مد يده الخشنة، وأمسك ساعدها: "فيه إيه يا سنية مالك، كلامى مش عاجبك؟"

كانت يدا الأختين تمسكان ببطنيهما، وعندما نظر إلى أخيه مصطفى لاحظ أنه يحتضن كتف امرأته، التى جلست مهمومة، أشرق عليه الفهم، وهو ينظر بطن زوجته وينظر لأخيه وزوجته بتساؤل

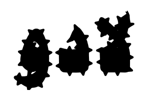
- "الاتنين حامل يا أخوي ".
- الاتنين!!

سقط محمود مهزوما، جذبه مصطفى: "قوم بقي نصلى ركعتين شكر لله على نعمة الطفلين اللى وهبهم لنا، يلا يا أخوي".

وقف الأخوان يصليان، استغفر محمود واستعاذ بالله من الشيطان، ودعى الله أن يغفر غفلته، وأثناء سجوده لم يتوقف عن الدعاء للطفلين بأن يهبهما الله حمايته.

وجد سالم خلاف زوجته نائمة على الأرض تحتضن ابنتهما، أيقظها يدعوها للنوم على الفراش، وينام مكانها كما تقتضي الأصول، دفعته بغضب، وألقت بالوسادة في وجهه، وصرخت تسأله عن الأصول التى تجعلها تشعر بأنها امرأة وحيدة على بعد آلاف الأميال من بيت أبيها، لم يجد ما يقوله، سوى أنه جذب الحرام، وافترش الأرض على الجهة الأخرى من الفراش.

* * * *



عاصمة المديرية الاستوائية، تقع على البر الغربي لنهر النيل على بعد أربعمائة كيلومترا من خط الاستواء، تحيط بها البراري والمستنقعات، أسوارها المستقيمة صنعت من عيدان الغاب، أكواخها مستديرة واسعة بنيت من البوص والغاب المغطى بأغصان الأشجار وأوراقها، أرضياتها طين مطبوخ بالماء والقش، تفصلها شوارع واسعة، عارية من الأشجار، تخلو من الحوانيت، في منتصفها شيد مساكن الحكمدارية، ومستودعات الحكومة، ومخازن السلاح.

الكود
ع: عرى
يا العار.. لقد خدش الإنسان المتحضر فداحة العرى فى جنة الرب.

في يوم السوق يخترق شوارع لادو أهالي القبائل المجاورة متوجهين إلى الساحة، عرايا كما ولدتهم أمهاتهم، على رؤوسهم سلال الموز ومنتجات باحات أكواخهم من طيور وحيوانات داجنة، يبادلونها بالحبوب والخمر والخرز الملون، حيث البيع والشراء يعتمد على المقايضة[7]، كان عريهم يولد لديهم شعورا بالخزى والخجل، فيتسولون مزقا من أقمشة يغطون بها عورتهم، وكأن المتحضر خدش براءة العرى في جنة الفاطر.

تحوي حوانيت لادو رفوف خاوية وأثواب القطن والدمور وبعض المشروبات الروحية، وكمية من المواد الغذائية، لم تكن هناك حاجة لأكثر من ذلك، فالحكومة تحتكر التجارة، والإدارة توزع على العاملين كافة احتياجاتهم المعيشية، وتخصمها من رواتبهم، بينما الأهالي يقضون حوائجهم في عالم بدائي من التبادل العيني.

في الصباح الباكر كان الأهالي يُشاهدون الصيدلاني؛ شاب في الخامسة والعشرين، يرتدي معطفا أبيض، يُحيه الأهالي وهو في طريقه إلى كوخ أقيم في منتصف السوق، يستقبل فيه المرضى من القرى المجاورة، كان صبورا بشوشا لا يمل من خدمتهم،

---

7) كان العاملون في الإدارة المصرية يحصلون على رواتبهم سلعا وبضائع عينية من مستودعات الحكومة.

تموج السوق بعائلات العاملين بالمديرية، تكشف أزياؤهم عن جنسياتهم؛ مصريات سافرات، سودانيات ينتمين إلى القبائل العربية ترتدين السارى، ويتسربل الرجال بالدمور والكتان الأبيض، وطنيات دخلن الإسلام الحنيف بزواجهن من المصريين والسودانيين، يكشف عنهن سواد البشرة الفاحم، الشعر القصير الخشن، مع ميل لكشف أجزاء واسعة من نحورهن، أو ترك نصفهن الأعلى عاريا.

يدور الحديث بين الوافدات حديثا والمستوطنات القدامى حول الأهالى، وكيفية التواصل معهم، والكلمات التى تساعدهن على شراء احتياجات السوق، حوار دائما ما ينتهي بتحذير حازم:

- أحذرن على أطفالكن، فإذا خطف أحدهم فلن تروه ثانية.

عندما يأزف العصر يخلو السوق من مرتاديه، ويتحول المكان إلى بقايا جماعات جاءت ورحلت، يجمع الصيدلانى محاليله وأدويته عائدا نحو الصيدلية. التى كانت مفخرة لادو.

في طريقه إلى المستودعات الحكومية خاض الحسينى وسط الأهالى الذين تجمعوا أمام مستودعات الحكومة، يوردون العاج الذي فرضته الحكومة جزية عليهم، وحمولات ريش النعام[8]، وهم يبذلون ما في وسعهم لستر عورتهم، رحب به عوض أفندي مأمور المخازن، وبعد أن أنهى معاملاته توجه إلى الصيدلية.

وقف أمامها لا يخفى إعجابه، كانت ذات طابع معمارى ينتمي إلى قاهرة الخديوى إسماعيل الحديثة، شيدت من الطوب الأحمر، وطليت بالأبيض، وغطت حائطها خزنات خشبية فاخرة، وواجهات ورفوف زجاجية استحضرت من الخرطوم، وصفت بقوارير تحوي محاليل وأدوية طبية.

خلف المنضدة وقف فيتا حسان[9] صيدلى المديرية وطبيبها، متوسط القامة، ضعيف البنية، يرتدى عوينات طبية، شعره غزير السواد، تميل

---

8) كان سعر الرطل من ريش النعام الأبيض صنف "العوام" عالى الجودة ثمانية عشر ريالاً للرطل، وأثنى عشر للأسود متوسط القيمة، وثلاثة للأشهب العادى، وكان التجار يحصلون على نصف قيمة الثمن، ويقوم معاون المديرية بحجز النصف الثانى ضريبة عليهم.

9) فيتا حسان: يهودي ولد لأب يعمل مترجماً في قنصلية سردينيا بتونس، بدأ تعليمه بالإسكندرية واضطر لعدم إتمامه بسبب فقر عائلته، التحق كمساعد صيدلي بقصر إحدى الأميرات بمصر، ثم تولى إدارة معمل كيماوي بالقاهرة وله من العمر 19 عاماً. ثم عمل في الحكومة المصرية بالقسم الطبي، وفي عام 1880 نقل من العريش إلى السودان ومنها للمديرية الاستوائية، وصل لادو عاصمة المديرية في يناير 1881 حيث بقي عشر سنوات تقريباً مع

ملامحه لشعوب البحر المتوسط القديمة، كان مستغرقا في عمل مطهر، لامرأة وطفليها، طرق اليوزباشي الباب:

ـ فيتا أفندي حسان؟

ـ وأنت كابتن حسينى، تفصل حضرتكم".

ـ قالوا لى أن صيدليتك تؤمن علاج لكل الأمراض.

ضحك الشاب ذو الأنف المعقوف، وقال: " عدا ثلاثة أمراض؛ الطاعون، والحب، والحنين للوطن، لو كنت مريض بواحد منها، وفر وقتك، وشوف حد غيرى".

ـ "معاى طلبيتك من القاهرة".

في الخارج وجد صناديق ممتلئة بالأدوية والعقاقير والمحاليل الطبية، طلب من عماله أن يحملوها إلى الداخل، وعاد والبهجة تسطع على وجهه.

ـ "أعمل لحضرتك فنجان قهوة". وأضاف وهو يصنعها: " نادر أن يمرض أحد، مرضهم الوحيد هو داء (الفرانتيت)، وعدد قليل مصاب بالزهرى، نقله الدناقلة إلى نسائهم، ولكن أعذرنى فاتنى أن أطمئن عن أحوالك، هل دبرت سكن؟

وأشار إلى الأكواخ: "لما جيت لادو كرهت السكن فيها، تشعرك أنك تعيش في العراء، أضاف باعتزاز: "بنيت منزل حقيقى، عملت قالب خشبى، ومعجنة طين، صبيت أربعين ألف طوبة، وحرقتهم وبنيت بيت جديد، والصيدلية، اتفق مع رائف أفندي معاون الحكمدار، يمدك باللى تحتاجه و يخصمه من راتبك. أيه رأيك؟

ـ "ما دمنا في أفريقيا، نجرب الأكواخ".

ـ أنت بالذات محتاج منزل من الطوب الحجرى، سبقتك شائعات عن تورطك في علاقات نسائية"، وأضاف: أتعشى معانا النهاردة"

ـ "على فكرة عندى لك خطابات، عاوزها؟"

ـ "طبعا طبعا ولا إيه رأيك؟".

الدكتور أمين وخرج معه ومع ستانلي في عام 1889 إلى بجامويو قرب الساحل الشرقي لإفريقيا، توفى عقب وصوله وهو صغير السن متأثرا بمرض نقص التغذية والإرهاق البدني الذي أصابه أثناء رحلة العودة الشاقة، كان أمين يقول عنه "جيد كالذهب"، ألف كتاب عن المديرية الاستوائية سماه "الحقيقة عن أمين". كان الصديق المقرب للحكمدار يأنس إليه ويصحبه فى رحلاته، رغم فارق السن بينهما، كشفت الأحداث عن ميل الحكمدار إلى تبادل المشورة مع الصيدلانى الشاب فى كل حدث جلل، وكل موقف يصعب عليه مواجهته، وحتى النهاية ظل الصيدلانى المستشار المقرب من أمين بك. كان من عيوبه تقلب أهوائه وتصرفاته الصبيانية أحيانا.

فـتح الصـيدلانى درج خزانتـه، وأخـرج بملعقـة مسـحوقا، وطلـب مـن المـرأة أن تتناوله لطفليهـا بعـد الطعـام، فلمـا غـادرت الصـيدلية أخـرج قـدرا مـن الأعشـاب وأعطاه لليوزباشى، قائلا: "ده ح يقضى على الأرق".

أخرج حافظته: "أدفع كام؟".

- وفـر فلوسـك حضـرة اليوزباشـي، أنـا ح أفـتح لـك سـجل عنـدى، وأقدمـه لبقطر أفندي يخصمها من راتبك كل ستة أشهر، وأضاف:

- "تعـال عنـدى الليلـة، ح يكـون فيـه ضـيوف كـتير، علـى البـاب صـاح عليه:

- "ح نستناك".

* * * *

- 15 -

وقف اليوزباشي يقرأ آيات من العهد القديم، تحيط بالشمعدان اليهودى، نقش على باب من الأبنوس.

"وقال لي ماذا ترى؟



قلت قد نظرت وإذا بمنارة كلها ذهب

وكوزها على رأسها وسبعة سُرج[10] عليها

وسبع مساكب للسرج التي على رأسها وزيتونتان"

"قُلْتُ للملاك: مَا هذِهِ يَا سَيِّدِي؟

فَأَجَابَ: هذِهِ كَلِمَةُ الرَّبِّ إِلَى زَرُبَّابِلَ

لاَ بِالْقُدْرَةِ وَلاَ بِالْقُوَّةِ تنجو، بَلْ بِرُوحِي قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ"[11]

تلقاه صاحب المنزل بحرارة، كان يرتدى على رأسه "يرمولك"[12] سوداء مزركشة، قال "آن للثورة العرابية أن تشرق على دار فيتا حسان"، اعتذر اليوزباشى بعدم استقراره حتى الآن، ضحك المضيف وقال أن مساكن لادو لا تكفي أن توفى دين الثوار. أمام استهجان اليوزباشى نصحه حسان بنسيان كونه فى منفى، فهنا رجال يندبون حظهم، ومغامرون يتوهمون أنهم يصنعون التاريخ، وأضاف الصيدلانى الشاب، أنه يعلم أنكم فرغتم

---

10) سرج: جمع سراج. قنديل أو مشكاة

11) العهد القديم: سفر زكريا الإصحاح الرابع. (2ـ 6)

12) يرمولك: غطاء رأس صغير يرتديه اليهود من المتدينين

لتوكم من محاولة صنعه، ضحك وقال: " أنسى همومك، أنتم الآن في فردوس الرب، دعني أقدمك لمجتمع لادو، إنهم متشوقون لرؤيتك".

تقدم فيتا حسان إلى بهو واسع ضم عددا من ضباط الجيش المصري، وكبار الموظفين في المديرية الاستوائية، أغلبهم كانوا مصريين وسودانيين[13]، والقليل من التراجمة[14]، وهم العنصر الثالث المكون للجيش المصري، العنصر الرابع هم الخطرية ويكنون بالدناقلة[15]، أما العنصر الخامس فكان عدد قليل من الضباط الأوروبيين[16]، بين هذا الخليط تناثر عدد من التجار، يرشفون القهوة ويتجرعون الخمرة.

في صدر المجلس جلس البكباشى النور بك محمد قائد محطة لادو، وبجواره الصاغ بخيت بتراكى، يلعبان الشطرنج، بجوارهما جلس عثمان أفندي لطيف سكرتير ثانى المديرية، والتاجر الليبى محمود برى، ومسيو ماركو جسباري التاجر الذي ينتمي إلى الجالية اليونانية، يحتسون القهوة، ويتحدثون حول أحوال التجارة مع سلطان زنزبار، ونهر النيجر.

في الجانب الآخر، جلس القاضى عثمان أرباب يتحدث باحترام بالغ إلى أحد الوجهاء، وبينهما جلس الشيخ عثمان حميد، إمام جامع لادو، ومعلم المدرسة، يصغى للحديث الدائر بينهما بتصاغر، قدمه حسان لليوزباشى

---

13) ترجع أصولهم إلى الجيش الذي أنشأه محمد على فى مطلع القرن التاسع عشر، والذي بدأ بالاستعاضة عن العبيد المجلوبين من أواسط أسيا وشرق أوروبا، بمجلوبين احضرهم من السودان فى البداية، ثم أنفار لا يختلفون فى حياتهم عن العبيد كثيرا، جمعهم بالقوة من أبناء الفلاحين المصريين، بينما ظلت قيادة الجيش هجينا من ضباط أتراك وشراكسة وألبان، وكان بعضهم من شتات الثورات والحروب الأهلية فى أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، حتى أصدر ابنه سعيد باشا والى مصر اللائحة السعيدية فى 1858، التى أعادت حق ملكية الأراضى للفلاحين المصريين، ونصت على التجنيد الإجبارى للجميع، وفتح الطريق أمام المصريين فى الترقى إلى سلك الضباط، منهم من شارك فى الأورطة التى أرسلها سعيدا باشا للحرب مع القوات الفرنسية فى المكسيك، وعادوا بعد أن قلدوا أوسمة الشرف والشجاعة.

14) التراجمة: من أبناء قبائل السودان الجنوبى والهضبة الاستوائية، وشمال حوص نهر الكونغو، عملوا أدلاء ومترجمين فى الجيش المصرى، ومع الوقت أصبحوا جنود وصف ضباط وضباط.

15) الخطرية أو الدناقلة: كانوا يعملون فى عصابات الرقيق، قبل قرار الحكومة المصرية بمنعه، ضمتهم الحكومة إلى قطعات الجيش غير النظامية وأعطتهم أجرا شهريا قدره يتراوح بين 30 قرشا و60 قرشا، خلاف الملابس كى تعوضهم عن دخولهم من تجارة الرقيق.

16) كانوا نثار الثورات والحروب الأوروبية والحرب الأهلية الأمريكية، أغدقت عليهم الحكومات المصرية الرواتب والرتب العسكرية والمدنية، ووضعتهم على رأس الإدارات التابعة لها في السودان، وقد عملوا بدأب على خدمة مصالح بلادهم، وكانوا أحد الدوافع الأخلاقية لنشوب الثورة المهدية على الحكم المصرى التركى في السودان.

باسم الحاج عبد اللطيف الشريف، شريك أبو السعود[17]، وصهر العقاد، والذي تولى تجارته عقب وفاته عام 1870م.

أفسحوا مكانا لليوزباشى، انتبه على سؤال وجهه إليه أحمد أفندي رائف معاون المديرية عما إذا كان الكوخ أعجبه.

- أى كوخ حضرتك؟

قال نور بك: "اليوزباشي لا يعرف شيئا، أمين بك سيغضب".

أكد عثمان أفندي، أن المديرية خصصت له أكبر أكواخ لادو، وفرشته بأثاث منحه أمين بك.

قال قائد الحامية، وهو يفكر في نقلته التالية: "أتوكل على الله وهي تتدبر"، واستدار نحو اليوزباشي متسائلا: " حتسيب الباخرة أمتي؟"

- الليلة.

طرق رودولفو كازاتى أصبعيه، معلنا أنه سيرحل غدا على متنها إلى (بيدن) مصطحبا خطيبته.

حضر بعض الضباط العرابين، سألهم قائد الحامية: "فين أغراضكم؟".

- في الباخرة.

توقف البكباشى النور محمد عن اللعب وسألهم:

- "شنو أنتم هسه على الباخرة؟".

- "نعم حضرتكم".

- تناولوا عشاءكم، وتكون أكواخكم جاهزة خلال ساعة.

الكود
خ: خوف
وهناك قبائل تأكل اللحم البشرى..

نادى ضياء أفندي وكيل قومندان لادو، وطلب أن تنقل أغراض الضباط إلى أكواخهم بعد تنظيفها، وطلب من تجار لادو أن يقدموا أفضل ما عندهم من المفارش والكسوة، واستدار نحو الضباط، وقال بلهجة آمرة:

---

17) الحاج أبو السعود: ولد أبو السعود في القاهرة وكان زميلا في المدرسة لمحمد رءوف قائد القوة العسكرية التي رافقت بيكر للمديرية الاستوائية وحاكم هرر والسودان فيما بعد. اشترك مع حميه تاجر العاج والرقيق محمد أحمد العقاد ووريثه، فى تجارته وعند وفاته عام 1870م أخذ مكانه في تجارة العاج والرقيق، واصطدمت مصالحه مع اتجاهات مصر الحديثة فى إلغاء تجارة الرقيق، ومصادرة تجارة العاج، ما أدى إلى صدام بينه وبين البعثة. أعلن رفضه لسياسة بيكر وشجع القبائل على مواجهتها، استقر فى مواجهة البعثة المصرية فى غندوكرو، وقام بهجوم بمعاونة القبائل على المعسكر المصري في 21–7– 1871 انتهى بالفشل ليقظة رجال القوة. قدم للمحاكمة بمصر، اتهم بيكر بإفساد تجارته لتنفيذ سياسته الجديدة قبل انتهاء عقده، ترتب عليه سقوط الاتهام عنه في عام 1873م. أشيع عنه الكثير من الأعمال الوحشية من بينها التدرب على الرماية على أجسام الأحياء. وكانت أجور العاملين في زرائب أبو السعود تتراوح بين 50 قرشا و55 قرشا شهريا.

- والآن هلا تجلسون حتى لا تضطروا البعض للوقوف!".

أثناء تناول شواء من لحم الغزلان والعرق المعتق، جذب أسماعهم الرهان الدائر حول طاولة لعب الورق، فيشات ملونة، تستبدل بأرطال من السمن والزيت والبن والشهد، والرهان حول ضحايا تمرد الأجار من المدنيين الذين أبيدوا في محطة (رومبيك)[18] العسكرية في مايو الماضي، اجمع الفريقان على أن القتلى بلغ سبعين جهاديا بما فيهم قائدهم الملازم عبد الله أغا السوداني، لكن الخلاف بقي على عدد المدنيين من موظفي وأسر الحامية[19].

أفتى القاضي بتوزيع قيمة الرهان على الموجودين"، لكن اليوزباشي إبراهيم جورجورى، الذي ثمل، أعاد الرهان إلى البداية، عندما تساءل عن عدد الجثث التى دفنت، وتلك التى طهيت.

سرت في جسد الضباط العرابين رعدة، هل انتهت حامية الروميك طعاما في معدة قبائل الأجار، شيء بدأ غريبا، قاطعه النور بك وقال إن الدينكا[20] لا يأكلون لحم البشر، وعندما عدد مأمور المخازن اليوزباشي عوض أفندي فضائل محاربى قبائل المكراكا، أشداء في الحرب، مطيعون للحكومة، لا يتمردون ولا يعصون، اختارهم أمين بك حرسه الخاص، وأوكل لهم حراسة مبانى الحكمدارية، وأكد بخيت بك ما قاله عوض أفندي بأنهم من الأجناد المعدودين، أضاف اليوزباشي جورجورو وهو يقترب من الضباط:

- "هم من أطيب الزنوج وأكثرهم حياء، وأشرسهم نهما للحم البشرى".

مرة ثانية اللحم البشرى، تبادل الضباط الابتسام بقلق، يفكرون في نسائهم وأطفالهم، وفى اللحظات التى ستأتى عندما يغادرون ويسيرون في عتمة الليل، في دروب قرية يحرسها أكلة لحوم البشر.

دعى فيتا حسان اليوزباشي للجلوس بعيدا عن الصخب، وهو يسأله إذا كان الوقت قد حان ليعطيه بريده، انتبه اليوزباشي واخرج من جيب

18) رومبيك Rumbek: إحدى محطات إقليم الرول

19) كانت الأسر تتسع بسرعة لكثرة وانتشار زواج الضباط وضباط الصف والجنود، والمدنيين من موظفى المديرية بنساء القبائل

20) قبائل الأجار أحد فروع قبائل الدينكا

معطفه خطاب من شخص يدعى ماكس توردا و[21]"، ظهرت السعادة على وجهه، وهتف: دوناى[22] ماكس توردا و؟

فضه من فوره، ثم توقف: ماكس توردا و صديقى، درسنا معا، هو حصل على الماجستير من باريس، وانا استكملت دراسة الصيدلة، حلمنا واحد، إقامة دولة لليهود، لكننا مختلفان.

- وعلى إيه اختلفتم؟

- هو متحمس أن تكون فلسطين أرض الدولة اليهودية، ويدعونى إلى الهجرة إليها، وأنا أدعوه للهجرة إلى هنا، هو يخشى أن أعلن إسلامى مثلما فعل شيتاى تسفى[23]، الذي أعلن نفسه المسيح المنتظر.

- أنبياء في الزمن ده!

- لا لا، الراجل أتجنن، سافر القسطنطينية معلنا نيته على خلع السلطان العثمانى، وتخليص العالم من مظالمه.

- خلع السلطان مرة واحدة! ضحك حسان واستطرد: "استقبله الباب العالى مرحبا، وأعلن رغبته في تنفيذ مشيئته، شرط أن يبرهن على قدراته الخارقة التى أعلن أنه يمتلكها، وإلا تعرض لآلات التعذيب العثمانية، عقل فورا، وتخلى عن نبوته وعن الشعب اليهودى، وأعلن اعتناقه الإسلام، والآن لماذا أوجع رأسك بالحكايات". أخرج الحسينى من معطفه خطاب يفوح بعطر الورد وقدمه له: مش عاوز المكتوب ده؟

تألقت عينى الشاب بالوهج، وهو يقرأ خط دقيق معنونا من الآنسة راحيل يوسف بك قطاوى ـ حى الأزاريطة – الإسكندرية، مصحوبا بصندوق خشب صغير، خطفه وأسرع إلى الداخل يفضه، لكنه توقف بغتة، وقال يلزم نفسه بالسلوك المهذب: "ما الذي أفعله!، أشكرك حضرة اليوزباشي، الخطاب ده انتظرته زى المجنون".

استغرق اليوزباشي ملامح الفرح التى شع بها وجه الشاب والذي جلس أمامه يلف عنقه (بطاليت)[24] جميل ذى شراشب زرقاء، تبادلا نظرات جعلت الأخير يضحك.

---

21) ماكس توردا و: مؤسس المنظمة الصهيونية العالمية.

22) دوناى: إلهي بالعبرية.

23) شيتاى تسفى: من سميرنا ببولندا، حصل على فرمان من الباب العالي ببناء مدينة لليهود على بحيرة طبرية، وكان يدخل أورشليم على أتان معلنا نفسه ملكا على اليهود، وأمن به الكثير وتبعوه من كل أنحاء العالم، معلنا نهاية عصر التعاسة التى تحملها الشعب اليهودى منذ الخروج من مصر، وقرب قدوم العصر الألفى، الذي سيكون بداية بزوغ المستقبل المشرق للشعب اليهودى.

- بتحبها؟

- مبارك أنت يا إلهنا، ملك الدنيا، يا من قدستنا بوصاياك العشر، أدوناي. أموت عشقا، نسمة يا حضرة اليوزباشي، أخوها يوسف بك قطاوى من أثرياء الإسكندرية، وأنا زى ما أنت شايف صيدلى على قده.

- لا يعيب الإنسان وضعه الاجتماعى.

- أخوها حاول يفرقنا، لكن هي كده بتحبنى.

- متأكد؟

أمسك فيتا حسان بطرف الشال الذي لف به عنقه، وهمس:

- "ده شال العرس في الدين بتاعنا، هي بتقولى احتفظ بيه ليوم زفافنا"، وقف الفتى بانفعال ومال على اليوزباشي يحتضنه، ثم جلس يحاول أن يتمالك أعصابه وهو يقول:

- "أنا كنت خلاص بفكر في الموت".

نظر اليوزباشي إلى الشاب بإشفاق تحول إلى دفقة من المحبة:

- "يا بختك بتحب"،

- "وحضرتكم؟ المديرية كلها عارفة".

- عارفة أيه؟

- مدموازيل فرانسوا.

قال بإنكار: "مستحيل طبعا".

شعر اليوزباشي بنقرات أصابع على ظهره، استدار ليجد مسيو ماركو جسباري يدعوه لاستضافته ومدموازيل دى سابل في مزرعته الشهيرة، التى تضم أشجار فاكهة من كل الأنواع، ادخل زراعتها بنفسه.

تفادى اليوزباشي النظر إلى الصيدلانى الشاب الذي اتسع وجهه بابتسامة متواطئة، نظر إلى مسيو ماركو غير قادر على هضم دعوته الغامضة، لكن ابتسامة اليونانى وغمزة عينه، لم يتركا مجالا للشك.

* * * *

24) طاليت: شال الصلاة

- 16 -

الرق والحرية

حمل الملازم شمروخ كأسا من الروم، وانتحى مكانا قصيا ليجد نفسه بجوار الحاج عبد اللطيف الشريف، كان يجلس بتباه في عباءة مقصبة، تبرق أصابعه بخواتم مرصعة بأحجار كريمة، يعبث بخنجره المرصع بفصوص الياقوت والزمرد، بين قدميه جلس تابعه القرفصاء، يقوم على خدمة نرجيله، أخذ نفسا طويلا ثم قال باستعلاء، أن هذا الخنجر سَمِي لخنجر السلطان سليم.

تبادله الحاضرون، يتطلعون في غمده المصنوع من المخمل والفضة، حمله إبراهيم جورجورو قومندان مكراكا بين يده الاثنتين، وأعاده باحترام معلنا أن وجود مثل هذا التحفة في هذا المكان إساءة لها.

قال النور بك محمد يزدرى تباهيه: "من تجارة العاج يا حاج ولا من تجارة الرقيق".

- وأيه المشكلة؟

-"أوامر مولانا واضحة".

- " بتراكى بك، مولانا لا يمنع تجارة الرقيق عن اقتناع، فهو والعائلة الخديوية من أكبر زبائنى.

تدخل عثمان لطيف: أمال بيمنعها ليه؟

- أصل الأمر ومنتهاه رغبته في الظهور بمظهر الأمير الأوروبى المتحضر، يتمثل بالكفار، ويستجديهم أن يهبوه مملكة مستقلة عن الخلافة العثمانية السنية".

تدخل القاضي: "حاشا لله ليس هذا مقصد الأمير، إنما هي ألعاب للإبقاء على عرش مصر في الأسرة العلوية".

اعترض اليوزباشي وقال: "خطف النساء والأطفال لا يقره الدين".

- "أي دين تقصد حضرتكم؟

تدخل بخيت بك: الدين الحنيف يا حاج عبد اللطيف".

- فلماذا كانت قصور الخلفاء تعمر بهم.

- لكل زمن أحواله.

- لا يا بخيت بك أنت رجل عاقل، وهذه سياسة أوروبية، غرضها إضعاف الجيوش الإسلامية، التى تقوم على عنصر العبيد والمجلوبين، من هزم التتار؟ ومن طرد الصليبيين؟

الكود

ط: طرائد

وهناك من يطارد في

البراري

فرائس بشرية.. فا لحذر..

تراجع بتراكى الضابط المسلم الذي ينتمي إلى السودان الأسود، لا يملك أن يخوض جدالا شرعيا، وأبقى الشيخ حميد على ابتسامة محايدة، ووقف إبراهيم جورجورو، يترنح أمام طاولة القمار وهو يرفع كأسه ويقول: "علىَ الحرام من دين الإسلام أن ما تفعله المديرية باطل في باطل"، وخاطب التاجر:"وأيمانات المسلمين كلامكم موزون بميزان دهب، لكن يا زول كلنا عبد المأمور".

رأى نظرات الامتعاض في وجوه العرابيون، فقرر أن يجعلهم وليمة السهرة، ضرب الأرض بقوة، رافعا يده بالتحية العسكرية نحو الملازم شمروخ وصرخ:

- "انتباه يا عسكرى أنت وهو، حضرة الملازم شمروخ زعلان مننا ليه؟"، واستدار نحو التاجر يواسيه: "ما تزعلش على اللى راح منك يا حاج".

التفت التاجر نحو شمروخ، وطرق كتفيه بمقبض منشته المصنوعة من العاج المطهَم بالصدف: "هو أنت اللى أعدم الخطرية؟".

انتبه العرابين وساد توتر في الجو، بانتظار رد فعل الملازم على الإهانة التى وجهها تاجر إلى ضابط في الجيش، تابعوه يستدير نحوه، يسأله بابتسامة: أيه اللى خلاهم يسرقوا أسراى ويبيعوهم رقيق؟

- "سمعتم الجنان ده؟ يا افندى قبائل الآجار ذبحت حامية شامبي، وأنت تعدم عشان خاطر عيونهم خمستاشر نفر، هل دمر الغرب والإلحاد عقولكم أيها المصريون؟".

تدخل القاضى: "قتل النفس بدون وجه حق محرم، بينما الرق مباح في الإسلام، "ولا تزر وازرة وزر أخرى"، شمروخ أفندي وزرهم يقع على عنقك.

- "بتقول إيه فضيلتكم؟".

- أقول الحق، ولا أخشى في الحق لومة لائم.

- اسمع يا مولانا حديثى عن الحق والمستحق، في بلادنا بنشوف الرق وكأنه أحد سنن الكون، الفلاح فلاح، والباشا باشا، والعبد عبد، يباع العبد ويشترى زى البهيمة، فنظن أن الله خلقهم على ما نعتقد، وأن العبد مجبور أن يكون عبدا، ونستمتع بكونا أحرارا، وهم عبيد ملك أيماننا، فكيف يمكن أن نفهم ونعرف أن ده مش طبيعى، وأنه ليس سنة من سنن الكون، أو أنه سوء وشر مطلق؟!.

- أوصانا الرسول عليه الصلاة والسلام بالرفق بهم، وحبذ عتقهم؟

- عتق العبد حسنة يثاب عليها المؤمن، لكن الرق لم يحرم، ولا تجارته.

- شوية فضيلتكم؛ هنا في برارى أفريقيا الأمر أصبح واضح، لى على الأقل، أمسك شمروخ بخنجر التاجر ووضعه أمام بخيت بك بتراكى، وقال هذا الخنجر الثمين ملك بخيت بك، ثم أخذه وأعطاه لإبراهيم افندى جورجورو، وقال: لكن حضرة اليوزباشي سرقه.

أعطى الخنجر إلى القاضى وأضاف لكن اللص جورجورو أفندي باعه إلى لقاضى، الذي اشتراه بحر ماله، وتناول من أمامه رزمة من فيشات اللعب، وألقى بها لإبراهيم جورجورو.

هز القاضى رأسه سعيدا بالخنجر، أضاف شمروخ:

- "رغم ذلك فأن الخنجر هو ملك بخيت بك، وأى قاض نزيه سيعيده له.

أخرج مسدسه، وحرر زناده، وأضاف مهددا يوزباشى إبراهيم جورجورو:

- "هذا إذ لم استرده بنفسى بصفتى الضابط المسؤول عن الأمن، حتى ولو أصبح اللص جثة هامدة، فالقاعدة أن الشيء المسروق، هو مسروق حتى يستعيده مالكه الأصلى، والسارق هو لص يلزم إقامة الحد عليه".

لاحق العرابيون الدائرة الطويلة التى مر بها الملازم شمروخ، وقد حل الوجوم على الجميع، تابعوه يستطرد :

- وزى ما أنت شايف يا مولانا القاضى، أن البشر الذين يطاردهم الحاج عبد اللطيف، وتحملهم قوافله إلى أسواق النخاسة، هم أحرار، سرقوا من قراهم، الحاج عبد اللطيف يملك خنجره الذي تتباهى به من حر ماله، وهم يملكون حريتهم بالفطرة، وهبها لهم من هو أعلى منك ومنى.

تساءل التاجر ممتقع الوجه: "قصدك أيه؟".

- "الله وحده الخالق، الله وحده يملكنا، وأنتم تسرقون الله في حر ما يملكه، ولهذا إذا قابلنا رجالك مرة ثانية سنقوم على إعدامهم".

تدخل فوزي: "لو أن سيدنا محمد عليه السلام شاهد ما تفعله، بهؤلاء الناس لأقام عليك حد السرقة، ولحرم الرق من فوره".

وأمسك شمروخ مقبض النرجيلة، وطرق كتف التاجر، وقال:

- "واحذر أن تحدث ضابطا دون الاحترام اللائق".

باغت شمروخ القاضى، الذي سيقود بعد عام حربا ضد الجيش المصري، وطلب منه أن يصدر فتوى بتحريم الرق، قال:

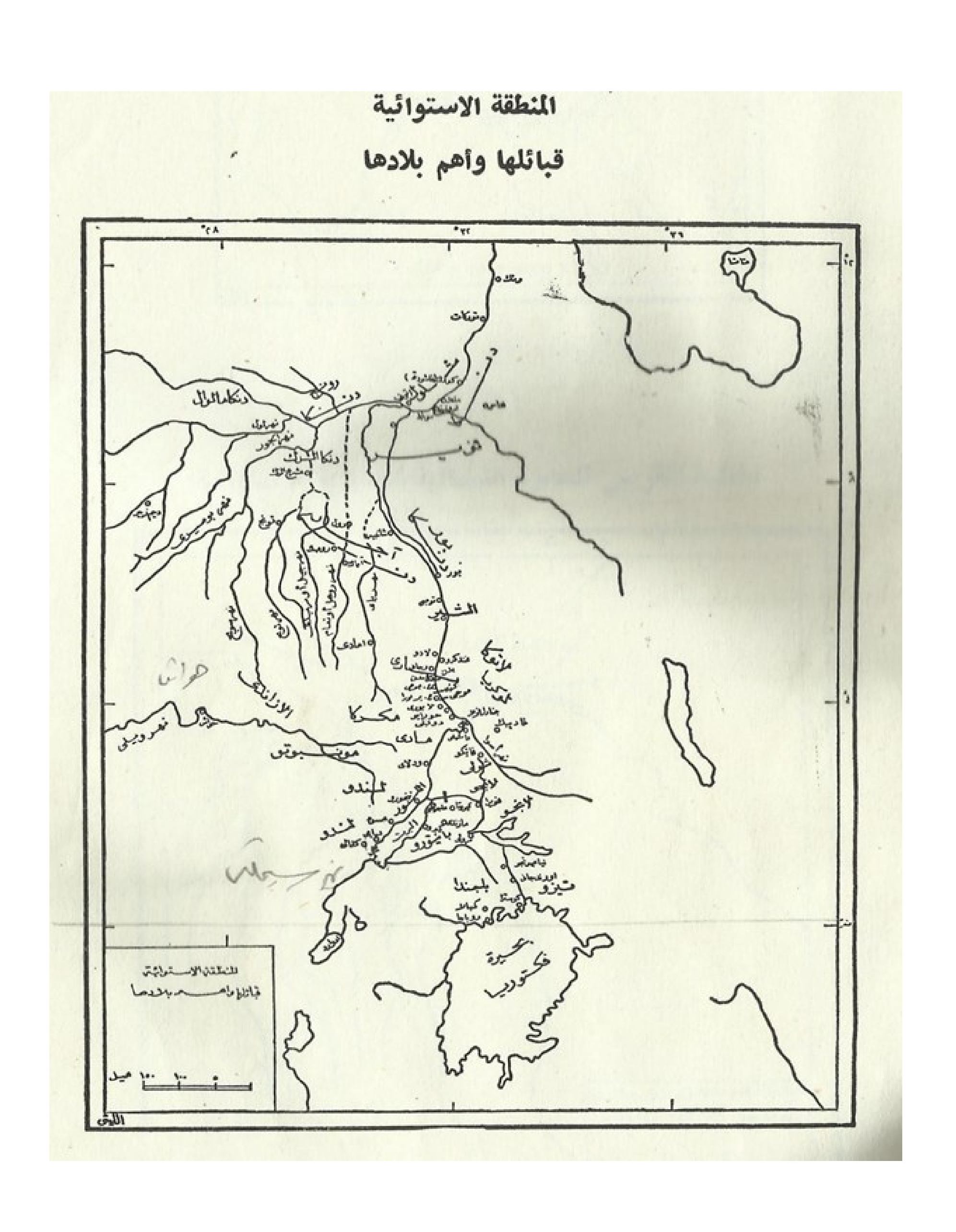
- "كيف أحرم ما شرعه الدين".

- "لو ارتديت جبة القاضى وعمامته، لأفتيت بتحريم خطف النساء والأطفال، وصيد الرجال في البراري، وحرمت التجارة في بنى الإنسان الذين كرمهم الله وخلقهم على هيئته الجليلة".

طق الشرر من عيون القاضى، وهو يتابع الملازم يخاطبه: "يا فضيلة القاضي، إذا كان الإسلام لم يحرم الرق، فقد حرم السرقة، وسرقة الناس وحرمانهم حريتهم التى خلقهم الله عليها باطل، السرقة تسبق بيع الناس عبيدا، وما بنى على باطل فهو باطل

... "هذا ضابط يتعين اغتياله"...

* * * *



المنطقة الاستوائية
قبائلها وأهم بلادها
مكركا
بحيرة
فكتوريا
نهر ويلى

الكود

ا: رعب

فى البرارى كركدن..
قطعان للذئاب..
قطعان للضوارى..

في الهزيع الأخير من الليل غادر شمروخ منزل فيتا حسان إلى كوخه، سار وحيدا وسط صمت مروع، وقد أحال الضباب طرقات القرية إلى مرتع لأرواح هائمة، أزعجه عدم قدرته على معرفة الاتجاهات، وهو نصف سكران بطعم المارتينى وقوة الروم. عصفت برأسه أفكار متفرقة، ما الذي يمكن أن ينتظرك، أتعود إلى قمرتك على الباخرة، وتؤجل الاستلقاء بجسدك في فراش مفتوح على عقارب وأفاعى وعناكب للدغتها طعم الهلاك، مرق جواره بخفة شبحا ضاريا، انتصب شعر رأسه، لا يعلم إذا كان ما يراه حقيقة أم أوهام، لمح أضواء صفراء تهوى في الظلمات، ثم تعود وكأنها تدله إلى طريقه، تمالك نفسك يا ابن عمدة منقباد وتقدم إلى كوخك المقام على أطراف الحامية العسكرية، تطل من وراءه برارى لادو، وهو مشرع الأبواب، غير ممتنع عن غيلان الغابات وجنياتها.

تراقص ضوء المشاعل من الباب المفتوح، خيل إليه أن أحد ضوارى البرارى يربض بانتظاره، خفق قلبه وتحسس مسدسه، وعبر مدخل كوخه، وتقدم نحو الفراش، تجرد من ملابسه بصعوبة، ألقى بنفسه عاريا وغط في نوم عميق تحول لكابوس، تخاتل عيناه المغمضتان لبؤة منتصبة، تربض جواره على الفراش، وبين حين وآخر تلتقي عيناهما دونما معنى.

فتح عينين متعبتين، هاجمه وهج الأبنوس الساكن جسد صبية حليقة الرأس، متوحشة التكوين؛ تملك وجها يشبه وجه لبؤة فتية في زمن الأيض؛ عينان تنتميان لفصيلة القطط، تضيقان وتتسعان بين مدارج الحس ورموز الخطر، فم ناتئ، وجه مدور، فكين عريضين لثدييات آكلات اللحوم، فماذا عليك أن تفعل؟

يأتى الصباح ينزع عقله من كوابيس الليل، يشعر بحركة مباغتة، ينتصب في فراشه، يلمحهن؛ عذارى قبيلة المبورو اللائي حررهن في زريبة مدخل بيكر، لماذا تركن مستودع العبيد المحررين، وجئن إلى كوخك، قام غاضبا يستر جسده، وهو يتفادى النظر إلى عريهن الفاضح، لا يأبهن به، لوح إليهن كى يرحلن، كشرن في وجهه، يكشفن عن أنياب

مُفْترِسَة، وهرير يقارب الزئير، هشهن بيديه، فقمن غاضبات، وغادرن إلى العراء، ثم اختفين في ضباب الأحراش.

همس الملازم فوزي بعينيه اللتين تحاكين عيني الصقر: "كل ده مش ح يشفع لك، مضغ لحمك آت لا ريب فيه".

أوضح فيتا حسان أنهم لا يبحثون في ضحاياهم عن اللحم، ويتساءل شمروخ عما يبحثون؟ يجيبه حسان "عن قوة الروح التى ستنتقل إليهم"، يعقب فوزي: "شفت، بذورك لن تكفي المهمة المقدسة"، يسأل شمروخ حسان: "أنت دقته؟".

لاك فمه بلسانه، وابتسم، نظر إليه مذهول: "دقت اللحم البشرى؟"، نفى حسان: يا صديقى، أكل البشر موجود في تاريخ البشرية منذ القدم، تقديم أضحية بشرية لرضاء الآلهة واتقاء لغضبها، وبعدين استبدلت بأضحية حيوانية، قصة سيدنا إبراهيم وإسحاق تتكرر.

الكود
خ: خوف
فى الغابات تقبع البداءة الأولى..
روح الغرائز الوحشية..
الخوف العظيم..

- قصدك سيدنا إسماعيل.
- نفس القصة، لكن أكل اللحم البشرى عادة منتشر، ولها جمعيات سرية في العالم.
- وبعدين؟
- مفيش حاجة، بص للموضوع بسخرية ممكن ده يخفف عنك.
- أزاى؟
- زى نظرة الأطفال إلى الجنيات، والنساء إلى السحرة.
- بضحكنى.
- كويس، أضحكك أفضل ما أخوفك.

يأتى الليل حاملا معه الخطر، ها هن مجتمعات بانتظارك،

روح القمر
أيالاكا شجرة السماء
لولابا روح النهر
أبرافو المحاربة
جنجي روح الغابة

تنظر نحوهن ببلاهة، يخطفك الوجه الفهدي للصبية التى تجلس في المنتصف بشموخ الأميرات، تتجاهل وجودهن العارى الثقيل، وتختفي في ركن الكوخ خلف غلالات البخور الطيب الرائحة.

في الصباح طلب شمروخ من قومندان لادو أن يلحقه بالقوات التى تواجه تمرد قبائل المونبوتو، يرفض، يسأله أن يلتحق بالقوات التى تقاتل تمرد الآجار، يضحك، ويقول بطريقة قاطعة، "أنت الضابط المسئول عن تسليم العبيد المحررين إلى الشيخ "مبورو".

يتركه النور بك ليحكى بلذة إلى كبار رجال المديرية قصة الضابط الشاب الذي يهرب من الموت إلى الموت، ويضيف: " سمعتم عن غبي يهرب من الموت بين أنياب النساء، ليتعجل الموت بحراب المحاربين؟!".

تحت المطر الغزير طرق كوخه شبح الملازم فوزي وهمس بوجه عبوس:

- "هات بندقيتك وتعال وراى".

تعبران القرية إلى الأحراش، ترى على امتداد يوم كامل حفلة اقتناص قطيع من الأسود لذكر زراف، يبدأ النزال بمطاردة خمس من اللبؤات للفريسة، يحطن به من كل جهة ويدفعنه بعيدا عن الأشجار إلى منطقة عشبية، وهناك يتبادلن الهجوم عليه، كن يقتصدن في قواهن، تشاهد ضربات قدمه الخلفية مثل مطرقة تفادتها اللبؤات بليونة ومهارة، حتى تمكنت إحداهن منه، قفزت تنشب مخالبها وأنيابها في مؤخرته، لكنه يستدير ليطيح بها بعيدا، بعدها هدأ الجميع، ووقف ذكر الزراف في المنتصف يدور حول نفسه، قال الملازم فوزي إن الجميع يأخذ هدنة.

في منتصف النهار طل أربعة ليوث لتبدأ حفلة صيد مريعة، اعتلى ثلاثة عشر من الأسود واللبؤات ظهر الزراف ورقبته، ينشبون مخالِبهم وأنيابهم في لحمه. قلت بحزن:

- هذه خسة لم أتوقعها، كنت أظن أن الأسد ملك وحيد فريد، أنه يتصرف مثل قطيع من الضباع، أين النبل في طعنة الظهر"

* * * *

أمـام خـرائط المديريـة[25] قـبض علـى قلـوب وعقـول العرابيـون حالـة مـن الاسـتغراب والـذهول، تـابعو البكباشـى النـور محمـد يشـير بـرأس عصـاه الفضـية، إلى مواقـع المحطـات العسـكرية المنتشـرة في أرجاءهـا، ويـدور بهـا في دائـرة واسـعة تضـم أحـواض الأنهـار التـى تغـذى نهـر النيـل، محـددا الأراضـى التابعة للحكومة المصرية[26].

شـاهد الحسـينى خـط الاسـتواء مثـل خـط سـحرى، منقـوش كحكايـة خرافيـة، بحـار عبرهـا سـندباد علـى بسـاط سـحرى، سـفن شـراعية تحلـق إلى السـماوات العـلا، جـزر سـحيقة يحكمهـا ملـوك الجـان، وبنـاتهم اللائـى يفعلن المستحيل لعشاقهن من الإنس، ويتقبلن هجرهن كمصير قدرى.

الآن يـا أيهـا المصـلوب علـى شـراع بالنيـل، راحـلا إلى مصـيرك القـاتم، هـا هـو حفيـدك يصـل إلى معنـى غـامض لجـذوره، قـد يكـون منتصـف الأرض وحبلـها السـري، قـد يكـون منبـع النيـل العظـيم، قـد يكـون المكـان الـذي طرد الله أبناءه العصاة من جنته.

أشار النور بك بعصاه الفضية، إلى نقطة على نهر "ويلي"[27]:

- هنـا وسـط قبائـل الأبرامـوس أقـام الصـاغ حـواش منتصـر محطـة باسمـه، وإلى هذه البلاد ينتمي العبيد الذين حررتهم.

حـدق شمـروخ في نقطـة صـغيرة، تقـع علـى نهـر غـامض، وكأنـه يبحـث عن قدره الذي سيؤول له، طرق أمين بك كتفه:

- "ستمائة كيلومتر غرب النيل، امتى ح تكون مستعد؟".
- أى وقت حضرتكم؟
- يومين شمروخ أفندي؟
- تمام سعادة الحكمدار.

---

25) رسمت بمعرفة هيئة الأركان عام 1875، اليوزباشى أركان حرب مصطفى صدقى،

26) مديرية خط الاستواء: تمتد بين خطى طول {027 غربا إلى 036 شرقا}، وخطى عرض {09:30} شمالا وحتى خط عرض {صفر0} جنوبا. تبدأ حدودها الشمالية من بحر الغزال، وتنتهي فى خط الاستواء، وضمت تحت الحكم المصرى {1871 – 1890} "جمهورية جنوب السودان، وأجزاء من شمال أوغندا وشمال غرب كينا، وغرب جمهورية أفريقيا الوسطى، وأجزاء واسعة من شمال غرب حوض نهر الكونجو، وضمت أحواض أنهار بحر الزراف والجبل والغزال، وفى الجنوب هضبة البحيرات الاستوائية، ومملكة أوغندا وايزنيورو. فى الشرق مرتفعات لاتوكا، فى الغرب أحواض أنهار "لاو" و"النعام" اللذان يصبان فى مستنقعات ومناقع البحيرات، وأحواض أنهار "كيبالى" و"بوموكاندى" و"يلي" الذين يصبون فى المحيط الأطلسى.

27) نهر ويلي: **WELLE**

طلب الحسيني من الحكمدار أن يأذن له البدء في مهمته، مسد الحكمدار لحيته، وفي نهاية الاجتماع طلب منه الانتظار، وعندما أصبحا وحيدين، أشار إلى أن أوضاع التمرد تتطور بسرعة في السودان، والرجل الذي يدعو نفسه بالمهدى يحشد الأتباع من حوله، أريد مدرسة لتدريس فن الحرب"، أجاب اليوزباشي أنه على استعداد لأن يقدم كل ما تعلمه من الفن العسكرى لضباط المديرية.

- تمام حسينى أفندي.

- تمام افندم.

- "أريد أن تبدأ محاضراتك قبل توزيع الضباط على أقاليم المديرية"، دعنى أرى قدراتك حسينى أفندي".

في الخارج هطل المطر كالسيل، قرب كوخه داهم اليوزباشي الارتياب، دخل متوجسا، فوجئ بحامل رسم ينتصب فى منتصف الكوخ، وبجواره تناثرت قوارير ألوان، ألقى بجسده على فراشه منهكا وقد اعتملته الحيرة، غابت الشمس، ولم ينقطع المطر، غط فى النوم ليستيقظ على طرقات شديدة على الباب، قام يفتحه ليجدها قبالته تسبح فى شلالات المياه السماوية، وخلفها المبوريات، وقف مشلولا لا يدري ماذا يتعين عليه فعله، صرخت به: "معندكش ذوق! ستتركنى هكذا؟".

همس بضجر: "ما الذي تفعلينه هنا؟".

دفعته جانبا مقتحمة المكان، وهي تدعو المبوريات للدخول، وتتحدث دون توقف، تخبره بأنها عادت إلى لادو بالأمس، ولم يكلف نفسه السؤال عنها، فجاءت إليه، ورغم ذلك يبدو أنه فقد لياقة التصرف كجنتلمان، سألته أن يشعل النار من أجل قططها الوحشية المسكينة، وبينما يشعل النار، أخذتهن وأجلستهن أمام لوحتها، تستعد لاستكمال رسمها.

- ها مسيو حسينى، أنا جئت إذن، ألا تلقى بالتحية؟ أأفعل أنا؟ ... مرحبا.

- " الاجتماع انتهى، وكابتن كازاتى، سيبحث عنك؟".

- لماذا؟ هل أصبحت أحد موظفى المديرية؟

- لا أعرف.

- "يا عزيزى تركته وعدت أبحث عنك، ألا ترى، لقد انفصلنا".

- لم؟

- أنت ماما ولا بابا، أنا حرة، تصرف كرجل مهذب؟
- أنا، أم أنت؟
- تلومنى لأني جئت، تلومنى لأني لم أرغب فى تركك فريسة لهن؟ نظرت بغل ناحية المبوريات: "أحمق، مخدوع، سيأكلونك على صحن من كبد ببغاوات غابات تنجازى مغموس بدماء تماسيح بحر الزراف".
- أجننت ما علاقتى بهن، وما علاقة بحر الزراف بتنجازى.
- حسنا ما هو النهر القريب من تنجازى؟
- أنا عارف، كيبالى، بوموكاندى.
ضحكت وقالت بإصرار: كما تشاء، سيأكلونك على صحن من كبد ببغاوات غابات تنجازى مغموس بدماء تماسيح نهر كيبالى، ليجعلوا منك يخنى من أفاعى نهر بوموكاندى، هل يعجبك هذا؟
- يعجبنى، ومن أين أتيت بهن؟
- وما يهمك؟
- ثم ما علاقتى بهم، إذا كانوا جائعين؟ يتفضلوا عندهم شمروخ، يأكلوه حتى أخر قطعة عظم.
- مسكين شمروخ.
- لو سمحت أعيدهن من حيث جاءوا.
- يا حبيبى لازم أنتهى من الرسم قبل سفرهن، وبعدين الدنيا مطرت.

سألته من وراء حاملها أن يقدم لها كأسا من الروم. صب كأسين، وقف ينظر ما ترسمه، سألها إذا كانت تخشي عليه أن يكون طعاما لهن، استدارت تغرز نهدين عامرين فى صدره، وتنيخ ذقنها على كتفه، وهي تؤكد أن هذه نهاية محتومة لكل ضابط طيب الطعم، يسكن وسط نساء يتناولن صباح ومساء اللحم البشرى.

همست: "لو شئت أن يطهوك أحد، أرجوك دعنى أفعل"، اصطكت أسنانها واستطردت: "أقسم بيسوع لو خيلت أوهامك خيانتي لأجعل منك طعاما لوحوش المديرية الاستوائية".

- "وكأني استمع، لعظة من السيدة العذراء البتول".

فـى لحظـة عـابرة رآهـن يفـترشـن خرائطـه، صـرخ فـى غضـب، تطلعـن نحـوه بدهشـة، لا يـدركن سـبب صـراخه، ازدادت ثورتـه وهـو يـرى صـورا مـن كتيـب الإشارة ممزق بين يديها.

عنـدما شـعرن بـالخطر، كشـرن عـن أنيـابهن، وبـدأ يسـمع هريـر، تقـدم يدفعهن بعيـدا عـن الخـرائط، وهـن متشـبثات بهـا، لا يـرغبن التحـرك قيـد أنملـة، حـاول أن يسـتعيد مـن إحـداهن كتيـب الاتصـال الـذي رسمتـه فرانسـوا في جنـادل (عمكـة)، نهشـته بأنيابهـا، تراجـع سـاخطا، نظـر إلى فرانسـوا، رآهـا تستمتع بالجدال الجارى، لحظتها أدرك أنها من قدمه لهن.

وقـف عـاجزا تسـيل الـدماء مـن سـاعده، قالـت وهـي تضـمده أنهـا ستصـبغ لوحتهـا بدمائـه، وتعـده بـأن تعيـد رسـم كتيبـات الإشـارات، بعـد أن عمـد بدمـه لوحتهـا، عـادت إلى لوحتهـا تسـتكمل رسمهـا تحـت المشـاعل، وتسـلل مغـادرا كوخه بحثا عن مكـان يقضى فيه ليلته.

* * * *

- 17 -

أسطورة خط الاستواء

على طاولة الرمل بدا النيل ثعبانا أسطوريا، يزحف بعنفوان، هابطا من بحيرات السماء العظمى إلى أراض الله البكر، انحنى يغرس نماذج تحمل سمت الوطنيين؛ زنوج نقاه، ونيليين تحمل ملامحهم أثار العنصر القوقازى، وحاميين وأنصاف حاميين، وقفت فرانسوا على الناحية الأخرى تلون بحيرة إبراهيم باللون الأزرق النيلى.

- "كابتن، لديك ساحة للمعارك تستطيع أن تقاتل فوقها، كنت أتمنى أن يكفيك جسدى شرها".
- "من زعم أنك أقل شرا من حرب شعواء".
- متأكد!

حملت الرياح صوت طبول ونقارات ومزامير وأبواق نفير، هرعوا إلى النافذة، تابعوا عددا كبيرا من أطفال لادو يهرولون في صخب، ويتبادلون الضجيج والمرح، وخلفهم أعداد من الوطنيين يتسابقون في اتجاه النهر، ويصيحون بلغتهم المحلية "الأسد المصري، الأسد المصري". شعرت به خلفها، أراحت ظهرها على صدره، فاحتواها.

من مطلع الدرب ظهرت الموسيقى العسكرية يحيط بها الأطفال في صخب، وخلفها سرايا عسكرية يتقدمها ضابط متجهما بدا عليه مهابة القادة العظام وخيلائهم، كان نحيف الجسد، طويل النجاد، قوى البنية، تشوبه سمرة، ينم مظهره عن الغلظة، له شارب سميك، يرتدي جلبابا احمر قصيرا من القطن يتدلى من نطاقه سيف وغدارة.

تجمع العرابيون على قارعة الطريق يتابعون ما يجرى، نظرة تهديد نفاذة جعلت الملازمين شمروخ وشلعى يقفان انتباها وهما يؤديان التحية العسكرية للضابط الذي خلا كتفيه من رتب عسكرية، ردها بصلف.

سار في خطوة عسكرية صارمة، متقدما قواته، وخلفه ثيران تحمل على ظهورها مدافع جبلية، مشايخ قرى متمردة مقيدين بالأغلال، سرايا نظامية يحملون على ظهورهم مهماتهم وبنادقهم، سريتان من الخطرية، تسيران في فوضى وخليط من ملابس متنافرة، طابورين من الثيران تحمل أقفاصا لطيور وببغاوات نادرة وشمبانزي ناطقة، قافلة أفيال تحمل حمولات العاج، وريش النعام، وفى المؤخرة سار المحاربين التابعين للصاغ يلوحون برماحهم ويدقون بقبضاتهم على دروعهم.

الضجة التى صاحبت دخول لادو أصابت الحكمدار بالذعر، احتار وهو يسأل الجلوس عن القوات المهاجمة؛ أن تكون تمردا للقبائل، أم انتقام الدناقلة، عندما علم أن الواقف يطلب الإذن بالمثول أمامه، ليس سوى حواش منتصر، أغضبه الروع الذي أصابه، سمعه منتصر وهو يدخل عليه يقول:

- "اللعنة عليك يا حواش، هذا الضابط ماذا يظن نفسه؟"

استطرد، موجه حديثه (هذه المرة) إلى منتصر:

"قائد جيوش البر والبحر! فاتح القسطنطينية! أنا من شاهدت أمير أصفهان، أو قيصر يدخل فرساى، وتتقدمه مثل هذه الموسيقى، لماذا تتظاهر بمظهر الملك، عليك اللعنة".

عقب كازاتى بالألمانية: "أنت تدفع ثمن طيبتك، أنا أرسلت خطابا إلى رءوف باشا أوصى بأن يعيده إلى الزريبة التى ولد بها، وأنت تطلب له ترقية".

دافع الحكمدار عن اتهام كازاتى له بالضعف، وقال إنه لم يطلب لحواش ترقية، كل ما فعله أنه أرسل إلى رءوف باشا حاكم السودان السابق، شكواه مع خطاب الطبيب جونكر، أنت توصى بعزله، وجونكر يوصى بترقيته، فتجاهلك، وتبع جونكر.

- حسنا لا تلومن إلا نفسك سيدي الحكمدار، نظر إليه أمين بك بعتاب وكأنه يقول له لا ينقصنى سواك.

وقف الصاغ منتصبا كتمثال حجرى، وأمين بك يمسد لحيته، يحاول أن يبدو صارما، وأخيرا سأله سؤال غير ذى معنى:

- "أقدمت؟".

- نعم يا صاحب السعادة.

- وما الذي أتيت به؟

- خمسة عشر من مشايخ القرى المتمردة وحمولات عاج وريش نعام.

- أكان العاج في مستودعات مكراكا أم غنمته بنفسك؟

- غنمته بنفسي يا صاحب السعادة، ولكن ما كنت أفعل، لولا شمول الحكومة لي بحمايتها، وجنابكم بالرعاية.

- هل أتيت منه بشيء كثير؟

- خمسمائة حمل من العاج، ومائة من ريش النعام.

- من الصنف الجيد أم الرديء؟

- أكثرها من النوع الجيد، كما أحضرت خمور وعطور، ومائة وخمسة وثلاثين بندقية ريمنجتون.

قاطعه كازاتي عن عمد، مظهرا الفارق بين صرامته وضعف الحكمدار:

- كيف تزعم حضرتكم، أنكم أحضرتم بنادق هي عهدتك.

تحول الوجه الذي كان ينظر إلى الحكمدار بتصاغر، إلى وجه شديد الصلف والكبرياء:

- "يوزباشي كازاتي هل كنت تنام معي في حضني وسط حريمي ونسائي والخولات الذين أضاجعهم، وأنا لا أعلم؟".

- "لا ولكن".

- هل لديك مستندات تخص عهدتي يوزباشي كازاتي.

- لا، حضرة الصاغقول حواش منتصر.

- عندما توجه الحديث لضابط عظيم يجب عليك، أن تقف وتوجه له التحية، سوف أعفو عنك لأجل خاطر أمين بك.

استنجد كازاتي بالحكمدار لكنه تجاهله بقرف، ووجه الشكر إلى الصاغ منتصر:

- "أحسنت حواش أفندي، تفضل فاجلس وأشرب قدحا من القهوة".

صفق الصاغ، فاندفع الزنوج، بطريقة أثارت ذعر الحكمدار ثانية، وضعوا بين يديه قدورا من الجوز و(الباتنجو)، ومزاريق دقيقة الصنع، وأقفاص بها ببغاوات مكراكا الذهبية، ونسورا مونبوتو، وطيورا عجيبة، وحيوانات ذوات خمس، وغوريلا في حجم طفل يوشك على النطق.

كـان الصـاغ يعلـم غوايـة الحكمـدار بغرائـب الحيوانـات والنباتـات باسـم العلـم، فالضـوء لم يكـن ينطفـئ مـن نوافـذه، حيـث يشـاهد منكبـا بعـزم جرمـانى علـى تسـجيلها بعـد دراسـتها، وإرسـالها مرفقـة بشـروح كاملـة إلى الجمعيـة الملكيـة الألمانيـة للعلـوم والأحيـاء الطبيعيـة، وإذا كـان لديـه نماذج مكررة، أرسلها إلى متاحف وحدائق أوروبا.

لـذلك رغـم المفاجـأة التـى أثـارت فزعـه للمـرة الثانيـة، ألجمتـه السـعادة بالهدايا التى قدمها له رجل يثير غيظه وحنقه وخوفه معا.

اسـتدعى الحكمـدار بقطـر افنـدى باسـيلى، ليسـجل كـل مـا جـاء بـه الصـاغ في دفـاتر المخـازن الحكوميـة، يقـدر أسـعارها و يخصـم أثمانهـا مـن راتبـه كموظـف لا يقبـل الخلـط بـين مـال الحكومـة وممتلكاتـه الخاصـة، وعنـدما تأكـد بـأن مفاجـآت منتصـر انتهـت، سـأله عـن حـوادث مونبوتـو وعـن العلاقـات الجيـدة الـتي أقامهـا مـع رؤسـاء الزنـوج، وسـأله عـن دور الملـك مامبا نجـا في التمـرد الجـارى في مونبوتـو، أنهـى الصـاغ قهوتـه، واسـتأذن في الانصـراف، فهز أمين بك رأسه والتفت إلى حسان وقال:

- " اذهـب برفقـة حـواش أفنـدى ليعطيـك الهـدايا والأعشـاب الطبيـة التـى أحضرها لك". "لحظة، اليوزباشي جاء لك بترقية من الخرطوم".

ارتسـمت علـى وجهـه ابتسـامة صـفراء، وغـادر المجلـس بصـحبة فيتـا حسـان، والعرابيـون منبهـرون بحضـوره الطـاغى، يسـتعيدون مـا سمعـوه في سهرات فيتا حسان عن أسطورته التى جابت خط الاستواء.

* * * *

منـذ سـنوات طـارد منتصـر قافلـة رقيـق تقـود خمسـمائة أفريقـى مقيـدين بـالأغلال، توجهـت بعـد مشـرع الـرق إلى طريـق الأربعـين الصـحراوى، أمـام مدينـة "دارة" وقـع في مواجهـة مـع خيالـة حـرس سـلطان دارفـور، الـذي يتشـكل مـن نسـاء حاسـرات الـرؤوس، شـاكيات السـلاح، غـزا الشـيب رؤوسـهن، توقـف تـوقيرا لهـن حتـى سمحـن لـه بالـدخول، حيـث وجـد السـلطان مـرعش حـاكم دارفور يجلس القرفصاء، لا يكلم أحدا إلا عن طريق وسيط.

سأله السماح له بمطاردة قافلة لتجار الرقيق، وسلطان دارفور يستمع لترجمانه، ويسأله أسئلة لا يفهمها سواهما، أطرق طويلا وهو يرشقه بنظراته الحادة، ثم أخذ يترنح يمنة ويسرى وأطلق سيلا من البصاق، تساقطت حاشيته يجمعون بصاق سلطانهم بحرص شديد، فلما عطس سمع جوقة من العطس.

غضب منتصر من توقفه عن المطاردة، وتأخره عن اللحاق باللصوص، فرد على السلطان بعطس طويل مصحوب ببصاق ومخاط، جمعه في منديل ضخم، جعل السلطان ينظر إليه مذهولا، للطريقة التى حافظ بها المصري على مائه المبارك، ولما رأى الاستحسان على وجه السلطان، قدم له في اليوم التالى صندوقا يحوي دستة من مناديل دمور مزركشة، عندها حصل الصاغ على مراده، تراجعت خيالة السلطان النسائية، وتقدم قواته إلى سوق الرقيق في مشرع السفوف[28] بمدينة "الفاشر".

بعد خمسة عشر يوما شهدت مكراكا عودة المخطوفين، تحيط بهم قوات منتصر وقد علق رؤوس تجار الرقيق على أسنة الرماح.

منذ تلك الرحلة الدموية، والاستعراض الذي صاحبها، تطايرت قسوة الضابط المصري على طول الطريق الذي سلكه غرب النيل بدأ من دارفور وحتى خط الاستواء، استقبلته قبائل الدينكا، والنوير، والمكراكا استقبال الأبطال، وتطايرت أسطورته في بلاد النيام نيام وقبائل الأزاندى.

* * * *

صعدت الزغاريد من كوخ الملازم سر الختم الميرغنى، صبي وافر الصحة للونه رائحة الكاكاو، وإشراقة أمه التى تنتمي لقبائل الزغاوة العربية، أطلق عليه اسم جده "ريحان"، وجلس المشايخ يختمون القرآن الكريم، وفى الليلة التالية غنى الشيخ عبد المعز أبو المكارم على أنغام الدفوف والناي بردة البوصيري، فأجاد وامتع الحضور.

احتفل الجميع وقدموا هداياهم، في سهرة ذبح فيها خروفين، قدما على صوانى من الفتة والأرز، وأطباق ضمت أرانب وأزواج البط، أهدت فرانسوا

---

28) منطقة السفوف

صـورة للمولـود، وقـدم اليوزباشـي وفيتـا حسـان وكـازاتي النقـود، وعنـدما عـاد شمـروخ إلى كوخـه وجـد بطاقـة موجهـة لـه مـن فرانسـوا ومعهـا لوحـة غامضة.

عزيزي الملازم شمروخ

انظر إلى اللوحة واختر بين اسمين:

"المصير"، أو "روح الأبدية"

فرانسوا دي سابل

ملحوظة: هذه اللوحة رسمتها هدية لك

فـض اللوحـة ليشـاهد رؤيـا يصـعب إدراك كنههـا، أربعـة أعمـدة فرعونيـة مـن البازلـت، تجلـس علـى قمـة كـل منهـا وصـيفات أمـيرة مبـورو الأربـع، رسمـن علـى هيئـة الآلهـة الحـوريين، وقـد اسـتقر علـى رؤوسـهن حيـة وصـقر وبومـة وقـرد، تحمـل عيـونهن اسـتعلاء علـى الوجـود، بيـنهم كتلـة وحشـية مـن الألـوان، يسـتغرقه جسـد غـامض يجلـس علـى وركيـه بهـدوء حيـوان وحشـي، ممتلـئ بالشـبع في غابـة ممعنـة في الغمـوض، رأس مـدور حليـق، فـك نـاتئ إلى الأمـام، شـفاه غليظـة، وجـه قبـيح لفصـيلة القطـط الوحشية، لا تدرك المسافة بين إنسانيته وغرائز بدائية.

* * * *

العتبة الرابعة

مهد البداءة

محطة حواش



أسطورة خط الاستواء
القائمقام حواش منتصر

- 18 -

بـين ظـلال السـحر ووحشـة الـبرارى شـق الملازم علـى شمـروخ طريقـه سـيرا علـى الأقـدام، يـدفع بالعبيـد المحـررين أمامـه، تتوسـطهم أمـيرات عشـيرة المبـورو، باتجـاه المحطـة العسـكرية الـتي أقامهـا الصـاغ حـواش منتصـر علـي ضـفاف نهـر "ويلـي"[1]، والـتي انقطعـت أخبارهـا منـذ فصـل الربيـع، ولم يصـل منهـا سـوى اسـتغاثة، تقـول إن قبائـل الأبرامـوس أتبـاع "مامبا نجـا" ملـك مونبوتـو، يمارسـون أعمال عدائية خطيرة، ويستعدون للاستيلاء على المحطة.

غـاص فـى الطبيعـة البكـر، يتبـع الممـرات العشـبية الـتي مهـدتها قطعـان الأفيـال والخرتيـت، وقـد حولهـا المطـر إلى مزالـق موحلـة، تكشـف مـع كـل خطـوة عـن أنيابهـا الشرسـة، سـلم نفسـه إلى أفريقيـا، يشـهد ذاتـه تغـوص فـى عـالم الطبيعـة البكـر، بطـاح وأوديـة غمرتهـا الظلمـة، منـاقع ومسـتنقعات شاسـعة، بـرارى تنـاثرت فـى أرجائهـا أشـجار السـنط العملاقـة؛ جـذوع ضـاربة إلى الحمرة، أوراق خضراء نيرة، وعناقيد تحمل رائحة التين.

توقـف المطـر وأطلـت شمـس الصـباح تكشـف عـن السـهب السـاطع، تتمـوج علـى ظهـره ذوائـب العشـب، وقـد أخـذت جماعهـا الريـاح، تخطـر فيلـة عملاقـة وسـط مراعـى الكـلأ، تـروى عـن ملـوك أبـديين، وقطعـان غـزلان مغـرة[2]، ووعـول ترتفـع خطومهـا إلى الفضـاء تتشـمم الخطـر، وفـى القبـة الزرقـاء تحلـق أسراب المالك الحزين.

عبر المنـاقع فـى جـو عـدائي، تحـيط بـه أفـراس النهـر تتثـاءب فـى ارتخـاء آمـن، وزواحـف سـامة تنزلـق بـالهلاك، وتماسـيح عملاقـة فغـرت أفواههـا بانتظـار فريسـة شـاردة، تـنقض علـى الحمـالين والخطريـة، تغـوص بهـم فـى فوضـى

---

1) نهر ويلي: WELLE
2) المغرة : الطين الأحمر يُصبغ به

عارمة، يلوح التذمر على الحمّالين، وينظره الخطرية باستهانة، وعلى تبّة مرتفعة يشير عليه الدليل بالتوقف للمبيت.

فى صباح اليوم الثاني أخذ موقعه فى المقدمة، وبجواره القناصة، تقدم تحت ظل أسراب الكركي، وحيثما تقفز الغزلان فوق الغدائر، وتقف الخنازير البرية فى مواجهة السائرين بعناد، تطل عشائر الأسود بإباء، لا يتوقف ذهنه عن التفكير؛ المحفة التي تعتليها أميرات المبورو تحمل لبؤات وحشية تنظر حولها بكبرياء الملوك، وتهر بالخطر، تمد أعنقاها إلى الأمام، وعضلاتها القاتلة تتحرك أسفل جلودها مثل حية تنساب تحت سطح المياه.

..تبقى أسوأ كوابيسك، عدم موافقة أمين بك على ضم سرية البيادة السودانية التي تلعق مؤخرتها بكسل فى حامية "صيادين"، تداهمك الشكوك، تسأله إذا كان يريد إرسالك لحتفك، ينفجر الصاغ منتصر بالضحك أمام الصدمة التي ظهرت على وجه الحكمدار:

- لو كنت خايف من الدناقلة فأبشر، سيغتالونك غيلة، أو يتخلوا عنك ويهربوا، وينضموا لتجار العبيد، فرصة تتأمل مصيرك في مجاهل أفريقيا.

- "يا افندم أى أرض يرتفع عليها العلم المصري ، هي موقع خدمة للضابط المصري".

يتدخل الحكمدار: "طب ما أنت كويس أهو يا افندى، زعلان ليه؟".

تود لو تذكره أن قبائل الأبراموس ذبحوا الخطرية، تود لو تقول يا سعادة الحكمدار عندما تطلب مواجهة تمرد، فمن الواجب أن تمدني بأفضل عساكرك، أنت تضحى برجالك"، لكنك تفضل الصمت مكتفيا بالقول: " تحت أمرك يا افندم".

يضرب منتصر رقبة حذائه الجلدي اللامع بعصاه، ويرحل بعظمته، تاركا إياك فى صحبة أسوء مخاوفك أن تصير وحيدا فى مجاهل الاستوائية، يعيدك من أفكارك إلى ليل البرارى، عواء الضباع، فلا تلق بالا، لأن أهم ما يشغلك بلوغ محطة الصاغ حواش منتصر ببارود لم يصبه البلل، ومؤن جافة وطعام لقواتك حتى لا يقتلوك من الجوع.

* * * *

تحت سيول المطر تبلغ محطة "واندى"[3] عاصمة "مكراكا"؛ يلقاك على أسوارها بشير أفندي مساعد قومندان معلنا رفضه دخول الحمَّالين القرية، تضطر للتخييم بقواتك فى العراء، يخبرك إبراهيم جورجورى قومندان مكراكا أثناء تناوله القهوة، أنك غير مرحب بك، وأن أمهات "واندى" حبسن أطفالهن لحين رحيل حمَّاليك، من أكلة لحوم البشر، تطلب الانصراف، وتغادر فى الصباح الباكر.

فى اليوم التاسع وقفت القافلة على تخوم محطة "حقوة"، بعد عودته من لقاء قومندان المحطة، لمح الملازم الحمَّالين مجتمعين حول قدر ضخم وضعت فوق النار، حيوه بدماثة ودعاه كبيرهم بمودة إلى الطعام، تذكر أحاديث سهرات الصيدلاني عن سمعة قبائل المكراكا الطيبة مع الحكومة المصرية، لا تمرد ولا ثورات كتلك التي تنتشر في الشمال.

في الصباح علم أن الأهالي يتربصون بالقافلة، أسرع إلى قواته المرابطة في العراء، ونادى شاويش السرية مختار الجعلي، يسأله سبب تحرشه بالأهالي، أقسم الشاويش أن أحدا من الخطرية لم يغادر المخيم، انهال عليه ضربا بالقايش، والدليل يحاول الفصل بينهما، توارى الشاويش بين رجاله، وسط طوفان من الكراهية، ودون أن يتجاسر أحدهم على التدخل.

يستحيل

انفرد به الدليل، أخبره أن الأهالي فقدوا أطفالا، ضرب رأسه على تسرعه، ها أنت توفر الأسباب للعداء، كل شيء كان واضحا منذ لحظة دخولك المعسكر، والوليمة التي دُعيت إليها بأدب كانت على جثث أطفال حقوة.

خرج وسط المناقع يلوم نفسه".. بتعمل إيه فى بلاد متعرفش عنها حاجة، بتعمل إيه وأنت داخل بلاد النيام نيام، كيف تفقد أعصابك وأنت فى بيئة معادية من الطبيعة والبشر"، وعاد ثائرا، وطلب من البروجي أن يطلق نوبة الجمع، وقام على تفتيش خيم الجنود ومأوى الحمَّالين.

غفى منهكا، تهاجمه كوابيسه، يُضَاء باب الخيمة بضربات البرق، يكشف عن لبؤة شابة، بزغ فكيها بعقد من لؤلؤ، مكشرا بالهلاك، ونظرة تتوعدك في فيافي الصمت الجائر، زئير ينبع من الخطر الجاثم فى

---

3) واندى: Wandi. عاصمة أقاليم مكراكا Makraka ، الإقليم التاسع للمديرية الاستوائية.

المراعى، ينبض جسدها اللوحي برتم نافث بين البطن والجنبين، تنظرك بعيون تتواتر بين التوهج والانفعال، بين نشوة الشبع وزجر الجوع، ينسل من الباب المفتوح على العراء خيال يكشف عنه البرق، تنكره، تلقى به من عقلك المريض، تستيقظ كالملدوغ، حيث تجثم جوارك على الفراش لبؤة تحدق فيك فى سكون.

جن فى بلاد الأكـا

تعود الكوابيس تحمل عيونا تلمع فى الظلام، وأضواء نجوم تعكس جسدا صغيرا وعيون لوزية تتسلل إلى الخيمة، يبحث عن غدارته، يصوبها نحو شبح عار لا يستره شيء، ينظر إليه بعينين محملتين بالعناد والحذر الشديدين، يحملق كل منهما فى الآخر، وشمروخ يتساءل إذا كان الله يعاقبه على إنكاره وجود الجن، ها هو يرسل أحدهم، فمن أى صنف أنت يا سيدي؛ الغيلان أم العفاريت؟! لا يتجاوز طولك ساعدا، **أجعد** البشرة، يغطى وجهك شعر كستنائي نابت ضارب إلى صفرة، فم كبير ولحية طويلة تبلغ صرة بطنك الباجرة[4] ..تساءل عن اللغة التي يتسامر بها الجن مع البشر، وقال:

- "عاوز إيه؟ أتفضل أقعد".

استجاب الجنى لدعوته، رأى طعاما، خطفه وانكب يلتهمه، وعندما انتهى أشار إلى الغليون، قدمه له، لوح إلى قعر الغليون الفارغ، ابتسم لأول مرة، أخرج كيس تبغه، ملأه، أشعل قداحته، تراجع الجنى مذهولا، ودار حول القداحة، مدد قدماه وشرع يتنفس التبغ بمتعة.

ينادى الدليل، يخبره أن الجنى هو كبير أقزام الأكا[5] ، وصديق الساحر العظيم منتصر، وهو يريد أن يدله على ما يبحث عنه، يستعيد روايات لادو عن الصاغ، الذي أخضع أقزام الأكا لمسيرة خمسة عشر يوما فى الغابة، ها هو يجود بأسطورته.

---

4) الباجر من البطون : ما انتفخ منها.

5) قبائل الأكا: Akka، ويدعون بالباكو

فـى صـمت يـقطعــه هــدير اليـمــام وقرقرتــه انسـلا إلى الأحــراش، تفاديــا أكواخـا قليلــة، بـين أكمـات الـبردي كـشـف لــه عــن مخلــة تضــم أعضــاء بشـرية، تراجــع يقــيء مــا فــى جوفـه، والجنــى ينظـره بحـذر شـديد، ردد الجنــى كلمات فهم منها أنها تعنى، "الزعيم العظيم، منتصر" واختفى.

فــى الصــباح قــدم جــوالين مــن الـذرة لشـيخ محلــة "حقــوة" دِيَــة للقبيلــة، واعتــذارا عمــا حــدث، ثــم رحـل علــى عجـل، والشـمس لم تبــزغ بعـد، يأمـل ألا يلحق به محاربو "الجور" للانتقام.

* * * *

علـى حافـة نهـر "ويلـي" خـيم الحمَّـالون، وانـدفع العسـكر يـروون عطشـهم، اقشـعر جسـده وهـو يبصـر قـاع نهـر يرصـعه بيُـوض[6] لطيـور عملاقـة، إلى مـن ســتلجأ؟ ســيتخلى الدناقلــة عنــك قريبــا، ويلتحقــون بعصــابات الرقيـــق، سـيذبحونك وأنـت تغـط فـى نومـك، أو يـداهمونك بطلقـة فـى الظهـر، لتسـقط وحيدا فى الأحراش، وربما يسبقهم إليك أكلة لحوم البشر.

تأكــل الحـيرة روحـك، تتـذكر الأسـطورة الـتي تجـوب المديريـة عـن مقتـل الصــاغ منتصـر فـى مونبوتـو، وارتفــاع روحـه إلى السـماء، وأن الـذي بيـنهم لـيس بشـرا، وإنمـا روح لسـاحر عظـيم، هكـذا قـال جنـى الآكـا، وهـو مـا تحقـق؛ ألم يرسل كاهنه ليدلك على سرقة أطفال "حقوة".

تسـقط الشـمس وراء المطـر الكثيـف، تعـبر القافلـة الحـاجز الـذي يفصـل بـين حـوض نهـر النيـل، وحـوض نهـر الكونغـو، ترتفـع سـيقان الغـاب الغليظـة لأمتــار، تجـرحـك حــواف أوراقهــا الحــادة، تجـذبك ألــوان شــجر الخلــنج الأحمــر الشـائك الـذي يفـوق القصـب علـوًا، يتمــاوج بـين الـوردي الضـارب إلى الزرقـة، تسـتره طحالـب مزجزجـة بـألوان خضـراء وبرتقاليـة تزهـو بـالأرجوان، والشـمس شظايا من بلورات تتألق فى نهاية الأفق

.. يا الله.. من أين يأتي هذا الجمال؟!

---

6) بيُوض : جمع بَيْض وبيض : معجم اللغة العربية المعاصر، المعجم: الرائد

تطـل الغابـات الاسـتوائية محفوفـة بـالهلاك، يعـترض شـاويش السـرية علـى عبـور الأدغـال لـيلا، يفكـر المـلازم للحظـات، يمكنـك بلـوغ غابـة الأكا في منتصف الليل، لتدخل محطة منتصر فى الصباح الباكر.

تحمـل لـك نظـرات الشـاويش تهديـدا بالويـل والثبـور، هـذه الليلـة ستكون ضـحيتهم المشـتهاة، لمـاذا تتكبـد المخـاطرة وحـدك، لـتكن الأدغـال خطرا يلهى الجميع.

نفـخ البروجـي نوبـة اسـتدعاء، قفـز الخطريـة، وقـد أخـذتهم المباغتـة، اصـطفوا أمامـه فـى ثلاثـة طـوابير متلاحمـة، وقـف فـى بنطالـه تحت وابـل المطـر عـارى الصـدر، يتـدلى مسدسـه وسـيف البيـادة مـن خصـره، أزاح خصـلات شـعره، وأعطـى أوامـره بالتقـدم بـالخطوة السـريعة، وعـدم التوقـف حتـى بلـوغ محطـة الصـاغ حـواش منتصـر، وأضـاف بتهديـد؛ أنـه لـن يلقـى بـالا لأي عسكري أو زنجى يسقط فى الأدغال.

مثـل سـهم، اقتحمـت القافلـة غابـات مـاء السـماء الأزلى وعواصـفه الرعديـة، يتقـدمها الضـابط الشـاب، تتـوارى الممـرات العشـبية الموحلـة، وتتلاشـى أثـار الإنسـان؛ و يحـل تنـوع مُـذهل مـن أشـجار تنتصـب كمسـلات مصـرية سـامقة، ونباتـات هـواء متسـلقة، تبـزغ السـحلبيات والسرخسـيات الملونـة فـى أراضـي موحشـة، وطقـس حـار رطـب، تتلاحـق أشـجار الأبنـوس، والكـولا، والمطـاط، والمـاهوجني، والـورد الإفريقـي الأحمـر المـبرقش بخطـوط داكنـة، وكلمـا تقـدم ازدادت كثافـة أوراق الشـجر العريضـة حـدًا لا يعـود يسـمح بنفـاذ أشـعة الشمس، تسود الظلمة وتحل كآبة العتمة.

علـى نـور هـذا السـفر الرمـادي تنجلـي الغابـة البكـر عـن فيوئهـا وأشـباح الأسـلاف، تتعلـق جـذور الـدَوح بأسـلافها المـوتى، وبـين الظـلال المعتمـة تسـعى علـى دوبالهـا[7] الإسـفنجي حيوانـات البريـة، ربـابيح[8] وشمبـانزي وغـوريلا، خنـازير بريـة تجـرى متئـدة خافضـة الـرأس بـين الخـوف والشـجاعة، وعـول وأرانـب وثابـة تتربـص بهـا هـررة وحشـية، ونمـور وضـباع ضـارية، تهـدر طيـور

---

7) دوبـال: تربـة الغابـات الاسـتوائية المطيرة والـتي تتكـون عـبر مئـات السـنين مـن طبقـات رسـوبية إسـفنجية، وتكون مزيج من الأوراق والبذور والثمار الرطبة

8) الربابيح: جمع الرباح وهو الفرد الذكر، وهو النسناس

الثمَـرَة بألوانهـا الضـاربة إلى خضـرة، تصـعد إلى هامـات الأشـجار بحثـا عـن العسل الإلهي.

.. يا ألله ما أعظم شأنك وما أعظم خلقك!!

تـدور حـول نفسـك، تصـعد فـوق ذؤابـات العشـب الشـائك، تسـبح وسـط طلقـات المدفعيـة، لتطـل عليـك معركـة كفـر الـدوار[9]، يحـيط بـك دخـان البـارود، تطـارد مشـرعا سـيفك الكتيبـة الثانيـة "لـدوق أوف كورنـول"، تتبعثـر الكتيبـة البريطانيـة الثالثـة تحـت وطـأة القصـف المـدفعي، وهجـوم الخيالـة المصـرية السـاحق، وتنسـحب علـى طريـق ترعـة المحموديـة، والخيالـة المصـرية تحصـد أعناقهـا، تشـهد الطـابور الأيمـن لجـيش الإمبراطوريـة يركـب القطـار تحـت سـتار سـحاب الـدخان الـذي غطـى سـاحة المعركـة، منسـحبا إلى موقع الرمل لتتوارى فى الظلام.

.. آه يـا علـى يـا شمـروخ ..فـى معركـة كفـر الـدوار كنـت تطـارد أعـدائك.. الآن أنـت مطـارد مـن قواتـك، وقـد جعلـت مـن نفسـك فريسـة، تعـدو علـى أرض نديـة مدبولـة ببقايـا نباتـات وحيوانـات ترسـبت عـبر مئـات القـرون الغـابرة، يشـم رائحـة جسـدك الحمَـالون مـن قبائـل المكراكـا، تشـعر بمنجـل المـوت يقـترب مـن وريـدك، وأنـت تلمـح فـى عـيني شـاويش الخطريـة مختـار الجعلي، النية المبيتة لاغتيالك.

. هـاجس يترعـرع فـى عقلـك مثـل جنيـة ليـل. اقتلـه، اقتـل رأس الحيـة تبقـى القـوات فـى حوزتـك، أيهـا السـاحر الكـبير، هـل ترمـى إلىَ بأفكـارك، أم هـي الهضـبة الاسـتوائية حيـث يسـتوي كـل شـيء؛ الخـير والشـر، الحيـاة والمـوت، البشـر وكائنـات الله الحيـة، المطـر، والأنهـار، الهائجـة، الـبرارى، والأدغال القاتلـة، ليبقـى أصـل الوجـود وجـوهره، تنمـو عليـه الحيـاة والمـوت؛ مـن يقتل من؟ من يحصل على عمر أطول فى الفردوس الإلهي أو فى جحيمه.

تقفـز متسـلقا أغصـان شـجرة الأبنـوس، يعـبر شـاويش الخطريـة أسـفلك، مصـوبا بندقيتـه إلى الأمـام بحثـا عنـك، تهـبط مـن أعلـي الغابـة مطيحـا برأسـه،

---

9) معركـة كفـر الـدوار: بعـد احـتلال مدينـة الإسـكندرية، توجهـت القـوات البريطانيـة بـرًا بقيـادة جنـرال أليسـون إلى مدينـة كفـر الـدوار والبيضـا وخورشـيد. فواجهـت مقاومـة عنيفـة مـن القـوات المصـرية لمـدة شـهرين علـى المحـور الرئيسـي بالجبهـة الشـمالية الغربيـة لـدلتا النيـل. تعاونهـا طـوابي مدفعيـة السـواحل، واسـتقر معظـم الجـيش بقيـادة طلبـة عصـمت في كفـر الـدوار ومعـه مدفعيـة الميـدان، قاتـل العربـان علـى خيـولهم، وبعـد قتـال عنيـف خسـرت بريطانيـا المعركـة ممـا أجـبر الجنـرال أليسـون علـي الانسـحاب للإسـكندرية لتعود قواته للأسطول، والتوجه إلى الجبة الشرقية لاقتحام البلاد من قناة السويس.

تـدحرج بـين قـدميك، وتنطلـق ثانيـة دون توقـف حتـى حـواف غابـات المطـاط المرصـعة بأشـجار الكـولا العملاقـة، وقـد خضـبت وجهـك الـدماء، لا تجـد مـن العسـكر سـوى طاعـة عميـاء، وطـوال طريقـك يـنفض الزنـوج المحـررون عـن القافلة عائدين إلى قراهم المتناثرة فى ربوع مونبوتو.

*   *   *   *



حوض نهر الكونغو

محطة الصاغ حواش منتصر على نهر ويلي {Uele}

- 19 -

دخلت القوة محطة حواش منتصر العسكرية، فوجدوها مهجورة خاوية على عروشها، غادر العبيد المحررون عائدين إلى قراهم، وشونت المؤن والسلاح فى المخازن، فى طابور المساء أعلن أن الغد هو يوم إعادة النظام للمحطة، وتأهيلها للحياة.

استيقظ فى صباح اليوم التالي على قطرات المطر تطرق زجاج النافذة، متى يطلق البروجي نوبة الصحيان. قام ينظر من النافذة، رأى ساحة المعسكر مرتعا للسعادين والخنازير البرية، ولا أثر لأحد، ارتدى زيه العسكري وسار يتعثر فى الأرانب والسحالي، ليتبين جليا أن نبوءة الصاغ لم تنتظر طويلا.

فتش أكواخ الإيواء والمخازن والسلاحليك، جميعها خاوية، حملوا ما تمكنوا من حمله، وتسللوا هاربين، وقف فى منتصف ساحة الثكنة وحيدا وسط السعادين والرباحين، تنظر إليه طيور الكركي بتجاهل وهو يدور حول نفسه ساخطا، يصرخ ولا مجيب.

- يا ولاد الكلاب ... يا حواش يا منتصر ... لما أنت عارف سبتنى ليه؟

حبس نفسه داخل الثكنة الواقعة على خط طول {27^0}، يحاول التأقلم مع أوضاعه الجديدة، بزغت الشمس فى الأرجاء، سحرته، ودفعته إلى تفحص عالم جديد عليه أن يتعايش معه.

أخذته قدماه صوب البوابة الخارجية، دار بناظريه يستجلى موقعه، على امتداد البسيطة كان نهر "ويلي" يجرى فى دورة واسعة فى رحاب الغابات الاستوائية المطيرة، بأشجارها العملاقة الفائقة الجمال، ليلتقي فى

الغـرب بنهـر "أوبـانغي"[10]، قبـل أن يعـود نحـو الجنـوب، ويصـب فـى نهـر "لولابا"[11] العظيم.

وقـف مبهـورا يسـأل نفسـه، والآن مـاذا عليـك أن تفعـل وقـد تحولـت المحطـة الـتي أقامهـا الصـاغ تتويجـا لأسـطورته، مـأوى للقـردة والقـوارض، يعيثـون فيهـا فسادا بأريحية أصحاب الدار.

جلـس القرفصـاء، ورأسـه بـين يديـه، يبحـث عـن صـفاء ذهنـه، انحنـى علـى حافة النهـر يرتـوى مـاء زلالا، رفـع ناظريـه لتسـرى الرعـدة فـى أوصـاله، وهـو يـرى لبـؤة صـغيرة تخـرج مـن الأحـراش، عـبرت الجنـادل، وهـي تتطلـع إلى الفضـاء بكبريـاء، اخـتلط كـل شـيء فجـأة، بـدت للحظـة تشـبه الأمـيرة المبوريـة الـتي رحلـت مـع وصـيفاتها إلى قريتهـا؛ رأس حليـق بـلا شـعر، وجـه صـلب يحمـل فـك ناتئ، تابعهـا تسـير علـى شـفير النهـر المقابـل، تنظـر إليـه قبـل أن تقفـز مختفيـة فى قلب الغابة. لتنجلي أولى أسئلته.

يجب وضـع حـدا فاصـلا لمـأواك؛ أن تسـلك سـلوك رجـل عسـكري يحـدد أولوياتـه؛ إنقـاذ مـا يمكـن إنقـاذه مـن المـؤن، تحصـين موقعـك، الـتخلص مـن الفوضى التي خلفها الخطرية، والبحث عن السلاح.

صـنع مـن البـوص والعشـب خيـال مآتـه، وألبسـه بدلـة عسـكرية، وطربوشـا، تنصـبه في منتصـف سـاحة المحطـة، يـثير حـيرة الربـاحين، تصـعد أشـجار الغابـة هاربـة، تتـوارى بـين أغصـانها، تراقبـك، تتـابع تحركاتـك وأنـت تزرع فى أرجاء الثكنـة عـددا آخـر مـن نفسـك، تغلـق بـاب الحصـن، تشـون المـؤن القليلـة الـتي وجـدتها؛ جـوالات قمـح وذرة وبصـل وأرز، كانـت نهـب الخنـازير والقوارض.

حمـل الخطريـة معهـم السـلاح والـذخيرة، تعثـر علـى بطـاطين، وصـناديق صـابون، وصـفائح مسـلي، وبـن، وأقمـاع سـكر، وأكيـاس تبـغ، وسـبرتو، تعيـد إليـك الطمأنينـة، ربمـا لم ينتبهـوا لوجودهـا، وربمـا أعمـاهم الله عنهـا كـي لا تمـوت جوعـا، تغلـق النوافـذ وأبـواب المخـازن بإحكـام، وتعـود إلى حجـرة نومـك حـاملا أغطيـة وملابـس وصـفائح ومصـابيح جـاز، ثـم تخـرج

---

10) أوبانغى: Ubangi
11) لولابا: الاسم القديم لنهر الكونغو

تغتسل فى نهر "ويلي"، تسبح فى المياه العذبة، ترقص حولك أسراب البلطي والقرموط، وكأنك تطفو فى نهر من الجنة.

مثل حلم يتكرر، تعبرك لبؤة صغيرة ترتكز بمقعدتها على جذع سابح فوق النهر، يتطلع رأسها الوحشي إلى الفراغ بشموخ الكواسر، يقبض عليك شعور طاغي بتعقبها إلى حيث تغيب، ماذا لو كانت جنية من أرواح الغابة، تناديك إلى عرينها الخفي، أو لبؤة ضارية تحولت بفعل العشق الوحشي إلى حورية مسحورة، أو صبية من بنات المبورو.

تناول إفطاره على شرفة المحطة الخارجية، رشف قدح القهوة، تأمل أوضاعه وهو يتأرجح على مقعد الصاغ حواش منتصر الهزاز المصنوع من خشب الورد الأحمر، شعر بهم يرقبونه عن كثب بصبر وأناة من الأشجار القريبة، منتظرين رحيل هذا الزائر الغريب الذي احتل مساكنهم ومرتع مرحهم، يصوب سهامه على خيال المآته، وهو يتمنى داخل سريرته أن يجد من يسأله عن حجم الحقد الذي يكنه إلى تلك الخيالات الواقفة فى أرجاء المحطة، الأول للخديوي توفيق، والثاني لعرابي باشا، والثالث لأمين بك

يسمع القرود تضحك كلما أصاب هدفه، يقوم أحدهم برشق أحدها بثمار الجوز، ينبهه بأنه ليس وحده فى الجوار، وأن لديه رفقة خطرة، تسقط الشمس خلف هامات الأشجار، ويصعد قمر يضئ سماء صافية، يحدق به طويلا، مرة ثالثة، مثل حلم يتكرر، تعبر الغابة المعتمة شبح صبية يتبعها حيوان ضارى كظلها، تنظر نحوه بصمت، ثم تختفى كطيف يصنعه خيال معتل، أسرع عائدا إلى الثكنة يحتمى داخل أسوارها، ألقى بجسده على الفراش، وغط فى نوم عميق، وعندما استيقظ كان الظلام مخيما فى أرجاء الغرفة، سمع أصواتا غريبة فى الردهات الخارجية، لا يستطيع أن يقيم جسده، أو يفتح عينيه، وقد بدا كل شيء مثل كابوس يأخذه إلى قاع بلا قرار.

فى فجر اليوم السابع استيقظ والتعب يغمره، ثمة رفقة في المكان، يخترق العتمة، لمح شبحا يربض فى مؤخرة الفراش، قفز مفزوعا، كشف ضوء الصباح عن رباح يجلس بسكون معتمرا طربوشا، أخذ نفسا عميقا يستعيد جماع ذاته، استجمع جرأته وهشه، بادله الرباح هشا بهش، وصياحا بصياح، ارتدى ملابسه وعيناه لا ترتفعان عن الجاثم أمامه يتابعه

بشغف، ويقفز من حوله مبتهجا، في الخارج وقف مبهوتا، ليرى جمعا من القردة يقف طابورا في ساحة المعسكر، تتريض بينهم خمس لبؤات، تتوقفن عندما يلمحنك، و يجلسن حول سارية العلم في سكون.

.. "يا حظك يا على شمروخ.. من سلاح البيادة إلى سلاح القرود".

حول بقعة مخضوضره بالمياه تجمعت الحيوانات، تروى عطشها، حلق طائر بلشون خمرى قادما من منبع الشمس، وحام طائر أبو منجل فوق أرتال السمك، ثمة عقاب يحلق في السماء، يطلق صفيره محذرا، وعيناه الثاقبتان تبحث عن فريسة للقنص، يطير عصفور الخضاري بلونه الأصفر الضارب إلى الخضرة فوق غدائر الغابة مذعورا، كل شيء يحيا حولك، وسط طبيعة تتجاهلك، كل شيء لوحة من الجنة، كل شيء في نسق متناغم يتكافل من أجل البقاء، والرغبة في الحياة.

* * * *

قواعد الاشتباك

بالقرب من المروى ثمة قطعة أرض صالحة للزراعة، ونهر مياهه سلسبيل، سبح في ضوء القمر عاريا كالطبيعة مستسلما إلى الصفاء الأسطوري، فيما ظنه روح السلام الناعم التي تسكن البرارى، سمع خوارا بحث عن مصدره، ليشهد خرتيت يلمس بقدميه مياه النهر يروى ظمأه، غير آبه بذلك الأسد الذي تمدد في الجوار يتثاءب بملل، وهو ينظر نحو الأفق لا يعير العالم من حوله التفاتا.

من الأدغال تظهر لبؤة، تقترب من الكركدن بتمهل، دارا كل منهما يتفحص الآخر، وجه من قرنه الصلب ضربة قاسية، تفادتها بمهارة وليونة، انشق المكان عن أعداد متزايدة من الهررة الوحشية، يداهمك الذعر، يتسع حجم المناوشات حول الخرتيت الوحيد.

تناور الهررة الوحشية بخسة، تنشب براثنها وأنيابها، تشق في جلده الثخين مجاري للدماء، تتحول المناورات التي استمرت طيلة الليل إلى قتل، و يحجب ظهر الخرتيت أعداد متنامية من اللبؤات.

يؤلمك ممارسة قواعد الاشتباك بقانون "الكثرة تغلب الشجاعة"، وافتقاد ملك الغابة النبل، وأن الخرتيت المغطى بثقل الهررة الوحشية، ينزف بغزارة من جروح أوغرتها مخالب اللبؤات وأنيابها، يعاني الوهن، وتنهار قواه.

وجه أسد ثقيل الحجم إليه دفعات قوية، قلبته على جنبه، وسقط على الأرض، تعقص اللبؤة الأولى عنقه، وتجتمع البقية عليه بوحشية، بينما تمدد الذكور فى الجوار ينتظرون فى تكاسل الإجهاز عليه.

مشهد يدفعك إلى كهف الرهبة، يعيد لوعيك ضرورة بناء عالم آمن، ويبلور أفكارك، فى عالم الضواري لن يبقى عليك سوى انضباطك العسكري، وتنفيذ المهام التي أوكلها إليك الجيش.

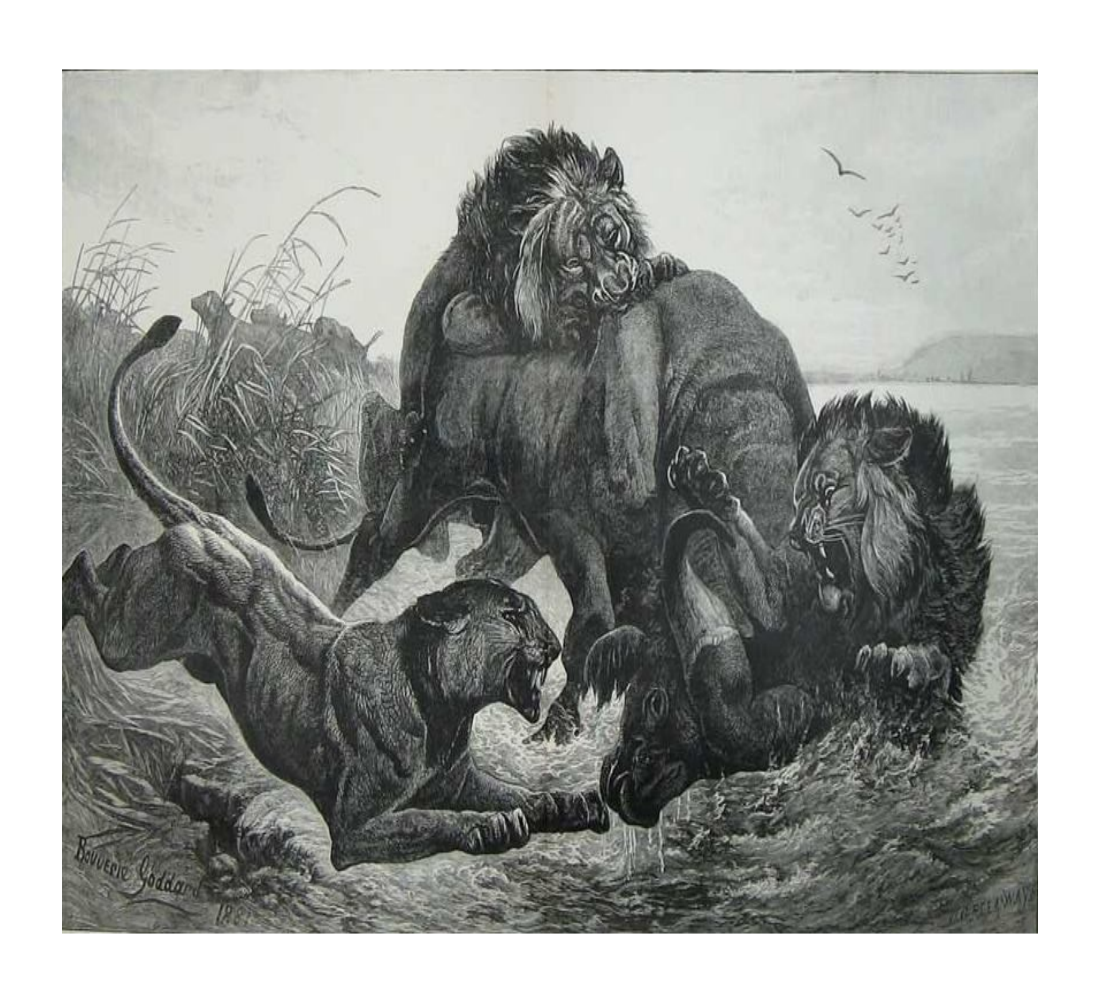
تبدأ يومك بارتداء زيك العسكري، تستبدل العلم القديم، الذي تحول إلى مزق بآخر جديد، ترفعه أعلى سارية الحصن، تحي العلم بانضباط تهتف بأعلى صوتك، تناوبك القردة ضحكاتها.

تأخذ بلطتك، ترمم أسوار الحامية، يتابعك جيرانك الرباحين، وأنت تقطع فروع الأشجار التي تعبر بهم أسوار المحطة إلى عالمك، يعوون عليك ويصرخون، تنظرهم بتهديد ووعيد. تشهد عددا من النسور تحلق فى السماء فى حلقات متتابعة.

أفشت مذبحة الأمس أن العالم خلق ليقاتل بعضه بعضا، وعليك أن تبحث عن شيء يساعدك على البقاء، تجد عددا من فخاخ الصيد، وجوالات البذور التي أعطاها لك أمين بك لزراعتها، وهو يذكرك بمهمتك؛ التوسع نحو منابع النيل، نشر العمران والحضارة وأسباب التمدين، استتباب الأمن، مقاومة تجارة الرقيق، الاكتفاء الذاتي من الإنتاج الزراعي، وعدم تلبية احتياجات الجيش من المؤن باغتصاب محاصيل الأهالي، واتباع الطريق الذي بدأه الصاغ حواش منتصر فى نشر الزراعة والخضراوات والفواكه فى أرجاء المديرية الاستوائية.

تمام سعادة الحكمدار.. أوامرك مطاعة.. تمام حضرة الصاغ حواش منتصر.. سنسير على خطاك الميمونة.

سلطان


Bouverie Goddard

غـادر الثكنـة إلى الأرض الـتي رآهـا بـالأمس، يراقبـه عـدد مـن الريـاحين، صـلى ركعـتين لله، يـدعوه أن يعينـه فـى مهمتـه المسـتحيلة، حفـر أخـدودا وأشـعل النـار فـى العشـب، علـى امتـداد الأفـق السـماوي راقبتـه الطبيعـة؛ أنشـد دود الأرض وضـفادعها وبنـات وردان[12] أغنيـاتهم، تـاركين الغضـب للنمـل الأبـيض الـتي دهـس أوكارهـا، والزنـابير وجماعـات النحـل الـتي أطـاح بأعشاشها، والتي سوف تلهج بحمده، وهي ترشف زهر زراعته.

بعزيمـة ضـابط خانـه رجالـه أمضـى يومـه يمـد خطوطهـا ويقسـمها أحواضـا، ويعـزق طينهـا ويقلبـه، وعنـدما انتهـى مـن عملـه، أرسـلت السـماء ماءهـا، سـار تحـت المطـر حـاملا مخـلاة معبـأة ببـذور الـذرة البيضـاء، بـذرها علـى امتـداد الحقـل، تاركـا مسـاحة لزراعـة الخضـر، مـن بعيـد وقفـت جماعـات الـزراف والوعـول والظبـاء ترقبـه باهتمـام، وهـو يتسـاءل إذا مـا كـان فـى حاجـة إلى سياج لحماية الحقل.

أيـام أمضـاها يحـيط بـه الريـاحين والخنـازير البريـة وأبنـاء آوى، وهـو غارقـا فـى وحدتـه، مسـحورا بعـالم الغابـات الاسـتوائية، وقـد أخذتـه شمـس تفشـى أسـرار الكـون، أى هبـة أعطاهـا لـك الـرب، تمضـي كـل صـباح أسـير طبيعـة آسـرة، تسـتمع إلى مئـات مـن هـزاز[13] الشـرق، تسـري ألحانهـا فـى الفضـاء كقيثـارة عاشـق، يبـادل حزنـه الـرزين سـجع القُمـر[14] وريشـه الملـون بـين الـوردي والرمـادي، وسـط صـفير الـزرزار المختلـف الألـوان، تسـمع تغريـد الـذعرة[15] تحـرك ذنبهـا فـى انسـجام صـوتي ولـونى بـاهر، تتـدفق الأصـوات والألوان داخل الشفق الكوني، تحملك وحيدا نحو الله.

* * * *

طقوس التلامس

بعـد يـوم شـاق تمـدد يرجـو النـوم، سـرت الرعـدة فـى جسده، وهـو يسـتيقظ علـى عـيني شـبح تبرقـان فـى الظـلام، نظـر نحـوه، واسـتقام يسـتند بظهـره إلى الخلـف، علـى البـاب لبـؤة

12) بنات وردان: الصرصور.
13) الهزار: البلبل والعندليب
14) القمر: جمع القمرى وهو ضرب من الحمام حسن الصوت
15) الذعرة: طائر صغير يكثر تحريك ذنبه ويتلفت كأنه مذعور

يافعة تتريض، ترفع رأسها تتشمم الفضاء، قام من فراشه بهدوء وروية منسحبا إلى خزانته، أوقد مشعلا أضاء الغرفة بألسنة لهب خافت، هرت بصوت أشاع الرعب، صب كأسا من الروم وعيناه تزوغان، ليجد صحبتها الضارية يتمددن بكسل في الزوايا، تابعها تصعد فراشه، تتمدد باسترخاء، وقد عزمت على البقاء.

فرانسوا ولوحتها تكشف تكوينا من الآلهة الحورسية الأربعة، يقفون بخيلاء ينظرون الجهات الأربع، تتوسطهم لبؤة تربض في المنتصف، حوار دار في عقله المنهك، بين الدراما التي مثلت على حافة النهر، والدراما التي ستدور على ساحة الفراش، تدق مطرقة الرأس.

ينازعه الخروج إلى العراء بحثا عن سلام، ومأوى يضم جسده المتعب، أو الاستسلام لمغامرة تلقي إلى التهلكة، استسلم لغريزته، تقوده إلى المجهول. تسلل عائدا نحو الفراش، واقتطع حيزا صغيرا منه، رأى وجهها يتثاءب بالملل، لا شيء يحدث، لا حوار، لا إيماءات، لا عراك، لا جروح، لا خدوش، لا أثار لأنياب، ولا دوائر حمراء، فقط نوم عميق، تغادر قبيل السحر تتبعها وليفاتها، شاهدهن يختفين، وهن يقفزن بمرح بين الأحراش.

اكتفى من يومه ما وقع بليله، سار نحو موقعة الأمس، وقد التهم الكواسر لحم الكركدن، وتركوا هيكل عظمي وقرن وجلد سميك، تجمع بقاياه وتعود به إلى الحامية، تنشره في ساحة المعسكر تحت الشمس.

يأتي الليل وقد ألفن المبيت في فراشك، وحدها تمتلك حق التمدد عليه بتبطل، تتجول

طقوس

ت: تذوق

تذوق الجسد.. الطريق المذهل لاكتشاف جسد أنثى من الضواري..

الباقيات فى أرجاء المحطة، يتناوشن بمرح، ويعدن يتمددن بارتخاء على جلد الكركدن، فى المرة التي قفزت إحداهن بغتة نحوك، زأرت فى وجهها، فتراجعت مخلفة أثار مخالبها على صفحة صدرك تنز بالدماء، ترتجف برائحة الدماء، يداهمك الرعب وأنت تفكر إذا ما كانت هذه هي البداية لحفلة التهام لحمك البشرى.

تتشمم جسدك وتلعق دماءك، تهر وهي تقاوم رغبتها العارمة فى النهش، لكنها ترحل وتأخذهن معها، تمر ليالى قبل أن يعدن ثانية، تتابعهن كل صباح يغادرن باب حجرة نومك، خمس لبؤات فى زمن الأيض، يلعبن فى الأحراش لاهيات عن الخطر.

على فراش الليل يعبرك شعور فاتر بألق الأبنوس يشع من جسدها، حليقة الرأس وحشية التكوين، وجه فهدى مدور، فك ناتئ لفصائل الضواري من آكلات اللحوم، تدهشك الرشاقة التي تحلين بها، ليونة قدت من حيوية شرسة، تغوص فى نوم يقودك إلى كوابيس غامضة.

تعييك الحيل للتخلص من الرباحين، تخرج إلى ساحة الحصن، وقد عزمت أن تعيد إصلاح أسواره وأبوابه للمرة الرابعة، ليكون عصيا عليهم، تفشل، وفى النهاية تستسلم إلى القبول بوجودهم، وبدلا من الصياح والتشويح الغاضب، تشرع في بناء صلات للتفاهم.

تضع سباطة موز أمام بوابة المحطة، وتشير إليهم أن يهبطوا ليتسلموا هديتهم، توقفوا عن الصياح، وهبط كبير الرباحين مقتربا من الموز، ولما أمن الخداع، نظر لقومه ورفعها بين يديه، عمَّ الصخب الغابة، وهبطوا يجتمعون حول الموز، يقشرونه ويأكلونه وينظرون نحوك برضا.

تبذل جهدك للتفاهم، إشارات وإيماءات، وصراخ بعدم تجاوز فواصل أرضك المستصلحة، خيالات مآته، وأعلام حمراء، وعلامات تحذير على مدخل حجرتك، هدية تقدمها كل صباح، يتوقفون عن الغوط فى حقلك، وتقليع نباتاتك التي نمَت لتوها، تخفت مشاكلك، وتصل إلى تفاهم مع زعيم الرباحين، يتوقف عن مضايقتك وتخريب أشيائك.

يصبح وزعيم الرباحين صديقين، تتحول العلاقة العشوائية إلى تفاهم بين الإنسان وأصدقائه، ودرس يعيد للذاكرة تاريخ الحياة الاجتماعية؛

إذا دخلت صراعا مع قطيع فاقتل قائده، وإذا أردت أن تجاور قبيلة فاعقد صلحا مع زعيمها، أو تزوج إناثها.

تزرع ما طلبته المديرية، تزرع الخضر، وعلى حدود الحقل أشجار الليمون والبرتقال، وتجلس أخر الليل تكتب تقرير عنه إلى الحكمدار.

تفكر وأنت فى الطريق إلى مهجعك كيف تجد حلا لمشكلة البريد مع إدارة العاصمة "لادو". لو دعوت رئيس الرباحين للعمل لديك، ماذا لو أن الوحدة أورثتك الجنون، وأنت ترقد فى صحبة ليل ضارية، تتمنى نوما تشوبه الطمأنينة، أضواء تطل من نافذة حجرتك، تجدهن يمرحن على جلد الكركدن، تفوح من أجسادهن رائحة النرجس البري، ومروج السرخس اليانعة الخضرة، وعبق أقحوان المراعي، يتمددن باسترخاء، تتلوى أجسادهن وتطوى بتدفق وسلاسة وخطر الحيات، عاكفات على تدليك أميرتهن بخليط من لبن الحمر الوحشية ودهان العنبر.

يذهبن فى نومهن عرايا، عرى مصقول بزيوت زهور الأزاليا، يتعود رؤيته كلما توغل فى قلب القارة السوداء، تستسلم عينيه إلى ما حاول نبذه؛ الجنة المستديرة، تفاحة الغواية، يا الله.. هيت لك بالجمال والغي، لا يبقى سوى الصداع، وكلما اقترب الليل تناثرت مائدة حافلة بالشموع، بخور زهور الأوركيد والبتونيا، زنبق الماء الخمري، ضربات الطبول الخافتة، ما لم يدركه أن أميرات المبورو شرعن يطلقن سحرهن ترحيبا بعودته.

طقوس الترويض

القتل والجنس، وجهان للخطر، هذه الليلة يدعوها كي تشاطره فراش الوحدة، تنظره بارتياب، مد ساعده على امتداد الفراش، ليس ثمة كلام، ليس ثمة ما يشير لعالم من المودة أو الرفقة أو الجنون، قفزت فوق الفراش، لا تحمل عيناها الضيقتان مواثيق أو عهودا، لا سلام بين الضواري والبشر، لا وعود بين بالهجوع على فراش الرغبة، تمددت جواره وقد غشاه النعاس، يدير عنها وجهه إلى الناحية الأخرى، تاركا يده تتسلل إلى وجهها القبيح، يلمسه، يمسده بدءا من الجبين إلى منطقة الخطر، تشم لحمه بمنخاريها، زمن مضى قبل أن تنقض علي كفه تنهشه، صرخة وجع، تدفعها لتحرر سراح كفه

بعد أن كادت تقضمه.. يستل يده حتى يخف الألم، تتصاعد الرغبة داخله بحثا عن طقوس الألم والرغبة؟

بعد برهة أعاد الكرة، تعاود غرز أنيابها بقسوة، يمضي الوقت يقاوم الوجع، تنطلق صرخة، تفتح فكها تاركة أثار أنياب دامية، تتكرر اللعبة، حتى تصل إلى تلك المرة التي يعطيها كفه وكلاهما ينظر إلى الأخر، تضيق عينا اللبؤة، تحدقان فيه، تغوصان بحثا عما تتوقعه فريستها. يبزغ صفين من لؤلؤ، يشهد فى عينيها تواتر الصراع الدائر بين الغريزة والعقل، لحن الغواية بقضم اللحم، أو الزجر أو النهر عن القتل.

تعجز عن كبح غريزتها، أمام رائحة اللحم الطازج، تنقض تقضم حد الكف، ينغرز صفين من الأنياب الحادة، تلمح عمق الألم الذي يفيض منه، تشربه فى رعشات دمه المتدفقة عبر شفاها المذمومة، عاج الأنياب، لحم اللثة الوردى، لسانها الحرشوفي.

يمضي ليل القنص؛ لدغات، لسعات، تنقض بشكل خاطف على أنحاء جسده، يتجول فى فضاء الحجرة، تلتقي عيناهما، يعود مستسلما للنعاس وكوابيسه تتحول لقضمات أنياب تنغرز فى العنق، ما بين الكتفين، صفحة الصدر المتسع كسهب من البرارى تعدو فوقه الضواري، وهو لا يعرف إذا كان يود أن يعلن لنفسه أن أحداث الليل التي جمعته بأكالات اللحوم وهم أم حقيقة.

تتحول ليالي المهارشة، من الرغبة فى نهش خالص إلى انتظار ألعابه، لبؤة تطل من مربضها الساكن جواره، تتشمم، تلامس لحمه بصفى اللؤلؤ، لحظات ثم تنقض تغرز أنيابها دون رحمة، تطول لحظات العض، لحد النهش والتمزق، تخرج صيحة الوجع، يدعوها كي تحرر لحمه، وهي عاجزة عن الاستجابة، زمن طويل يمضي قبل أن تستسلم وهي نافرة بالغضب.

الكود

أ: أسنان

حادة قاطعة لامعة تشع كاللؤلؤ

من عينيها يبرق الحنق، تود أن تعلن أن هذه الألعاب تدليس، يتحول التبرم إلى شفقة، ومع كل مرة تشعر بألمه، سوف تترك كفه مرغمة،

يتحـول الإرغـام إلى جـزع، تلتقـي عيناهمـا، تعبرهمـا أمـواج مـن لـذة التنـاول، تتدفق مشاعر التوحد المشترك، تتشابك طقوس الترويض بطقوس التذوق.

فـإذا استسـلمت إلى النعـاس، تسـتيقظ وقـد غرسـت أنيابهـا علـى نحـو مفـاجئ، في عـرق الـوَدَج[16] الـذي تهـواه الضـواري، لمـص الـدماء وقتـل الفـرائس، تطبـق فكيهـا؛ تصبر للحـد الأقصـى، تتجـاوز حـدود الألم، تقاتـل كينونتهـا كي تتخلى عن غريزة اقترنت دوما بلذة الشبع، وشهوة الجنس الخالص.

تطـل عليـه وقـد سـيطر علـى وجههـا الارتبـاك، يمـد يـده يمسـك رأسـها الحليـق، تقاومـه يجذبـه بـبطء ليتوسـد صـفحة صـدره، تـرفض، يضـغط، تقـاوم، يـدفع صـفحة وجهها بقـوة ليتوسـد صـدره، تستسـلم، تـروح فـى سـبات عميـق، يتركهـا طـويلا قبـل أن يغـامر باسـتثارتها، تتسـلل أصـابعه إلى فكيها، ترتعـد بـالتوتر، هنـا كهـوف موغلـة فـى البدائيـة، حيـث الـتهم الإنسـان القديم لحم أخيه الإنسان، لا تعوزه رحمة أو شفقة.

يسـبح بـين شـاطئى الميلاد والمـوت، يعـرك بأناملـه ثغرهـا، ثقـل الشـفاه المقتطـع مـن لحـم الأنثـى، يعـبر غريـزة المـوت إلى كهـف الرعـب، حيـث تنتصـب أنياب الكواسر.

يتجـول بـين أنيابهـا، يـتلمس بحـذر صـفين القواطـع، تـنهش أصـابعه، تتلاحـق أمـواج التـوتر فـى جسـدها، تشـد علـيهم، تقضـمهم، عـاجزة علـى فـتح فمهـا، تبتعـد غاضـبة، تـرفض ألعابـه، لكنـه يعيـد رأسـها الفهـدي إلى الملاذ الـذي سيصـبح ملجأها الذي تهوى اللجوء إليه.

بـين أعلـى السـاعد الثقيـل، وهضـبة الصـدر، تجـد طريقهـا لنـوم عميـق، يعـاود محاولـه اقتحـام فكهـا الكاسـر، تـرفض، تزمهمـا بشـدة، معلنـة أنهـا لم تـألف تلامـس أنيـاب

الكود

ش: شفاه

شفاه من توت برى.. شفاه من
زبرجد.. شفاة من ياقوت..
شفاه من زمرد..
شفاه من لحم الإناث
الذي خلق منه الشهوة

---

16) الـودج: عـرق في العنـق عنـد العـرب ينـتفخ عنـد الغضـب، وفـى الطـب الشـريان السـباتى وهـو أحـد الشرايين الرئيسية الذي يجري جانب الرقبة ليزود الرأس والدماغ بالدم.

الضواري مع لحم الفرائس عن طيب خاطر، هذا خارج قانون الطبيعة، مرة تلو مرة تستجيب، مر وهو يشعر بالخطر على حواف أسنانها القاطعة، تتراجع برأسها، وجسدها يهتز بين الكبح والرغبة، يحترق داخلها بألم لم تعرفه من قبل، ألم الكبح عن تناول المشتهى من لحم البشر.

لسعة القنص

مر بأنامله على لثتها الثخينة، انتفضت، وقفزت من الفراش، تكتوي عيناها بألم مطلق، وقد تأجج نار الكوى الحساسة من جسدها، توارى وجه اللبؤة الوحشي، يشرق وجهها الأسود بحسن، وجاذبية طاغية، تبرق عيناها بالألم المبرح، تسأله الرأفة.

كيف نعى أن اللذة والألم جدل الحياة، حطت نهديها على صفحة صدره، وألقت بساقها على ساقه، تسلم جسدها، تتماس أوتار الشهوة، ينفتح الصراع الدامي فى ساحات القنص واللذة، على أدغال أفريقيا.

يتوسد الثقل الماهوجنى لجسدها الفاتر، صفيحة جسده الذي بدت عريضة كنهر، يمر الليل طويلا مشبعا بالنشوة، تجثم جواره، رأسها يتوسد كتفه، نهداها مزروعان فى صدره، ساقاها متلاحمان بساقيه.

وقت طويل يمضي قبل أن تسمح لثغرها السفلى أن يتوسد شفتيه، يطبق عليه، وسادة من لحم أنثوي، لا توصف حلاوته، فصوص من عنب الجنة، ينظر وجهها الفهدي، تزدهر خشونته بفتنة خلابة، أين كان هذا الجمال الأنثوي الأخاذ مختبئا؟

لا تنام وغريزتك تدفعك للمخاطرة، تلوك ثغرها بصبر لا ينفد، ترشفه ماء فراتا، وعطرا شبقا، ونشوة لا تذوى، الآن تدرك أن ثغرها شهوة مطلقة، ذروة ممتدة، لا تنقضي ولا تتلاشى، حقيقة تفوق العالم المادي، لتجاوز حدود الموت والحياة، تقام بسببها الحروب، وتندثر الممالك، وتنجز الجرائم، تلوكه وترشف رحيقه، لا

ذ ود:

ع: عض

قرصة النحل.. لسعة الأفعى..

نهشة أنياب الضوارى

لعنق الضحية ..

لماذا يجتمع طريق اللذة والقتل معا

لماذا يجتمع طريقا الشهد، والشهوة..

ملـل ولا كلـل، ولا شـبع ولا ارتـواء، وإنمـا متعـة خالصـة تسـبح فـى حيواتهـا حتى ضفاف الموت.

من يعـرف علـم القـدماء عنـدما تفـوق مـا لا نعلمـه، ومـا يصـعب فهمـه، إذا لم تكـن غـير مجـازات وأسـاطير، تكـشـف دلالات غامضـة عـن حقـائق يصـعب إدراك كنههـا.. الآن تعلـم أن عنـب الجنـة وحصـرمها، لـيس سـوى حـلاوة الشـفاه الـتي أطبـق عليهـا الأنسـان وهـو يركـع علـى عتبـات أنثـاه، الآن تعلـم أن العالم جوهره لحم أنثى، خلقه الله ليقهر رجال العالم بجاذبيته الآسرة.

يـأتي البكـور والحيـاة لهبـا أرجوانيـا، جسـدها يتوسـد جسـده، ونهـداها مـزروعين فـى صـدره، وروح الصـبية ينسـاب إلى روحـه، تسـتيقظ بابتسـامة رضـا، آن وقـت الرحيـل، تسـتقيم بنصـفها لأعلـى، تنظـره بعيـنين بـاردتين، تفكـر فيمـا إذا مـا كانـت قـد ضـيعت علـى نفسـها ووليفاتهـا فرصـة التهامـه، أو أنها تتدبره لليلـة مـن ألـف ليلـة، ليلـة لم تـأتى بعـد، تابعهـا، يحـاول أن يخمـن ما يجرى داخل عقلها، لكنها تعفو عنه.

قبـل أن ترحـل تهـبط بنظراتهـا أسـفل وجهـه، تتـألق عيناهـا شـزرا، وتـنقض مثـل عقـرب، تقـنص بأنيابهـا الحـادة شـفته السـفلى، توشـك علـى قضـمها، يكـبح الوجـع مشـدوها للمفاجـأة ولسـرعة القـنص ودقتـه، تتراجـع إلى الخلـف، تحـدق عيناهـا بـه بـلا عواصـف بـلا أعاصـير، نهـر مثقـل بـالغرين ونظـرة متوجـة بالأبديـة، تقفـز مـن الفـراش قفـزة لبـؤة، تابعهـا تختفـي، وخلفهـا وليفاتهـا، قبـل أن يعـبرن خـط الأفـق، يسـتديرون نحـوه، ينظرونـه بصـمت، يخـتفين فـى الأدغـال الموحشـة، وقـد تركـت وراءهـا نهـدين لشـجرتين أبنـوس مغروسين فى صدره؛ ووهجا زمنيا سيلازمه طول العمر، وهو يتساءل:

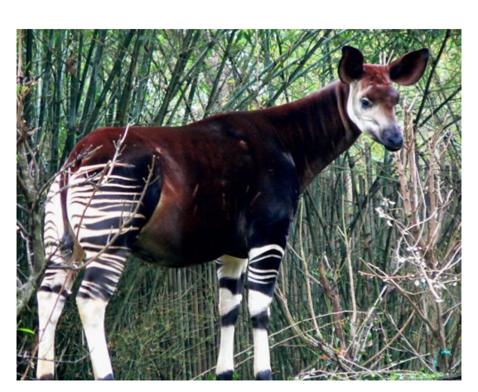
- من يضاجع لبؤة؟

مـن يضـاجع روح القمـر؟ الـروح الـتي تغـادر المكـان، بعـد أن تغفـو فـى كوابيسـك، تتعطـر للقمـر، ترفـع يـديها نحـوه وقـد اكتمـل بهـاءة، تـرقص، ثـم تركـع علـى جسـر نهـر "ويلـي"، تغتسـل وتصـلى، تبتهـل لـه أن يرسـل قوتـه كي تملك أميرها الذي اختارته.

* * * *

- 20 -

يـأتي الخريـف ناعمـا مثـل "أوكـابى"[17] يخطـو مسـتغرقا في خجلـه، وتمضـى الأيـام علـى وتـيرة واحـدة، تتشـابه الأنهـر والليـالي، مطـر رعـدي يـأتي مـن قلـب الأزليـة، وغابـة مسـكونة بظـلال أشـباح سـادرة فـى عتمـة الرعـب، وظـلام يستحضـر سـحرته وشـياطينه، وقـد راهـن الضـابط الشـاب للنجـاة مـن الجنون بـألا يتوقـف عـن تحيـة الرايـة الـتي تخفق أعلى سارية الثكنة.



يجلـس فـى سـرواله الـدمور حافيـا علـى شـرفة الحاميـة، وقـد طـال شـعره وذقنـه، وحالـه حـال إنسـان الغابـة البـدائي، لا يختلـف عـن الجـالس جـواره؛ إيـه اللـى تقـدر تعملـه يـا شمـروخ، جنبـك قاعـد زعـيم الربـاحين[18]، وعشـيرته معتصـمة فـى السـاحة بانتظـار تعيينهـا اليـومي، الـذي تقدمـه لهـم منـذ عهـد الصـداقة الموقـع بينكمـا، تربـت علـى كتفـه بمـودة، تشـرح لـه بـأن الفـول السودانى خلاص نفـد، والمـوز خلـص، خـلاص يـا عـم ربـاح، بـح، مفـيش، معـدش فيه أكل خالص.

بعـد أن أعيـاك الشـرح، تظـل ترتسـم علـى وجهـه الربـاح أسـارير بعـدم الفهـم، تـدخل مبنـى المحطـة، وتعـود وفـى يـدك طربوشـك العسـكري ، تقدمـه إلى زعـيم القـردة، تحدثـه برجـاء أنـك لم تعـد تملـك سـواه، يأخـذه بـتمعن، يلوكـه فـى فمـه، تسـتعيده وتضـعه علـى رأسـه، ينبعـث الهيـاج بـين الربـاحين، يـدقوا صـدورهم تحيـة لـزعيمهم الـذي وقـف فـى طربوشـه أعلـى

---

17) أوكابيـا: Okapia حيـوان نـادر مـن فصـيلة الـزراف يعـيش فقـط فـى غابـات الكونغـو، رأسـه رأس زرافة، وجسده لحصان، وموسوم بخطوط حمار وحشي

18) الرباح: نوع من القرود فى حجم الإنسان وأكثر شراسة.

الشـرفة ملوحـا لعشـيرته، وهـو يصـرخ، ويـدق صـدره مختـالا، يغـادر سـاحة الحاميـة بكبريـاء تتبعـه عشـيرته فـى طـابور منـتظم، يتقدمـه الأقويـاء مـن الـذكور، وخلـف كـل مـنهم إناثـه، يحملـن صـغارهن، وعلـى وجـوههم سـيماء الخضوع للزعيم.

كـان السـعادين ثـاني الـراحلين، اختفـوا بهـدوء ودون جلبـة، وكـأنهم أكثـر فهمـا لأحوالـه، تـبعهم الرتـة، يمضـي الوقـت حتـى اختفـى نقيـق الضفادع، ورحلت السحالي، وتلاشت القوارض.

تراقبـه أمـيرات المبـورو، وقـد نفـد الطعـام مـن السـلال، وجـف السـمن فـى القـدور، ورحلـت كائنـات العـالم عـن المحطـة واحـدة بعـد أخـرى، نفـدت قـواه، سـائل القـدر عمـا هيـأه لـه مـن مقـادير علـى بعـد آلاف الكيلـومترات مـن مسـقط رأسـه، وإذا مـا قـدر أن تكـون حاميـة حـواش منتصـر مقـبرة لعظامـه، وأين سيكـون مـآل روحـه، بينمـا لحمـه مـن نصـيب اللاحمـات، لـوح لهـن غاضـبا يطالبهن بأن يرحلن بعيدا عنه، ويتركوه لوحدته:

- بره، بره.

تـراجعن إلى درجـات شـرفة المحطـة الخارجيـة وتـوقفن، واسـتدرن يـتطلعن نحـوه بـتمعن، ينظرونـه والاسـتغراب علـى وجـوههن، وهـن يُعلـن أن هـذه الـدرجات الـثلاث هـي الحـدود الأخـيرة لنهايـات غضـبه، وحـالهن مثـل الهـررة تعـاود التسـلل إلى الـداخل ثانيـة، يشـتاط غضـبا، وينهـال علـيهن ركـلا وصراخا، يهـرولن بعيـدا، ثـم يسـتدرن نحـوه يزمجـرن كاشـفات فـى تهديـد عـن أنيابهن الحادة، داهمته ثورة واختبال، دفع بهن دفعا خارج أسوار المحطة.

أغلـق البوابـة وعـاد يجـر قدميـه والحمـى تأكـل جسـده، سـقط مغشـيا عليه، وقد فقد الزمن. كم مضى عليك وأنت محموم؟ لا تعلم.

اسـتعاد وعيـه، شـعر بالراحـة فـى وحدتـه، مضـت الأيـام تباعـا، تمسـك بتلابيبـه الوحشـة، خاطـب أشـباحا مـن مـاض بعيـد، يـأتي الليـل وكـل ليـل يمضي، يسأل الله ويرجوه شافعا، ألا يكن قد عزمن على رحيل أبدى.

فـى مطلـع صـباح ممطـر هلـت أشـباحهن، يحملـن سـلالا تحـوي طيـور ذبيحـة، وبـيض، وقـدر مـن عسـل النحـل، تماسـك، رسـم علـى وجهـه معـالم النفور، محاولا الامتناع عن البكاء.

نفـدت أخـر ثمـرات الباذ نجـان، وصـرخ الجـوع فـى البطـون، لم يبـق أمـام المبوريـات سـوى التهامـه حيـا، يقـدر صـبرهن علـى الغوايـة، ويستسـلم لنـوم ملعـون بالشـكوك، يحلـم بهـن وقـد اجـتمعن حولـه مكشـرات الأنيـاب، وفـى عيـونهن خـواء، تتـداخل الأشـياء وتتـوه الـدلالات بـين رهـاب الجـوع وهـوس الجنس، الآن تكورت بطون ثلاث منهن، بينما الصغيرتان تنظرانه بترقب.

تتمـدد روح القمـر وأختاهـا الأمـيرة أيالاكـا شـجرة السـماء الـتي ولـدت فـى البقعـة المقدسـة لإلـه الرعـد، والأمـيرة لولابـا روح النهـر تتضـوران جوعـا، عـاجزات عـن إخفـاء آلامهمـا بثقـل الأجنـة الـتي تـدق جُـدُر[19] أرحـامهن، يجـتمعن حول شعلة النيران، ليدور حوار الليل الصاخب بينهن.

.. لابـد مـن الخـروج للصـيد، تشـير الأميرتـان أبرافـو[20]؛ الجـلادة المحاربـة، وجنجـي، روح الغابـة، إلى بطـن أختهمـا لولابـا، تطالبـان ببقائهـا خوفـا مـن صـراع الضـواري فـى غابـة لا تعـرف الرحمـة، لكنهـا علـى أن تصـاحبهم، فعـدد الأفـواه الخرساء التي تطلب بالطعام أصبح معرضا للموت.

يخـتفين فـى الغابـة ويعـدن، وفـى جعبـتهن أعـواد غـاب مجوفـة، وأفـاع ويسـاريع[21] سـامة، وجـذور فتاكـة، يفصـدن سـم الأفـاعي ويمزجونـه باليسـاريع والنباتـات السـامة، ويسـحقنه، ويطبخونـه فـى دهـن الخنزيـر، يصـير قوامـه شمعيـا، يصـنعن سـهاما مـن العظـام، يغمسـن رؤوسـها فـى خلـيط السـم، فـإذا أعـد كـل شـيء، حملـت الأمـيرات عـدة الصـيد، وخـرجن عـدوا إلى الغابة، يشرن إليه كي يتبعهن، فقد حان فيه وقت القنص.

تبقــى الأختــان؛ روح القمــر وأيالاكــا فــى الحاميــة وقــد انــتفخ بطنيهمــا، تجرعان حزنا مدمج بالخوف من الموت الذي يحوم حول الخارجين للقنص.

أبرافــو الأمــيرة المحاربــة تعــرف كــل شــيء عــن الحيوانــات والطيــور والزواحـف، سـلوكها، مسـالكها فـى الأحـراج، طـرق صـيدها، ينفـذ بصـرها خـلال تنكـرات الطبيعـة. تـتلمس أثـر الطرائـد، تتبعهـا مـن خـلال علامـات عارضـة ضـئيلة، تسـتدل إذا كانـت جريحـة، ومـدى خطـورة جرحهـا، تقتفـى أثارها لمسافات طويلة، دون أن تصرفها عنه أى أثار أخرى قد تختلط به.

---

19) الجدار: الحائط، والجمع: جُدُر.
20) أبرافو: ABRAFO المحاربة
21) يساريع: جمع يسروع، دود بيض حمر الرؤوس تتغذى بالأوراق والأثمار.



يبدو بينهم طفل أحمق، يرتسم الحنق على وجه أبرافو، يتلقى منها نظرات الغضب، وضربات التحذير، لينتهي اليوم بمشادة طويلة بينها وبين روح القمر، طالبتها بأن تبقى الضابط الشاب فى الحامية، وألا تسمح له بالخروج للصيد، وإلا سوف يقتل، وتظل تردد عدة مرات "سوف يقتل".

تتطلع روح القمر نحوه بشفقة، وتهمس: "الصيد مهمة الرجال، والزرع والعناية بالكوخ مهمة النساء، وأن رجلهم سوف يتعلم القنص"، تنتفض المحاربة بالغضب، تلوح لها، تخبرها أن قلبها يسيء إلى عقلها، وأن الهلاك المحتوم ينتظر رجلهم فى الغابة.

طاردوا ضفادع الأشجار والحرابى، ويرقات الغابة، وأمسكت أبرافو بحرباء أثار دهشته، كيف تمكنت من اكتشافها فى عالم الألوان الذي تماهت معه، وعندما حان موعد الإياب كن يحملن من الغابة أوراقا، وقدورا من شحم الخنزير وطينا أزرقا، وعددا كبيرا من الحرابى، وضفادع الأشجار، وسحالي تعددت ألوانها، عكفت روح القمر ولولابا على سلخها وتنظيف أحشاءها، وسلقتهم فى قدور فخارية، وبين فترة وأخرى كانتا تسحقهم بقوة، بعد أيام وقفت الأميرات الخمس حول قدورا يتصاعد منها البخار، يرقصن تحت أشعة القمر رقصة طقوسية.

أيقظته الرابعة ودفعته إلى نهر "ويلي"، غسلته جيدا تحت أشعة القمر، وعادت به حجرته المضاءة المشاعل، التي صيرن من جدرانها كهفا قديما لإنسان بدائى، نظر مبهوتا إلى الرسوم الدقيقة التي لونت صف من رؤوس الظباء تقفز واحدة خلف أخرى، وخرتيت جريح تدلت أحشاؤه.

استغرقه البحث فى رسوماتهن البدائية عن صياد ضائع الملامح يقف حاملا رمحه فى مكان ما من الجدران، دفعته أبرافو بفظاظة، وقف حانقا لا يصدق أن تلك اليراعة[22] التي لا يتجاوز حجمها ظبي صغير تستفزه بهذه الوقاحة، أمسك بخناقها، وحملها لأعلى مثل ريشة لطائر الكركي فارتفعت تجدف بقدميها وساعديها تضربه فى أى مكان تصله من جسده، نظر إلى روح القمر، وجدها تدير رأسها تتجاهل ما يحدث، تركها فسقطت تلهث وهي تمسك بعنقه، استعادت أنفاسها.

---

22)يراعة: حشرة تنتمي إلى أسرة الخنافس غمدية الأجنحة، تتميز بظاهرة الإضاءة الباردة، تنتشر في معظم المناطق الاستوائية الحارة والغابات.

قامت تمسك بقدور الألوان بتحد، وعكفت بصبر ودقة ترسم جسده بألوان الغابة، جاب كفها الطفولي جسده مثل ملاح كوني يجوب البحر، وفى صفحة النهر رأى جسده الملون يختفي وسط الطبيعة.

تبعها إلى الغابة تعدو مثل "تشيتا"[23]، تعلم منها كيفية العدو بسرعة الفهود، وتفادى جذور الأشجار والأحجار الناتئة فى العتمة، كيف يحفظ توازنه، ولا ينزلق على سطح أوراق السرخس الرطبة، وكيف يتوارى من الرياح، ولا يكشف رائحته للطرائد، وكيف لا يخطئ الفريسة، عندما ينفخ سهمه المسموم فى قصبة الغاب المجوفة.

كانت تصرخ عليه: "ألى (على)، لا تفعل كذا، ألى (على)، اخفض رأسك، ألى (على).... أطلق سهمك، ألى (على)، ح تقتلنا، ألى (على)". ذات يوما أوقفته أمام حيوان غريب، كان يرعى العشب بهدوء من أغصان الغابة، أشارت نحوه، وهي تشير إلى نفسها وتقول:

- "كابى"

يقول بغل: "أنت شيتا".

- لا أنا أوكابى.

- أنت شيتا العفريتة.

تضحك وتقول بإصرار: "أنا أوكابى".

* * * *

بلغ الخريف ذروته، يمضي الوقت منعما بالدفء على الضفادع والسحالي، تقضي الضواري والرباحين والببغاوات حياتها بحثا عن الثمار، تنهمك الطيور الطنانة فى ارتشاف رحيق الأزهار، وتلتمس الفيلة والزراف والشمبانزي من أرض الغابة أوراقها، وتتأرجح السعادين بين الأغصان.

كُل يأكل من كُل، والأضعف ضحية الأقوى، والغابة تحمل الجميع على ظهرها، وبين أعطافها، لا تذمر ولا استياء، لا شكوى ولا نقمة، فعلام السخط؟

23) تشيتا: حيوان مفترس سريع العدو، الأصغر بين الأربع الكبيرة {الأسد-النمر-الفهد – التشيتا}

عادت السحب السادرة فى غيها تحمل حلقات الدخان المرتفعة من مواقد الحامية نحو الشرق البعيد يقتفى أثر بومة ليلية تسبح على سطح قمر فى سماء صافية، عادت المتعة والرقص والغناء تحت المطر، وشرعت أبرافو تطارده للمضاجعة، كما يطارد الصياد فريسته.

تلمحهما روح القمر تبتسم وتمسك ببطنها المنتفخ، سعيدة برجلها تغازله نساء أخريات، فكلما كثرت نساؤه زاد فخرها به، حين أتى الليل أحاطت الأخوات برابعتهن، يطيبونها بلبن الحمير الوحشية، ويعطرونها بالبنفسج، ويضمخونها بالبخور، ويتركونهما معها، لتمضي ليلتها الأولى فى عالم التكاثر.

في صباح ضبابي تمكن من إصابة وعل بضربة من حربته، تتعقب أبرافو الوعل الجريح وسط الغابة، استمرت المطاردة حتى الضحى، لينكشف الدغل فجأة عن الوعل، وقف مشلولا على مسافة قريبة ينظر قرنيه، يوشكان أن ينغرزان في صدره، اعترضته أبرافو لتتلقى ضربة من قرنه، حملها عدوا إلى الحامية، يهرب بها من براثن الموت.

فى صباح اليوم التالي خرج للصيد مع البقية منهن، وهو عاجز عن الفهم حينا، وأحيانا عاجز عن التعبير عما يخالجه من مشاعر، لقد وهبنه الرغبة فى الحياة.

الاتصال الذي كان فى بداياته محض فوضى من تراتيب عشوائية، وتلبية لغرائز بدائية، أملتها صدف من عالم الضرورة، لا يسعفه بالانشغال فى البحث عن تفسير لها، إلا عندما حلت الواقعة، وأصبح بعضهن يحملن نطفه فى أحشائهن، الآن ثمة وشائج من أواصر الدم.

.. لو يعود الزمن إلى بداياته، لتمكنت من عدم التورط فيما أنت فيه الآن، ولما غامرت، فى عالم لا تحكمه سوى المغامرة؛ المغامرة بالقتل، المغامرة بالقنص، المغامرة بالجنس، المغامرة بالموت من أجل البقاء.

تراقب الذكور فى جماعات الأسود والرباحين، الثيران والوعول، وترصدها، يحيط بهم إناثهم وأطفالهم، يقتسمن مهام البقاء؛ للإناث الإعالة، وللذكور الحماية، تساءل الوجود؛ أي لعنة صبها على رأسك؟ أى نقمة تحملها على عاتقك؟ الرضوخ لسطوة الجوع، الاستسلام لقسوة

الحاجة إلى وليف، الخضوع لشرائع الغابات، الاندماج القسري في عالمها البدائي، ما عدد الإناث اللائي عليك أن تعولهن؟ ولماذا يشغلك الأمر وأنت غير قادر على حماية نفسك، فكيف بخمس، ثلاث منهن ستلدن عما قريب أبناءك.

تكبر البطون، تفرض عليك واقعا من الاستسلام، تمضي في ضوء الغابة الشاحب المنسل من هامات الأشجار إلى أرضيتها المعتمة عاريا إلا من مئزرا يستر عورتك، تتخفى في تموهات الخضرة الزاهية للسرخسيات والسحلبيات وزهورها الملونة.

على مروي الماء تداهم لولابا أحد صغار الفيلة، يتمرغ في الوحل، أطلقت عليه سهمها المسموم، وطاردته نصف نهار، حتى تمكن السم منه، شقت الأميرة لولابا بطنه، وتناولت بكلتا يديها الطعام من معدته، وازدرته، كان نصف مهضوم، استرجعت قوتها، وحملت بقيته إلى أختيها المثقلات بوطأة حملهما، ثم عادت مسرعة تقطع أوصال الفريسة.

تلقت محطة حواش الصيد السمين بفرح، وأسرعت روح القمر وأختها أيالاكا تشعلان النار، نهيم طويل شق أرجاء الغابة جعل الرعدة تسري في أوصال الجميع، كانت الأم المكلومة قد ظهرت من دغل قريب، لترى عدوتها تجلس على جثة طفلها، انقضت تدهسها بأقدامها الثقيلة، ثم غرزت نابيها المقوسين في بطن عدوتها، بقرتها، كانت تثأر؛ عين بعين وسن بسن وجنين بطفل.

أسرع يعدو إلى موقع الصيد، لم يجد سوى دماء تنتشر في كل مكان، والفيلة الأم تجري حول نفسها، تدوس عدوا غير مرئي، وهو يبحث عن أم لطفل لم ير النور بعد، حل أمل كاذب بأنها تمكنت من الهرب، تتبعت الأخت الأصغر مسار الدماء، لتجد أشلاء، ورحم دهس بين أحشائها المدلاة، كان مشهدا مروعا، عادا بها إلى الحامية، يبكيان خسارتيهما، لم يبق سواه لإعالة البقية والأخت الأصغر جنجي[24] روح الغابة.

تحدثت الأميرات طويلا، أجمعن أنه لا يمكن الوثوق به وحده في الغابة، أشعلت الأميرات الخمس حلقة واسعة من النار في ساحة الثكنة،

24) جنجي: Jengi

ارتفعت حلقات الدخان، تطلب مساعدة عشيرتها، وحول أختهن جلست الأميرات الثلاث، يحطن جثمانها بالأعشاب والبخور، رقصن حوله رقصات إيمائية، وعزفن على الطبول طيلة الليل عزفا موحشا.

في الفجر ظهر عدد قليل من محاربي المبورو، وقفوا أمام جثمان ابنتهم بإجلال، ومع النهار تزايدت الأعداد؛ رجال ونساء جلسوا على شاطئ النهر، بانتظار سيدة ضخمة جاءت على محفة، بدت مهابتها ومكانتها الرفيعة واضحة، جلست أمام جثمان ابنتها، وساحرة القبيلة تقوم بشعائر الموت.

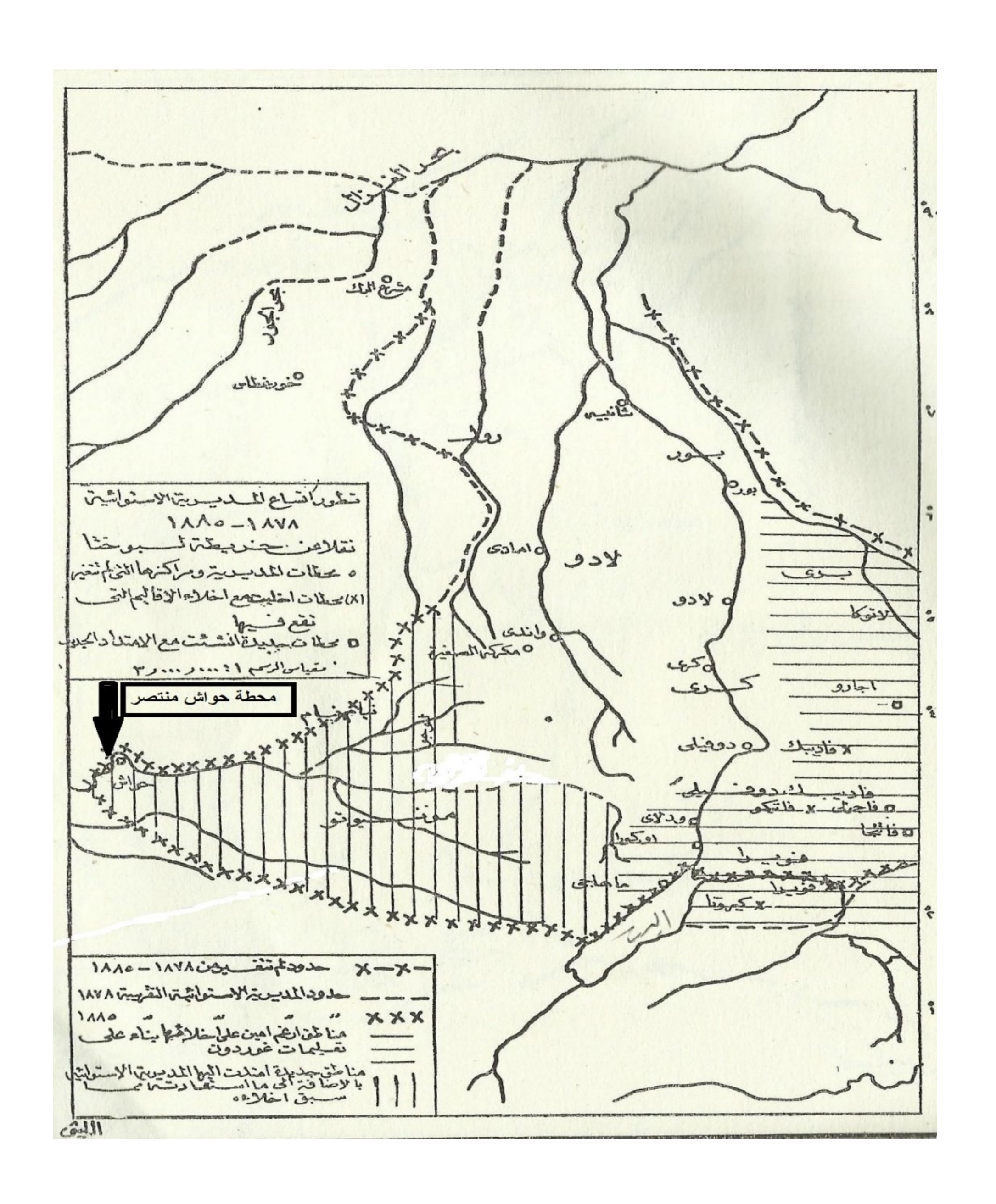
طلب الزعيم مبورو من الملازم أن يصحب القبيلة، لكنه رفض مغادرة الحامية دون أوامر قيادته، ثار استياؤه وأشار إلى بطون بناته الباجرة.

عندما علمت الأميرات أنه سيبقى وحده، أصابهن الذعر، حاولن إثناءه عن البقاء بلا طائل، أو يبقين معه، لكن حال أغلبهن كان يعرض حياة الجميع للخطر.

ترك له الشيخ مبورو عدة للقنص، ورماح، وثمار، وقطعا من لحم الفيل الذي قتلت ابنته الأميرة لولابا بسببه، وجوالا ممتلأ بالذرة، رفضه الضابط وأشار إلى بطون بناته، وقال إنهن أكثر منه احتياجا، لكن الشيخ يجيبه أن هذا جزء من دين عليهم لمن علمهم زراعة الذرة البيضاء.

ستعلم أن الفضل في زراعة الذرة البيضاء في مونبوتو، يرجع إلى الصاغ منتصر، وتوقد ذكائه وأصالة رأيه، ها هو الرجل الأسطورة يظله بحمايته، وكما منح طربوشه لزعيم الرباحين، خلع الشيخ مبورو عليك مَعْرَفة الأسد التي يرتديها، ووضعها على رأسك، محييا فيك الشجاعة، ليرحل متتبعا ضفاف نهر "ويلي"، وحوله أبناؤه وبناته أو إناثك، وخلفه قبيلته، وللمرة الثالثة تبتلع ظلال الغابة المعتمة رتل طويل من أصدقائك، هذه المرة كانوا بشرا حقيقيين.

* * * *



محطة الصاغ حواش منتصر على نهر(ويلى)

تطور المديرية الاستوائية واتساع حدودها

- 21 -

منذ دخوله لادو بقي الصاغ منتصر وحشا كاسرا حبيس قفص مفتوح، يجرى عرضه يوميا فى سيرك يرأسه مهرج يدعى أمين بك، لا يعدم فرصة سانحة للتندر بغروره، والمزاح حول صدامه مع العرابيين، والتنديد بهم، لإهانة مولانا الخديوي، يتولى كازاتى دور البهلول الذي ينال من سمعته، ويسرد حكاية اتهامه بسرقة مائة وعشرين بندقية رومنجتون.

فى إحدى سهرات الصيدلي حسان، اتهم الصاغ عرابي والبارودي بخيانة أمير البلاد، لم يكد ينهى جملته حتى لاحظ الحضور ثلاثة من الضباط العرابيين وقفوا، وكأن تهمة الخيانة موجهة إليهم.

قال الملازم خلاف إنه لا يصح الحديث عن ضباط غائبين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم، وقاطعه محمود العجيمى: "ليس من حق الذين كانوا يستمتعون بالصيد فى الأدغال، وحولهم الزنجيات العاريات، أن ينتقد ضباط ضحوا بحياتهم وبأسرهم، وفقدوا أملاكهم من أجل حرية الوطن، وإعلان الدستور".

أمسك الملازم مصطفي العجمي ساعد أخيه وجذبه خارجا، وحاول الحسيني أن يخفف من غضب زملائه، فدعي الحضور أن يتقبلوا أراء بعضهم، لكن الغضب لم يكن يحيق بمحمود العجيمي وحده، فقد صرح محمد فوزي موجها حديثه للصاغ بتحد:

- "على حضرة الصاغ أن يعلم أنه إذا كان عرابي باشا والبارودي باشا غير حاضرين، فإن للثورة العرابية رجالها فى لادو".

كان تصريحا خطيرا، نال استحسان الحضور، نكاية فى منتصر، ما جعله يحيل الضباط الثلاثة لمكتب تحقيق، وأنزل بهم عقابا بالحبس سبعة أيام بتهمة التطاول على ضابط عظيم، كانت تهمة مخففة على أية حال، وأفضل من تهمة العصيان.

فـى اليـوم التـالي تقـدم إلى مكتـب الصـاغ الملازمـون محمـد الفـولي، وإبـراهيم حلـيم، وعبـد الواحـد مقلـد، ومصـطفى العجيمـى وشـلعى يطـالبون بأن ينضموا إلى زملائهم فى الحبس.

ـ أنا ما شفتش حد منكم امبارح، هو أنتم كنتم معانا؟

تقدم الفولى خطوة إلى الأمام وقال بالنيابة عن زملائه: "لا افندم".

ـ طب جايين ليه؟

ـ نطلب الانضمام إلى زملائنا افندم.

تفرسـهم بنظـرات ناريـة: "وأنـتم إيـه دخلكـم؟ عـاملين رجالـة! حـد فـيكم صعيدى، حد فيكم دماغه زى الجزمة!

ـ ....

ـ جرى أيه يا افنديـه، هـو الجـيش فيـه تجمهـر، طبعـا مـا أنـتم ثورجيـة!، تمـام يـا حضـرات، سـبعة أيـام حـبس انفـرادى، كـل واحـد يختـار الزنزانـة اللـي يحبها، انصراف أنت وهو، زى الوطن ما انصرف.

عقب إبراهيم حليم: "يا افندم الوطن عمره ما ينصرف".

وأعقبه مقلد: "افندم الوطن أجمل زنزانة".

ـ الـوطن أجمـل زنزانـة! دا شـعر مـش عسـكرية، يـا افنـدي أنـت وهـو (ده) مـش البرلمـان البريطـاني، أو الجمعيـة الوطنيـة، دى وحـدة عسـكرية، إذا فقـدت الانضـباط تحولـت لعصـابات، حضـراتكم عـاوزين جـيش مـن (أنـى) نوع؟

ـ ....

ـ تمام خمستاشر يوم حبسً انفرادى، يلا يا حضرات، غوروا من وشى.

دخل الحسيني، كان يعطيه ظهره، ويضرب رقبة حذائه بعصاه:

ـ أول ما يحضر المتخلفين من عصابتكم يدخلوا الحبس.

ـ يا افندم هم مش متخلفين.

ـ ما أنا عارف، وأنت كمان ضم نفسك للحبس.

ـ أنا عندى محاضرة.

ـ هو إحنا بقي عندنا مدرسة للنصب.

ـ أوامر سعادة الحكمدار.

- "تقدر تأكل بذقن حلاق الصحة حلاوة"، لكن تلعبوا معاي يستحيل، أنا عارف أنكم مش ح تتهدوا إلا وأنتم متعلقين من المشنقة، وبعدين يعنى مش شايفك ثورجي زي أصحابك، مالك ضابط خرع ولا إيه؟
- أنا ما بتهربش من الحبس.
- أمال ليه مش عايز تعمل فيها (برمجى) وتنضم لهم؟
- الثورة انهزمت خلاص، والبلد محتلة، وأنا بطلت ادفع جزاء عن قادة لم يكونوا أكفاء أو على مستوى المسئولية.
- برضة ح تتحبس يا حضرة اليوزباشي .
- أوامر سعادتك.

انتشر خبر حبس الضباط العرابيين، وأصبح مثار تهكم، ومنذ حضوره الصاخب لم يسبق أن قيلت كلمه مديح فى حقه، كان قادرا على خلق مشاعر عداء، لا يعبرون عنها فى حضوره الطاغي، وانضباطه العسكري الذي يسميه أقرانه "قسوة مفرطة"، ويطلق عليه الخطرية " السفاح".

فى صباح اليوم التالي أخبرت فرانسوا الحسيني، وهي منخرطة فى الضحك، أن مديرية الاستوائية تواجه تمرد العرابيين الثاني.
- بتقولي إيه؟
- نساء الضباط المعتقلين أعلن التمرد.

أسرع إلى مقر المديرية، حيث وجد زوجات العرابيين يطلبن مقابلة الحكمدار، تتقدمهن السيدة سارة زوجة أمين بك، أمام أمين بك أعلنت النساء أنهن قبلن الزواج من ضباط تم نفيهم دون وجه حق، لكنهن لن يقبلن أن يرى أبناؤهن النور وآباؤهم معتقلون.

منطق يصعب رفضه، لكنه يخشى منتصر، أعلن أنه يتفهم مطالبهن، لكنه لا يستطيع التدخل فى شئون عسكرية، واقترح مقابلة الصاغ، وبختة زوجته، واتهمته بالضعف أمام هذا المتوحش، تمسك بموقفه، وقد زاد حنقه، موضحا أنه لو فعل سيكون أمرا شائنا، فالضباط المحبوسون أعلنوا التمرد، ولو لم يعاقبهم منتصر لفعل هو، وأضاف وهو ينظر إلى زوجته محذرا، أن منتصر قد أعفاه من موقف يضع المديرية فى خطر، قالت ألفت:

- "ولو، من أجل أطفالنا سنقابل الشيطان".

اقتحمت مكتب الصاغ تسأله الإفراج عن زوجها، لحقت بها صفية، سمعت منتصر يسأل ألفت بسخرية لاذعة، إذا ما كانت تريد اللحاق بزوجها فى الحبس الانفرادي، لكن هذا لن يصبح حبسا انفراديا"، استدار يسأل اليوزباشي الحسيني إذا كانت الحملة التي جاء بها من القاهرة تابعة للجيش، أم نزهة بين عشاق على النيل.

ـ حضرة الصاغ لا يصح إهانة زوجة ضابط فى الجيش.

انتفض ثائرا وقذف بمحبرة أمامه إلى الحائط:

ـ "ميصحش إهانتها، وميصحش تقتحم مكتب قائد عظيم، وميصحش يتحول الانضباط فى ثكنة عسكرية إلى علاقات عائلية، أضاف مهددا:

ـ عندك محاضرة عسكرية بكرة؟

ـ نعم حضرة الصاغ.

ـ خدهم من قدامى وامشى وإلا ح تندموا كلكم.

استدار الحسيني، وجد النسوة يسددن الباب، والدموع تنساب من عيني صفية، وأختها تمسح الحبر عن صديرتها، وحباب تمسح نثار الحبر عن ألفت، رفعت رأسها فى كبرياء، وابتعدت بلطف عن حباب، وانحنت تحمل المحبرة من البساط، وتقدمت ناحيته، طرفت عين الصاغ، تابعها تفرغ بقايا المحبرة على ثوبها الأبيض، وتحدثه بتحد:

ـ "واضح أن حضرة الصاغ لا يفهم العلاقة بين المداد والرصاص، واللي يهدر المداد، همجي ميعرفش القيم النبيلة الكامنة فى حروفه، وأشارت بإصبعها إلى رأسها والنساء يحاولن كبح ثورتها:

ـ زيه زى المدفع؛ يدمر ويقتل، لكنه بلا عقل.

* * * *

الصدمة والنار

تألقت أهلة ونجوم ذهبية وفضية، تزين أكتاف كبار ضباط الجيش المصري فى خط الاستواء، وبجوارهم موظفى المديرية، فى الخلف وقف الضباط العرابيين بعد أن أفرج الحكمدار عنهم لحضور المحاضرة، التي كان عنوانها "الصدمة والنار".

أوضح اليوزباشي أن فعل الحرب، يتلخص فى عنصرين؛ "الصدمة" وهي عنصر القتال الأول، تمثلت قديما فى الصراع بين الحيوان والإنسان، ويدور القتال المتلاحم جسدا لجسد، وتستخدم الحيوانات الأنياب والمخالب، ويستعمل الإنسان الهراوات والمدى كأسلحة للقتال المتلاحم، حتى ظهرت الرماح والسهام والمقلاع، والتي كان لها أول تأثير على شكل القتال "باتساع المسافة بين الخصمين"، هذا هو تاريخ القتال بالصدمة.

"النار" هي العنصر الثاني فى الحرب، ظهرت مع اختراع الأسلحة النارية، والذي مكن الجيوش من القتال عن بعد، ارتفعت قيمة عنصر النار مع ظهور المدفعية، واستخدام التمهيد النيراني الكثيف، ونعرف أن قوة المدفعية العثمانية هي التي شقت الطريق لفتح القسطنطينية.

تتحدد كفاءة عنصر النار فى أمرين؛ المدى الفعال للرمى، والثاني سرعة الرماية على الأهداف، ولهذا ألزمت السرايا بالاحتماء خلف السواتر، ومن أنواعها المتاريس والحصون والطوابي العسكرية.

الصراع على احتلال الأرض لا يتم من خلال القتال خلف القلاع، كما تؤدى عمليات الحصار الطويل، إلى إطالة زمن الحرب، وهو ما ينعكس سلبا على احتلال الأرض بالسرعة الكافية، تعرفون أن الجندي فى زمن القلاع والحصون، كان فلاحا يترك أرضه دون زراعة.

لهذا تخلى القادة العسكريون عن الاكتفاء بقوة النيران، والعودة إلى القتال من مبدأ "الصدمة"، لكن بواسطة خلق قدر هائل من الفزع، من هنا ارتفعت الأهمية الهجومية لسلاح الخيالة، والتي تظهر فى قوة الصدمة الناجمة عن هجوم الخيالة الثقيلة ضد المشاة، أو الهجوم الصاعق للخيالة الخفيفة، يتضح ذلك فى معارك المغول.

لا تكسب المعارك فقط بواسطة الجيوش الجرارة، لكن قوة عسكرية صغيرة متماسكة تستطيع أن تكسب المعركة باستخدام المفاجأة أو المناورة، هكذا هزم الإسكندر الأكبر جيش الإمبراطور الجرار، وبعده تمكن خالد بن الوليد من هزيمة جيوش الإمبراطورية البيزنطية.

نحن نعلم أن الإنسان قادر على امتصاص كمية معينة من الفزع والذعر، فإن عجز فر من ميدان القتال، ولهذا تتمثل ذروة القتال بين الخيالة

المدرعة ضد المشاة، بالهجوم من موقع الانقضاض، لتحقيق نتيجة حاسمة بزعزعة صفوف المشاة واختراقها، وتشتيتها، والانتقال بعد ذلك إلى تسديد ضربات فعالة إلى قلب القوات المعادية.

بالطبع هناك طرق تمكن المشاة من مواجهة الصدمة الجبهوية للفرسان، في معركة واترلو كان يكفي حملة الرماح في سلاح المشاة الفرنسي أن يخفضوا رماحهم على زاوية 45 درجة ويثبتون كعوبها في الأرض، لمواجهة انقضاض الخيالة الإنجليزية ليلحقوا بها خسائر فادحة، وكان الجنرال "ماريو" قد قدر الصدمة الحركية بكتلة وزن الفارس والتي تبلغ 370 كجم، وفي ظل سرعة روح الانقضاض، قال ماريو:

- "إن العدو سوف تكنسه ريح الانقضاض".

هذه قيمة الهجوم من الحركة، والصدمة الناجمة عن الانقضاض تكون أسهل عندما يكون القتال بين خيالة ومشاة، وصف "دوبراك" هذه العملية فقال: "انقضوا بسرعة والتفوا حول البلوك الذي تهددونه من كل الجهات كي يضطرب الخصم، وتتزعزع خطوطه وتنفتح صفوفه، عندها لقموا الأسلحة، واصرخوا بأعلى أصواتكم (أسير) ويمكن فهم هذه الكلمة في كل اللغات، فإذا تزلزل وضعهم واهتز، ادخلوا، فإذا استسلموا أوقفوا ضربات السيوف".

ركل الصاغ حواش منتصر الذي كان يجلس بجوار حكمدار المديرية وكبار الضباط المنضدة الموضوعة أمامه، وهو يتساءل بلهجة ساخرة عما حدث في التل الكبير، وقال يقلد القوات البريطانية:

- "هل فهم جنود عرابي صرخة الخيالة البريطانية (captive.. captive.. captive)؟ أم أن ضباطه المتعلمون من أمثالك في أوروبا كانوا يتقدمونهم، ويترجمونها للفلاحين البؤساء، (أسير.. أسير.. أسير)؟"

ضج ضباط المديرية بالضحك، وعاد توتر العرابيين، توقف اليوزباشي حتى عاد الصمت، وقال: "معكم حق حضرة الصاغ؛ لم تحتاج الخيالة البريطانية لأن تهتف بأي كلمة، فالخيالة المصرية سقطت في فخ الخيانة قبل دخول المعركة".

أثــار عــدم معارضــة الحســيني منتصـر ســخط الحكمــدار، فكــر أن المصلحة توجب التفرقة بينهمـا، تـابع الحسـيني: " فـى التـل الكبير لم يكـن هنـاك سـاتر للحمايـة، فانتشـر الهلـع والـذعر أمـام اجتيـاح الخيالـة البريطانيـة لخطـوط المشـاة المصـرية، خطـوط جافـة مـن الجـوع، ناشـفة مـن عـدم التـدريب، يابسـة مـن العتـاد العسـكري ، طافحـة بجهـل القـادة، مـن واتتـه الشـجاعة للبقاء، تكفلت سيوف الفرسان بالإطاحة برؤوسهم.

اسـتطرد بحـزن: "ليتنـا قتلنـا قبـل أن نكتشـف أن قـدرات قـادة الثـورة لا تتعـدى الخطـب المنبريـة. وقـف الصـاغ بقـرف مغـادرا، وقـد حرمـه اليوزباشـي متعة السخرية، الذي استطرد مستكملا:

"الصـدمة والنـار فـن عسـكري لا يتوقـف علـى تـوفر غـزارة الـنيران ودقتهـا، أو قـوة الصـدمة ومفاجآتهـا، فعلـى القـادة الاهتمـام بالمنـاورة بـالقوات، بالقتـال علـى الأجنحـة والالتفـاف حـول قـوات الخصـم، لإربـاك العـدو، وبعثـرة خطوطه، وانهياره المعنوي.

* * * *

فـى الخـامس عشـر مـن سـبتمبر 1883 وصـلت العاصـمة لادو مـن الخرطـوم أنباء جيدة، جعلـت أمـين بـك يعقـد اجتماعـا لكبـار رجـال المديريـة، أعلـن فيـه كـابتن كـازاتى برصـانة وتجهـم، أن الجـيش المصـري بقيـادة الجنـرال البريطـاني العظـيم هكـس باشـا أوقـع بجـيش الإمـام المهدى المزعوم هزيمة قاسية، فى موقعه "كـاوه".

صـفق الضـباط تحيـة للانتصـارات المصـرية، أضـاف كـازاتى: "ومـن الأخبـار العظيمـة أن الجـيش المصـري بقيـادة الجنـرال هكـس باشـا يقـود حملـة للقضاء علـى المهديـة قضـاء مبرمـا"، وأضـاف عـن قصـد: "كما تم القضاء من قبل على عصيان عرابي".

هكس باشا

جلـس الصـاغ منتصـر صـامتا، وبعـد أن أنهـى الحكمـدار توزيـع الرواتـب، قـام فجـأة وطلـب مـن أمـين بـك أن يعطيـه الأمـر بالتحرك فى الصباح لإخماد تمرد قبائل المونبوتو.

- "حواش افندي ألست أحد ضباط حامية لادو؟"
- "أنا! أزاى، هو سعادتك أصدرتم أمرا بكده؟".
انفجر أمين بك، وأشار بإصبعه إلى صدره، متسائلا:
-"ومين اللي دخل نصف ضباط الحامية الحبس الانفرادي، أنا؟! إذا لم تكن لك صفة عسكرية هنا، فلماذا تتدخل فيما لا يعنيك؟".

تجاهل منتصر الأمر، واستطرد محذرا؛ أن زعماء قبائل النيام نيام، ومشايخ مونبوتو انصاعوا للعلم المصري منذ عام 1880، وعندما يدعم "أجنجارا" زعيم تنجازى، الملك مامبا نجا في ذبح حامية تنجازى، فيجب قطع دابر الفتنة في مهدها، وقال برصانة أنه ينصح باستغلال انتصارات الجيش المصري في وسط السودان، لضبط الأوضاع في جنوبه، وأضاف أنه سئم الانتظار، وأن البرارى والغابات، أريح له من زرائب لادو.

بدا لأمين بك أن رؤية الصاغ ثاقبة، وأنه ينوى الوفاء بما يعتقده صائبا، وهو ما يتلاءم مع رغبته في التخلص من وجوده الثقيل، لهذا رأى أن عرضه بالرحيل طوق نجاة للجميع، ما كان يقلقه هو عدد القوات التي سيضطر للتخلي عنها لحملة منتصر، وفي النهاية اضطر لمواجهة المحتوم، سأل الصاغ عن عدد القوات التي يريدها أن ترافقه، أجابه وكأن القرار اتخذ، بأنه سيعود إلى مقره للاستعداد للرحيل، أما عدد القوات فليكن ما تيسر.

ما أن غادر منتصر القاعة حتي أسرع الشيخ عمر الشلح يطلب من الحكمدار أن ينضم لحملة مونبوتو، لم يستطع أمين بك أن يخفي امتعاضه:

- مش فاهم أيه حكاية منتصر معاكم، كلكم عاوزين تتعلقوا في (ديله).
- يا سعادة الحكمدار أنما التحقنا بالجيش من أجل الدعوة للدين الحنيف، وقد أوصانا شيخ الأزهر بأن نكون في خدمة عسكر جهادية الجيش المصري، نقوى إيمانهم، ونشد من أزرهم، ونقف ضد كل من يفت من عزيمتهم، وأن نحسن في قلوبهم الشهادة في سبيل الله، كما أوصانا الأمام الأكبر بأن لا ننسي واجبنا الأكبر، والأعظم، وهو الدعوة لدين الله الحنيف.

- تـروح ليـه وسـط اللـي يـاكلوا البشـر، غـاوي تعـرض نفسـك للخطـر، يعجبـك لمـا يغلـوك في (قـدرة)، ويقطعـوك مـع البصـل والطمـاطم والفلفـل، ويعملوا منك (يخني)، أدعو لدين الله هنا جنبي في لادو.
- يـا بـك المـوت في سـبيل الله غايـة، عـارف حضـركم وجودنـا نحـن مشايخ الأزهر في مجاهل أفريقيا يعني إيه؟
- يعني إيه يا شيخ عمر؟

قال الشيخ وهو يوشك على البكاء:

- التشـبه برسـول الله صـلي الله عليـه وسـلم، عنـدما دعـي أهـل مكـة وهـم علـى ديـن الجاهليـة، للإيمـان بـرب العـالمين، ودخـول ديـن الإسـلام وسـط الكـافرين وعبـدة الأصـنام، والأوثـان، والله مـا شـعرت بأهميـة مجـيء إلا وانـا أقف على لادو، أشهد الناس عرايا كما ولدتهم أمهاتهم، تائهون في الحياة.
- خـلاص، خـلاص، متحملنـيش ذنـبكم شـيخ عمـر، روح مـا طـرح مـا أنت عاوز.

*   *   *   *

فـى الخـامس والعشـرين مـن سـبتمبر 1883 وجـد الحسـيني الصـاغ منتصـر يقـف بقامتـه الشـامخة أمـام كوخـه، يخـبره بصـوته الأجـش ذي الـرنين، أن الحكمـدار أنعـم عليـه بخمسـين خطريـا، هـم كـل مـا جـاد بـه مـن فسـيح إحسـانه، عـاملني زى زمـيلكم (أبـو شـخة) شمـروخ، ورغـم ذلـك فـأن هـذا لـن يمـنعني مـن التحـرك الليلـة، ونظـر فـى عينيـه يسـأله، إن كـان يرغـب فـى السفر معه، وافق الحسيني بلا تردد:

- "سيدي الصاغ، الخدمة تحت قيادتكم شرف كبير".

بزغـت ابتسـامة نـادرة علـى وجـه الصـاغ منتصـر، وقـال: "بعـد أيـام سـتغادر السـفينة المنصـورة لادو، تقـل مـؤن وأسـلحة، والبلـوك الثـاني بيـادة، ألحـق بـي، سأنتظرك فى الرجاف".

*   *   *   *

على باب كوخ الملازم سالم خلاف وقف الشاويش مسعد الرفاعي في احتشام، يطلب الإذن بالدخول، وأمام الملازمان سالم خلاف ومحمد فوزي، طلب بأدب شديد أن يلتقي بالسيدة ألفت السلحدار، كي يوصيها خيرا بزوجته. سأله خلاف.

- هو أنت طالع حملة مونبوتو؟
- نعم يا افندم.

نظر نحوه فوزي بتمعن، ثم قال لصديقه: طب أنا ماشي يا سالم.

- ليه؟ إيه اللي حط عليك فجأة، ما أنت قاعد!
- ح اعمل حاجة، قول لألفت تعمل حسابي على العشا.

دخل الملازم سالم وتركه تهاجمه موجة من القلق، جرت فريدة نحوه، تحكي عن صديقها القرد سامبو، خرجت إليه ألفت هانم تصحبها خادمتها تحمل له الشربات، بدا عليه الاضطراب الشديد.

- أيوه يا مسعد عاوز أية؟

وقف من فوره وقال وهو يجمع يديه المتعرقتين:

- يا ست هانم أنا طالع حملة (مونبوتو)، وطالب من جنابك معروف.

- أقعد أشرب الشربات، وهدي نفسك.. وأنا ح أعمل لك اللي عاوزه، خاطر أبوك الحاج مصطفي الرفاعي كبير.

- يا ستي الهانم.. عاوز حضرتك (تاخدي) بالك من مبروكة.. و"تحطيها" تحت جناحك، دى وحيدة والغربة صعبة.

- مبروكة بنت الحاج حسن؟ من غير ما تقول يا مسعد، سافر وأنت "مطمن"، هو أنت ح تغيب؟

- محدش عارف حاجة يا ست هانم. أمين بك "قالبها" على سعادة الصاغ منتصر، وعاوز يتخلص منه بأي طريقة. ومش مهم يخلص على مين في سكته، حضرتك عارفة إحنا "ملناش تمن".

- ما أنت كنت مع فوزي بيه، سبته لية؟

قال بأسي: سعادة الباشا.. أنا زعلان منه؟

بدا أنها فهمت، هزت رأسها ووقفت: "اطمن" يا مسعد أنشاء الله مبروكة ح تكون في عنية، خد بالك أنت من نفسك، وأرجع لها بالسلامة.

في دروب غابت عنها النجوم تسلل مسعد لكوخه، والقلق يعصف بوجدانه، كان لا يرد أن يري ما يتوقع رؤيته، كان يريد ألا يواجه بما يعرفه، وعلى باب كوخه تواري، وهو يشهد شبحه الضخم، يتراقص على ضوء المشاعل.

لم يستطع الدخول، وسقط جوار باب كوخه منهارا، يضم رأسه بين يديه وركبتيه، يحاول أن يتوارى من العالم، كان عليه أن يغادر في الصباح، لكنه ورغم أن الباشا الصغير، لم يأخذ من مبروكة ما يبتغيه، ولم تشفي غليله بالأسباب التي تبرر امتناعها عنه، سوى ترددها بلا توقف من خلال دموعها "إنها أصبحت زوجة، ولا تستطيع أن تفعل ما يغضب الله، ويؤذي الرجل الذي تزوجها"، أمر لم يفهمه قط، قال يسترضيها، وعيناه الصقريتان تشعان بنفاذية، إنه سوف يرسلها للحج كي تمحو كل ذنوبها، أخرج كيس يحمل عقدا من الذهب، ومده إليها وهو يلكز كتفها بلطف، وقال بصوت محب، يؤكد رغبته الصادقة فيما يعدها به:

- خدي متبقيش خايبة، أنت عارفة معزتك عندي.

- يا باشا، معزتي عندك تسيبني في حالي.. أنا لا عايزه دهب ولا كردان، أعمل بيهم أيه؟ سيبني في حالي الله يرضي عليك.

تغلبت دموعها الغزيرة على رغبته في إشباع رغبته، ولو فعل لاستسلمت، وقف وربت على كتفيها بحنان:

- خلاص.. خلاص يا مبروكة.

انهمرت تبكي حالها بلوعة، انفرج وجهه عن ابتسامة وهو يكرر ضاحكا:

- خلاص .. خلاص محدش ح يقرب منك.. يلا امسحي دموعك أنا مسافر الصبح، ودعيني بابتسامة.

مسحت دموعها ووقفت، وعندما رحل دارت في الكوخ، تنظر إلى الأرض بانكسار، وطوال الليل انتظرت قدوم زوجها ولم يأتي، كان قد

رحـل إلى بـراري (لادو) متعبـا، منهكـا، تعصـف أعاصـير الأفكـار في رأسـه، يتخيل جيدها الشاب الخمري الذي عشقه، يتمرغ بين يدي الباشا الصغير.

فـي الأحـراش سـقط في نـوم متقطـع، وفـي الصـباح تسـلل إلى الكـوخ، كانـت نائمـة ودموعهـا لآلـئ ترصـع خـديها، نظـر إليهـا نظـرة بـاردة، ثـم حمـل مخلته وأسرع إلى مرفأ لادو، ليلحق ببلوك البيادة المتوجه إلى مونبو تو.

*　*　*　*

العتبة الخامسة

طقوس الدم

《05》 خط العرض

- 22 -

وسط بكاء النساء لوداع أزواجهن، وعناق الأطفال لآبائهم الراحلين إلى إقليم موتبوتو؛ الإقليم العاشر من أقاليم المديرية الاستوائية التابعة للحكومة المصرية، وقف بلوك البيادة الثاني (المتوجه لقمع تمرد قبائل الأبراموس بقيادة الملك (مامبا نجا))، استعدادا لصعود السفينة المنصورة، تجمع المشايخ يودعون بعضهم بعضا، بعد أن تقرر توزيع ثلاثة منهم إلى محطات (رومبيك)، و(أمادي) و(آيالك) العسكرية في الشمال، وتوزيع البقية إلى محطات؛ الإسماعلية والمسماة (غندوكرو) و(الرجاف) و(دوفلاي)، في الجنوب.

اخترق الجموع شبح لامرأة شابة، تجري على رصيف المرفأ حاسرة الرأس، تبحث في الوجوه، والدموع تنهمر مدرارة، وهي تنادي:

- مسعد يا رفاعي.. أنت فينك.. شفتم الشاويش مسعد يا ولاد.

كانت تقدم فوزي نحوها يطمئنها:

- متخافيش يا مبروكة هو كان هنا.

صرخت في وجهه: مسعد أمانة في رقابتك يا باشا، لو حصل له حاجة ح تكون أنت السبب، أنت المسؤول قدامي وقدام ربنا.

ضحك فوزى: حاضر يا مبروكة حاضر، واستدار يصرخ:

- حد شاف الشاويش مسعد... يا افندي أنت وهو شوفولي الشاويش مسعد.

نادى الجنود على الشاويش الغائب، وبحثوا عنه لكنه لم يظهر، كان يتوارى داخل غاطس السفينة، وهو يتمني لو تغادر المرفأ من فورها.

صعد الجنود سطح المراكب، أطلقت السفن من مراسيها، وتدفقت الحبال على ظهور الصواري تشد خلفها الأشرعة إلى السماء، خفقت القلاع معبأة بالرياح، وغادرت المرفأ والبيارق المصرية ترفرف أعلى صواريها، وعلى متنها سرية البيادة الثانية بقيادة الملازم أول سر الختم الميرغني، وفصيلتي المساحة، وكان الحكمدار قد

أعفى الحسيني في اللحظات الأخيرة من حملة مونبوتو، وجعل مهمته تقتصر على تسليم العتاد للصاغ فى محطة الرجاف، على أن يشرع فى تنفيذ المهمة الموكلة له من قيادة الأركان.

تذكر الحسينى الكراهية التى علت وجه أمين بك، وهو يواجه حماس العرابيين للالتحاق بحملة منتصر، الملازم الفولى الذي أجابه بأنه جاهز من فوره، واختصر فوزي وشلعى الوقت إلى ثواني تكفيهما للحاق بالصاغ، وعندما سأله عن مصير "المدرسة العسكرية"، فوجئ بوجه آخر لأمين بك، أو إيزاك إدوارد شنيتزر، الذي تحول إلى صخرة لرجل ألمانى صلد، قال له ببرود وعيناه تحملان الغدر:

- "حسينى أفندى، هو أنت بس اللى بتفهم فى العسكرية".

عبرت عيناه ضفاف النهر، إلى برارى السافانا، ومن الشرق ظهرت جبال "يلينيا" و"الكلب"، شاهد جندى المراقبة ذهبية تتقدم نحوهم باضطراد، وأعلامها تطالبهم بالتوقف، عندما التحمت الذهبيتان تمنى ألا تكون هي، توالى إلقاء الحقائب واللوحات وحامل الرسم، ولم يبق سوى ظهور امرأة يعبث الهواء بذيل ثوبها المصنوع من الدانتيل الأبيض الواسع، وقبعة عريضة من القش، قفزت إلى قوت القلوب، وخلفها نزل فيتا حسان، وديمترى كفاكس، أطل كابتن كازاتى يعطى الحسينى رسالة أمين بك، يطالبه باصطحاب فيتا حسان وكفاكس والآنسة فرانسوا دى سابل مع توفير سبل الراحة لهم.

وقف متبلد الحواس، لا يفطن إلى نظرات كازاتى النارية، سمعه يسأل إذا كان كل شيء واضح، تجاهله مكتفيا بنظرة غل مستترة للمرأة التى تقف الآن بمواجهته، تلقى إلى خطيبها بقبلاتها، سألها كازاتى إذا ما كان هناك ما تريده، قالت: "سوف توحشينى".

عقب الضابط الإيطالى بثقة الذي يعد نفسه الرجل الثانى فى المديرية:

- أعرف عزيزتى، لكنك ستجدين ما يشغلك، تصحبك السلامة.

هتفت تدعوه كى تودعه بقبلة، قبلة طويلة بالقدر الذي جعل الموجودين على ظهر الذهبيتين يديرون رءوسهم بعيدا، عادت السفن للتحرك، تستدير الفرنسية لتصطدم بمقدمة نهديها العامرين به، تسأله فى تجهم أن يوفر لها مكانا جيدا للمبيت، وآخر للوحاتها وأدواتها الفنية.

* * * *

فـى الضـحى بلغـت الحملـة خـط عـرض {5^0}، حيـث النهـر بطيحـة متراميـة الأطـراف، ربضـت فـوق تلالهـا ضـبان زرق ذوات نقـط نارنجيـة[1] تتـدفأ بأشـعة شمس ناعمـة، ورفـرف نسـاف[2] بجناحيـه، مطلقـا صـوت أمـج خشـن، مـن منقـاره الـذي يشـبه قـرن الثـور، وحطـت شـحارير بكسـل علـى أغصـان شـجرة طلـح عملاقـة، وزمـار[3]، ينقـر الديـدان مـن شـقوق اليابسـة، تتوقـف الكائنـات لحظة، ترفـع رؤوسـها لأعلـى بحثـا عـن مصـدر الخطـر الـذي أطلقـه صـفير باشـق حلق فى الفضاء، يثير الرعب فى البرية.

تابعــت المنصــورة إبحارهــا إلى محلــة الإسماعليــة[4]، وطــوت الــذهبيتان أشـرعتهما وألقتـا مرسـاتهما، نزلـت سـريتا المسـاحة علـى مـتن قـاربين، توجهـا إلى شفيرى النهر، يقيسون أعماق القاع.

تـابع زنجـى علـى اليابسـة رجلـين يلقيـان بالشـاغول حتـى يلامـس قـاع نهـر، ويصـيحان صـيحة عاليـة، فـى طقـوس سـحرية لأضـحية يحـاول الغربـاء تقديمها لأله النهر "سبك"[5] الذي انتشر بأعداد ضخمة.

نبه الضابطان جنودهما بعدم وضع رءوسهم فى الماء، جلجلت ضحكات أومباشى فرج الله لتعانق تيار المياه الأسيل وهو يقول: "سلمها لله يا افندم".

الشمس فى الربع الثالث من السماء، أنهى أحد القاربين عملـه، وانهمـك العـاملون على القارب الآخر فى قياس قاع النهـر الـذي يـزداد عمقـه بشـكل حـاد ناحيـة الـبر الغربى، بقيت قراءتان، بحث الملازم مقلد عن شعلة ليسجلهما، وعندما استدار كان الأومباشى قد اختفى، تاركا دوامات قليلة، فإذا غابت الشمس شاهد الزنجى الغرباء حاملين المشاعل، ويطلقون صيحات القداسة:

- "واد يا فرج، واد فرج، أنت رحت فين يا ابن (المفحوس)". لـف الصـمت الكـون، وقـد احتلت سطح الماء عيون قرمزية ترقبهم فى سكون وبهاء، ومضى الليل ورحل فرج.

---

1) نارنجية: لون فاتح مشرب بحمرة
2) نساف: طير له منقار كبير
3) الزمار: طائر
4) محلة الإسماعلية: (غندوكرو) تقع على خط عرض {04:90 }، بنيت على الضفة الشرقية من النيـل، كانت عاصمة المديرية القديمة، أطلق عليها أسم الخديوى إسماعيل. هنـا تتوقـف خطـوط الملاحـة بـين المديرية الاستوائية والخرطوم التى تبلغ 750 كيلومترا، ويصبح النهر غير صالح للملاحة، بعدها تستمر الرحلة برا إلى دوفلاى ليعود النهر صالحا للملاحة حتى بحيرة ألبرت.
5) سبك: إله مصرى قديم: على هيئة رجل برأس تمساح. أهم مراكز عبادته (الفيوم) وكوم امبو.

سجل الضباط قراءات قطاع النهر، عند خط عرض {5^0}، بطول ثلاثمائة وتسعين مترا، يأخذ قاعه شكلا أحدب، يزداد عمقا عند شفيرى النهر.

إذا دنا الليل صبت فرانسوا جام غضبها، كيف يغادر لادو دون علمها، لولا أن كازاتى أخبرها برحيله عرضا، لما تمكنت من اللحاق به، شرعت تبكي وهي تتساءل إذا كان رحيله مع منتصر هروب منها، وقالت بتهديد إن الحيوانات لم تتضاجع فى أحراش أفريقيا كما فعلت معك، لماذا أقابل بالجحود، لماذا تهجرني وترحل، وتعرض نفسك للموت مع ضابط متهم بسرقة أموال حكومية، و يحلو له الحياة بين أكلة اللحوم البشرية.

انهارت على صدره تزرف الدموع، فأخبرته أنها عندما علمت أنه التحق بحملة مونبوتو تيقنت أنها سوف تفقده، لأن حملة مونبوتو أعدت للتخلص من الصاغ المجنون، وأن لادو تعلم أن الدناقلة سيختلون به ويغتالونه، ويدعون موته فى القتال، محققين أمنية انتظرها الكثيرون.

قالت لا تربط مصيرك بهذا المخبول، وأضافت بعد أن هدأت أن خطيبها كازاتى قال إن المصريين لا يمكن الوثوق بأمانتهم وحسن نواياهم، فهم يبدون الطاعة والمسكنة، وهم على خلق التمرد ينتظرون الوقت المناسب، وهو أرسل تقريرا يتهم فيه منتصر بأنه لم يسجل بنادق وكبسول فى دفاتر الحكومة، وقد شفع تقريره بطلب وقف منتصر عن العمل، أو ترحيله إلى القاهرة مثلما فعل صمويل باشا بيكر مع أميرلاى محمد بك رءوف قائد فرقة المشاة الخامسة عشرة التى صاحبته فى البعثة الأولى، وبكباشى إبراهيم فوزي الذي اتهم بالتعامل مع تجار الرقيق، وفى النهاية لا أريدك أن تدخل جنة (لاتوكا) وحدك. أريد أن نكون معا مثل إيفا وآدم.

ماذا تقول؟ هذه امرأة مجنونة. هدأ روعها، فلما سكنت، استفسر منها بطريقة مهذبة عن أى علاقة تتحدث؟ ثارت ثانية وهي تعلن أنها تركت خطيبها المرشح لحكمدارية مديرية خط الاستواء، من أجل يوزباشى تافه، وقامت تقذفه بكل ما تصل إليه يدها، أمسك بها فانثنت تهاجمه بضراوة، دفعها إلى الفراش، قبض على ساعديها، وهي ممددة أسفله تلهث، كانت ترتجف بالهوى، دفعت وجهها جانبا وهي تظن أنه يرغب في تقبيلها، لكنه لم يفعل، همس فى أذنها بأنه لم يكن ليُقدر بأن تنشأ بينهما مشاعر الحب، توردت عروقها بالغيظ والإهانة، دفعته وجسدها متورم بالرغبة:

- "كاذب، منافق، مخادع".

ـ أنـت معتوهـة، مجنونـة، مريضـة، لا أفهـم امـرأة لـديها هـوس بمضـاجعة الصبية والمراهقين، قلبك ليس به مكانا لحب طبيعى.

ـ ماذا، ماذا تقول؟

ـ قلت بالحرف الواحد وأنت تحملقين فيهم بولع

"Je t'ai déjà dis mes conditions."[6]

تهاوت منهارة، تبكي وتضحك:

ـ وصدقت! صدقت يا غبي! أنت مختل عقليا.

ـ وأنت مصابة بالخبل.

ـ هل رأيتنى أضاجع أحد سواك، أنت غبي، كنت أثير غيرتك".

ـ "ديمترى كافافيس".

ـ "ديمترى كافافيس؛ أنت مش غبي، أنت أبله. ضحكت والدموع تنثال على خديها. كافافيس يا غبي يحتقرنى لأننى امرأة، كافافيس التعيس يظن أنه الشاعر فى صبوات جنونه، الإغريقى المثالى، دينيسوس الغارق فى متعه، الممزق بين التعالى والدونية، يحتقر النساء والعبيد، ويبكي ابتعاد الوقادين والجنود عنه، استمع لقصائده، تعَرَف أى دائرة من العذاب تهدمه.

ـ أى قصائد؟

ـ ألا تعلم إنه شاعر، وأنه مثلي، يكره النساء، يحتقرهم.

قال بازدراء إنه لا يستطيع التعامل مع امرأة تهدده بكل رجل تتعثر به، صرخت وهي تقفز فى مواجهته:

ـ "ومن تكون أنت؟ وقح يخرج للبحث عنهن".

ـ عمن؟

ـ اللبؤات الأفريقية.

ـ ماذا تقولين؟ أنت مختلة عقليا.

* * * *

---

6) سبق وقلت لك شروطى

رست المنصورة على مرفأ الرجاف[7] ، وعلى جسر المركب عدل الشيخ أبو المكارم من جبته وقفطانه، وحسن من هندام عمامته الأزهرية، وبسمل وحوقل، واستعان بالله، وحمل (مخلته)[8]، ونزل إلى البر على السقالة الممتدة بين المركب والمرفأ، فلما بلغ أرض (الرجاف) وضع كل شيء جانبا، وسجد إلى الله يصلي ركعتين، فلما انهي صلاته، نظر نحوه إلى مراعى الله في عتبات جناته، فدعا الله أن يؤتيه الصلاح، ويسهل من مهمته، ويعينه على ما لا يعلمه، ويقية شر الغيب، وأن كان يحمده على كل شيء، ثم قام متوجها إلى قومندان الرجاف، كي يعلن عن قدومه، ورغبته في استلام عمله الجديد كأمام لجامع حامية الرجاف، ومعلم لمدرستها.

رحب به الملازم حسن سليمان المعين حديثا قومندان لمحطة الرجاف العسكرية، ودعاه لتناول الغذاء، جاءت أبنة القومندان مرحبة بالشيخ الذي طالما أغدق عليها وعلى أصدقائها أثناء رحلتهم الطويلة على ظهر النيل بالمسكرات والحلوي، استقبلها فاتحا ذراعيه:

- أهلا.. أهلا.. أهلا بالست مريم.

أجلسها على حجره، واخرج ما كانت تنتظره:

- خدي الحلويات دي. سأل والدها:
- مش فيه مدرسة هنا، ولا كتاب؟
- البركة فيك يا شيخ عبد المعز.

أزاح الشيخ عبد المعز مريم جانبا، وأخرج من صدريته اللائحة الحكومية التي أرسلتها الحكومة المصرية إلى حكمدار السودان في (18 صفر 1281 هـ) والتي تنص على قيام الإدارة المصرية في المديرية الاستوائية بالعمل على "تشويق أهل القبائل الوطنية في دخول من يرغبون دخولهم من أولاد الأهالي للتعليم، وتعاطي مشغولات وإرشادهم إليها بالرفق والترغيب"[9]، وأعطاها للقومندان، الذي قرأها بتمعن، فلما انتهي قال له:

- الله يفتح عليك يا شيخ عبد المعز، جبت المفيد.

قال الشيخ أبو المكارم وهو يعطي مريم حلوي:

- ولو جت الأمورة المدرسة، فيه من دا كتير.

---

7) الرجاف: Regaf

8) مخلة: كيس على هيئة جراب كبير يحمل فيه المسافرون أغراضهم، استخدم قديما، ويستخدمه الجنود حاليا.

9) حكمدارية أمين باشا ـ المؤلف: جميل عبيد ـ الهيئة العامة للكتاب ـ القاهرة ـ ص 99

- فين يا عمي.
- اسألي أبوكي، هو اللي ح يدلنا على مكانها.

استغرق القومندان حسن في التفكير، ثم سأله:

- تحب تكون فين؟ نعمل كوخ جنب مسكنك، ولا في الجامع؟
- لا جنب مسكني، ولا في صحن الجامع، الله يبارك بلا دوشة، ممكن تعمل لنا زاوية ولا كوخ جنب الجامع أحسن، بس يكون واسع وحلو يخلي العيال تفرفش وتنبسط وتحب تيجى المدرسة.
- أمرك يا شيخ عبد المعز، عاوز حاجة تانية.
- خالص، أنا جبت معاي الأقلام البوص، وألواح الكتابة والحبر، بس لي طلب عند حضرتك.
- كل اللي أنت عاوزة.
- عاوزين سعادتك تشد على العساكر وضباط الصف، وموظفي المديرية، يبعتوا عيالهم.
- تمام.
- ونقدم للولاد وجبة أكل تشرح.
- يا سلام، تمام

دخلت السيدة أميرة مبتهجة، حيث الشيخ، وحملت ابنتها، وضمتها إلى صدرها بقوة:

- خلاص مريمتى ح تروح المدرسة، وتحفظ القرآن.
- تحفظ القرآن، وتتعلم الكتابة والقراءة، وتحسن الخط.
- بس كده يا شيخ عبد المعز.
- لما نكبر شوية، ح نعلمها النحو والحساب.

هتفت أميرة: ربنا يبارك فيك و يخليك، أنت نعمة بعتها ربنا.

* * * *

فى اليوم التالى دخلت قوت القلوب محلة "الرجاف"، نزل الحسينى متوقعا وجود الصاغ منتصر فى انتظاره، لكن الملازم حسن سليمان الذي زملائه بحرارة، أخبره أن الصاغ لم يظهر فى الرجاف. تسلم القومندان من

كفاكس المرتبات والمؤن، وأقام فيتا حسان خيمة لعلاج الجنود والأهالى، فى اليوم التالى أبحرت الحملة إلى محطة (بيردن).

استدعى الحسينى فيتا حسان، كان يعلم أن هذا الشاب الضعيف البنية المهذب، الذي يشيع الارتياح أينما حل، هو صديق أمين بك المقرب، ومستشاره الذي يعتمد عليه فى كافة شؤون المديرية، سأله عن علاقة أمين بك بمستوطنة يهودية، كان قد حمل من القاهرة خطابا له من أعضائها، أجابه أن أمين بك سبق أن أرسل مشروع لجلادستون باشا كى يزكيه لدى مولانا الخديوى، ويطلب أن يشمل اليهود بعطفه، كى يساعدهم على إقامة مستوطنات حول بحيرة ألبرت.

ـ هنا فى خط الاستواء؟.

ـ "مكفا إسرائيل" أول مستوطنة[10] يهودية في لواء القدس، بعدها تزايدت هجرة اليهود إلى فلسطين، وفى عام 1881 بلغ عددهم ثلاثة آلاف يهودي، أسسوا عددا من المستوطنات، ومدرسة زراعية تهدف إلى تزويدهم بالخبرة، وتقديم التسهيلات لهم.

قالت فرانسوا: أمين بك لديه خبرات هائلة فى الزراعة.

ـ وهذا سبب استعانتهم به، وفى الحقيقة لو وجد أمين بك الوقت الكافي لتنفيذ مشاريع الإصلاح وتحسين الزراعة لتمكنت المديرية من توريد الغذاء لأربعة أضعاف السكان الموجودين، ولعلم حضرتكم أن جبال لاتوكا وباري تزرع أجود أنواع الذرة والدخن. وأنفع وأفيد النباتات التي قامت القوات المصرية على زراعتها القطن والأرز، الماء موجود على عمق مترين تحت سطح الأرض وهو رائق غزير. لا يستلزم أكثر من إيجاد الأيدي العاملة، والأموال، والإدارة الحكيمة، لتعمير هذا البلد بالزراعة، وتحويل مديرية خط الاستواء لموطن لليهود يجمعهم من الشتات.

تساءل إبراهيم حليم: واليهود محتاجين وطن ليه، والعالم كله وطنهم.

قال حسان ببراءة وحماس: إبراهيم أفندى هذه ليست حاجة، أو غرض، إنها تعاليم التوراة. في سفر التكوين قال الرب لأبرام: *«اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك. فأجعلك أمة عظيمة*

10) "مكفا إسرائيل": أول مستوطنة يهودية تأسست عام 1870 في لواء القدس، بدعم ثرى نمساوى يدعى سلومون، قام على شراء ثلاثة آلاف وثلاثمئة دونم من أراضى قرية "ملبس" الفلسطينية، وسجلها باسمه

وأباركـــكَ وأعَظِـمَ اسْــمكَ، وتكُــونَ بَركَـــةً، أبَــاركُ مُباركِيــك، ولاعِنَــكَ ألعَنــهُ."، وقَــالَ: ارْفَـعْ عَيْنَيْـكَ، وانْظُـرْ مِـنَ المَوْضِـعِ الـذِي أنْـتَ فيـهِ شِـمَالا وَجَنُوبًا وشَرْقا وغَرْبا، لأنَ جَميعَ الأرْضِ التِي أنْتَ تَرَى لكَ أعْطِيهَا ولِنسْلِكَ إلى الأبَدِ.

سأل شلعى: سمعت أن أرض الميعاد تمتد من النيل إلى الفرات.

- نعـم.. نعـم.. جـاء فـى سـفر التكـوين "وفي ذلـك اليـوم قطـع الـرب مـع أبـرام عهـدا، وقـال:" لنسـلك أعطـي هـذه الأرض مـن نهـر مصـر إلى النهـر الكـبير، نهـر الفـــرات، أرض القينـــيين، القنـــزيين، القـــدمونيين، والحثـــيين، والفـــرزيين والأموريين، والكنعانيين، والجرجاشيين، واليبوسيين."

- طب وإحنا نروح فين؟

- شـلعى أفنـدى، عشــان كــده إحنــا بنــدور علــى أرض خاليــة مــن البشــر، مثل المديرية الاستوائية.

كــان فيتــا حســان يــثير الاحــترام، جلــده علــى العمــل، تواضعــه، حكمتــه، عقليته اللامعة، أثناء تناول القهوة، سأله الحسينى بغتة:

- وليه تعولوا على الخديوى؟

- الخديوى طيب القلب. يستجيب لنصائح "الأورباويين" وطلباتهم.

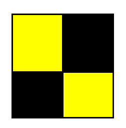
- لكنه مبيهتمش بأولاد البلد.

- أوربا تعطيه الاستقلال عن الدولة العثمانية، وتهبه مملكة.

- والفلاحــين يعطــوه تــاريخ وجغرافيــا، ومــن غيرهــم لا عنــده مملكــة ولا إمارة، ولا حتى عزبة.

- الفلاحــين موجــودين زى الطــين والبهــائم والمنــاجم، لكــن أوروبــا تمنحــه تاجا ومملكة.

*   *   *   *



بلغـــت البعثـــة مصـــب نهـــر "كيبـــو"، وعـــبرت حصـــن (بركليـــى)، قـــرب حاميـــة "بـــيردن" ضـــاق عـــرض المجـــرى، واشـــتدت حركـــة الميـــاه ودواماتهـــا، ارتفـــع شـــفيرا النهـــر، وعــبرت الســفن مــدخل لعــالم جديــد، تكســوه أشــجار ترتفــع هامتهــا نحــو الســماء، وتعــود لتهــبط أغصــانها تــداعب النهــر، يتصــاعد خريــر الميــاه، فــوق

مسطحات العشب، واختفت التماسيح لتترك للأسماك والثعابين وفرس النهر مياه رائقة صافية.

ضربة عنيفة اهتزت لها قوت القلوب، اندفعت المياه وتدفق التيار من القاع، أسرع اليوزباشي إلى قمرة الفرنسية، حمل لوحاتها وهتف بها، أن تكتفي بأدوات رسمها، وأسرع إلى السطح، تابعته تصرخ:

- " مسيو (Officer) توقف، أين تذهب وتتركني!؟".

- أيه؟ فيه إيه؟ مؤن الحملة، العتاد والذخيرة، أجهزة المساحة، الخرائط.

قالت بلوعة: "أنت تتركني ثانية"، استدار نحوها: "لوحاتك، هي الأهم، لو مت غرقا هي التي ستخلد اسمك ".

- تسخر مني؟ دائما تفعل.

- لا والله.

- وملابسي.

- أوعدك أن أعوضك عن كل قطعة تفقدينها من ملابسك.

ابتسمت بتواطؤ وانبعثت من عينها الواسعة شذر من غموض، قالت بصوتها الرخيم المصنوع من أوتار البيانو:

- متأكد؛ كل قطعة؟

- كل قطعة، صدقيني. وأسرع يصعد سلالم الذهبية إلى السطح، لكنه توقف، استدار يدعوها كي تسرع، وجدها تقف بعناد وسط المياه المندفعة، تنظر نحوه بابتسامة عريضة، وقد ورف خديها بحمرة البهجة، أكد ثانية أنه سيفعل، فلما لم تحرك ساكنا، عاد إليها وحملها بغتة بين ساعديه، وأسرع صاعدا لأعلى، تعلقت به وهي تضحك برضا للمرة الأولى منذ لحاقها به.

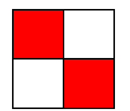
أخليت الذهبية قوت القلوب، وقد رفع أعلى ساريتها علم "طلب بالتوقف"[11]، وعلم "الخطر"[12]، ونقلت مهمات المساحة وأجهزتها إلى البر، ومن تسلق الشفير مد يد المساعدة للآخرين؛ فيتا حسان، وصناديق الأدوية والمحاليل، ديمتري كفافيس ودفاتره، وفي الذهبية وقف الصول مسعد الرفاعي، على سطحها الذي غمره المياه يرسل بأعلام البحرية إشارات تحذير إلى السفينة المنصورة.

---

11) علم "طلب بالتوقف": ذو مربعات أربعة بلونين متقاطعين؛ الأسود والأصفر.

12) علم "الخطر": ذو مربعات أربعة بلونين متقاطعين الأبيض والأحمر.

عندما بلغ الماء عنقه، سبح ناحية الخور وما أن لامست أقدامه قمة الخور، حتى أسرع يستخدم صافرته فى إطلاق إشارات التحذير طبقا لإشارات مورس.



خطر (ـــ. ـــ . ـــ.)

قف (ـ. ـــ. ـــ)

سابق الجميع الزمن والخوف يمتلكهم من دخول المنصورة منطقة الدوامات، تقدم حليم عدوا يحذرها، وعلى مبعدة خمسون متر توقفت المنصورة، وألقت مراسيها على البر بسلام، تمدد الجميع على العشب منهكا، وتنفس اليوزباشى الصعداء، وهو يتخيل نفسه أمام الصاغ، يخبره أنه فقد مؤن حملته العسكرية فى قاع النيل.

على البر خيمت السرية الثانية بيادة، وبجوارها فصيلتا **اللغمجية** والمساحة، وفى الجوار كان شلال "بدين"، ممتنعا على دخول الغرباء. تقف أمامه المراكب الشراعية ـ التى طالما مخرت عباب نهر النيل ـ عاجزة، مثل أفيال وقعت فى قاع حفرة عميقة.

وقف الحسينى يشهد شلالات بيدن، تتدفق بصفاء بلورى، وكأنها ثلج نورانى يلقى إلينا نحن المصريين؛ سخاء، نقاء، عطاء، كرم زائد، داخله شعور أنه لا يبحر على سطح النيل، بل يغوص فى أعماقه، وكلما اقترب من خط الاستواء تخلله شعور جوانى أنه يرحل فى جذوره القديمة.

قام الجنود على تفريغ المنصورة من حمولتها، وفى اليوم التالى أبحرت عائدة بقوة تيار النهر، تقطر خلفها قوت القلوب.

لما كان استخدام الحمير الوحشية التى وفرها الله فى جناته أمرا مستعصيا، أرسل يستدعى رجال المكراكا المتمرسين على حمل الأثقال والسير بها فى الأدغال والبرارى، لقاء أجور معلومة سلفا، بعد ثلاثة أيام حل مائة وخمسون رجلا شرع يعبر بهم إقليم لاتوكا [13] سيرا على الأقدام.

* * * *

---

13) لاتوكا Latuka: الإقليم السادس من أقاليم مديرية خط الاستواء وعاصمتها تارنجولي Tarangole، واهم محطاتها التى أقامها الجيش المصرى أبو Obbo وكرون Kuron، ومارا نجولي Marangole محطاتها أوكلو Okello .

لاتوكا
فردوس الله على أرضه

لاتوكا جنة أفريقية وفردوس الرب بلا مراء، تقع شرق النيل العظيم، سفوح خضراء تتخللها جداول وشلالات من مياه عذبة فرات، مناخ بديع مقتطع من الجنة، غابات تبسط أشجارها ظلالا وارفة فوق بسط خضراء من السندس، هضاب مجللة بالنبت الوفير، ترعى فى جنانها حيوانات وطيور على هيئتها الأولى، تنظر إليك برضا وإخاء، يأسر النفس ولا يترك فيك رغبة للرحيل.

فى السفوح تقيم قبائل البارى، وفوق قمم معرشة بالثلوج تقيم قبائل (اللاتوكو) و(اللوكويا) أنصاف الحاميين، هنا الأراضى تفيض بخيراتها وكثرة محاصيلها، ترعى قطعانها من الماعز والغزلان على زهور تضاهى أجساد البنات العذارى، والصبايا الحسان.

على عتبات "لاتوكا" العذرية، طلب فيتا حسان من الجميع أن يخلعوا أحذيتهم، ويغتسلوا فى جداول النهر، ماء طيب عطر، ثم استأذن سادة المكان أن يسمحوا لنا بالدخول حفاة حاسرى الرأس.

وطأ الجميع مدارج الجنة، التى طرد الله منها الإنسان متلمسين رحمته، أقدامهم تلامس الثرى، وهاماتهم بين النجوم، يسبحون فى أثير يعيش به قوم، يغطون عورتهم بريش الطيور وفراء الثعالب، لا يلمح فارق بين نسائهم ورجالهم، ولا يتوقفون عن الرقص والغناء، حتى توقف القمر عن دورانه، فمالوا يرحبون بالزائرين، ويقدمون ولائم العشق والافتنان.

هنا فى لاتوكا كل شيء يأتى بالمشيئة على هيئته الأولى، صبايا تتجول عاريات، صبايا شاكيات السلاح، تحيط خصورهن زنار للمتعة، صبايا جعلن من دروعهن موائد تمتلئ بما تشتهيه الأنفس، قدمن عليها لحوم تيوس وماعز وغزلان وفاكهة، ونساء ينضجن بالشهوة، أكلوا بنهم وشراهة لفرط جمال مذاقها، وأسرفوا حتى ترعت البطون، دون أن يصاب أحد بالتخمة، وصبايا صببن من جعبتهن شهد، ولبن، ونبيذ من عنب الجنة، وخمر فى أقبية تجرى خلالها أنهار الكوثر.

لاتوكا أرض الجنون

سكروا وأخذتهم النشوة، وأفاقوا والعالم زلال. فرانسوا ممددة جواره، ناعمة كالحرير، ساخنة كالخمر، ملتهبة كالجمر، غنت: "سبع مرات تدور بى الأرض والفلك، رأيت الليل والنهار سبع مرات، مفعمة بشبع ورضا لم يسبق رؤيته على وجه أنثى، قالت شكرا لك يا ألهى على المتع والملذات التى وهبتها لعبدتك "إيفا" المدعوة بفرانسوا دى سابل من حى مونتمارتر".

استيقظوا مذهولين، كيف يدركون ما جرى، والعشب مزدحما بأجساد ممددة بعرى ملون بأبنوس ولبن شفقى، غرقى فى عرق من نبيذ وجعة وماء حى، رأوا الشمس إذا ظهرت تجلت، والأرض تنبت وعول تتبختر بين الذئاب، وأسماك تسبح بين التماسيح، وحمائم تعشش بين أحضان الأفاعى، وكائنات تنبت كالشجر، والسحر طعام. وكل طعام دخل جوفهم بعد لاتوكا، لا يعدو سوى لحوم ونباتات لمستنقعات نتنة.

كفاكس ممدد على العشب حول نار خابية، يحيط به صبية سود، كفاكس السادر فى غيه كان يضحك بهستيريا ويتلو أشعاره:

يأتى الليل بنصائحه ومصالحاته ووعوده . .
يأتى الليل بعنفوان الجسد؛ رغباته ومطالبه . .
كيف لم أنتبه لهم وهو يبنون الأسوار القاتمة العالية الكئيبة . .
"قلت سأذهب إلى أرض أخرى . . بحر آخر . .
لكن كل محاولاتى مقض عليها بالفشل . . قلبى مدفون كميت . .
أينما جلت بعينى . . أينما نظرت حولى . .
رأيت خرائب سوداء من حياتى . . حيث العديد من السنين تبددت . .
" ودعها . . ودع الإسكندرية، التى تضيع منك إلى الأبد . [14] .

* * * *

---

14) قصيدة الشاعر اليونانى ديمترى كفافيس 1863-1933 ترجمة نعيم عطية

في حضـــرة قـــرود كللـــهم الشـــيب، موكلــون بالحكمـة، طفـا شـبح فـى الظـلام؛ فيتـا حسـان يـرتـدى شـال الصـلاة (طاليـت)، الـذي أرسـلته لـه محبوبتـه، وهـو مسـتغرق فـى رقصـة غريبـة، يتهـدج بنشـوة وسـعادة عظات العهـد القـديم، سـأله اليوزباشـى: بتعمـل أيـه حسـان أفندى؟

وأرض للصوفية

همـس مفطـورا بسـعادة إقلـيم لاتوكـا المبهـر فـى جمالـه: " حضـرة اليوزباشـى إذ لم تكـن تـدرك بعـد، نحـن فـى الجنـة، هـذه نعمـة لا يعطيهـا الرب لكل أبنائه.

ـ طب بترقص ليه؟

ـ أنا "حسـيدى"، صـوفى مـن أتبـاع شـيخ الصـوفية "بعـل شـيم تـوف"[15]، الـذي علـم أن "أن العبـادة المثاليـة للـرب (يهـو) فـى العمـل الصـالح، والإيمـان بأنـه موجـود فـى الأشـياء، حاضـر فـى الأمكنـة"، ودعـا إلى التـدين القـائم علـى الفرح، النابع من التمتع بالرقص والغناء،

ـ بابلى من أهل العراق.

ـ بولندى.

تـنفس حسـان فضـاء لاتوكـا، وأقسـم أن (*بعـل شـيم تـوف*) رأى أفريقيـا رؤيـة الصـالحين، أنـا أصـلى لنفسـى مـرة، وأصـلى للرجـل الصـالح مـرات، لأن الرب "يهـوه" أنعـم عليـه بالرؤيـا، وأنعـم علـيّ بالشـهود. أضـاف بحمـاس: ديمـترى كفاكس، رقص عاريا وسط الجنود، والمحبة تغمره.

احتضن الحسينى وهو يبكي من فرط شعوره بالجمال:

ـ "نحن محظوظين، من جاء هنا محظوظ".

ـ أنا جئت معاقبا فيتا أفندى.

ـ أنـت جئـت محظـوظ حسـينى أفنـدى، أرفـع غشـاوة عينيـك، تخلـص مـن همـوم عقلـك، وأفـتح قلبـك علـك تـرى، دخلنـا جنـة الـرب لا رضـوان نسـتأذنه، ولا صراط نسقط من فوقه حيث ينتظرنا الجحيم.

---

15 بعل شيم توف: المعلم ذو الاسم الطيب

فيتـا حسـان الـذي سـيموت بعـد سـت سـنوات فـى طريـق عودتـه إلى وطنـه مصـر مـن السـقم والهـزال، لأنـه أرغـم علـى مغـادرة جنتـه، انغمـس فـى رقصـه حتـى سـقط منهكـا علـى العشـب، يحـدق فـى سمـاء صـافيـة ويـروح فـى نـوم، يقطعه مطر من اللؤلؤ وأزهار الزنبق.

مـع شـروق الشـمس وقفـوا للصـلاة، دعـا اليوزباشـى الله أن يسـعهم برحمته، وألا يلقـى بهـم ثانيـة خـارج جنتـه، وحمـده علـى أنـه يكشـف للأبـرار الصـالحين بعـض مـا يسـتره، فـإذا انتهـوا مـن صـلاة الشـكر والحمـد لله تعـالى علـى مـا حبـاهم بـه مـن نعمـه، غـادرت البعثـة لاتوكـا فـى طريقهـا إلى (دوفيليه)، وغصة فى القلب وشرخ فى الروح؛ والجميع فى مرح وابتهاج.

* * * *


خط العرض 4

- 23 -

الإقليم السابع وطأت البعثة أراضى (فاديبك)[16] علـى هـدى خـرائط أركـان الجيش، متتبعـة الطريـق الـذي سـلكه أمـيرلاى أركـان حرب (بلنج بك) عام 1874، اجتازت جبال، ووديان، ومراعـى نضـرة، وسـهول خصبة، طارد خلالها الجنود بصخب وبهجة أسرابا هائلة من النعام، ونقـل فيتـا حسـان تعليمات الحكمدار إلى قادة الحاميات بتحريض الأهالي علي جمع الـريش، ونقلـه إلى محطة (جاللى)، وإنشاء مزارع لتربية النعام.

علـى نهـر أكـوى، ازدهـرت البريـة بالمحاصـيل التـى كـان (الشـولليون) يتخلصـون منهـا لوفرتهـا، وطـوال الطريـق قـدموا للجنـود لحـم الـزراف والغـزلان والأفيال المقدد، والذي لم يكن فى جمال لحوم لاتوكا المشتهاة.

فـى محطـة كـيرى العسـكرية انتظـر الحسـينى منـذ الصـباح البـاكر حتـى الظهـيرة، دون أن يبـدو للصـاغ مـن أثـر، تحـرك عـابرا نهـري "أكـوى" و"نيامبـه"، وتناولـت الحملـة طعـام الغـذاء فـى قريـة "قانيـه"، حيـث شـلالات "جوجيى"، الساحرة، الممتدة عشرة كيلومترات.

عنـد مصـب نهـر "قربيتـو"، خـرج أهـالى قريـة "مـاجى" يبيعـون لهـم السـمك المقـدد والطيـور، فـى الفجـر توجـه بفصـيلة المسـاحة إلى خـط العـرض {4^0}، كـانوا علـى بعـد ثلاثمائـة كيلـومتر مـن منـابع النيـل، فـى نهايـة اليـوم جلـس الضباط يرسمون قطاعات النهر، و يحسبون تصرفات مياهه.

فـى محطـة لابوريـة العسـكرية، عـاد الرسـل بعبـارة "لا أنبـاء عـن الصـاغ"، لقـد تحـول إلى شـبح يصـعب الإمسـاك بـه، مـع السـحر عـبر نهـر (كـبريفـى)، أصـبح الطريـق شـاقا، فـى الضـحى بلغـوا (دوفـلاى) العتيقـة، علـى بعـد 250

16) فاديبك Fadibek: الإقليم السابع يقع بين لاتوكا وفويرا، وعاصمته فاجولي Gajuli وأهم محطاتها فارجوك Farajok وفاديبك، وفاشر Facher، وفارشيل Farchel ولوبور Lobbor

كيلومترا من خط الاستواء، عبروا نهر (أسوا) أحد روافد النيل الكبرى، على قمة جبل (اريو) الواطئة، وقفوا مأخوذين بسحر جنادل (فولا) وجمالها.

في شرق النيل امتدت بلاد الشوللين، وفي غربه جبال ميتو[17]، وكوكو[18]، حيث قبائل الماديين، والكوتوبين، والكوكوين، توقف في قرية نيمولى الواقعة على حدود مملكة أوغندة، وأعطى قواته راحة بعد أن ظلت تلهث بحثا عن الصاغ الذي تحول إلى طيف.

بدا النهر فسيحا، ودوفلاى صبية زنجية ترقد بنعومة على شاطئ النيل، وخلفها يمتد سفح جبل (أتظه) تظهر قمته عالية عند خط الأفق، على مرفأها رست الباخرتان الخديوى ونيازا، وبالجوار ظهرت الترسانة العسكرية المصرية لصيانة السفن، وإدارة خط الملاحة النهرى بين دوفلاى والبحيرات الاستوائية العظمى.

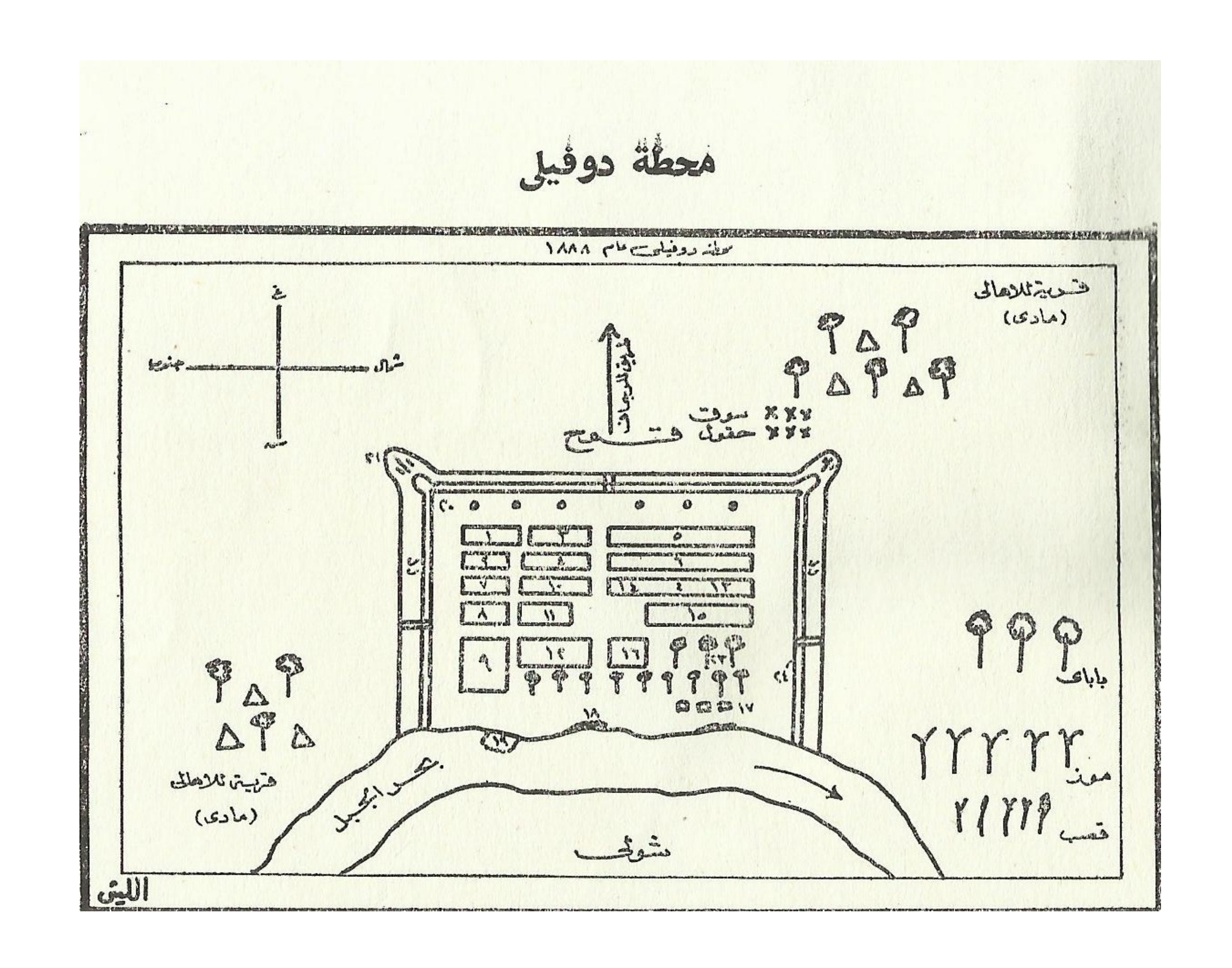
... هبط من التلال يحدث نفسه... ها أنت تسير على الطريق الذي سبقك إليه الصاغ الأسطورة منتصر، وسبقه سيف بن ذى يزن، وسبقهما مصرانيم بن نوح، فمتى تلتقي الخضر أبو العباس؟ فإذا سألك أيها الطريد، ما سر مجيئك؟ ستجيبه... جئت فى معرفة النيل الذي أغوى آدم وحواء البتوليين اللذين سأما البراءة، راودهما عن الفردوس السماوى، بعالم الموت والبعث، والمتعة والشقاء، فتن الغافلان شرك الغواية، وهبطا ينزلقان على ظهر أمواجه، وغرينه المخصب ببركة الجنة.

ألا سيدى أبا الخضر أبو العباس، ركبت ظهر الحية، عبرت البحر الزفتي، وبلغت حافة السماء، رأيت سهولا من الياقوت وجبالا من الزبرجد، وأشجارا من ذهب، وثمرات لوز إذا انضوى قشرها بأشعة الندى، كشفت عن ورقة خضراء مطوية، مكتوب عليها بقلم القدرة "لا إله إلا الله". فإذا تسلل إلى حناياها ضوء القمر، كشفت فى وجهها الآخر "محمد رسول الله"، تماما كما حكى النوتى للمصلوب على صارى سفينة مبحرة على ظهر الحية، فإذا أردت أن أمضي إلى ما وراء قبة الزبرجد، أتى ملك وقال، "توقف يا حسينى، انتهي إليك علم النيل وما وراء ذلك إلا الجنة".

---

17) جبال ميتو: Mitu

18) جبال كوكو: Kuku


محطة دوفيلي
محطة دوفيلي عام ١٨٨٨
قرية للأهالي
(مادي)
شمال
جنوب
سوق
حقول قمح
موز
قصب
بحر الجبل
قرية للأهالي
(مادي)

سأبقى فى (دوفلاى) بانتظار العثور على الخضر أبو العباس، أو الصاغ حواش منتصر، وإن تلاشى أو قتل، ولم أجد أيا منهما، سيكشف لى ملك الجنة عن نفسه، حاملا عناقيد من حصرمها، وتصريحا بالإبحار صعودا نحو السماء، حيث سدرة المنتهى.

* * * *

فى مكتب اليوزباشى عبد الله أفندى[19]، قومندان إقليم (دوفلاى)، علم الحسينى أن الصاغ منتصر موجود فى الأنحاء، وإن كان لا يعرف أين هو، وسأله أنه يفرغ المؤن فى المخازن، لحين ظهوره.

ـ ممتاز. كلمة أطلقها اليوزباشى سعيدا بالتخلص من مهمة ثقيلة، قال قومندان دوفلاى مُواسيًا أن العمل تحت قيادة الصاغ ليس هينا على أية حال، قال الحسينى أنه سيتابع عمله عند جنادل فيولا، وأضاف:

ـ "فاضل موضوع واحد".

ـ تحت أمركم حسينى أفندى.

ـ توفير مسكن لائق لآنسة فرنسية.

أجاب القومندان بابتسامة تنم عن رجل يعيش النعيم: "تقصد حضرتكم خطيبة كابتن كازاتى"، هز رأسه واستطرد: "وصلتنا خطابات توصية من سعادة الحكمدار والكابتن كازاتى".

* * * *

ها أنت فى قلب الوحشة، تنظر حواف جنادل فيولا الصخرية، تشق وعيك الساكن فى الحُجُب، وتشطر الأمواج المندفعة، وتطحنها فى دوامات الأبدية.

ها أنت أسير الدهشة منذ عبرت سفنك السابحة بحيرة "نو"، الحبل السري لرحم ميلادك القديم، تتهشم مشاعر الهزيمة أمام البيرق المحلق فى

---

19) اليوزباشى عبد الله أفندى العبد تولى منصبه بعد رحيل اليوزباشى على أفندى الصياد، لقيادة حملة إخضاع تمرد إقليم الرول.

سمـــاء خـــط الاســـتواء، وفـــى أرض (لاتوكـــا) تشـــعر أن الله أتـــى بـــك هنـــا لـــترى جنته، وتشهد إيمانك بكينونتك.

ها أنـت هنـا فـى قلـب الوحشـة، قسـم الـولاء للخديوى الـذي تنـازل عـن الـبلاد للأوروبـيين لم يعـد لـك بـه شـأن، والآن مـاذا تفعـل هنـا؟ لـيس ثمـة إجابـات شـافية سـوى السـباحة فـوق نهـر، تحمـل سمـاؤه جـوهر وجـودك، عائـدا إلى رحـم مـيلادك الغـابر، تـرى منابعـه رؤى العـين، تفـوح برائحـة البكـارة والعطـر الإلهى.

والآن مـاذا ينـوى هـذا الضـابط الأسـطورة أن يفعـل، ولـيس معـه مـن القـوات سـوى أنفـار مـن الخطريـة، عقـدوا العـزم علـى اغتيالـه، لا تفهـم أى داع يدفعـه للتوغل فى غابـات الكونغـو بمثـل هـذه سـرعة التـى يصـعب اللحـاق بهـا، وفـى صحبته هـذه الزمـرة الخطـرة مـن الجنـود غـير النظاميـة، هـذا رجـل معبـق بـالقوة البدئية، حتى ولو انتظرته قبائل تشتهى اللحم البشرى.

يقطـع أفكـارك ظـل الملازم إبـراهيم حلـيم، يسـألك أن تمنحـه تصـريحا بإجازة لمدة 24 ساعة.

- إيه اللى ح يخليك محتاج إجازة فى دوفلاى؟
- معاى خطاب من والدي إلى قاضى دوفلاى.
- معرفة، ولا قرابة؟
- قرايب يا افندم، الشيخ عبد الفضيل يبقى خال والدتى.
- 48 ساعة لو عاوز.
- كفاية أربع وعشرين ساعة، ما سبقش لى التعرف عليه.

تـدخل صـديقه: "يـا افنـدم ح يعمـل إيـه مـع خـال السـت والدتـه، يتهيـآ لى مش ح يستحملوا معاه ساعتين على بعض".

- "فعلا ممكن 12 ساعة وأرجع قبل الليل".
- اتكل على الله، اسمع! خد هدية محترمة.
- "إيوه اعمل واجب يا أخى".

بينما هـو عـاكف علـى رفـع القياسـات، شـعر اليوزباشـى بظلـه يقـف فـوق رأسه، رأى ابتسامة ساخرة، وصوته يحدثه بلهجة آمرة:

ـ "حضـرة اليوزباشـى بتعمــل إيــه؟ اجمــع ســرية البيــادة وشــوف بقيــة الضباط فين، والحق بى على مكتب قومندان دوفلاى"، ثم اختفى.

*   *   *   *

دخـل الحسـينى مكتـب قائـد الحاميـة وخلفـه الضـباط الملحقـون علـى حملـة مونبوتـو، كـان الصـاغ يجلـس علـى منضـدة القومنـدان، يكتـب خطابـا للحكمـدار، يخـبره أنـه وجـد الكـابتن ردولفـو كـازاتي في قريـة (أنزيـا) مريضـا، فـاهتم بـأمره، والتقـى اليوزباشـى الحسـينى عبـد الغفـار فـى دوفلاى، وقـد أوصـل المـؤن والعتـاد العسـكرى والمـيرى سـليمة، وأنـه بنـاء علـى رغبـة الحكمـدار، فقـد قـرر ألا يلحـق اليوزباشـى الحسـينى بحملـة مونبوتـو، وأعطـاه أمـرا بـأن يسـتكمل عملـه، أمـا الأخبـار السـيئة فقـد تأكـدت يـوم وصـولى قريـة "برنجـى الصـغير"، أن الأهـالي أبـادوا الحاميـة المؤلفـة مـن ثمـانين مـن عسـكر الجهاديـة، جميـعهم مـن الخطريـة، وأعـرفكم أننـى لـن أدع هـذا النبـأ يجعـل اليـأس يتطـرق إلـي قلبـى، وسـأنطلق لأعـاقبهم علـي جـريمتهم، وأنـتقم لسـمعتكم، فـإذا سـلمني الله مـن هـذه الواقعـة وظللـت علـي قيـد الحياة أحطتك علما بالنتيجة.

وقع باسمه ومنصبه الجديد.

صاغ: حواش منتصر

قومندان إقليم مونبوتو الجديد

غمـرت الراحـة الحسـينى، وتـنفس الصـعداء، هـا قـد تخلـص مـن رجـل يصـعب إرضـاءه، مـن رجـل عـين نفسـه ببسـاطة قومنـدانا علـى إقلـيم مهمـا يكـن، متمـردا أو مسـالما، مـن أكلـة النباتـات أو لحـوم البشـر، وهـو يعلـم أن هـذا سـوف يقلـب الحكمداريـة علـى أم رأسـه، دون أن يـثير حكـة فـى شـعرة مـن شـعر رأسـه الغزيـر، كـان سـعيدا لأنـه نجـى مـن الطحـن بـين شـقي رحـى الأوامر المتضاربة للصاغ المتسلط، والحكمدار الكاره.

اصـطدمت عينـاه بعينـى الصـاغ الـذي طلـب مـن مـلازم أول سـر الخـتم الميرغنـى، والفـولى وشـلعى أن يصـحباه فـى الحـال، وأن يتـولى مـلازم محمـد

فوزي نقل العسكر من الشاطئ الشرقى إلى البر الغربى للنهر ويلحق به إلى (برنجى الصغير).

- "أزاى سعادة الصاغ؟ معنديش وسائل نقل".

- قبل غروب الشمس يا افندى.

قال شلعى: "ممكن أساعده سعادتك؟".

- تساعده وأنا اعمل إيه يا حضرة الضابط؟ فاكرنى عاوزك كمالة عدد؟

- لا يا افندم.

- طيب ليه الفلسفة؟

- أبدا، أنا كان قصدى.

- كان قصدك، كان قصدى، اسمع، عاوز تيجى معاى ولا تروح مع كرخانة الحسينى.

- "أنا تحت أمرك يا افندم".

- بتقول إيه مش سامع؟

- تحت أمرك يا افندم؟

- مش سامع يا شلعى.

صرخ شلعى بأعلى صوته: "تحت أمرك يا افنداااااااام".

- حاجة واحدة يفهمها الضابط اللى ح يجى معاى، إيه؟ إيه هي يا فوزي؟

- الانضباط يا افندم.

- لا يا افندى، الانضباط دى شغلة العاجز. واقترب من وجوههم واحدا بعد الآخر، وصرخ:

- الطاعة.

- تمام افندم.

اخترقت عيناه النافذتان وجه فوزي مثل نصل حاد، فصرخ:

- الطاعة.

- لا جدال، لا مناقشات، كلمة واحدة بس أسمعها، تمام افندم.

- تمام افندم.

ـ كل واحد فيكم ح يتمنى لو أن حبل المشنقة زهق روحه، قبل ما يجي هنا، عارفين ليه؟ عشان دى مش الجنة يا حضرات، ده الجحيم بتاع حواش منتصر.

وجه حديثه لليوزباشى بتفكه: "ماحبتش أعكر مزاجك الحسينى أفندى، قلت سيبه يخلص رحلته مع الست الهانم الفرنساوية، خطيبة الأفندى الإيطالي"، وأضاف وهو يستدير راحلا: "والله العظيم أنا ما أنا عارف، جيش ده ولا كرخانة؟".

اشتعل وجه الحسينى بحمرة قانية، تابعه يغادر المكتب، والجميع يؤدون التحية العسكرية ويضربون الأرض بأقدامهم.

* * * *

فى ليلة من ليالى صيف أفريقيا الاستوائية استقبل قومندان دوفلاى الحسينى وفرانسوا فى حديقة كوخه المطل على ضفاف النيل، جلسوا وسط أشجار نخيل يانعة الخضرة، بكرم سودانى مفرط، يشوون وعلا على أضواء المشاعل، وحسبما قال؛ كانت دعوة خاصة من نسائه لليوزباشي الذي جاء من مصر أم الدنيا، تولى القومندان الشواء، وقدم الخدم القهوة، وفواكه المانجو والأناناس، ثم جاءت نساؤه واحدة وراء أخرى، تعرض طبقا من صنع يديها، أطباق مَفْرُوك، ووَيكَة، وتقَليّه، لحم الفَشْفَاشْ ولحم الشَرمُوطْ المجفف، والجَقاجق، كان حريفا، وبصعوبة تبين لفرانسوا التى كادت أن تقيء جوفها أنه مصنوع من أمعاء وأحشاء الوعل، ومعه قدم كرش الوعل نيئا، بعد أن أضيف إليه الليمون والفلفل الحار، وسط الفطائر والحلويات.

أحاطت نساء القومندان به بتلقائية وبساطة، وأمام الدهشة قدم عبد الله افندى العبد نساءه؛ الأولى خمرية من دنقلة، والثانية بيضاء من الإسكندرية، والثالثة من قبائل الشولليين الذين يقيمون شرق النهر، والرابعة وأصغرهن سنا، من الكوكويين الذين يسكنون غربه، بينما هو من الخرطوم، قال بزهو:

ـ "أنا انتمى لصرة النيل".

ـ هارون رشيد الأفريقى، وحوله عائلة جامعة لوادى النيل.

قامت كل واحدة منهن وعادت تحمل قنينة الخمر الخاصة بها، شرعن يصبون الكؤوس له ولفرانسوا ولأنفسهن، عزفن على الطبول والقيثارة والغناء، بعد ساعتين كن يرقصن معا، والحسينى يخالطه شعور بالوحدة، وتحت إلحاح النسوة رقصت فرانسوا بينهم، وخيم عبد الله أفندى بعينه على فرانسوا بشبق، فكر الحسينى أن الرجل لديه أريحية واسعة، وقلب متسع كى يضم إلى حديقته النيلية مناخ أوروبا القارص.

تحت سطوة الخمر قدم القومندان لليوزباشى تبغا من التمباك، وغمز له إذا أراد أن يقاسمه إياهن، استقبلت الفرنسية الرسالة بسرعة، شاهد النساء يتمايلن خلاعة وينظرن نحوه ضاحكات، يتطلعن إلى قدومه.

لكن عقله المشغول بما ذكره الصاغ عن الكرخانة، جعله يقف شاكرا وممتنا لعرض قومندان إقليم دوفلاى الكريم، وطلب منه أن يسمح لهما بالمغادرة، ودعته نساء القومندان بابتسامات تحمل صفاء ومودة، محلاة بشهد العتب والخبث، ورغم ذلك لم يفهم كيف استيقظ ليجد نفسه بين أحضان المرأتين الدنقلاويتين، وتلك التى تنتمي لقبائل الكوكويين، بينما اختفت فرانسوا تاركة خلفها رسالة تنبئه فيها أنها رحلت لملاقاة كابتن كازاتى فى قرية "أنزيا"، وأضافت باللغة العربية: "كى تنهى علاقتها به".

* * * *

- 24 -

طقوس الدم

مع أخر ضوء للشمس انطلقت سرية البيادة على متن القوارب، فى مواجهة تيار النهر القوى، حث الشاويشية الجنود على التجديف بانتظام وثبات نحو الغرب، وإلا جرفهم التيار القوى نحو الجنادل:

- يلا وراى، هوب، اضبط ضربتك على المية يا وله، أصرخ وراى، هيلا هوب، هيلا هوب، التيارح ياخدنا بحري يا مرة يا ابن المرة، هيلا هوب، هيلا هوب.

- هيلا هوب، هيلا هوب.

وكلما غابت الشمس، ارتفع دوى الطبول، وظهر على اليابسة أشباح ضواري، تزوم بانتظار بلوغ القوارب الضفة؛ ضباع، فهود مرقطة، أفاعى وتماسيح مضاءة بالجحيم، ليوث خامدة.

صرخ الشاويشية فى العسكر:

- "يلا يا نسوان يا ولاد الكلاب، أحنا بنعدى البر التانى، التيارح ياخدنا بحري يا مرة يا ابن المرة، أحنا مش مسافرين بحري، البر أهه قدامك ناحية الشمس يا حمار".

- يلا وراى، هوب، اضبط المجداف على المية يا وله، أصرخ وراى، هيلا هوب، هيلا هوب، هيلا هوب، هيلا هوب.

- جدف بعزمك يا ابن المفحور، ح تودونا فين؟ البر أهه يا بن الكلب هيلا هوب، هيلا هوب...

ـ وصلنا يا رجالة.
ـ أنزل يا عسكرى يا نفر، عمر سلاحك يا وله.

قفـزت السـرية إلى الـبر، انفجـر السـكون بصـيحات مدويـة، ظهـر مئـات المحاربين من البرارى يلوحون برماحهم، ويطلقون زئير الرعب:

ـ أوأووه ه.. أوه ه.. أوأووه ه.. أوه ه.. أوأووه ه.. أوه ه..

بـالخطوة السـريعة قـاد المـلازم فـوزي سـريته فـى محـيط يهتـز فضـاؤه، بـدقات الطبـول ورقصـات الحـرب، انشـق المحـاربون تـاركين للسـرية طريقـا وحيـدا، ورمـاح مشـرعة يقرعـون بهـا ظهـور دروعهـم السـوداء الموسـومة بعلامـات السحر والبداءة.

فـى نهايـة الحشـود المحاربـة وقـف الصـاغ علـى تبـة عاليـة فـى جلبابـه السـودانى القصـير، علـى وجهـه ابتسـامة سـاخرة، تتـدلى مـن جانبيـه غـدارة وسـيف حـاد، صـنع بمهـارة لقطـع الرقـاب، شـاربه الملفـوف بعنايـة تجعلـه نظـير نفسـه، يتـدلى غليونـه مـن زاويـة فمـه؛ زعـيم وسـط أنصـاره ومواليـه، بجـواره وقـف المـلازم أول الميرغنـى، والملازمـان الفـولى وشـلعى. وأمامـه ثلاثمائـة محـارب ينتمون لقبائل المكراكا مسلحين بالرماح.

الآن صـار معلومـا أن الصـاغ الـذي غـادر لادو فـى زمرتـه المكرسـة لاغتيالـه لم يصـعد النهـر، وإنمـا توجـه إلى مكراكـا، حيـث اسـتعاد تحالفـه القـديم مـع القبائل التى شاهدته يعبر مديرية بحر الغزال عائدا بقافلة الرقيق المحررة.

أدى فـوزي التحيـة العسـكرية لقائـد عظـيم، رفـع الصـاغ يـده فحـل الصمت، وأعطى أوامره بتحية العلم الذي يكاد يمس سماء النهر.

فـى هـذا الجـو المشـحون بـالأنواء، وتـديره الأقـدار الغامضـة، انتصـب الضـباط، كسـيوف صـقلت للمعـارك، تضـاءلت الأسـئلة لـذوات تائهـة، وجـدت مصـيرها فى هذا الرجل الأسطورة، وهذا العلم الخفاق العظيم.

* * * *

الليل فـى أفريقيـا غمـام ومطـر، سـتارة تشـف عـن جسـدها البكـر، عروقهـا جـداول عطـر، هضـبتها المكسـوة بالخضـرة، وغـدائر مـن أرج، وشـلالات هـادرة، ونهيرات صغيرة، الليل فى أفريقيا، بداءة وشبق وحشي.

على الخط الفاصل بين حوض النيل الأعلى وسفوح حوض الكونغو توقفت القوات للمبيت فى قرية برنجى الصغير، فى الليل غادر الصاغ المعسكر مصطحبا خمسمائة وعشرين محاربا، مخلفا وراءه تعليماته باللحاق به إلى قرية "الطويل"، أولى محطات إقليم مونبوتو العسكرية.

على تخوم القرية جاء صوت الريح حاملا قرع الطبول وصرخات المحاربين، تقدمت سرية البيادة فى دروب القرية، يلقاهم نباح الكلاب، بلغوا ساحة عشبية حيث القرية مجتمعة حول زعيمها، الذي جلس فى تاج وزنار من ريش الطاووس، بجواره الصاغ فى جلبابه الكتانى الأحمر القصير، مشدود القامة، وخلفه جمع واسع من محاربيه، وبين يديه تجمع محاربو قرية الطويل يرقصون رقصات الحرب.

وقف الساحر يمارس طقوس الدم[20]، يستره الريش، ورأس تمساح، شد أوتار وجهه ومقدمة بطنه قطع من عظام حادة، فإذا انتهى من طقوسه، غرس نابا تمساح فى ساعد الرجلين، تسربت دماؤهما، وامتزجت بقلب قرد التهماه سويا.

كود: د
د: دماء
للدماء مذاق خاص

رفع حواش رأسه ملوثا بالدماء، مخمورا بمذاقه، ينظر للجالسين بزهو، وبؤبؤ عيناه يدوران فى مآقيهما، ينفذان فى قلوب المحاربين بالمهابة، والخوف فى صدور الأهالى.

فى قرية "بنحيدي"، تكررت طقوس الدم وأمده شيخها بمئات المحاربين طمعا في الغنائم، غادرها شمالا إلى بلاد "النيام نيام".

فى رسائله إلى زملائه الضباط العرابيين، كتب الملازم فوزي: "صار معلوما أن الصاغ يعرف طريقه لبلوغ أهدافه فى ظل أسوأ الظروف، ولا يقود جنوده إلى نهايات كارثية، وهو ضابط يملك مقومات القيادة التى تجعل الجنود مستعدين للسير ورائه إلى أقاصى الدنيا، والموت تحت رايته.

نيام نيام

غادرت الحملة قرية "بنجيدى" تضم ألفا وثمانمائة محارب، وانضم إليها مائة من المادى، ثم صعد الصاغ شمالا إلى بلاد النيام

---

20) طقوس الدم: هو تحالف تام واتحاد لا فكاك منه بين قبيلتين، وعهد على ألا يخشى الجانبين خيانة أو غدر الآخر، حتى لو كانا عدوين لدودين، ذلك أن خصومات وجراح الماضى تلقى في زوايا النسيان

نيـام، فدخلـها علـى قـرع الطبـول والنقـارات، يتقـدم محاربيـه فـى مشـيته النظاميـة، ممسـكا بعصـاه المصـنوعة مـن العـاج، فعومـل معاملـة الآلهـة، وبوصفه محرر العبيد.

شـاهد العرابيـون شـعبا مـن زنـوج أنقيـاء، قصـار القامـة، رءوس مـدورة، شـفاه غليظـة، عـراة لا يغطـون عـورتهم، تحمـل أقـدامهم ذات العضـلات الضـعيفة بطـون منتفخـة تميـل إلى الأمـام، تتـدلى سـواعدهم الطويلـة إلى جانبهم، وهم ينحنون إلى الصاغ بتبجيل واحترام.

جلـس الصـاغ والـزعيم معـا، أشـار الصـاغ إلى الملازم نظمـي عبـد الملاك، كـى يقـدم بندقيـة ريمنجتـون هديـة إلى الـزعيم، اسـتقبلها بإعجـاب شـديد، سأله عمـا يمكـن أن يفعلـه بهـا، صـوب منتصـر إلى خنزيـر، فـأرداه مضـرجا فـى دمائه، تراجـع الـزعيم لقـوة السـحر، وجلـس الصـاغ يمسـد شـاربه، مزهـوا مختـالا، ملـك علـى عشـيرته، فـتح العرابيـون أفـواههم علـى سـعتها، يشـاهدون شـيوخ النيـام نيـام يتقـدمون نحـو القـائـد المصـرى، يمارسـون طقـوس التحـالف الـدموى، ولما انتهى كان حواش منتصر غارقا فى بحر من الدماء.

تبودلـت الأنخـاب، وسـط طعـام شـهي مـن قـرود، ثعـابين، حشـرات زاحفـة، ضـب أفريقـى، شـربوا حتـى الثمالـة العـرق المصـنوع مـن الـبلح، والـذي أحضـروه خصيصا من أجله، وسهروا حتى الفجر.

فـى الليـل أملـى منتصـر علـى فـوزي خطابـا منمقـا إلى الحكمـدار، يخـبره أنـه اسـتطاع اسـتعادة السـلاح المفقـود، وتوزيعـه علـى الحملـة المتقدمـة باتجـاه مونبوتـو، موضـحا أن الحملـة غـادرت لادو تحـت سمـع وبصـر المـدير، دونمـا قـوة نـيران، لكنهـا حكمـة الله سـبحانه وتعـالى فـى تحقيـق أهـداف أمـين بـك وأغراضـه الشـريفة، التـى ترجـو خـير الحكومـة المصـرية، وعمـران المديريـة وليحيا الخديوى أمير البلاد المفدى.

فـى الخيمـة حـدث فـوزي صـديقيه الفـولى وشـلعى عـن الخطـاب الـذي أمـلاه عليـه الصـاغ، وقـال إنـه لـو اسـتطاع الضـحك لفعـل، لكنـه خشـي ثورتـه، وأضـاف أن الصـاغ داهيـة، يختـار ألفاظـه بعنايـة، ويعيـد صـياغتها مـرات عديـدة، وأنـه فـى هـذا الخطـاب ضـرب ثلاثـة عصـافير بحجـر، فاسـتعاد البنـادق التـى اختفـت مـن عهدتـه إلى النـور، ووبـخ الحكمـدار علـى عـدم مـده بـالقوات

والسلاح، وأخيرا قام بالتنويه بالأهداف النبيلة لحكمدار المديرية، وللخديوى أمير للبلاد.

فى الصباح الباكر وقف الصاغ على رأسيهما، سألهم إذا كانوا يفهمون السبب الذي جعله يصحبهم معه، أجاب الفولى أنه جاب المديرية وراءه، وهو أمر لم يحدث إلا عندما طلب منه إحضار مسطرة الضرب الوحيدة لدى الجيش المصرى لمدافع طوابى الإسكندرية، وأضاف متهكما؛ وطبعا أحضرناها بعد أن دمر الأسطول البريطانى الطوابى وتركها أنقاضا.

قال باستهتار خلنا من أعمال عرابى باشا وزمرته، أنا أريد تدريب القوات، أمامكم أسبوع وبعدها سنغادر بلاد النيام نيام شطر نهر "ويلي" سنخترق إقليم مونبوتو عبر النهر إلى الكونغو.

- مستحيل افندم! ألف وثمانمائة محارب، ثماني عشرة سرية فى أسبوع. مستحيل

- "ح تعمل كدة، أنت والأفندية اللى جنبك".

جمع فوزي أعصابه: "يا افندم أنت مش محتاج تهددنا، أنا شخصيا مستعد أموت قدامك".

- "عموما قدامكم أسبوع، سبع أيام لتدريب القوات".

تساءل الفولى: "حضرتك بتسخر ليه من العرابيين؟"

التفت يمسد شاربه الكثيف، نظر إليهم باستخفاف، يفكر إذا ما كان عليه الإجابة على سؤال الملازم صاحب الابتسامة الماكرة، أم يتجاهله، كان قد اختفى لكنه عاد ثانية وقال:

- "كان لدى العرابيين خمسة أعوام كاملة لتدريب الجيوش للحرب، أما هنا فأنا فى محيط معادى، ليس لدى بشرة سوداء، ولا انتمى إلى قبيلة، الاسم الوحيد الذي يجعلهم يطيعوني عن رحابة وسعة، هو اسم الخديوى الذي تمردتم ضده، الجيش المصرى عايش هنا باسمه، وتحت العلم، وبالرغم من كده القبائل النهاردة معاى، بكرة ممكن تكون ضدى، أنا مطالب يا افنديه بعمل المستحيل، فهمتم؟".

-.......

عاد يصرخ ثانية: "فهمتم؟"

صرخ الثلاثة: "تمام افندم".

- "مش سامع، فهمتم؟".
- فهمنا يا افندم.
- "يا افنديه؛ أنتم مؤمنين أن الحرب يكسبها صاحب حق و يخسرها مغتصب".
- "طبعا يا افندم".
- خالص يا فولى، ده كلام فارغ، مثالى، أحلام شوية ضباط عيال لسه بيرضعوا فى المدرسة الميرى، الحرب يا افنديه أنت وهو أن تأخذ ما ليس لك، أن تغتصب ممتلكات الآخرين، الحرب كسر الحدود وضم الممالك، وبيع الأسرى رقيقا فى أسواق النخاسة، الحرب تاريخ الاغتصاب، فإذا أرادت زمرة عسكرية أن تحرر بلادها، فينبغى أن تحقق النصر فى الميدان العسكرى أولا، وليس على ساحات المنابر، مش ترمى الفلاحين بجلاليب الكتان للموت، زمن الفتوحات الملكية يا حضرات انتهى.

فيما بعد طاردهما صدى صوته، "الحرب يكسبها القادر على عقد تحالفات أوسع".

* * * *

تولى الملازمان الفولى وشلعى تدريب المحاربين على تشكيلات التجمع والاصطفاف، والسير فى طوابير الحركة بانتظام، وتبادل تشكيلات الدفاع والمساندة، التحول للهجوم أو المطاردة، بينما قام فوزي بتدريب المحاربين على إطلاق النار.

قرب الضحى تجمهر أمام كوخ الصاغ أمهات قدمن يحملن سلال الموز والفاكهة وبناتهن، يقدمونه إليه بغرض أن يمن عليهن بهبة الحصول على سلالته، دخلن خيمته دون توقف، وخرجن إلى أمهاتهن مبتهجات مضرجات بحمرة الكاكاو. السهم القصير الذي أطلق عليه من قطعة غاب كان مسموما، وقبل أن يشرع

طقوس
ن: نبالة
هذه صبايانا.. تفضل علينا
حضرتكم بوضع **بذورك الإلهية**
فى أرحامهن

جنوده فى حرق القرية، جلست ساحرتها على رأسه تعطيه ترياق السم، الذي قذفه به أحد محاربى "الأبراموس" التابعة للملك "مامبا نجا".

فى خارج كوخه وضعت حراسة مشددة، ووقف الفولى على رأسه لحمايته أثناء هلوساته، وطوال خمسة أيام أمضاها فى غيبوبة اجتمع أهالى القرى يحيطونه بطقوسهم المقدسة، ويقدمون أضحيتهم للأرواح، التى تتحكم فى مصائرنا جميعا، ويدعون أرواح الأجداد، بأنهم ينتظرون قيامته من الموت، بعد أسبوع خرج من كوخه ووجهه ملطخا بأصباغ ملونة، والسحرة يرقصون فى حضرته.

*　*　*　*

على نهر "ويلي" قام أهالى القرى بمد حملة الصاغ بعشرات القوارب. وعلى امتداد الهضبة الشمالية لنهر الكونغو توالت زرائب العبيد خاوية، وقد هجرت لتوها، يتناثر حولها مئات المختطفين، جوعى، منهكون، أطلقهم الصيادون خوفا من انتقام منتصر.

أعطى الصاغ تعليماته بتسجيل الرقيق المحرر، وقام بنفسه على تقديم الطعام لهم، وتوزيع المقننات التى تكفيهم للعودة إلى قراهم، يثنون عليه بالشكر والحمد، يرحلون وهم يرددون اسمه، ينتشر حديثهم فى البرارى والغابات عن الزعيم الكبير، الساحر العظيم والأسطورة، يمهدون الطريق لتحالفاته القادمة، ويكسبون معاركه قبل أن تبدأ.

على تخوم محلة (نيا نجارا)[21] ظهرت زريبة ضخمة، على منعطف الطريق الترابى خيم عليها صمت مريب، أثار غصة فى الحلوق، غادرت القوات القوارب، وعبرت القوات الزريبة باتجاه قرية (جمبارى) الواقعة فى منتصف المسافة بين نهر (ولي)، ونهر (بوموكاندى).

بدأت مؤخرة السرية تبتعد وئيدا، التفت الملازم محمد الفولى إلى الخلف، ليرى الزريبة تحولت إلى جنى يترصد العائدين إلى أكواخهم، شاهد حلقات الدخان تتصاعد من أعلاها، أشار الجنود التراجمة نحو المبنى برعب، ثمة رسائل استغاثة من طرائد أخفيت بمهارة.

---

21) نيا نجارا: Niangara

استغاث الجنود التراجمة بمنتصر، بينما استدار محاربون يشيرون بهستيريا بحرابهم إلى الخلف، أمر الصاغ قواته بإحكام الحصار حول الزريبة، لحظتها طفا الهلع والرعب على وجوه الخطرية.

تحول صيادو الرقيق إلى جرذان فى مصيدة وحشية يحيطها جوع الانتقام، هاجم محاربو القبائل الأبواب الخارجية بضربات المعاول وجذوع الأشجار، لتكشف عن عشرات النساء والأطفال والصبية، تكدست بهم أقبية المبنى وقيعانه، ممددين عرايا، مقيدين فى سلاسل حديدية، وقد كمم أفواههم الحزن والأسى.

طارد محاربو القبائل صائدى الرقيق، الذين وقفوا على سلالم الساحة الداخلية يطلقون النار، كانوا خليطا من الدناقلة وحلفائهم من محاربى الأبراموس، عندما نفدت ذخيرتهم تراجعوا، يصعدون السلالم إلى السطح، طريق مغلق بسماء رحبة، لا يقدم من النهايات سوى الاختيار بين القفز من حالق، أو الاحتراق بالنيران التى أضرمت فى الزريبة.

على سطح المبنى ظهر أحد الدناقلة الذين عينوا لحراسة القوارب، يلوح طلبا للنجدة، فيما بعد علم أن الخطرية كانوا يرسلون رسائل تحذير إلى تجار الرقيق، فيسارعون بالرحيل ومعهم ضحاياهم، إذا توفر لهم الوقت الكافى بالفرار، أو الإفراج عن الطرائد، وإطلاقها إلى الغابات، ليجمعوهم بعد رحيل منتصر.

ألقى الخطرى بنفسه من أعلى، تلقاه الرقيق المحررون ومزقوه إربا، وقف عساكر الجهادية، يتابعون المذبحة، دون أن يداخلهم مشاعر الشفقة.

سرت النيران تلتهم المبنى، وانتشر فى البرارى الصبية والأطفال والنساء العرايا، يجرون فى الأنحاء المحيطة بزريبة (نيا نجارا) والدموع تنثال من العيون بحرقة، والغضب يرتسم داخل عيون غلمان لم يتجاوز عمرهم الثامنة، يتلفتون وهم يبحثون فى هلع عن مكان يهربون إليه.

طلب عدد من البنات، مقابلة القائد المصرى، كن بنات الشيخ جمبارى ملك قرية كوبى، استقبلهن الصاغ بالاحترام اللازم، وطلب من سر الختم الميرغنى التحفظ عليهم تحت حمايته، وتقديم العناية الكاملة لهن.

علـى سـطح الزريبـة ظهـر أحـد صـيادى العبيـد والنـار مشـتعلة فـى جسـده، قفز من السطح كتلة من اللهب، بعدها توالى سقوط الجثث المحترقة.

مالـت الشـمس نحـو الربـع الثالـث، بـدأ المطـر فـى التسـاقط غزيـرا، وكأنـه رفـض أن يُبَكّـر فـى المجـيء لإنقـاذ المحاصـرين، أمـر الصـاغ منتصـر تفتـيش المبنى، بحثا عن ناجين، دخل فوزي والسخط يعصف به.

كانـت الزريبـة مشـتعلة فـى الـداخل، أنـين وصـراخ يتصـاعد مـن قيعانهـا، كسـر أبوابهـا، انبثـق الرعـب يهاجمـه، جثـث متفحمـة أوثقـت معاصـمها وأقدامها وأعناقها بالأغلال، عريها الدامى، سلاسل متوهجة بحرارة اللهب.

كـان العـالم القـديم يلطـم الصـدر بقسـوة، وشـبح أسمـر، يرتـدى العبـاءة السـوداء لرهبـان الكنيسـة الأرثوذكسـية، يخـرج زائـغ النظـرات مـن البئـر الواقعـة فـى منتصـف السـاحة الداخليـة للمبنـى، أسـرع يحتمـى بالمصـريين، ويصـرخ، يعـرف عـن نفسـه بأنـه الراهـب المصـرى يوحنـا الإخميمـى مـن أرمنـت، تقـدم الجنـود لإنقـاذه، خـرج محتميـا بشـلعى، ليقـف باكيـا بـين يـدي الصـاغ يطلب الحماية.

بـدأ السـقف فـى الانهيـار، وبصـعوبة تمكـن الفـولى مـن إنقـاذ فـوزي مـن مـوت محتـوم، غـادرا المبنـى، والظـلام يخـيم علـى الـبرارى، حيـث نصبت وسـط حشـائش السـافانا حلقـة واسـعة مـن المشـاعل، ألتـف حولهـا جنـود بلـوك البيـادة الثاني، والأهـالى التـى جـاءت مـن القـرى المجـاورة علـى عجـل، لعلـها تجـد أبناءهـا الذين اختفوا ولم يعودوا.

علـى حافـة الـدائرة كـان رداء الراهـب الكهنـوتى ملقـى بجانبـه، وبجـواره جثـث لفتيـة مـاتوا أثنـاء تعرضـهم لعمليـة خصـاء، وهـو مصـلوب علـى عـروس خشـبية متصـالبة، وظهـره العـاري فريسـة لسـوط الـملازم أول سـر الخـتم، وبـين الحـين والآخـر كـان طبيـب الحملـة يتقـدم كـى يتأكـد مـن قدرتـه علـى تحمل الأربعين جلدة الباقية من عقابه.

مشهدا لم يفهمه العرابيون، لماذا يجلد قس مصرى فى أحراش أفريقيا؟

فـى هزيـع الليـل ألقـى الصـاغ منتصـر أمـامهم حقيبـة الراهـب الجلديـة، بـين ثناياهـا مـدى وشـفرات حـادة معقوفـة وأحجـار بسـن المـدي، طلـب مـنهم إرسـالها

فـى البريـد إلى العاصـمة لادو، علـى أن يوصـى بترحيـل الراهـب وأدواتـه إلى القاهرة، تساءل الفولى عن الكتاب المقدس، أجابه أنه احتفظ به.

* * * *

ولج الصـاغ بلـدة (بمبـا) الـتي يرأسـها الشـيخ أزنجـا أخـو الشـيخ جمبـاري فدخلـها فـى الخـامس عشـر مـن ينـاير 1884، وقـام بمظـاهرات عسـكرية أطلـق جنـوده خلالهـا كـثيرا مـن الطلقـات الناريـة إرهابـا للأهـالي، اسـتقبله زعـيم البلـدة بـالاحترام والتبجيـل الـلازم لجـيش يقـوده قائـد عسـكرى تحوطـه قـدرات خارقـة، عقـد معاهـدة الـدم بينهمـا وأصـطحبه في مسـيرة مـع ألـف وخمسـمائة محـارب انضـموا للحملـة، وعنـدما غـادر (بمبـا) إلى قريـة (كوبى)، كان الجيش التابع للصاغ قد بلغ ألفين وخمسمائة محارب.

اسـتقبل الأمـير جمعـة ابـن الشـيخ (جمبـارى) الصـاغ، قـدم لـه التحيـات، مصـحوبة بـأكوام العـاج، وأربعـين بندقيـة اسـتولى عليهـا رجالـه مـن حاميـة (بنجيدى)، وطلب أن يسمح لهم باستقباله فى صحن جامع "كوبى".

جلسـا قبالـة الآخـر، وحولهمـا رجـال القريـة وأمـام جامعهـا الفقيـه أحمـد ود الطيـب، دار الحـديث بلغـة عربيـة سـليمة، تعلمهـا الأمـير وأخواتـه الفتيـات، فـى المدرسـة التـى أنشـأها الصـاغ النـور أغـا محمـد[22] 1877 فـى الإسماعيليـة (غوندوكرو) عاصمة الإقليم القديمة.

سـأل الأمـير الصـغير عـن صـحة مولانـا الخـديوى إسماعيـل، فـأخبره الصـاغ أن الخـديوى إسماعيـل تـرك الحكـم، لابنـه الخـديوى محمـد توفيـق، كمـا فعـل والـدكم الملـك جمبـارى عنـدما تـرك الحكـم لكـم، تسـاءل الأمـير باهتمـام عمـا إذا كـان جلالـة خـديوى مصـر المعظـم، قـد أسـرته القـوات المصرية مثلما فعلت مع أبيه الملك جمبارى.

أجـاب الصـاغ بعظمـة وتبـاهى، أن ملـوك مصـر لا يأخـذون أسـرى، لأنهـم أكـبر ملـوك الزمـان، لكـن الخـديوى إسماعيـل سـئم الحكـم، وهـو يعـيش الآن فى نعـيم تحـيط بـه ألـف جاريـة روميـة بيضـاء وسـوداء، وأن فـى قصـره نهـرا جاريا من خمر العنب لا يسكر من يشرب منه.

---

22) الصاغ النور أغا محمد: كان وكيل مديرية خط الاستواء ذاك الوقت.

فتح الأمير الصبي عينيه، وقال: سبحان الله، ولا إله إلا الله، هذا والله ما سمعنا عنه، أنه موجود فى الجنة فى كتاب الإمام فضل الله العسقلانى، قال تعالى "يُطافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ(45) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ(46) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ(47)"[23]، تريث الأمير قبل أن يسأل الصاغ:

- "هل تسألون لنا الخديوى المعظم أن يفرج عن أبى الملك جمبارى".

قال الصاغ إن الخديوى يرسل تحياته لكم، ويقول إنه يعدكم بالإفراج عن والدكم الزعيم جمبارى، لو عاد الهدوء والطاعة إلى "كوبى" تحت البيرق المصرى، هزّ الأمير رأسه مؤيدا ومتفهما، لكن وجهه تغير عندما دار الحديث عن دور الحكم المصرى فى إبطال تجارة الرقيق، فلما انتهى الصاغ من حديثه، أخرج الأمير من صديريته ورقة قال إنه أعدها عندما علم بقدوم الزعيم الكبير منتصر، فهل تأذنوا لى؟ هزّ منتصر رأسه، فقال الأمير بلغة عربية سليمة:

"نحن نحمل أعطافكم المكرمة أن تحملوا هذه الرسالة عنا إلى مولانا المعظم والتى تشكر فيها قبائل مونبوتو الخديوى الذي اهتم برعيته، ومد جناحه القوى على أطفاله لحمايتهم، وقبل ذلك نشكر مولانا الخديوى لأنه علم القبائل الدين الإسلامى الحنيف، فدخل الناس فيه أفواجا، هذا الدين الذي يرفع من قيمة الإنسان، فلا يجعله مثل الأنعام تباع وتشترى، لكن الأحوال تقضى البوح بالحقيقة، وهو أن كثيرا من الدناقلة يعملون فى صيد الإنسان، الذي كرمه الله بأن خلقه على صورته، كى يزرع أرضه ويرعى أبقاره، و يخطفون الأطفال من صدور أمهاتهم، والصبايا من شطوط الأنهار، كما خطفوا أختى، إننا نتوسل إلى حضرة الخديوى إطلاق سراح والدنا الشيخ جمبارى، كى نقوم بدورنا فى مقاومة تجارة الرقيق تحت البيرق المصرى، ولتعلم مولانا المعظم أن أبناؤك من العنصر الزنجى لا يزال يباعون ويشترون فى أسواق النخاسة".

أشار الصاغ إلى الملازم سر الختم الميرغنى، فتقدم الرجال يحملون خمس محفات مغطاة بالقماش الدمور، فلما أنزلوها على الأرض، قال الصاغ إن جلالة الخديوى سمع شكواكم قبل أن ترسلها، وقد طلب منى أن أرسل لكم هدية معتبرة مخصوصة، عاد الحزن لعينى الصبي، أشار إشارة ذات

23) سورة الصافات: 47،46

مغزى فرفع الغطاء عن أخوات الأمير جمعة اللائى جرى تحريرهن من زريبة "نيا نجارا"، وقف الصبي غير مصدق، ثم انحنى يقبل أقدام الصاغ، لكن منتصر رفض بتواضع.

هذه المرة عقد معاهدة الدم بين الأمير الصبي والصاغ فى صحن جامع كومبى، وقد ظهرت على وجه الصبي ملامح الحيرة، كان يريد أن يقول، كيف أعقد تحالف الدم معكم وأبى أسير لديكم، فكر أن يسأل أخته الكبيرة، الأميرة عائشة التى حررها الصاغ لتوه إذا كان بذلك يخون أبيه، لكنه فضل الصمت.

فى المساء دعى الصاغ قادته، وأعلن أنه انتهى من جمع ثلاثة آلاف وستمائة محارب للحرب، غدا ستكون وجهتنا (تنجازى) قرية الزعيم جنجارا[24] الذي أوعز لملك المونبوتو بذبح حامية تنجازى، وسانده فى التمرد ضد الحكومة المصرية.

* * * *

24) جنجارا: Gangara

العتبة السادسة

تباريح الهوى



باخرة مصرية في أعالى النيل

- 25 -

سمعت ابنة قاضى دوفلاى طرقات على باب الدار، خرجت تسأل عن الطارق، لتجد ضابطا شابا مديد القامة، وسيم الملامح في بزة التشريفة العسكرية، تجلل بشرته الصعيدية السمراء هدوء وحياء، وخلفه وقف زنجيان يحملان جوالين من الأرز والقمح، قال للفتاة الطويلة الممتلئة، والتى جمعت جدائل شعرها أعلى راسها على هيئة كعكة:

- مش دى دار الشيخ عبد الفضيل الأشموني؟

اصطكت ركبتا الصبية وبدأت تترنح، من الداخل أجابته صديقتها بمرح:

- أيوة دى دار خالى الشيخ الأشمونى، والمحروسة دى بنته خضرة، وأنا أنجي بنت الخواجة روفائيل اسطافانوس، ومين بسلامته حضرتك؟

- أنا إبراهيم حليم ابن أخت الشيخ عبد الفضيل.

أخفت خضره رأسها فى كتف صديقتها:

- حضرتك ابن أخته ابن أخته؟

- فضيلته يبقى ابن خالة أمى.

- مش مهم يا اخوى، أستنى هنا لما أكلم خالتى، أوعى تمشى.

اقتحمت الفتاتان القاعة، وخضرة تصرخ والهم على وجهها:

"ألحقى يا امه ده جه على غفلة".

أنهت الأم صلاتها: فيه إيه يا بنتى؟ فيه أيه يا أنجيل؟

أشارت ابنتها إلى الخارج وقد توقفت أنفاسها: "ده جه".

- مين يا بت؟

- أنا عارفة، ضابط، يا حظي المنيل.

- ضابط زى الورد يا خالتى، بيقول إن عمى يبقى خاله ".

نهضت الأم من فوق السجاد وقالت بجزع: "أبوك فين يا خضرة؟".

- ما أنت عارفة يا امه مسافر، هو إيه اللى خلاه يسافر، ح يمشى يا امى.
- يمشى ليه يا بنتى؟
- يمشى ليه يا بنتى؟! ما هو أبوى مش هنا.
- "ح نخليه واقف كده يا خالتى".
- يتفضل ويشرف، هو غريب، قولى للواد سمبل يدخله المضيفة، استنى، هي "نضيفة" ولا لا، خلي البت تنضفها الأول.

اشتعلت الهستيريا فى الدار، قالت خضرة لأنجي وهي ترتجف:
- يا لهوى أول ما شفته، أنا قلبى وقع.
- قلبك بس، دا أنت كان ح يغمى عليك لولا لحقتك.
- إيه رأيك يا بت يا أنجي؟
- "قمر يا خضرة، امسكى فيه بأيدكى وسنانك".
- "بأيدي وسنانى بس، والله وتالله، لما أكون ح اربطه قدام المدود، لحد ما يقر ويعترف... هو أنا اتخبلت يا بت، افرضى متجوز".
- يا عبيطة، هو فيه واحد مجنون يجى بمراته وسط التماسيح اللى زى الجراد، إلا إذا كان عاوز يتخلص منها.
- "والله صح، دا انت ناصحة أهو، امال ابوكى ما جاش لوحده ليه؟ وفرق أيه عن أبوى. أنت ح تجننينى؟
- " أنا اللى ح أجننك، والا أنت اللى اتجننت، عينى عليكى يا مسكينة".
- أنا يا إنجي... تمسك الصبيتان بيد الأخرى وينفجران فى الضحك.
- يا خرابى يا عرابى.... تلطم وجهها وتردد:
- تعالى قوليلى ح البس إيه؟ ح البس إيه؟ ح البس إيه؟
- تلبسى إيه؟ متلبسيش. تنظر لها خضرة بغضب، ثم تنفجرا فى ضحك يكاد يمزق رئتاهما، تلهثان حتى تستعيدا أنفاسهما.
- أى حاجة يا عبيطة، هو أنت محتاجة، أنت قمر اربعتاشر؟
- خدينى فى دوكة، أعمل شعري أزاى، زيك؟ أعمله زيك؟
تهز أنجي رأسها نفيا، وتحدث صديقتها بمفهومية:
- مش مهم تلبسى إيه أو تعملى شعرك أزاى؟
- "امال إيه المهم؟ (متتفلسفيش) علىَ وحياة أبوك ".
- "يا عبيطة، أنت عوزاه يشوفك أزاى؟". تدور حولها وتقول بتمعن:

- "عوزاه يشوفك بنت شقية من البندر، بتلعب بالبيضة والحجر؟".
- أيوةةة، أيوة كدة.
- ولا عاوزاه يشفوك فلاحة نازلة الترعة تدلع تملى القلل؟

تتغير ملامح خضرة وتقول بصوت ممطوط:

- "فلاحة طبعا، فلاحة يا بنت البندر، أبوى وأمى فلاحين، وأبوه وامه فلاحين، وما تنسيش يا فهيمة إنه ضابط، ضابط يا أنجي".
- يعنى إيه؟ هم الضباط مش زى الرجالة اللى نعرفهم، ولا إيه؟
- لا يا خايبة، ضابط يعنى عاوز واحدة يضبطها. (تنفجران بالضحك)... ضابط يعنى عاوز واحدة يزرعها فى بيت أمه، ويسافر بالسلامة، وهو عاوج الطربوش على راسه، يعنى عاوز جميزة تقعد فى انتظار جناب سعادته، جميزة، يا روح خالتى تريزا.

- "أنت ح تحطيه فى دماغك بدرى قوى".
- من حسن حظي أمه ماتت، المهم دلوقت أكون جميزة أزاى؟
- "تمام، يبقى تعملى ضفيرة، لا لا، تعملى ضفرتين، واحدة على اليمين وواحدة على الشمال، واحدة على صدرك من قدام، واحدة على كتفك من ورا، زى ست الحسن والجمال.

تجلس أمام المرآة، تفك شعرها:

- "يعنى مش جنابه يبعت إنذار، قبل ما يطب بلا رحمة.".

تقفز أنجي خلفها، وتقوم بجمع شعرها الأسود الأجعد الطويل، تمسده، وتمشطه، وتجدله فى ضفيرتين ثخينتين وتقول:

- " اللى عاوز يكسب معركة يطب على العدو زى القضا المستعجل".
- بسرعة عملتينى عدو، طيب ملحوقة يا بنت خالتى تريزا.

* * * *

نظرة خاطفة من الضابط الشاب إلى الصبية، التي هلت على باب المضيفة، تحمل صينية الشربات، وترتدى فستانا من الحرير السمنى، يكشف عن نهدين عامرين، و نحر طويلا، ووجه بيضاوى، حتى تاه عنه

صوت أمها وهي تقدمها إليه، وتدعو الله فى سرها أن يحل على الشاب ريح القبول:

- خضرة بنت خالك... إبراهيم أفندى ابن عمتك يا عينيه.

سمعها تقول بصوت دافئ: "عارفة يا (امه)".

عندما فتح باب الدار عنها وكأن باب فى الجنة فتح له، وفى المضيفة أحاطته الست (رجاء) بفيض من الأمومة، وعندما همست خضرة بصوتها الدافئ عبارة "عارفة يا امه"، ختمت عليه جنية العشق بأن يكون سجينا فى قفص الوله الأبدى، أسير أميرة الأحلام، التى جسدها لله فجأة فى مديرية خط الاستواء، العامرة بقرود وحمر وحشية، وتماسيح هي القبح عينيه، وطوال تناوله طعام الغذاء وحتى مغادرته الدار لم يرفع عينيه عن الأرض، دار الحديث فى مناحى شتى، تفادوا ذكر ما له علاقة بالثورة العرابية، وهو يرد بإجابات قصيرة فى وقار واحتشام؟

وقفت أنجي وراء الباب تسترق السمع، وعندما سمعته يقول "إن البعثة تقصد خط الاستواء"، قفزت إلى قاعة المضيفة تقاطعه:

- "طبعا يا حضرة جناب الضابط ح تعدوا على (فويرا)[1]؟

تطلع إليها بحيرة؟، سألته الأم:

- "بجد يا بنى را يحين (فويرا)، دا خالك الشيخ عبد الفضيل هناك".

- والله كويس أكيد ح أقابله.

- أصلهم بنوا جامع لله، وسليم أفندى مطر، دعى خالك مخصوص عشان يخطب فيه أول خطبة لصلاة الجمعة.

- معقوله يا خالتى يسيبكم لوحدكم؟

- "خالك قالى، يا ام خضرة ما باليد حيلة، مقدرش أرفض، أروح من ربنا فين؟ دا ثواب والناس بتتبارك بي، ناس متعرفش وجه ربك الكريم، الدعوة لدين الإسلام واجبة على كل مسلم موحد بالله، ربنا ح يقول يوم الدين فضَلت مرتك وبنتك عليَ يا عبد الفضيل". واستطردت برضا: "أعمل إيه أنا راخره، قلت له روح يا خوى، ح تحملنا ذنبك ليه؟".

تدخلت أنجي: "إيه يا حضرة الضابط أنت مستقل بى، ولا أنا مش عجباك، ما أنا هنا معاهم أهه، حرس وخفير وباش درك، أبوى بعتنى على

1) فويرا Fauvera. الإقليم السادس للمديرية الاستوائية، وعاصمته فودا Foda، وأهم محطاتها العسكرية فويرا.

نفس المركب اللى جت تاخد عمى الشيخ عبد الفضيل، وقالى روحى اقعدى مع خضرة بنت عمك، لحد أبوك الشيخ ما يروح، تسليم وتسلم يعنى.

- "لو كده أروح أقابل خالى هناك".

قاطعته أنجي وهي تقفز فوق مقعدها: " أنا لازم أروح"، ابوى وأمى قلقوا علىَّ، واستدارت تحدث الأم: "خلاص يا خالتى تاهت ولقينها، من أسبوع يا حضرة الضابط بندور على سفينة مسافرة فويرا، وخالتى خايفة أسافر لوحدى، الحمد الله ربنا بعتك فى طريقى، أهه بقي، مفيش حجة، وضحكت وهي تحدث صديقتها خضرة: تصدقى يا خضرة، ح اسافر فى حماية الجيش المصرى بحاله".

ابتسمت خضرة بغيظ، وقالت: "ليه لا، أيوة ليه لا؟ سافرى أنت مع الجيش المصرى، وأنا أقعد هنا آكل فى الجمر".

* * * *

خط عرض ﴿03﴾

- 26 -

ملئ سيد الوقاد جاروفه بالفحم، وألقى به إلى فرن الوابور، ارتفع هسيس النيران أسفل مرجل البخار، أطلق الريس بشندى صافرتين إيذانا بالتحرك، تراجعت الباخرة الخديوى[2] إلى الوراء، لتغادر مقدمتها ميناء دوفلاى، وتبحر فى دورة واسعة إلى عرض النهر، سمع الملازم عبد الواحد مقلد صرخات قادمة من المرفأ، شاهد صبيتين تلوحان له، وخلفهما امرأتين وعدد من الحمالين، أشار إلى الريس بشندى، تهادت الباخرة، وتوقفت فى منتصف المجرى، دار بين الصبيتين وقائد البعثة حوار طرشان، لم يتبين منه سوى اسم إبراهيم أفندى حليم الذي جاء مسرعا، عبارة وحيدة نطقها:

- "الآنسة خضرة يا افندم".
- مالها الآنسة خضرة يا حضرة الضابط.
- رايحة لوالدها فى "فويرا".

قفزت النسوة إلى قارب حملهم إلى الباخرة، مد إبراهيم حليم يده لخضرة والمرأتين، وأخذهن مبتعدا إلى الداخل، قذف الحمالون بالأمتعة، أطلق بشندى صافرتين، وعاد ضجيج الوابور يشق النهر.

تناهى لمسامع مقلد صوت استغاثة، أطل من سور الباخرة، كان القارب يتحرك مبتعدا، وصبية معلقة في الباخرة، وجسدها في النهر، ترفس الماء بقدميها فى هلع، امتدت يد قوية نترتها إلى أعلى، لتجد نفسها تقف على سطح الباخرة، غرقى بالماء، فى مواجهة شاب يحمل السحنة الأوروبية لأبناء المنصورة؛ شعره الغزير ينسدل على جبين عريض، ووجه له جاذبية

---

2) الباخرة الخديوى: أول باخرة تمخر عباب بحيرة لوتانزيغا (بحيرة ألبرت)، نقلها الجيش المصرى من القاهرة مفككة إلى المديرية الاستوائية وأعيد تجميعها للعمل على خط الملاحى بين دوفيلاي وبحيرة لوتانزيغا

طاغية، وعينان هادئتان، وابتسامة امتزجت فيها البراءة برجولة فاجرة، لمحت خضرة تختفي فى البهو، حدثت نفسها بغضب، وهي تبكي:

- طبعا من لقى أحبابه نسى أصحابه.

- "بتبكى يا آنسة؟".

تطلعت إليه، وهي ترتعد من برودة المياه، وقالت بحزن من خلال دموعها:

- "حضرتك شايفنى بعمل إيه، بضحك!

خلع بزته العسكرية وألقى بها على كتفيها، لترى فانلة بيضاء بكم، تكشف عن صدر عريض قوى.

- حضرتك أخت الآنسة خضرة؟

- أيوه ولا، صاحبتها بس هي أكتر من أخت، اتربينا سوا، كبرنا سوا، جينا المديرية سوا.

- طب أعرف بتبكى ليه؟

- كنت خايفة تمشوا وتسيبونى، شفت تمساح وراي، خفت موت.

- خلاص يا آنسة.

- بس هي نسيتني.

من المدخل خرجت خضرة تولول: إنجي ييييي... إنجييييي.

ارتسم ثغرها بابتسامة تفيض بالبهجة: أهه افتكرتني.

- حضرتك اسمك أنجي؟

- أيوة... أسرعت ناحية صديقتها، تعانقا وهما تبكيان وتضحكان، قالت خضرة: يا لهوى كنت ح أموت من الخوف عليك.

- شفتى التمساح، كنت ح تسيبني له؟

- أنا... دا أنا أموت عشانك.

- خلاص بقى من لقى أحبابه.

- معقوله يا أنجي، تعالى بسرعة غيرى هدومك.

سمعته يقول: "امال حضرة إبراهيم افندى ما جابش سيرتك ليه؟".

استدارت له، وهي تؤدى التحية العسكرية، وخضرة تشدها إلى البهو:

ـ ولا جاب سيرتك يا حضرة الضابط، ممكن تحاسبه على الغلطة دى.

ـ مقدرش إبراهيم أقدم منى، هو اللى من حقه يحاسبنى.

ـ على أخطائه؟

ـ طبعا ومن كل بد، دى أقدمية يا افندم.

ـ حظك يا مسكين.

ـ بتقولى إيه يا آنسة؟

* * * *

على خط عرض {3} توقفت الباخرة لرفع قطاعات النهر، على سفح جبل "أد يجكو"، تعلقت تنورتا الفتاتين فى مناقع أم الصوف، وتعثرتا فى الوحل، صعدتا واحدة تبكى، والثانية تموت خجلا، قبل الغروب سأل الملازم عبد الواحد الفتاتين بابتسامته الهادئة أن يتبعاه، سارتا خلفه صامتتين، قادهما إلى قمرة جلس بها ترزى عجوز، سأله أن يأخذ مقاسهما، و يخيط لهما بنطالين وقميصين، وبين رفضهما وإصراره، انفرطتا فى الضحك:

ـ هو أنتم ح تلبسونا لبس الضباط ليه؟

ـ ح نعلق هلال و نجمة.

ـ هو اليوزباشى وافق على ضمنا لعسكر الجهادية؟

ـ أبدا.

ـ طب ح نقف فى طابور الصبح؟

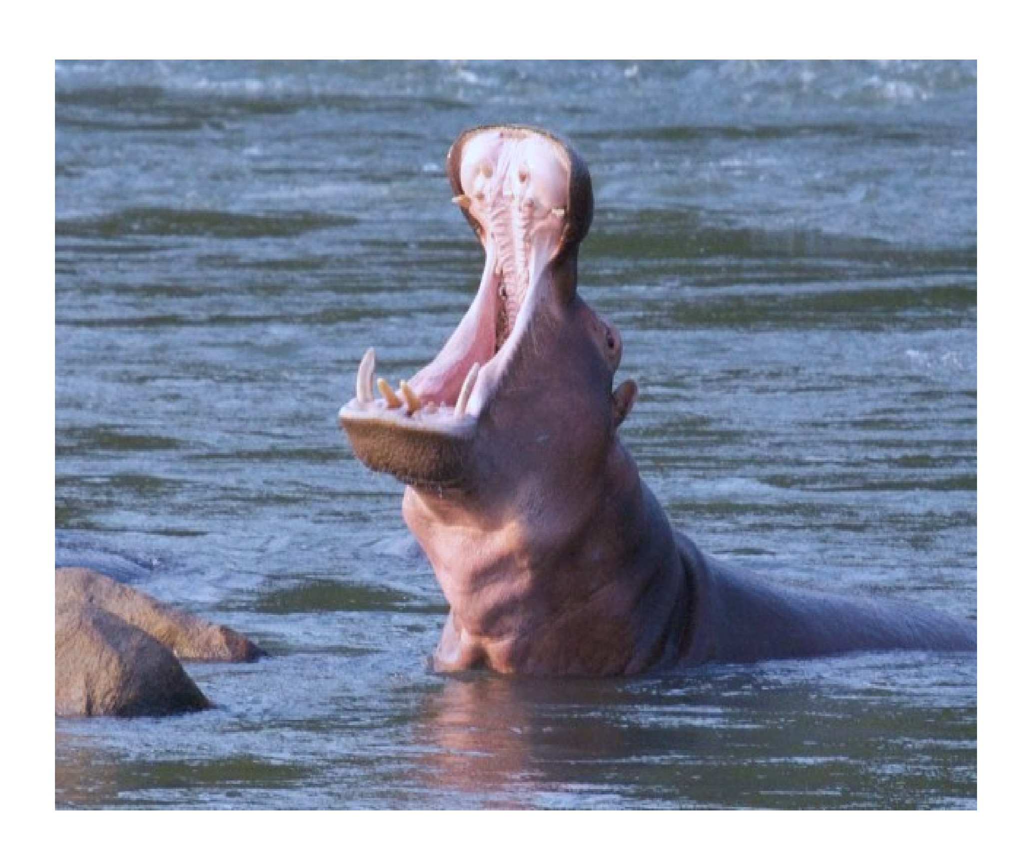
ـ والنبى يا حضرة الضابط ح نحيى العلم؟

ـ هو أنتم عساكر؟

ـ اللّه امال جايبنا هنا ليه؟

ـ ح نرميكم للتماسيح... حضرة اليوزباشى طلب لكم ثياب مناسبة للرحلة.

أخذ الصول مقاسيهما، وهما لا تتوقفان عن الضحك، فى اليوم التالى دخل عليهما حاملا تحت إبطه ما ظنتاه مستحيلا، مضى وقت حتى وجدتا الجرأة على الصعود إلى ظهر الباخرة فى زيهما الجديد، تدفقتا على سطح الباخرة فى خجل، وكلاهما تختفى وراء الأخرى، بعد وقت قصير كانتا تسيران مختالتين فى زيهما الجديد، تضفيان على المكان حالة من الرونق والبهجة.



* * * *

- 27 -

رست الباخرة الخديوى على مرفأ "اطياك" الواقع على مصب بحيرة "لوتانزيغا"[3] الشمالى، اصطفت البعثة لتحية العلم المصرى والضباط العرابيون عاجزون عن فهم الأسباب التى أسبغت عليه ذلك النفوذ الذي يجعله يرتفع خفاقا على أراضى تمتد داخل مملكة أوغندا، تساءلوا ألم يكن من الواجب على جيش الفلاحين، الصمود حتى الموت فى القاهرة، كى يتمكن من الدفاع عن الوطن فى خط الاستواء؟! أسئلة يصعب الإجابة عليها.

أمضى الملازم إبراهيم حليم الليل يحاول أن يقنع الفتاة التى ينوى الزواج بها، أن تنتظره فى القرية لحين عودة البعثة من عملها فى البحيرة، يشرح لها خطورة الإبحار فوق بحيرة تعصف بها الرياح أينما ووقتما تشاء، وتخرج الأرواح من جوفها لتخطف بنى البشر، وترحل بهم إلى العالم السفلى، وهي صامتة، لم تلبث أن انفجرت فى البكاء، وقامت تلقى بما يقابلها فى قمرتها من أغراض على الأرض، تعلن رفضها البقاء فى الحامية، وأنها سوف تصحبه إلى آخر الأرض، حتى ولو كانت البحيرة تحوى عفاريت جهنم، وإلا فعليه أن يختار الحل الوحيد الذي يناسبها وهو العودة بها إلى دوفلاى، كان طلبا لا يصدق، ولما كان الضابط الشاب يعتبر أن الرجال ليسوا فى حاجة لإقناع النساء بصحيح الأمور، لضيق عقولهن، وتسَلُط مشاعرهن على المنطق السليم، أشار للجنود بتجاهل غضب الآنسة، وتنفيذ أوامره.

فرت الصبية الأخرى التى لم يشعر بوجودها أحد إلى كهف السكينة، تنظر إليهما وفى عينيها رجاء، بأن يتذكرا أنها تريد الذهاب إلى أبيها. فى

---

3) لوتانزيغا: تعد خزان المياه الذى تتجمع فيها كافة مياه أمطار الهضبة الاستوائية، وبحيراتها، قبل أن تصب فى مجرى نهر النيل، يطلق عليها الوطنيون لوتانزيغا ذلك الضياء الذى يقتل الجراد، تجاهلت الجمعية الجغرافية البريطانية أسمها الحقيقى، وأطلقت عليها بحيرة (ألبرت)، على أسم زوج الملكة فيكتوريا ملكة إنجلترا.

منتصف الليل قام الملازم حليم بحمل أمتعتهما، ونقلها إلى مساكن الحامية، قامتا تتبعاه، وكلتاهما تبكي.

في الفجر فوجئ بحارة الباخرة الخديوي بشبحين يقفان على المرفأ، وبجوارهما أمتعتهما، وقفت أنجي، تضم أطراف جسدها بين ذراعيها في خجل، وعيناها تنظران الأرض، تود لو تتلاشى، وقد بدت مرغمة على اتباع رغبات صديقتها صعبة المراس، أمامها وقفت خضرة تنسدل على جبينها غرة من شعرها الأجعد الطويل الفاحم السواد، تدور حول نفسها، وتدق الأرض بكعبها، وتتطلع بغضب إلى الملازم حليم الذي استدعى على عجل لسطح الباخرة، لينظر الحرج الذي وضعته فيه أمام قائده.

مال الملازم مقلد عليه، ناصحا أن ينزل المرفأ لإقناع الفتاة بهدوء بما يريد، وتوجه هو إلى مكتب البريد، لمح عيني أنجي يترقرقان بالدموع، وتتابعانه حيثما يسير.

لماذا تتركني هنا؟

خذني معك إلى فردوس

السما

نظرت خضرة إلى حليم بعناد، ترفض أن تجيبه بكلمة، حاول ألا يتخلى عن تشدده، وأنجي يراودها الهلع، تضم يديها بين صدرها، تبتل إلى السيدة العذراء:

"من أجل حواء أُغلق علينا باب الفردوس،

ولأجل مريم العذراء فتح لنا الفردوس مرة أخرى" .

وبين فينة وأخرى تتطلع إليهما يتجادلان في عتمة الفجر الكابية، نظرات تحمل اتهاما بالخديعة، ورجاء من الشاب يقابله تصلب أنثوي. انسحبت أنجي مبتعدة لا تدرى أين تذهب.

أثناء عودة مقلد من مكتب البريد، قبضت كف ناعمة على كفه، تدفقت في عروقه أمواج أشعلت روحه بحلاوة ناعمة، وكفها يجذبه ناحيتها، استدار ليجدها تقف مستندة بظهرها إلى جدار المرفأ مغمضة العينين، وهي تلهث:

" عاوزه أقول حاجة، ممكن تفهمني، ممكن تسمح لى أمسك أيديك، أرجوك اسمح لى أحضن أيديك".

- متخافيش، بترتعشى ليه؟

قالت بلهجة صعيدية: "خايفة يا حضرة الضابط، عاوزه أرجع لأبوى".

كانت تلفح بأنفاسها حبل وريده، ملامحها الإغريقية؛ خضرة العيون، وجهها النضر المستدير كطلعة شمس، يملأ العالم بلونه الحليبى، وابتسامة واسعة خلقت للأبدية، تهاجم كل ما يحيطها بالبهجة، ونهدان ممتلئان ينشران فى الفضاء عبقا أنثويا لا يقاوم، ربت بكفه على رأسها وهمس:

- "اطمنى، متخافيش، ح اعمل لك اللى انتى عاوزاه".

- لا، أنت بتكذب علي.

- ليه بتقولى كده؟

قبل أن تجيبه أيقظتهما العبارة التى قذفت بها خضرة فى وجه إبراهيم حليم، ما جعله يغير رأيه من فوره: "هو أنت ح تسيبنى من دلوقت؟"

شعرت أنجي بالمصيبة التى سوف تحل بها، رفعت خصلات شعرها الناعم عن جبينها الواسع، وركبتاها تعجزان عن حملها من الذعر، تود لو تستطيع أن تهرب من العالم، وتختبئ في حضن مربيتها، سمعت إبراهيم حليم الذي أطلق هجوم صديقتها فى أوداجه شعور ذكوري بأن الصبية تريده وبشدة، يعطى أوامره بعودة الفتاتين إلى الباخرة.

رفعت أنجي رأسها تستنجد بالسماء من البلوى التى أتت على البقايا المتبقية من مقاومتها للهوى الذي بدأ يدك وجدانها، يا مريم يا طاهرة، حيكون المقدر شدة عليَّ، ستفوز خضرة بالضابط الطويل الوسيم، وتصبح زوجته وأم أطفاله، بينما أسير أنا إلى حتفى.

سمعته يهمس: شفتى كل حاجة اتحلت، تعالى وراى.

- وراك!؟ أنا لسه ما تجننتش.

يا أم الابن الإله

صلّي لأجلي.

حادت عنه، واتجهت صوب صديقتها، صعدت خلفها، تضم صدرها بين ساعديها، ورأسها مطرق إلى الأرض، تبتهل فى سرها إلى السيدة العذراء، وهي تسمع العسكر يهمسون تندرا بهزيمة قائدهم.

" يا أمّ الله، يا مريم الطاهرة، بحق الحزن الغامر الذي اختبرته عندما شهدتِ عذاب، وصلب، وموت ابنك الإله، أنا المنفية من بنات حواء، أتنهد نحوك في وادي الدموع، يا سيّدتنا يا معزّية المفجوعين، يا مرشدة المسافرين في عالم الضياع؛ يا شفيعتنا يا مقوّية الضعفاء؛ يا منجّية الخطأة، يا نبع المحبة، صلي لأجلى، صلي للخطأة وكفّري عن الخطايا"

* * * *

أطلقت الباخرة صافرتها، وزفرت المدخنة بخارها إلى سماء البحيرة، وتقدمت متجاوزة عنفوان سيل المياه القادم من نيل فيكتوريا، ألقت خضرة حقائبها فى قمرتها، وصعدت تجذب صديقتها وراءها، سألتها إلى أين تأخذها، قالت بلهجة منتصرة، "وراه، هو أنا ح أسيبه"، أوقفتها أنجي، وعكفت على تزينها، وهي تهمس، إذا كان عليها أن تفعل أمرا الآن، فهو الاعتناء بجمالها حتى تصيبه بالجنون.

- بس نوصل فويرا وأنا ح اعمله له عمل(4) ينسيه أهله.

امتلأت القمرة بضحكة، لرنينها خلاخيل الفضة، أخرجت أنجي أدوات زينتها، وأمسكت بالمكحلة، ومالت على وجه صديقتها تقول: "السحر الحقيقى فى الكحل يوسع العنين، ويطول الرموش، وفى الحليب اللى ينعم الوجه"، وأمسكت وجنتى صديقتها وقرصتهما، وهي تضحك: "وفى حمرة الخدين".

- أيييى.

دفعتها بعيدا، ونظرت فى المرآة:

- "إيه رأيك يا بنت".

- قمر.

- بجد.

- جد الجد.

- يلا وراه.

---

4) عمل: سحر بدائى

انطلقت الفتاتان إلى سطح الباخرة تتطاير خلفهما جدائل شعرهما، أمام قمرة القيادة تراجعت أنجي، واكتفت بالوقوف على سور الباخرة، تنظر بزهو المستكشفين الأوائل إلى عالم جديد، تبصر صفحة البحيرة تبزغ من براثن العتمة؛ مرآة مصقولة ضاربة إلى صفرة، يعجز الجراد عن مجاوزتها، حتى أسماها الزنوج بلغتهم الزاهية "لوتانزيغا"؛ "ذلك الضياء الذي يقتل الجراد".

من الشرق بزغت هالة ضوئية تحمل ضربا من الأرجوان الشاهق، يعكس على قمم الغابات شلالات من شزر، تلاشى الصمت، وشق السكون غناء عندليب، وتغريد سنونو، وصياح ديكة يرحب بقدوم الصباح.

أسر الصبية سحر يتوالى وراء سحر، ونور الصباح يكشف عن طيور الكركي[5] تقف على الضفاف شامخة، تحمل أعناقه الرفيعة رؤوسا ثقيلة بالحكمة، وتيجانا من ريش ضارب إلى الصفرة، يسير بخيلاء النبلاء، ينشر جناحيه الضاربين إلى زرقة، يصعد فوق الماء، ويهبط على بعد أمتار قليلة.

سمعت أقدام البحارة يعبرون خلفها، فتوارت داخل قارب تلف قاعه، وتشققت أخشابه، معلقا على الجانب الأيمن للباخرة، عثرت عليه يوم علمت أن القدر أوقعها فى براثن ظلمة البين؛ ولأن البشارة برفع المعصية مرهون بمغفرة الرب، التمست في باطنه العزلة، ولأجل عزلتها فرشه الصول زكريا عبد السيد بحشايا نظيفة، تعينها على البقاء ما تشاء من وقت.

تمددت الصبية التى لم تتجاوز الخامسة عشرة على بطنها، حيث يحلو لها النظر من خلال شقوق القارب إلى المياه وهي تجرى أسفلها، تترك عينيها لمهاد البحيرة واتساعها الزاهى، تري أسراب طافية من أسماك فضية، عيون ذهبية، وظهور حرشوفية لتماسيح ناعسة، ثعابين سوداء وأخرى فضية تتلوى بين أمواج البحيرة فى نعومة قاتلة.

ترتعد تقفز من مكانها، تجلس القرفصاء، وقد استحوذ عليها الرعب، تري رؤوسا عملاقة من الجان ترتفع من البحيرة، بها قرنان قصيران، تفتح

---

5) الكركى: طائر كبير أغبر اللون طويل العنق والرجلين أبتر الذنب قليل اللحم يأوى إلى الماء أحيانا.

رؤوسـها عـن كهـوف ورديـة مخيفـة، تـنفخ رزازا مـن الماء يلطـم وجههـا، ثـم تطلق خوارا صاخبا يرج الأنحاء.

تسـتجمع شـجاعتها وتعـاود النظـر، تـري عشـرات مـن أبقـار الماء تسـبح فـى الـبحيرة، بعضـها يتثـاءب، وبعضـها يرسـل خـواره يبعـث لهـا بالتحيـة، تعـود لوجههـا ابتسـامتها الواسـعة المترعـة بالبهجـة، تضـحك وكأنهـا تكتشـف التماثل بـين خـوار بقـر النهـر، وضـحكتها، تضـحك ثانيـة وثالثـة، ثـم تقفـز مـن القـارب، وتعـدو إلى مـؤخرة البـاخرة، وتشـرع فـى مـداعبتها، قبـل أن تختفـي فـى الوراء البعيد.

تعـود إلى مأواهـا، تسـتلقى علـى ظهرهـا، تنظـر سمـاء تكـاد تلمسـها بأناملـها، وسـحاب مـن ألـوان قـزح، تتـابع ظـلال المنخـار الحديـدى لأول وحـش بخـارى مخـر عبـاب الـبحيرة منـذ بـدء الخليقـة، تشـعر بـروح الـبحيرة يتملـل، لصـوت مرجلـه الخشـن، ووقـع صـافرته الحـاد، يـداهمها سـجع أسـراب القمـر الورديـة[6]، وصـفير الـزرزور، جوقـة مـن الجنـة تعلـن عـن أسـراب الملائكـة شـاهقة البيـاض، تطـير فـى ملـس مـن حريـر، يـتلألأ بزهـور البرتقـال، تحمـل السـماء علـى أجنحتهـا، وبالسـحاب بـين مناقيرهـا، تصـدح مثـل محصـل قطـار ينبه ركابه إلى المحطة القادمة.

"لقد اقتربت الجنة... لقد اقتربت الجنة".

تقفـز أنجـي ووجههـا يشـع بـالفرح، تضـحك غـير مصـدقة، وتشـير إلى السماء ببهجة، وتهتف بالبحارة والجنود:

- سمعتوا بيقولوا إيه؟ سمعتم بيقولوا إيه؟

يبتسم الجنود والبحارة، يبادلونها عبارات الإطراء، يستفسر أحدهم:

- مين يا ست هانم؟

- "الملايكة".

ينظـرون حيـث تشـير، يـرون أسـراب الكركـى والبلشـون، يعـودون إلى عملهم، وهم يغمغمون:

- "والله أنت اللى ملاك يا ست هانم".

---

6) القمر: جمع القمرى وهو ضرب من الحمام حسن الصوت.

- ربنا يخليكم... بس شفتوهم؟

- "أيوه، طبعا امال إيه؟".

يأتى الصول زكريا عبد السيد، ويقول لها بأبوة:

. . . مستخبية . . .

طبعا مستخبية منك . . .

- "يا ست أنجي مش فاهمينك".

- أزاى يا عم زكريا؟

- الملايكة يشوفوا ملايكة، ودول شياطين ميشفشوش غير عفاريت.

تضحك وتسرع بالعودة إلى مأواها فى باطن القارب، تتري أمامها مساحات شاسعة من مستنقعات معرشة بالعنبج، تتكئ على سفوح مرتفعات الكونغو، تهتز البرارى تحت الريح، تكشف عن رءوس سوداء ذات جباه عريضة، وقرون حلزونية، ترتعش وهي تري قطعان الجاموس الوحشى، تلمح خرتيتا على الحد الفاصل بين البرارى والأحراش، تنظر قرنه الممتد، حربة قوية قصيرة لمحارب لا يهزم فى نزال شريف.

تلوح مجموعة من الأكواخ الصغيرة، وعدد من أرماث[7] البردى، وعلى متنها رجال يرتدون أشعة الشمس، تنتفض الصبية ثم تعود تختلس النظر وهم يقتربون من الباخرة، تتابع الشاويش نوما يترجم الحديث الدائر بينهم وبين البحارة، يتبادلون السمك الطازج وزجاجات الكين، بالملح والخرز الملون، تعبر الباخرة محلة أمين باشا، المسماة على اسم الحكمدار، لتغفو فى نوم يحملها على مهاد الطبيعة النائمة، وتستيقظ على صوته يناديها:

- "آنسة".

... هذا صوته... هذه رائحته تزكم أنفك... تزلزل بدنك... أين تتوارى! كيف تخترقى قاع القارب وتقدمى نفسك طعاما شهيا لتماسيح البحيرة؟ كيف تتلاشى...

... "يا عدرا يا أم العونة... انقذينى".

طرق بإصبعه كتفها وعاد يناديها: "آنسة أنجي".

---

7) الرمث: طوف مصنوع من سيقان نبات البردى، جمعت بعضها البعض بالحبال، ويركب عليها فى الماء أو تحمل عليها الأثقال.

- أيوه عاوز إيه؟
- لو سمحت... بصى لى.
- ليه؟ يا عدرا يا أم المعونة
- ليه... ؟! عشان أعرف أكلمك.
- طب ما تتكلم كده. انقذيني.
- هو أنا شكلى يخوف قوى؟
قالت بجزع: "أبدا... خالص... دا بيموتنى".
- بيموتك؟!
- قصدى يعنى.
- قصدك إيه؟
- مش عارفة وخلاص... ح تحقق معاى حضرتك! ... طب تعرف أنت؟
- أزاى يعنى أعرف ... هو أنا اللى ح اموت!
- طبعا عندك حق، يهمك إيه، هو القط لما ياكل الفار، بيشعر بآلامه؟
- قط إيه وفار إيه... بتخرفى بتقولى إيه؟ طيب لو سمحت بصى لى.

.. امسكى نفسك يا مسكينة... صدرك بينهج، خدى نفس طويل، وشوفى حضرته عاوز إيه... يا لهوى يا امه... إيه اللى عملتيه فى نفسك ده، ده قاعد فوقك، والسما هالة حواليه... وريحته حواليك جنينة ورد مخلوط بريحان وقرنفل... شايفك ممددة على ظهرك... عينيه بتطرف، تحط على نهديك، ينقرهم زى عصفور... يا لهوووووى... صدرك بينهج، مدى أيدك غطيه.... مشلولة مش قادرة... مش قادرة ولا مش عاوزه... سبيه يلمسهم بعينيه، ولا بشفايفه... ارتكبت خطية زيك زى القديسين... اغفر لى يا رب... زى ما قال الأب خريستوس" الخطية هي الطريق الذهبى لوجه الرب".

صوته ثقيل زى ساطور الجزار يقطع فخد أنثى بدم بارد، يسأل بهدوء:

- " يا آنسة أنت مستخبية من حاجة؟".

عشرات اللعنات تمر بعقلك كالسيل، هذا الأفندي قرر أن يهزأ بك، تتماسكين معتصمة بالصمت.

يا عم ابعد عنى
[illegible]
[illegible]

- حضرتك مش عاوزه تتغدى؟

يعبر بدنها أمواج من القشعريرة، عشرات العبارات لا يسمعها سواها، وقف على قدميه فابتعد رأسه، وخف ثقل وجوده المادى على جسدها الممدد، ودت لو تقف... أن تجلس... أن تفعل أى شيء... لكنها أصيبت بالتيبس:

- "تعالى".

جذبتها يداه لأعلى، ليضعها جواره، وضع فى يدها صنارة من الغاب، وسألها وهو يرحل عائدا إلى عمله، أن تشرع فى صيد السمك للغذاء.

فعلت منصاعة، وصوته يلاحقها" السادة حضرة التماسيح، ح يسعدهم لو تفضلت عليهم ودلدلت رجليك فى الميه، فلا أشهى ولا أجمل.

ألقت بصنارتها فى مياه البحيرة، حائرة فيما إذا كانت عبارته سخرية أم غزل، أخذتها ثناياها هضبة الكونغو، تنعكس ببريق اللؤلؤ، قبل أن تدرك أن ما تراه عشرات الجداول تتسلل بين طيات الهضبة المعشوشبة بخضرة زاهية، تتسع لتصبح نهيرات لأنهار تنزلق بين الأحراش والغابات إلى البحيرة الساكنة على عتبات الجنة.

فى منتصف النهار عادت رائحته تهاجمها، سمعته يقول: "كفاية يا آنسة، ح تخلصى على السمك، الناس مش ح تلاقى حاجة تاكلها".

نظرت إلى السلة، وألقت بها إلى البحيرة ثانية.

- "فيه إيه؟ أنت مجنونة؟"

بكت: "أنا! أبدا مش قصدى".

هز كتفيها برفق: "خلاص يا آنسة، خلاص، هو أنت بتموتى في العياط!".

* * * *

على خط عرض {1^0:52} تحول لون الماء إلى خضرة قاتمة، تصنعها طبقة لزجة من طحلب الماء، تتخلله عيون تفور وترتفع من قاع البحيرة إلى سطحها، بماء شديد السخونة.

رست الباخرة على مرفأ محللة (ماهاجى)التابع للحكومة المصرية، كان فى استقبالها قومندان المحطة، وأمام جامعها الشيخ عبد الله ولد أوكلو من قبائل "الألور"، وفرقة الموسيقى العسكرية، اصطفت البعثة تحيى العلم المصرى وهو يرفرف على سفوح الكونغو.

تريضت الفتاتان بصحبة الضابطين على شاطئ البحيرة، امتدت بسط من عشب يصل بين مائها إلى مدارج الجبال، وخضرة مستأثرة بالحديث عن عرس الزواج لن يقبل أبوها بأقل من حفل تتحدث عنه المديرية.

على المدق الترابى الموازى للشاطئ انحنت نساء القرية وهن عاريات كما الطبيعة، يجمعن صخورا تنبعث منها أبخرة كبريتية محرقة خانقة، تنبجس فيها مياه ملحية ساخنة، و يحملن كتل الطين المالح، ويضعنها فى قنوات ضيقة، و يحرقن الطين المترسب، على طرفها الآخر بحديد ساخن، ويقطرونه فى أحواض الصلصال، ليستخرجن الملح من الماء.

يجلس رجال القرية فى كسل، وعندما تنتهى النساء من استخراج الملح، يقومون بحمله على ظهورهم فى أوراق الموز، المغلف فى سيقان الخيزران، يبادلونه فى الأسواق القصية، بحبوب وخرز ورماح وجلود.

قال الملازم مقلد: " زى ملاحات بورسعيد".

قاطعته أنجي: "وهم الستات عندكم عايشين فى الجلالة".

- قصدك إيه يا آنسة؟

- عريانين زى اللبن الصابح.

- أولا أنا من المنصورة، حضرتك منين؟

- من إسكندرية ليه؟

- طيب.

- طيب إيه؟

قاطعهم حليم: "استهدوا بالله".

ابتعدت خضرة في صحبة خطيبها، وأشار مقلد إلى البرارى، حيث انتصب غزال برأسه عاليا، أعطاها نظارته المعظمة،

- بصى هناك، شايفة الفهد؟

- فين؟

- أهه، مستخبى بين أعشاب البرارى.

- مش شايفة.

أوقفها أمامه وأحاطها بساعديه، وضع المنظار على عينيها، كان حسن النية، لا يخطر بباله ألاعيب الإغواء، أو بالجحيم الذي وضعها فيه، ارتطم ساعديه بنهديها تركا فيه مخالب وحشية من اللذة، استعادها بمرارة، اصطكت ركبتاها، وعندما تهاوت، رفعها من أسفل إبطيها، وكان هذا نهاية لكليهما.

أطلت من بين أعواد السافانا رأس فهد، لتبدأ حفلة المطاردة، تابعت الغزال ينفض قدمه الأمامية، ويندفع يجرى بين البرارى، بينما الصياد يقطع الطريق على الفريسة، قفز الغزال لمسافة مائة يـاردة قفزات عالية طويلة، وفى كل مرة يهرب من مخالب صياده، وكانت تقفز مبتعدة عن جسده الذي انجذبت إليه بقوة قاهرة، فى مناورة أخيرة للهرب، التف الغزال جانبا، ضرب الفهد مؤخرة الغزال بقبضته الأمامية، ضربة أفقدته اتزانه، سقط متدحرجا على العشب، فى جزء من ثانية سبقه الفهد بخطوة، وانقض بأنيابه على عنقه، المكان المفضل للقنص.

حطت أنفاسه على عنقها، ترفعها إلى عالم من النشوة، وسقط الغزال وفى عينيه استسلام قدرى، وسقطت أنجي مغشيا عليها، عندما أفاقت كانت في دار الشيخ ولد أوكلو.

استقبلهم الشيخ عبد الله بحفاوة تقديرا للآنسة خضرة الغالية ابنة الغالى الشيخ الأشمونى، وعلى الغذاء أوضح أنه دخل الإسلام على يد أبيها، حيث الناس أخوة لا فرق بين عربى أو عجمى إلا بالتقوى، والتقوى لا ينالها الإنسان إلا بعبادة الله الرحمن الرحيم.

قبل مغادرة محلة (ماهاجى) حذر الشيخ من روح البحيرة الكائن فى جوفها، يخرج وقتما يشاء فيثير الرياح والعواصف والأعاصير، ثم يعود إلى القاع حاملا غنائمه من البشر، وطلب أن يتركا الفتاتين فى صحبة عائلته، وحمايته لحين العودة من البحيرة.

تبادل حليم مع خضرة النظر، وقال: يا مولانا سبق السيف العذل.

* * * *

اعتكفت أنجي في قمرتها تبكي بين أحضان مربيتها، معذبة بعالم القنص الذكوري الوحشي ولذته... قتلني يا خالة... دوبني... عاملي سحر... الرب يعلم... لو أقدر أبوس الأرض اللي بيمشي عليها... جسمي نحل... كل ما يقرب مني، قلبي يدق زي الوابور، بس من غير دخان... عارفة الدخان بيروح فين.

- فين يا ضنى خالتك؟
- يكبس على أنفاسي... بيخنقني.
- بس أنت عارفة يا روح خالتك أنكم متليقوش لبعض.
- ليه... ليه؟
- هو على ملة الإسلام، وأنت على ملة عيسى.
- طب وأنا ذنبي إيه؟
- "تنسيه يا نن عين خالتك".
- "مقدرش يا خالة، لو كنت أقدر".
- لازم يا بنتي، عشان خاطر أبوكي وأمك، يصح تجيبي لهم العار؟

دفعتها بعيدا ودفنت رأسها في الوسادة تعوى من الألم.

- طيب... طيب يا ضناي... هو بيحبك؟

عوت الصبية: "ولا حاسس بيه".

أخرجت المربية من صندوقها قطعة قماش من الحرير وأعطتها لها.

- أعمل بيها إيه؟
- "خديها معاك، تقعدي تطرزيها، لو سألك بتعملي إيه، تقولي له بطرز منديل لحبيبي".
- "ولو مسألنيش؟".
- يبقى مالكيش فيه نصيب.

امتقع وجهها، قالت المربية: "متخافيش يا ضناي، هو فيه حد يشوف جمالك، وميوقعش أسيره، ده يبقى أعمى".

أمام قرية مسوا أبحرت قوارب طويلة لصيد التماسيح وبقر الماء، لا يتجاوز عرضها عرض الصيادين، ألقيت في البحيرة بخطاطيف حديدية ضخمة، وعندما جذبنها كانت ثقيلة، لصيد ممتنع عن الصعود.

ضرب تمساح ضخم قاربا، فقلبه رأسا على عقب، وانقض وصحبته على الصيادين، تناثرت الدماء على سطح البحيرة، ارتفعت ضجة، وطارد

الجنـود التماسـيح بـنيران البنـادق، رفعـت رأسـها عـن المنـديل الـذي تطـرزه، أصابها الهلع، وهي تري أشلاء الصيادين تتناثر فوق سطح البحيرة.

عـادت البـاخرة للإبحـار، ارتفعـت جبـال "بيسـو" و"نوبـار" فـى الشـرق، وعلـى سـفوحها فـردوس مـن قطعـان وعـول، وغـزلان، وأفيـال، تشـم بمناخرهـا الفضـاء، حـام طـائر أبـو سـعن فـوق أسـراب الجـراد كـالطيور الجـوارح، وبـين حـين وآخـر شق الفضاء الخضارى[8] فوق غدير البردى مذعورا من صفير العقاب.

دون نـذير، هبـت العواصـف قـرب "كاكانامـا" الواقعـة علـى بعـد خمسـين كيلـومترا جنـوب الـبحيرة، وألقـت إلى الشـاطئ كميـات هائلـة مـن الأسمـاك، جمعها أهالى قبائل الباثير فى سلال مجدولة من البردى وسعف النخيل.

* * * *

وسـط عـواء الطبيعـة اختفـى البشـر، وأرمـاثهم، وبقـى ذلـك الـوحش البخـارى يمخر عبـاب الـبحيرة، التـى تحـول نطاقهـا إلى جـرف صـخرى معشوشـب، انبثقـت الأشـجار فـى أديمـه، تظللـه خيمـة فسيفسـاء، مضـاءة بشـذرات ضـوء شـهابى، ينازعـه غبـار مـائى يصـعد مـن الـبحيرة، وانبعـث عـواء يصـم الآذان، ومسـايل الشـلالات تصـطدم بـأمواج الـبحيرة، وتضـربان الجـرف الصـخرى بـأمواج عاتيـة، مطلقة هديرا مخيفا.

علـى خـط عـرض {$1:30^0$}، بـدا قـرص الشـمس مرسـوما بطباشـير علـى لوحـة برتقاليـة، أطفـأ النوتيـة مرجـل البـاخرة، وتوقفـت عـن الحركـة، ألقـى بالهلـب إلى القـاع، ومـا أن اسـتقرت قـوارب المسـاحة علـى سـطح الـبحيرة، وكـأن مسـا مـن ريـح الشـيطان حـل فـى الوجـود، فانقلـب السـكون إلى عـواء قـادم مـن قاعهـا، وفتحـت السـماء بوابـات خزانتهـا الكونيـة، وانفجـر الـبرق والرعـد، وسقط المطر خيولا تنهب البرية.

علـت موجـة علـى مهـل، تابعوهـا تتجـه ناحيـة القـارب الـذي يقـل فصـيلة المسـاحة الثانيـة، ارتفعـت بـه عاليـا، وتركتـه يسـقط مـن شـاهق، قـال البحـارة "أن الماء يخاوى شيطانا، وأن القارب تعلق بقرونه قبل أن يسقط من هاوية".

8) الخضارى: جمع الخضيرى وهو عصفور أصفر اللون ضارب إلى الخضرة.

تبادل الضباط حديثا قصيرا، شاهدت أنجي وقلبها ينخلع، الملازم مقلد يخلع قميصه، قفز إلى المياه حتى بلغ القارب الثانى، شرع الجنود يجدفون بحذر وريبة، يجمعون الغرقى من زملائهم، قبضت على جسر الباخرة تري الرياح توشك أن تقلب القاربين، والجنود يلقون بثقالة قياس الأعماق إلى القاع، ويأخذون قراءتها بصعوبة، ثم يرسلون القراءات بأعلام الإشارة إلى الباخرة... أين هو؟ شعرت بالارتياع، فمن بعيد بدا غارقا بين المياه وشلالات المطر يقود القارب المبحر ناحية الغرب.

قبل غروب الشمس رفع البحارة القاربين، وسقط جنود المساحة منهكين من الصراع ضد الطبيعة ووحوش البحيرة، وقد فقدوا بعض زملائهم، طلب الصولات من اليوزباشى إلغاء المهمة، لكنه ذكرهم بأنهم قطعوا كل هذه المسافة، ولن يتخلون عن مهمة أمرتهم بها قيادة الأركان.

جلس الجنود والبحارة على ظهر الباخرة حول النيران، وهم يغنون ويرقصون تحت سماء بلا نجوم، ورياح تطلق عواءها المنذر بالخطر.

أم اليوزباشى صلاة العشاء، فلما انتهى، استدار إلى المصلين يهدئ روعهم، فقال "الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسلام على أفضلِ المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد، أيها الإخوة المؤمنون إن من سنة الله تعالى في خلقه أن فرض علينا مجاهدة الشيطان، قال تعالى في كتابه المنزل الحكيم:

"**قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ. ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ**"[9]، فحال الإنسان كما قال الشاعر:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجري على اليابس[10]

فى قمرته وقف الصول زكريا عبد السيد أمام مذبح صغير، يعلوه أيقونات للسيد المسيح والسيدة العذراء، وأمامه جلس عدد من الجنود

9) سورة الأعراف: آية (16 ـ 17).
10) بيت الشعر لصاحبه: أبي العتاهية (هو أبو إسحاق إسماعيل بن القاسم)

المسيحيين، وخلفهم أنجي ومربيتها دميانة، وشم صدره بالصليب، ووعظ فيهم قائلا:

" قبل أن يبدأ السيد المسيح التبشير بين الناس، ذهب إلى البرية، الأرض النجسة التى تسرح فيها أرواح الشر، ليصوم أربعين يوما وأربعين ليلة، بعدها جاء الشيطان ليجربه، لكن يسوع هزمه في عقر داره، **فأعلموا يا أخوتى وأبنائى أن الشيطان عدو مهزوم**، ومن دخل أرض الشيطان عليه أن يتسلح بيسوع ابن الله، ويقول إن السيد المسيح عوني وملازى، ومن يهاجمه الشرير عليه أن يتأسى بعظمة ابن الرب، الذي قال عنه "أن القادم من نسل المرأة سوف يسحق إبليس وتلك مسرة" .

- "يا مقدس، بتقول يقضى على المسيحيين".
- أيوة يا ابنتى، الشيطان عدو المؤمن.

أحنت رأسها إلى الأرض وهي تغمغم: "فحبيبي الآن في أمان".

لم تشأ البحيرة أن ترحل البعثة دون أن تأخذ أضحيتها، عند خط عرض {1^0:00}، تزايدت أعماق البحيرة عن المألوف، عاد الملازم مقلد إلى الباخرة وأطال من حبل الشاغول ليتمكن من بلوغ أعماقها.

حاولت أنجي أن تثنيه عن العودة، لكن واجبه أعماه عن اللوعة التى حملتها عينا الصبية، دمدمت الأرض دمدمتها، وانطلقت الرياح تعوى، وأرعدت العواصف، وانقضت على القاربين الذين أصبحا مثل ريشة فى مهب المجهول، أعطى مقلد إشارته بالأعلام إلى القارب الآخر، بأن يسرع بالعودة إلى الباخرة، وبينما البحارة عائدين صعدت من البحيرة نافورة من إعصار غاضب، ارتفعت بالقارب لأعلى وقلبته على ظهره.

أطلق الجنود صيحات الفزع، وهم يجاهدون الموت، قبض الصول زكريا عبد السيد على أدوات المساحة، هتفوا به أن يتخلى عنها ويهتم بحياته، رأت أنجي وروحها ترحل من أنفاسها، حبيبها وقد أحكم الموت عليه قبضته، وموجة أخرى تدفع بالقارب ليصطدم بالشاب الذي غرقت فى حبه حتى الثمالة، وتلقي به بعيدا، طفا للحظات، قبل أن يختفي فى الأعماق.

وشمت الصبية صدرها بالصليب، ودعت فى لوعة السيدة العذراء حامية الفقراء أن تنقذه، ثم سقطت مغشيا عليها فى حضن مربيتها.

ألقى البحارة عوامات النجاة للرجال الذين عصفت بهم شياطين البحيرة، وبقي قارب يرفض العودة دون قائده، الذي ابتلعته أرواح البحيرة، ولم يعد يبدوا له أثرا.

هبط مقلد إلى قاع البحيرة المعتمة مغشيا عليه، يحيط به ماء ساخن فوار، وخضرة طحلبية زيتية، ليستيقظ فى ظلام تضيئه الشموع، وملاكا يتوسل له النجاة، وهو يصلى باكيا أمام الصليب المسجى عليه السيد المسيح.

تحلق الجميع حول فراش الملازم مقلد، عندما فتح عينيه، أكد عليه اليوزباشى أنه سجل قراءات لأعماق البحيرة بلغت تسعة عشر متر، أجابه بالإيجاب، وأضاف وهو يرفع يده المحترقة، أنه رأى كهوفا تفور بماء مغلى.

قاطعه حليم: " ماء بيغلى فى قاع بحيرة، أزاى يعنى؟"

- عيون كبريت وفورات حارة... أحنا بنسبح فوق بركان قديم... لازم نمشى من هنا".

* * * *

فى هزيع الليل الأخير تصاعدت دقات طبول، يصاحبها غناء وحشى، شعر إبراهيم حليم بالقلق، غادر قمرته إلى باطن الباخرة، حيث وجد جمعا من الجنود التراجمة، يرقصون حول دائرة من أضحية وعظام بشرية، وأعضاء نزعت لتوها، وقف فى المنتصف جندى من الباثيرا، لطخ وجهه بالألوان، وارتدى تعاويذ وحلقات من الريش وعقود من أنياب التماسيح، كانوا يصلون إلى البحيرة، ويطلبون منها أن تتوقف عن إلحاق الأذى بهم.

غضب الملازم واعتبره كفرا، لا يليق ببعثة تابعة للحكومة المصرية، واندفع يلقى بكل ما فى الحلقة التى من أضحية ودماء، وهو يصرخ فيهم:

-"كفرة ملاعين".

انطلق الوقاد الذي تابع المشهد عدوا، يبحث عن اليوزباشي الذي جاء على عجل، وجد نائبه وقد أنهى حفل الأضحية البشرية، وسط غضب الوطنيين وسخطهم، وساحرهم يهدده محذرا:

- " تذكر ما أقوله لك اليوم، إذا لم تطعم الأرواح أكلتك ".

كان وجهه يشتعل بالنار، وهو يرفع عظام ضحاياه، ويردد بعينين تلمعان بالغضب كلاما تعزز فهمه، وكي يؤكد الساحر رسالته، طلب من الشاويش نوما أن يترجم للملازم ما يقوله:

- " عندما تأكل الأرواح روحك، لا تنسى إننى حذرتك، سوف تؤخذ روحك على مهاد لوتانزيغا".

صرخ إبراهيم حليم فى الشاويش نوما يسأله: "من يقول ذلك؟".

أشار ناحية الساحر، الذي ركع على قدميه، وحط أذنه على أرضية الباخرة الملوثة بالفحم، يُصْغِي إلى دبيب لم يتوقف عن الطنين، رفع رأسه يحدث إبراهيم حليم: "تقول لك روح البحيرة، أنت دمرت أضحيتى، أنت ملعون، أذهب، وافعل ما ينتظرك، فلن يبق لديك وقت طويل".

ركل حليم الساحر بقوة، واندفع يطارده، منعه مقلد بصعوبة:

- "إيه اللى بتعمله؟"

- إيه اللى بعمله، هو إحنا ح نكفر!

تدخل اليوزباشى: "يلا يا إبراهيم، يلا يا عبد الواحد، للّه فى خلقه شئون. وأشار إلى الجميع "يلا بينا، يلا يا حضرات".

وسط عواصف ودوامات مائية بلغت البعثة مصب نهر "سيملكى" الذي يحمل مياه بحيرة إدوارد إلى بحيرة "لوتانزيغا"، مستودع المياه الأعظم لحوض نهر النيل، وفى اليوم التاسع عشر تم الانتهاء من رفع قياسات البحيرة الغاضبة، وقفلت الباخرة عائدة وسط عواصف وأمطار، تنفث حلقات الدخان، فبدت طائرا أسطوريا قادم من بوابات الأرض السفلى، وعلى الجانبين ارتفع الجرف الصخرى، مكونا الحدين الغربى والشرقى للهور الغاضب.

بعد خمس سنوات وفى الطريق إلى زنزبار، سوف يخاتل وعيه نبوءة الساحر التى آن لها أن تتحقق، حيث لا أمل فى النجاة من الموت الأفريقى؛

الموت من الجوع أو العطش، الموت بضربة شمس أو البرد القارص، الموت بين أنياب الضوارى، أو لدغات الحشرات والعقارب والأفاعى السامة، الموت بضربة حربة قاتلة، أو سهم مسموم، فإذا سمح القدر لأحدهم النجاة من تلك الأهوال، يبقى الموت بشهوة الغرور والكراهية، والمذبحة التى قام بها قائد بعثة الإنقاذ، السفاح هنري ستانلي[11]، للرجال والنساء والأسر التى قبض ثمن إنقاذهم من الحكومة المصرية، فمارس متعة التنكيل والبطش.

بعد خمس سنوات وفى 1889 سيهذى الملازم إبراهيم حليم وهو ممدد على فراش الموت برتبة صاغ، داخل إرسالية التبشير البريطانية والحمى تفتك به، يرى الأنياب الخمسة التى ألقاها الساحر تحت أقدامه، بروح "لوتانزيغا" المنتقمة، والحياة تغادره إلى الأبد، إذا لم تكن غادرته بالفعل فى قاع بحيرة "لوتانزيغا".

ها هي زوجته التى لم تنجب له تغادره دون وداع، دون أن يشفع له أنه أوقف كل ماله على خدمتها، ودفع إلى الزنبارين كى يبنون لها كوخا فى كل بقعة تنزل فيها، وهي فى طريق العودة إلى الوطن، وكتب عليهم عهدا بألا يتوقفوا عن حمل محفتها حتى بلوغ ساحل زنزبار، حيث تنتظرهم الباخرة التى ستقلهم إلى مصر، وعندما مرض، تركته ملقي على أرض أفريقيا، وتابعت سيرها دون نظرة وداع.

بعد خمس سنوات وفرائص حملة الإنقاذ ترتعد، والسيد ستانلى يسحق أفرادها، ليترك آباء أبناءهم دون دموع، دون أن يلتفتوا إلى الوراء، لحفر قبور لأحبائهم، وستغادر الروح إبراهيم حليم، وهو يهمس لخضرة دون غضاضة، "غفرت لك"، تلك كانت أخر كلماته التى لم تسمعها.

بعد خمس سنوات سيتذكر يوزباشى عبد الواحد مقلد، الذي جاء المديرية الاستوائية عقابا له على انخراطه في الثورة الدستورية الأولى، وهو يودع الحياة فى المكان الذي مات فيه صديق عمره إبراهيم حليم، دعاء الصبية التى ابتهلت إلى الرب يسوع والسيدة العذراء أم الإله، أن يعيده إليها من السماء أو الجحيم، كى يعيش بين أحضانها خمس سنوات كاملة، أهدته فيها نعيما سماويا وملذات فردوس الرب، جعلته يستقبل الموت

---

11) هنرى مورتون ستانلى: Sir Henry Morton Stanley قائد بعثة الإنقاذ التى أرسلتها الحكومة المصرية فى عام (1887-1889) لإنقاذ قواتها فى المديرية الاستوائية، ساهم فى وضع أوغندا تحت دائرة النفوذ البريطانية

بترحـاب، لأن الله أمـد عمـره بعـد ثـورة روح بحـيرة "لوتانزيغـا" وسـحرتها علـى من حـاول فـك طلاسـم ألغازهـا، وأهـداه عمـرا أخـر، الآن يـغتالـه المـوت بـين يـدى الملاك الـذي تـاه بـه وجـدا، وتـيم بـه عشـقا، وهـو ممـدد لـدى المبشـرين الإنجليـز بجهـة (كـيتيجـا) جنـوب بحـيرة فيكتوريـا فـى إرسـالية مسـتر مكـي التبشيرية الواقعة قرب قرية أنكولة"[12].

أمسـك بكفهـا وابتسـم ابتسـامته التـى فتنتهـا، والتـى تحـوى سـحر بـراءة الطفولـة والرجولـة الفـاجرة معـا، سـألها أن تعـده قبـل أن تغـادره أنفاسـه إلى الأبـد، بـأن تأخـذ طفليـه إلى أبيـه وأمـه، وأن تحيـا مـع عائلتـه فـى المنصـورة، ستحتضـن رأسـه بـين نهـديها، والـدموع تخـتلط بابتسـامتها اليائسـة، وهـي تؤكـد أنهـا سـتفعل، لحظتهـا سيشـهق أنفاسـه الأخـيرة، فـى رحـاب عشـقها المفـرط، وابتسـامتها الواسـعة التـى تشـبع الـدنيا ببهجتهـا، سـتبكى بكـاء مريرا وهـي تـودع مرقـده الأخـير فـى رحـاب أفريقيـا وفردوسـها السـماوى، وترحـل تضـم طفليهـا فـى كنفهـا، وعلـى وجههـا غضـب وحنـق، ورضـا وقناعـة، بالعقاب الذي أوقعه الرب، صاحب المجد السماوى على خطيتها.

* * * *

12) محلة أنكولة: Nkole



- 28 -

رست الباخرة الخديوى على مرفأ "ماجنجو"[13]، بجوار الباخرة "نيازا"[14]، والحمالون (يعتقون) الأخيرة بالجزية المقدمة من مملكتى أوغندا ويونيورو إلى الحكومة المصرية من العاج، وهدايا من غرائب الطيور والحيوانات الناطقة بلغات الله السبع، والتى لا يعلمها سوى سليمان الحكيم.

سلم اليوزباشى تقريره إلى مكتب بريد "ماجنجو"، ومكاتبات ضباطه إلى زملائهم العرابيين، وجلست خضرة مهمومة لا تجيب على تساؤلات صديقتها، بعد جهد قالت بصوت واطئ:

- "مش عاوز يحبنى".
- يا مجنونة، ده بيموت فيك.
- "عارفة أنه بيموت فيَّ، بس مش عاوز يحبنى".
- بيحبك ومش عاوز يحبك، أنت ح تجننيني، مش فاهمة حاجة.
- "طبعا وأنت إيه اللى ح يفهمك؟"
- خدينى على قد عقلى وفهمينى، معلش أنا أختك برضه.
- زهقت أقول "حبنى نوبة"[15] يا إبراهيم افندى، يقول مقدرش أنت أمانة فى رقبتى، أقول إيه لخالى.
- يا بنت الإيه، عايزاه يبوسك.
- وحضرته عامل فيها أخلاق.
- الأخلاق متزعلش حد، وأضافت وهي تهر بضحكتها الواسعة: بس يا أختى معاك حق، راجل زيه يخلى البنت تموت عشان يبوسها.

---

13) مرفأ "ماجنجو": يقع على مصب نيل فيكتوريا في الطرف الشمالى الغربى من بحيرة ألبرت

14) الباخرة نيازا: عملت الباخرتان الخديوى ونيازا على الخط ملاحى التابع للحكومة المصرية بين "دوفلاى" والبحيرات العظمى

15) حبنى نوبة: تعنى في الفصحى قبلنى مرة.

طقطقت مستنكرة: مش قصدى، أنا عايزاه يشعر بالذنب، ساعتها مش ممكن يسبنى.

- يا لهوى يا خضرة، وليه اللف والدوران ده؟
- "لف ودوران إيه، وأنت إيه اللى فهمك، قومى يلا ننام".

تمددت أنجي تتقلب على فراشها، تفكر في مذاق القبلة، في بهيم الليل سارت إليه منومة، وقالت دون صوت... حبنى واهجرنى زى ما أنت عاوز، أخر حاجة ممكن أفكر فيها أنك تشعر معاى بالذنب.

غادرت البعثة "ماجنجو" سيرا على الأقدام، ارتفع الضياء الاستوائى يستر جبال الكونغو، وأشرق النيل قادما من بحيرة إبراهيم، وانبعثت من حواف الغابات قطعان من مردة أسطورية، سارت الهوينى نحو النيل، تتقدمها أنيابها العاجية، وعلى ظهورها سحرة يتخذون هيئة بلاشين بيضاء، يحتمى الصغار بين سيقان أمهاتهم قرب الضروع المحملة باللبن، ويجمع الآباء الطعام من لحاء الأشجار وثمارها، على شفير النيل غاصت أقدام القطيع، تمد خراطيمها إلى الأسيل لتشرب، وترش ظهورها بأريحية واستمتاع.

وقف فلاح الوادى مذهولا أمام الفردوس الذي حشده الخالق بألوف من كائناته المسخّرة لعبادته؛ أبقار ماء، وأفيال وتماسيح، تظللها أسراب الطيور، يصدحون في جوقة الصخب البدائى، للحياة التى تولد فوق المياه السماوية، وكأن الله انتهى لتوه من خلقه، صعد من الأفق لهب أرجوانى، وسط توترات من سبائك النار، تسترها أغصان أشجار الطلح.

ما هو الفردوس إذن ؟

تلاشت الأحراش، وضاق الوادى، وانحدر النيل بمحاذاته، من بعيد بدت الباخرة الخديوى على مرفأ "ماجنجو"، وكأنها سفينة نوح تتأهب للإبحار.

قفزت الفتاتان، وانطلقتا وسط الأحراش، تتابعان قطعان الفيلة، ابتسمت أنجي لفيل صغير بسعادة، رفع خرطومه، ورشها بالماء، ضحكت واقتربت تعطيه إصبع موز فأخذها يهور سعيدا، لمست رأسه، ودون توقع هلّ

عليها الخطر، ووقفت أمه تنهم[16] فى وجهها بتهديد، ارتجفت لا تفهم ما يحدث، احتوى خصرها بكلتا يديه، وهمس فى أذنها ألا تتحرك، مرت لحظات ترشف الأمان من حضنه الذي احتواها، والأم تدفع ابنها مبتعدة للحاق بالقطيع.

* * * *

فى عتمة البكور[17] تسلقوا أراض وعرة، تدمدم تحت أقدامهم، وكون يهاجمهم بضجيج وصخب، وفي ظلال السحر كشف الفضاء عن وحش أسطورى يصل السماء بالأرض، يندفق عتيا مدمرا، ناثرا الزبد، يصب سيوله العاتية في عقيق[18] من خانق صخرى، وكتل صوان، وكأن يد اللّه تدفع به دفعا للهبوط من السماء، فقد تأخر على مخلوقاته.

يأتى الملك الإله من الهضبة الاستوائية العليا، متوجا بآلاف من بلورات حجر الطلق[19]، تشظت مكونة هالة من ألوان الطيف، ينحدر محمولا فوق عمد خيزران عملاقة، معرشة بسحلبيات تفيض أزهارها بجمال ملائكى، وهالة من غبار الماء، ليهوى من حالق إلى عرشه.

غاب بقر الماء سيد العشب والنهر، وغابت أسراب الأسماك، ولم يعد الإله سوبك يلهو بقتل فرائسه، واختفت حيوانات البرية، يا اللّه سبحانك... غابت الأراضى الغرينية الحمراء، ليبقى سر الحياة، قادما من عتبات الجنة؛ مدثرا عريه بسَعَف سرخسيات يانعة الخضرة، يحل على الكون الخشوع فى حضرة النيل الخالد.

التقطوا أنفاسهم على الهضبة العليا لشلالات "فاجاو[20]"؛ وخيموا لتناول الغذاء، حملت الفتاتان طعامهما، وتوارتا عن الأنظار في آيكة بكر، افترشتا على حافة الشلال بسطا من السحلبيات، باغتت خضرة صديقتها ولكزتها، كى تقوم من جوارها، صرخت غاضبة" عاوزه إيه،

16) نهيم: صوت الفيلة.

17) البُكور: ما قبل طلوع الشَّمس

18) العَقِيقُ: الوادي الذي شَقَّه السَّيلُ قديمًا فأنهرَهُ. الوادى.

19) الطلق: حجر شفاف يشظى إذا دق.

20) شلالات "فاجو": أطلق عليها المستكشفون الأوروبيون شلالات "مرشيزون".

أروح فين؟" تجاهلتها وابتسمت ابتسامة واسعة للملازم إبراهيم القادم من خلفها، قامت أنجي وتوارت إلى مكان يتيح لصديقتها خلوة تريدها، إلى خلوة لم تبحث عنها.

جلست أنجي أمام مقلد مستغرقة في التفكير، تحاول أن تستجمع شجاعتها، وطوال تناولهما الطعام ظلت مخفضة الرأس، تتحاشى النظر إليه، في طريق عودتهما، سألته بخجل أن يقبلها.

ـ نعم، عاوزة إيه؟

ـ ممكن حضرتك تبوسنى.

ـ ممكن.

أغمضت عينيها ومدت شفتيها نحوه، اقترب منها ولثمها برقة، تراجعا، وكل منهما يتجنب النظر إلى الآخر، انتظر أن تنفجر فيه بالغضب، لكنها قالت وهي تنظر بين وجهه والأرض تفكر في أشياء غامضة:

ـ ممكن تعمل ده تانى؟

ـ تانى! طبعا ممكن.

مال كل منهما نحو الآخر، يتذوق طعم شفتيه، شعرت بالأرض تميد تحت قدميها، لما أوشكت على الوقوع، تماسكت وانتحت جانبا، سألها:

ـ "إيه وحشة قوى... مش عجباكِ؟".

لم تكن تستمع إليه، عادت مرغمة، وشبت بشفتيها مغمضة العينين تبحث عن شفتيه، أخذ وجهها بين يديه، وانسل يقبل عينيها واحدة بعد أخرى، وعندما عاد يقبل شفتيها كانت تحلق فى النعيم.

دفعته وهي تشهق، وجلست على صخرة، تمنع نفسها من السقوط، جلس جوارها فاستدارت نحوه، وهي تري أن عليها أن تقدم تفسيرا لما فعلته، ارتجلت ما تقوله، مثل إنها لم تتوقع أن يستجيب لسؤالها فور طلبها.

ـ لا، بجد أنا غلطت!؟

ـ لا لا. وأضافت وهي تلهث، أن خضرة أخبرتها أنها طلبت من إبراهيم أفندى مرارا وتكرارا أن يقبلها، لكنه رفض، لأن أخلاقه لا تسمح له أن يقبل من أؤتمن عليها، لكن أنت....

ـ قصدك أيه! أنا معنديش أخلاق... هي دى أخرتها.

اختنقـت تحـاول أن تعـبر عمـا لا تسـتطيع التعـبير عنـه، ولمـا عجـزت عـن التنفس، سقطت فوقه واندفعت تهصر شفتيه بعنف، وهي تردد:

ـ أيوه معندكش أخلاق... "طبعا معندكش أخلاق خالص".

*　　*　　*　　*

أنهـت البعثـة عملـها في شـلالات "فاجـاو"، وغـادرت إلى الأراضـى العليـا للهضبة الاسـتوائية، تقـدمت المحفتـان عـبر حقـول الـذرة والتبـغ، وبـين قطعـان الجـاموس يسـوقها الرعـاة مـن قبائـل العـاميرا، لاحظـت خضـرة أن صـديقتها تترنح كالمنومة، ألقتها على حين غرة بقدح من الماء، انتفضت أنجي:

ـ أيه فيه أية؟

ـ مالك مدهولة ونايمة على نفسك؟

ـ خالص، أنا صاحية أهه. عايزة أيه؟

ـ ولا حاجة.

خطـر لأنجـي أن تحكـى لهـا مـا يشـغلها، فسـألتها إذا مـا كانـت قـد حصـلت علـى مرادهـا مـن إبـراهيم أفنـدى، فـردت بـالنفى، هـزت رأسـها حزينـة، وغمغمـت بـأن عبـد الواحـد أفنـدى معنـدوش أخـلاق، أصـيبت خضـرة بالدهشـة، عـادت تسـتوثق ممـا تقولـه، عـن الشـاب الـذي طالمـا اجتمعـا علـى أدبـه ورفعـة أخلاقه، أعادت أنجي ما أومأت إليه منذ قليل.

ـ طب ليه قولى؟

ـ أقول أيه؟

ـ ح تخبى عليه؟

ـ أنا ... أبدا.

ـ عمل معاك حاجة؟

ـ قلت له بوسني، متنهاش، راح بايسنى على طول.

ـ بتقولى إيه؟

- والله زى ما بقولك كده.

- أنت اللى طلبت منه؟

- أيوه... أنا حتى قلت له إبراهيم أفندى رفض يبوس خضرة.

- أما أنت قليلة الأدب، أزاى تقولى لشاب يبوسك.

شهقت أنجي، فكرت أن تقول شيئا، لكنها اعتصمت بالصمت، غادرت خضرة محفتها مبتعدة، وهي تطلع نحوها باشمئزاز، وشعورا بأن علاقتهما لن تعود كما كانت من قبل، بينما أنجي تبكي نفسها.

*　*　*　*

خط عرض ﴿01﴾

- 29 -

برفق وألفة، وصبر وقسوة، وفى رحاب جلال وعظمة النيل، دخلت بعثة المساحة محلة "فويرا"[21]، ضاعت الغربة، وانزوت الوحشة، وهم يؤدون التحية العسكرية للبيرق الأحمر ذى الأهلة والنجوم الثلاث.

منذ أن دخلها الجيش المصرى فى عام 1872 ساد الهدوء والسلم بين القبائل، وانتشرت زراعة المحاصيل والخضر والفاكهة فى أرجاء الهضبة العذراء، بعد أن كفتهم القوات المصرية الدمار، الذي ألحقه بهم اقتصاد يعتمد على تجارة الرقيق، وحروب القبائل، وسلب قطعان الماشية.

ظبية صغيرة اندفعت نحو سيدة ضامرة يونانية الملامح، جاءت تلهث وراء زوجها الخواجة روفائيل اسطفانوس، الذي قدم مسرعا للقاء ابنته القادمة من دوفيلاى بصحبة بعثة للجيش المصرى.

وسط لقاء حار جمع أسرتى الشيخ الأشمونى والخواجة روفائيل، أخذت أنجي يد أبيها ناحية الضباط، حياهم بحرارة، وشكرهم على عنايتهم بابنته، لمحت أنجي وجه صديقتها يمتقع، وهي تتابع الملازم إبراهيم حليم يرحل مع زملائه، سمعتها تهتف "ح يسبنى يا امه".

همست أنجي في أذن أبيها، تطلب منه أن يستضيفهم، موضحة أن إبراهيم أفندى حليم جاء ليقابل عمها الشيخ عبد الفضيل، ليطلب منه الزواج من خضرة، التفت الخواجة ناحيتها، وجدها تدفن وجهها الممتلئ بالدموع في صدر أمها، هزَ رأسه متفهما، ومنذ تلك اللحظة لم يستطع أحد أن يثنيه عن استضافة البعثة في منزله.

فى الطريق سالت الست تريزا ابنتها عما ترتديه، أشرق وجهها والتمعت عيناها بالسعادة، واكتفت بجذب أمها ناحية ذاك الضابط صاحب الوجه

---

21) فويرا Fauvera: كانت أكبر مركز لتجارة الرقيق في الجنوب، دخلها الجيش المصرى فى 21 مارس 1872، فوجدها قرية من الأشباح يخيم عليها الخراب، بعد أن هرب الأهالي من تجار الرقيق الذين أحالوا حياتهم جحيما، رحب ملك مملكة "يونيورو" بالجيش المصرى، مقدما كل المؤن اللازمة، معلنا دون تردد خضوعه للحكم المصرى.

البريء، والأدب الجم، والابتسامة الهادئة التى تشرق من عينين لعوبتين، ارتجفت لها الأم، وهي تري شبح الكارثة التى توشك أن تحل بابنتها.

* * * *

لم يكن السرور حال الشيخ عبد الفضيل الأشمونى، الذي فوجئ بقدوم عائلته دون سابق إنذار، على فراش الليل دار حوار ساخن مع زوجته، اتهمها بقلة العقل، ذكرته بالحوار الذي دار بينهما، يوم علما بقدوم إبراهيم افندى إلى عاصمة المديرية "لادو"، قال بصوت خافت وهو يكز على أسنانه، أنه لم يكن يعلم بأمره، وتساءل كيف يمكن الموافقة على زواج ابنته الوحيدة من ضابط أعلن العصيان على ولى البلاد الشرعى، وصاحب النهى والأمر بها، وأضاف أنها جنت فى عقلها، إذا ظنت أنه وهو الشيخ الذي يأمر الناس بطاعة أولى الأمر؛ أن يضع فلذة كبده فى بيت متمرد وثائر.

حاولت أن تعترض، دفعها بعنف، وسألها ساخطا كيف غادرت داره، وجابت المديرية دون استئذانه؟ اعتراها البكم، ولدهشته غادرت الفراش، وقالت بصرامة: بقول لك إيه، عصى الخديوى، عصى أمير المؤمنين، دا كان زمان، والخديوى عفى عنه، وبعدين يعنى، يفرق عنا إيه؟ كلنا فى المديرية الاستوائية، وعموما ده مش شأنى، اللى يهمنى بنتك، اللى ح تبقى عانس هنا، جوزها النهاردة قبل بكرة، إحنا هنا من سبع سنين، مدخلش علينا راجل يوحد ربنا. واستطردت بصرامة:

- "خلّص الخطبة قبل ما يسافر، وبعدين لما يجى الجواز يحلها ربنا".

نبه زوجته أن "من خرج من داره، قل مقداره"، وأن خطوبة ابنته يجب أن يكون فى داره، مش في بيت نصرانى.

- كل اللى أنت عاوزه تبوظ الجوازة، بمخك الصعيدى الناشف.

كشر عن أنيابه: "رجاء يا بنت القواسين".

- اسم الله يا أشمونى. قلى بالله عليك، هو إبراهيم أفندى لو قعد سنة وسط النسوان العرايا، اللى بالميات، وبلاش، ح يفكر فى بنتك ليه؟

- ما عنها ما تجوزت؟

- أستر بنتك يا شيخ يسترك ربنا.

في مساء اليوم الثالث طلب الملازم إبراهيم حليم من الشيخ الأشموني يد كريمته، فأجابه أنه يفضل الانتظار لحين عودته من مازندى عاصمة مملكة "يونيور"، حيث سيقوم بعقد عدد من الزيجات لمحاربين من قبائل "البانيور" دخلوا دين الإسلام مؤخرا.

* * * *

افترش صحن الدار زوجتان مثلهما مثل زوجات أعيان الريف الموسرين، إزدان ساعداهما وساقاهما عدد وافر من أساور الذهب، وخلاخيل فضة، وبينهما كومة من كيزان الذرة، تفركانه وتلقيان بالحب في طست نحاسى، تناهى صوتا إبراهيم وعبد الواحد أفندى قادما من الخارج، دعتهما الست تريزا للقدوم، نظرت إليها رجاء بعرفان، وهي تعدل من ثوبها.

أوقظت رائحة عناق إبراهيم بكنته، فى وجدانه رائحة أمه، التى غادرت حياته مبكرا، دار حديث استعادوا فيه وشائج ذوي القربى، وقرية الأشمونيين، واستعادة الست تريزا طفولتها في الأزاريطة، قبل أن تلتقي الشاب الصعيدى القادم من قنا، والذي لم يتركها إلا بعد أن عقد عليها نصف إكليل، وسافر فى طريقه إلى تجارة رابحة بالقدس وأنطاكية، وبعد عام عاد ليتزوجها.

دخلت الفتاتان كحضور عاصف، تحملان (ماجورا)[22] من الفخار، تفوح منه رائحة العجين الطازج، داهمهما ارتباك لوجود الضابطين، لاحظت تريزا أن جسد ابنتها يرتجف، وهي ترفع خصلاتها بيدها الملوثة بالعجين.

- "يا لهوى يا امه! مش تنبهينى إن إبراهيم افندى هنا؟".

- ليه يا بنتى، ما أنت زى الحليب الطازة، يشوفك على طبيعتك، أحسن ما تيجى له صدمة بعد الجواز.

- صدمة! عقبت تريزا، هو يطول، قدامه أهى، قمر اربعتاشر.

- خالتى تريزا...! متكسفينيش.

هاجمت أنجي ابتسامة البراءة الفاجرة، أصيبت بالتيبس، أشار مقلد إلى وجهها الملطخ بالعجين، وقام يزيله عن شعرها، ويعطيه لها.

---

22) ماجور: إناء كبير مصنوع من الفخار، يستخدمه الفلاحون فى خبيز الخبز الريفى.

تــورد وجههــا، ونظــرت إلى أمهــا غاضــبة، قالــت الأم لابنتهــا: " خشــى يــا عينيــه اغســلى وشــك وتعــالى ". وهمست تحدث نفسـها... يـا حبيبتـى يـا بنتـى... أنـت لسة صغيرة علـى البهدلـة... يـا عـذرا يـا أم المسـيح ... نجينــا مــن الخطيــة... دقــت أنجــي الأرض بقــدميها وهي تهمس: "وبعدين يا أم أنجي؟"

يا حبيبتي يا بنتي
أنت لسة صغيرة على البهدلة
يا عذرا يا أم المسيح
نجينا من الخطية...

- "وبعــدين تعــالى ســاعدى أختــك خضــرة، لازم إبــراهيم افنــدى يشــوفها وهــي بتخبــز، ويــدوق خبيزهــا"، واســتطردت تســتعيد هــدوئها تحــدث مقلــد: "ايــوة يــا عبــد الواحــد افنــدى، بناتنــا بنــات هــوانم، والخــدامين عنــدنا كتير، لكــن الراجــل اللــى ح ياخــد بنتنــا ح ياكــل مــن خبيــز وطبــيخ أيــديها"، "صح ولا لا يا بنت فضيلة الشيخ؟".
- صح يا خالتى، هو ده بقى فيه كلام؟

جلســت خضــرة أمــام الفــرن تمــد عصــا حديــدة بخرقــة مبتلــة بالميــاه، تنظــف بها بلاطة الفرن، وتسأل أنجي أن تسرع بالحضور.

زأرت أنجــي في وجــه صــديقتها، واســتدارت تبتســم بعبــوس لأمهــا، وغابــت لتعــود بعــد قليــل وقــد تأنقــت وارتــدت ثوبــا مــن الحريــر، يــا بنتــى ده ممكــن... أعطتها غطاء من الكتان، تنبهها بأن تغطى ثوبها كى لا يتسخ.
- حاضر يا أم أنجي؟

جلســت الصــبيتان أمــام الفــرن متوثبتــان، تغــردان بضــحكات الفــرح العــذرى، تقتطــع أنجــي بكفهــا مــن المــاجور كتلــة مــن العجــين، وتلقــى بــه في مصــبة مــن الحديــد[23]، تمســك بهــا خضــرة، تــدفع بهــا مــن فوهــة الفــرن، وترصــه بمهــارة وســرعة، واحــدة جــوار أخــرى، بعــد أن يســتوى تخرجــه خبــز بتــاو[24]، تلقى به في طبق من خوص النخيل.

أخــتلس مقلــد النظــر إلى أنجــي، اعــترف أن للصــبية وجهــا مــن ابتســامة عريضــة منســوجة مــن الفــرح والبهجــة، نظــرت خضــرة إلى المــلازم إبــراهيم تســأله إذا كــان يرغــب في تــذوق خبزهــا، فلمــا فعــل، لاكــه معــبرا عــن اســتمتاعه بشــكل مبــالغ فيــه، ســأل عبــد الواحــد الســت تيريــزا، عــن قطعــة مــن الجــبن

---

23) المصبة الحديد: عصا من الحديد الطويل تنتهى برأس مخروطى في حجم قبضة اليد، وتستخدم في وضع الخبز البتاو على بلاطة الفرن الملتهب.

24) بتاو: كلمة فرعونية قديمة تعنى خبز، والبتاو هو خبز من دقيق الذرة ينتشر بكثرة فى ريف مصر حتى الآن.

حادقة، انتفضت تهتف "يا ضنى أمك يا ابنى!"، قامت تجرى، لتعود وخلفها خادمة تحمل صينية من النحاس، وعليها أطباق الجبن القديمة والقريش والزبدة والقشطة والعسل النحل.

تدفق حديث عبد الواحد مقلد عن الشوق الذي يعصف به لأمه، وتوقفت ابتسامته الواسعة الناعمة الثقيلة، ولمحت الست تريزا عيني الشاب تسرحان، وقد حلَّ بهما حزن شفيف، بين وقت وآخر تخرج أنجي، وتتبادل حديثا هامسا مع مربيتها دميانة، وتعود وقد تركت على وجه المربية علامات الاستنكار.

داهم السيدة تيريزا الهم، وهي عاجزة عن تبين العلاقة التى تربط ابنتها بالضابط الشاب، "يا عدرا يا صاحبة العونة، فيه مصيبة جاية"، بدا أنه لا توجد قوة ستقنع ابنتها بالفشل المحتوم، لهذا الذي يسمى عشقا لا محالة.

جمعت أنجي صديقاتها من فتيات فويرا؛ يرقص احتفالا بخِطبَة ابنة القاضى، وفى القاعة الخلفية وقفت الست تريزا تهاجم دميانة مربية ابنتها، بحثا عن سؤال وحيد؛ ماذا حدث بين ابنتها وعبد الواحد أفندى؟

* * * *

أمضى الضباط الليل، يسجلون أعمال البعثة، تسللت الفتاتان إلى الغرفة تحملان القهوة والشربات، كانت خضرة أكثر تطلبا، وقفت أمامه تهمس أنها تريده لأمر خاص، سألها أن تنتظر، فخرجت غاضبة، شعر الملازم حليم بالخجل، ونظر إلى قائده باستحياء، سمعه يقول:

النيل. !!
أيكون ثعبان الجنة الذى أغوى آدم
وحواء بالهروب من ضجرها !!
سبحان الله

- أنت في ورطة، قوم شوفها عايزه إيه؟
- العمل عمل يا افندم.
- كفاية كده النهارده، عندى مكاتبات مطلوب إرسالها إلى لادو، لتعويض البعثة من الأفراد والمهمات، اللى فقدناها في بحيرة "لوتانزيغا"، قبل رحيله، كتب اليوزباشي الحسينى عبد الغفار ملاحظاته:

بحيرة ﴿ لوتانزيغا ﴾ تمدد على هيئة جرة[25] فخارية ضخمة، تقع فى منتصف المسافة الواقعة بين بحيرة السماء والأرض التى يسكنها البشر، وتعمل عمل مستودع عملاق يجمع فيه ماء السماء، الذي ينهمر فوق والهضبة الاستوائية وحوض الكونغو الشرقى والشمالى، قبل أن يصبها في جذع نيل بحر الجبل، وهو ثعبان عملاق، يتلوى في طريقه حاملا ماء الخير والنماء إلى مصر المحروسة فسبحان الله "فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ"[26].

اقتحمت خضرة القاعة نكده، أرجع حنقها إلى حبها له، وهو ضابط لن يعوقه ترويض فتاة صلبة المراس، بعد زواجه سيستعيد عبارة اليوزباشى، "أنت في ورطة"، فالفتاة التى اقترن بها في أصقاع أفريقيا النائية، وابنة الخال التى اعتقد أن اللّه خلقها من أجله، ستحول حياته إلى جحيم، ويقضى سنوات عمره الباقية، وحتى موته لا يعرف مشكلة حياته.

* * * *

قبل أن يدلف عبد الواحد مقلد غرفته ظهرت دميانة، سألته أن يتبعها، على باب الدار الخلفى هاجمته رائحة محصول الطباق النفاذة، اختفت العجوز ليظهر شبح يرف لفتاة تعبث الرياح بشعرها.

تعقبها وسط البرارى، تسبقه كغزال يدعو الضوارى لافتراسه، حملت الرياح إيقاع طبول المامبو يأتى من ناحية شونة الحبوب، دلف وراءها حيث اجتمع نساء ورجال قبائل "العاميرا" حول النيران، يغنون ويرقصون رقصاتهم الأفريقية، وقف حائرا، وامرأة سوداء تنظر إليه بتواطؤ، سمع صوتها يناديه، كانت تقف على العلية، صعد إليها، على حافتها هاجمته بصدمة أفقدته توازنه، ليجد نفسه ممددا بين جوالات الدقيق، ورأسها ونهداها مدفونان فى صدره.

... أسئلة عصفت به... هل يحق لك أن تنال ما تقدمه لك صبية فى حلاوة الشهد؟ هل يستسلم لدمها الحار ورغباتها المشتعلة، هل يحب فتاة لا

---

25) إبريق فخارى: إناء لشرب الماء يستخدمه الفلاحون في الريف.
26) سورة الشورى-11

يستطيع الاقتران بها؟ كيف يسمح ضميره خيانة صاحب الدار الذي استضافه في منزله؟ همست بدموع سخية:

- "أنا وحشة؟"

- "أبدا! مين قال كده!".

- امال ليه ما بتحبنيش؟ ... أنت بتحب حد تانى؟

ضربت رأسها بيدها وهتفت:

- يا بختك المنيل يا أنجي.

- "ماله بختك؟".

- أهه... واضح زى الشمس.

عندما ابتعدت عنه، شعر بأنه فقد جسده معها، وأن جحيم الشغف استحوذ عليه، ارتكن بظهره على جوالات الحبوب، يحاول أن يعى ما يمنحه له هذا الجمال الذي خلقه الله من نوره، كانت جواره تجلس منهارة، تسند رأسها فوق ركبتيها وتهدر بالبكاء، مسد رأسها يهدئ من روعها، انتشرت الرعشة فى جسدها، دفنت رأسها فى صدره، ومنذ تلك اللحظة فقد الملازم هناءة البال... لهب ساخن انساب إلى صدره من يمامتين تخفقان فى قفصهما طلبا للطيران، سمعها تطلب منه أن يأخذها، رجع إلى الخلف مذعورا:

- "بتقولى إيه؟".

- خدنى... أنا مش ح أحب حد تانى... خلاص مش ح أحب غيرك.

فركت جبينها فى عنقه، ويده تمسح دموعها، بكت بهستيريا، وأظافرها تخمش صدره، وعيونها تمتلئ بفزع يهتف به أن يرحمها:

- "ح أموت... أنت ح تمشى وتسيبنى، وأنا عارفة مش ح أشوفك تانى... مفيش لى غير أمنا العدرا، لو أقدر أرجع مصر، رجعنى مصر".

- عاوزة ترجعى مصر ليه؟

- ادخل دير أمنا الوالدة الطاهرة.

- يا بنتى أنا أصلا منفى من مصر، أرجعك أزاى؟

- مفيش حد ح يلمسنى غيرك، ح انتحر من بعدك، ما ليش دعوة. أنا عاوزة ادخل الدير، أوهب نفسى للسيد المسيح عله يغفر لى".

- "يغفر لك إيه يا بنتى؟ هو أنت عملت حاجة؟".

- عشان أنا فكرت فى ارتكاب الخطية.

- فكرت بس! يا سلام، ما كلنا بنفكر. أضاف مبتسما:

- وبعدين مين فى جمالك، وبهجتك، ودمك الحامى، وابتسامتك اللى زى المدفعية دى، وما يفكرش فى ميت خطية؟

ابتسمت للمرة الأولى، سألته وفى صوتها رنة رجاء وإلحاح أن يحتضنها، نامت على صدره كطفل وديع، وهو يتملى وجهها المتسع كقمر يفيض بالابتسام، للحظة استيقظت، غمغمت:

- "أنت لسه صاحى يا حضرة الضابط؟".

- "ومين ينام فى حضرة القمر".

- يا سلام... مخبى الكلام الحلو عنى فين؟

- مجاش وقت مناسب.

- يعنى أنت بتحبنى؟ قالتها وعادت للنوم قريرة العينين، دون انتظار إجابة.

* * * *

- 30 -

راوغ الشيخ محاولات الجمع بينه وبين الملازم حليم، حتى اضطرت السيدة رجاء أن تلجأ إلى السيدة كى توعز لزوجها أن يجمعهما، فالتقى الضباط بالشيخ على مائدة عامرة بلحم الغزلان، حضرها السيد محمد بري الطرابلسى، وقومندان فويرا الملازم أول "أويو نيمبا"، كان ثلاثتهم منهمكين في حديث باللغة السواحلية المحلية، أخبر الخواجة اليوزباشى أن الشيخ الأشمونى والسيد برى يعرضان على القومندان الإسلام، وأضاف أن للشيخ والسيد برى صولات وجولات في الدعوة، وقد دخل الكثير من أهالى البلاد الإسلام، بفضل إجادتهما لغة أهل البلاد.

تساءل اليوزباشى إذا كان للكنيسة القبطية مبشرين فى المديرية، أجابه بأنه لم يسمع بأفريقى أعتنق الأرثوذكسية القبطية، وهي فى ذلك تشبه اليهودية التى اقتصرت على اليهود، بينما تبشر إرساليات الكنيستين البروتستانتية والكاثوليكية في أرجاء العالم، وأضاف:

- "هذا الشيخ يساوى لمصر أورطه عسكرية".
- للدرجة دى!
- صداقة ملوك أوغندا و"يونيور"، وزنزبار، أفادت الحكومة المصرية، وأفادتنا أحنا تجار خط الاستواء، صداقته معناها حقوق للتجارة، حماية القوافل، معناها سوق للبيع والشراء.

شفت وجوه الضباط بالراحة، وازدادوا تقديرا للشيخ، وعندما رحل قومندان فويرا، بدا الوقت مناسب للمأمول، دعا الخواجة الخادم لإحضار الشربات المسكر، وتبادل حليم وقائده النظر، فعزم اليوزباشى وتوجه إلى الشيخ بالحديث يطلب يد ابنته الآنسة خضرة إلى الملازم إبراهيم حليم.

غمر الفرح النسوة اللائى وقفن يسترقن السمع وراء الأبواب بانتظار الإعلان عن الخطوبة، وفى الداخل تطلع الجميع إلى الشيخ الذي أراح رأسه إلى الوراء وأغمض عينيه، سأله الخواجة بحرج إذا كان متعبا، فهز رأسه نفيا، وهو يكبح نفسه عن أن يسأل اليوزباشى. لماذا يوافق على زواج ابنته؟ قال منفعلا وهو يقاوم صراعا داخليا:

- يا ابنى أنت فاجأتنى؟

شعر اليوزباشى بالحرج، تبادل نظرة تساؤل إلى الملازم حليم، قال:

- الملازم إبراهيم حليم كلم حضرتكم؟

- أنا مقلتلوش أنا موافق.

- "يبقى فضيلتك خصتني بالشرف".

هز الشيخ رأسه نفيا، تغير وجه إبراهيم حليم، ووضع رأسه فى الأرض، تشجع اليوزباشى" يا فضيلة الشيخ، معكم حق، أزاى إبراهيم أفندى يلجأ لى، وأنتم له فى مقام الوالد، إذا حلَّ الماء بطل التيمم.

تدخل الملازم عبد الواحد يحاول رفع الحرج عن صديقه:

- "يمكن فضيلته محتاج وقت للتفكير، أو عاوز يراجع أهل الدار".

غلى الدم في رأس الأشمونى، واعتبر العبارة إهانة تحمل تهديدا بفضيحة، فالجميع يعلم أن زوجته وابنته سافرتا على متن سفينة الجيش، بصحبة إبراهيم حليم، لعن النساء، وقذف إلى اليوزباشى بما تحرج قوله:

- "حضرة اليوزباشى ادينى سبب كافى عشان أدى بنتى لراجل حكم عليه بتهمة العصيان".

سقطت خضرة منهارة، وأصيب إبراهيم بصدمة، وهو يكتشف أنه مطارد كمجرم، وضحك يخفف من وقع الأمر" يا خال أنت نسيت أن الخديوى ألغى الحكم، وإلا ما كنتش قاعد قدام فضيلتكم هنا".

- "أنا عارف إن رحمة مولانا واسعة".

تدخل اليوزباشى: "فضيلتك توجه اتهام لكل الضباط اللى شاركوا فى الثورة، إحنا طلبنا العدل والإنصاف، وخسرنا كثير؛ منا من قتل، من سجن، من جُرد من رتبه وأملاكه... مش عارف ابدأ من فين؟ ممكن أتحجج بظلم الضباط الشراكسة للمصريين، معاملة الأجانب للفلاحين معاملة

العبيد، سرقة حصة مصر فى قناة السويس، يا مولانا كنت فاكر إن قضية الثورة واضحة، أول مرة نواجه مصرى فاضل شايفنا عصبة مجرمة.

فى القاعة الخارجية تملصت خضرة من أمها، وقامت منهكة، وفتحت باب المضيفة، وانسلت إلى الداخل، افترشت الأرض مستندة بظهرها إلى الحائط فى مقابل الضابط الشاب الذي حلمت بالزواج منه، تزيل خصلات شعرها المسدل على جبينها، لتبقى دموعها شاهدا على ما تعانيه.

أثار دخولها المباغت للأعراف ارتباك المرأتين، وشعر اليوزباشى بعبء فى وجود الفتاة التى وضعت آمالها فى المراهنة على حججه فى إقناع والدها.

ضابط مجنون.

فاكر حياكل بعقلي حلاوة.

بعد دقائق انسلت الصبية الأخرى لتجلس على بعد ذراع من صديقتها، تبادلتا النظر من وراء دموعهما، وكلتاهما تحاولان ألا يفضح بكاؤهما عن وجودهما، استطرد اليوزباشى:

- "الاستبداد لا يكتفى بسلب حقوق الناس، وما يصنعه من فقر وحرمان لجموع الشعب، وإنما يكون مشغولا بقمع الحريات.

- "يا حضرة اليوزباشى، العامة والغوغاء تنتهك الحرمات، الناس لا تبالى بواجباتهم، أنتم تحلمون بأن يولي عليكم أمراء فى مقام الخلفاء الراشدين، وهذا بعيد المنال، فالله يولى الرعية ما يستحقون.

استنكر مقلد: "فضيلتكم تحملون الشعب مخازى الخديوى".

- يا بنى الخروج على الحاكم شر ما بعده شر، فعلى الناس لولاة الأمر التوقير والطاعة، لأن التقليل من شأن الحاكم مفسدة للشريعة، ومفسدة للأمن، وعندما تشيع الفوضى، تضيع مكانة العلماء، وتسقط هيبة الأمراء، فنرى الجاهل يقول أنا الحبر الفهامة والعالم العلامة، والبحر الذي لا ساحل له، ونرى كل ضال جهول يظن أنه الأمير، فإذا قلت لواحد من أمثالكم، أن مولانا الوالى أمر بكذا، قلتم لا طاعة له علينا لأنه مخل بكذا، وأنا أقول علكم تفقهون، حتى لو أخل أفندينا الخديوى فى أمر،

حـتي وإن شـرب الخمـر، وعـاقر الفسـق، فذنبـه عليـه، وإنمـا نحـن مـأمورون بالسمع والطاعة.

قاطعـه إبـراهيم حلـيم بفـزع: "معقـول يـا خـال! شـرب الخمـر، وعـاقر الفسق".

تجاهل الشيخ نبرة المصالحة التى أبداها إبراهيم وكرر القول:

- حـتي وإن شـرب الخمـر، وعـاقر الفسـق، ***قـالَ حُذَيْفَـةُ بـنُ اليَمَـانِ: قلْـتُ: "يَـا رَسُولَ اللَّهِ، إنَّا كُنَّا بشَرٍّ، فَجَاءَ اللَّـهُ بخَيْـرٍ، فَـنَحْنُ فِيـهِ، فَهَـلْ مِـن وَرَاءِ هـذَا الخَيْـرِ شَرٌّ؟ قالَ: نَعَمْ، قلْـتُ: كَيْـفَ؟ قـالَ: يَكُـونُ بَعْـدِي أئِمَّـةٌ لا يَهْتَـدُونَ بهُـدَايَ، ولَا يَسْـتَنُّونَ بسُـنَّتِي، سَـيَقُومُ فِـيهِمْ رِجَـالٌ قلُـوبُهُمْ قلُـوبُ الشَّـيَاطِينِ فِـي جُثْمَـانِ إنْسٍ. قلْتُ: يَـا رَسُولَ اللَّهِ كَيْـفَ أصْنَعُ إنْ أدْرَكْـتُ ذلِكَ؟ قـالَ: تَسْـمَعُ وتُطِيـعُ الأمِيرِ، وإنْ ضُـرِبَ ظَهْـرُكَ، وأُخِـذَ مَالُـكَ فاسْـمَعْ وأطِـعْ"***، وأضـاف الأشمـونى فمـا بال عرابى البارودى من قول رسول الله.

تـدخل إبـراهيم بعفويـة وصـبر: "يـا خـال، أنـتم العلمـاء لكـم الشـريعة، تـدعون بهـا النـاس لأداء الفـروض، والـدعوة للمعـروف والنهـي عـن المنكـر، أمـا نحـن إنمـا نطلـب الحريـة، ولا نقبـل أن نكـون عبيدا لمخلوق".

بتقول كلام حلو يا سى إبراهيم.
رد عليه متسكتلوش.
ده أبوى أنا عارفاه.

- "هو أنت ح تفهمنى اللى أنا فاهمه؟".

قـال اليوزباشـى: "لـو تـأذن لى فضـيلتكم، إنمـا الطاعـة في المعـروف، قـال الـنبي صـلى الله عليـه وسـلم: ***"السـمع والطاعـة علـى المرء المسـلم فيمـا أحـب وكره ما لم يؤمر بمعصية، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة***[27]***"***.

رفـع الشـيخ يـده، والغضـب علـى وجهـه، يطلـب مـن اليوزباشـى الـتروى، إذا كيـف لهـؤلاء الأدعيـاء محاجاتـه فـى علـوم الـدين، وهـو القاضـى والفقيـه الدارس لعلوم الفقه والشريعة، قال:

- "بسـم الله الـرحمن الـرحيم، ربنـا آتنـا بمـا يشـرح قلوبنـا، ولا توردنـا مـورد التهلكـة، إنـك غفـور رحـيم، حضـرات الضـباط سـأتلو علـيكم الجـواب القطعـى علـى خـروجكم علـى شـرع الله، أنـتم وأشـياعكم مـن العصـاة

27) في الصحيحين

العرابيين، جاء فى مسلم، "*سَأَلَ سَلَمَةُ بْنُ يَزِيدَ الْجُعْفِيُّ رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَرَأَيْتَ إِنْ قَامَتْ عَلَيْنَا أُمَرَاءُ يَسْأَلُونَا حَقَّهُمْ وَيَمْنَعُونَا حَقَّنَا فَمَا تَأْمُرُنَا فَأَعْرَضَ عَنْهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ فَأَعْرَضَ عَنْهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ فِي الثَّانِيَةِ أَوْ فِي الثَّالِثَةِ، فَجَذَبَهُ الْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ وَقَالَ اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِمْ مَا حُمِّلُوا وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ*".

فى هذا الحجة القاطعة على من يخرج على الحكام، وأنتم خرجتم على مولانا الخديوى المنصور من السلطان أمير المؤمنين وخليفة المسلمين عبد الحميد خان الثانى، عن أبي هريرة - رضي الله عنه، *قال:* ***سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم يقول: "مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ، وَخَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ، فَمَاتَ فَمِيتَتُهُ جَاهِلِيَّةٌ، وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا، لَا يَتَحَاشَى مُؤْمِنًا لِإِيمَانِهِ، وَلَا يَفِي لِذِي عَهْدٍ بِعَهْدِهِ، فَلَيْسَ مِنْ أُمَّتِي، وَمَنْ قُتِلَ تَحْتَ رَايَةٍ عُمِّيَّةٍ يَغْضَبُ لِلْعَصَبِيَّةِ، أَوْ يُقَاتِلُ لِلْعَصَبِيَّةِ؛ فَقِتْلَتُهُ جَاهِلِيَّةٌ."*** [28]، لأن الخروج علي ولاة الأمور يسبب فسادا كبيرا وشرا عظيما، فإذا كان الخروج على ولى الأمر يسبب شرا أكثر، فهو لا يصبح رعاية للمصالح العامة، والقاعدة الشرعية المجمع عليها "انه لا يجوز إزالة الشر بما هو أشر منه، بل يجب درئه بما يزيله و يخففه".

قال مقلد: "لولا تمرد العسكر لبقيت الأحوال على ما هي عليه من مظالم ومفاسد وما تغيرت، ولكن الأوضاع تحسنت بالجملة"، وأضاف إبراهيم: " الخديوى يوعد و يخلف، وزى ما أنت عارف يا خال؛ آية المنافق ثلاث، إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان، كل اللى تقوله فضيلتكم لا غبار عليه، فهو فى صميم الإسلام، واللى بنعمله برضه من صميم الإسلام، العدل والإنصاف والحرية، ولو في عيب تحملنى، ولك عليَّ طاعة الابن لوالده.

قال الشيخ بانفعال: "وأنا أقول لك يا إبراهيم أفندى إذا كنت من الطائفة التى تريد إزالة السلطان الذي فعل كفرا بواحا، وترتب على الخروج اختلال في الأمن، وإلى غير ذلك من الفساد العظيم، فهذا لا يجوز، بل يجب السمع والطاعة في المعروف، ومناصحة ولاة الأمور والدعوة لهم بالخير،

---

28) رواه أحمد (296/2) ومسلم (1848)

وعلمى علم اليقين أن مولانا الخديوى مسلم ومؤمن وموحد، ولا يجوز الخروج عليه، نسأل الله للجميع الهداية والتوفيق.

تدخل الحسينى: "يا مولانا بيننا خلاف كبير، بهذه الثورة سنت الحقوق القانونية للمصريين، وانشأ هيكل قضائى لدولة عصرية، محكمة ابتدائية في عموم مصر، ومحاكم جزئية، ومحكمتين استئنافيتين بمصر، وأسيوط، محكمة التمييز للنقض والإبرام بالقاهرة، وإنشات النيابة العمومية، وحصَن القانون القضاء من سلطة الحكومة، بعدم جواز عزل قضاة المحاكم، وجعل شريف باشا من مجلس النواب المنتخب جمعية تأسيسية لمناقشة وإقرار الدستور، وعموما أحنا بنتكلم عن عقد قران، وليس حربا بين دولتين عظميين، وفى هذا أؤكد، أن هذا الشاب لديه من مكارم الأخلاق، ومناقب السجايا ما يجعل نعم الزوج لابنتكم.

هي حتموت نفسها على إيه؟!
هي مين اللي حتجوز!

شعرت خضرة بالسرور، وقد أعاد اليوزباشي الحديث لمساره القويم، واستأذن مقلد قائده فى الانصراف، وقدم تحيته إلى الخواجة روفائيل، وتجاهل الشيخ مغادرا المكان.

ندت شهقة من خلف الرجلين، وانتفض جسد أنجي وهي تسرع باللحاق بالملازم عبد الواحد مقلد، لم يفهم الخواجة روفائيل ماذا تفعل ابنته وراءه، وكم مضى عليها من الزمن تستمع لما يجرى.

تابعت تريزا ابنتها وهي تقف مع عبد الواحد فى نهاية ممر الدار، تتبادل معه حديثا مشحونا بالتوتر والبكاء، وخوفا من الفضيحة عزم الشيخ الذي عرف أن ابنته تختفي وراءه، أن ينهي الأمر، فقال:

- صاحب الحق يكفيه كلمة، وصاحب الباطل لا يكفيه مداد ملئه البحر، فمثلكم مثل الخوارج، وحكمكم مثل الخوارج، قال ابن تيمية في الفتاوى[29]، ***فإن الأمة متفقون على ذم الخوارج وتضليلهم، وإنما تنازعوا في تكفيرهم، فكان فيهم وجهان: أحدهما: أنهم بغاة. والثاني:***

29) الفتاوى (28/518)

أنهم كفار كالمرتدين، يجوز قتلهم ابتداء، وقتل أسيرهم، واتباع مدبرهم، ومن قدر عليه منهم استتيب كالمرتد فإن تاب وإلا قتل.

انتفض إبراهيم من مقعده، هتف والحنق يلفح وجهه:

ـ أنت يا راجل بتخرف بتقول إيه؟

أخذه اليوزباشى إلى خارج القاعة، وفى الداخل سمع صوت الصفعات والركلات تنهال على خضرة".

* * * *

اليوم وصل بريد لادو حمل مكاتبات من أمين بك تحوى تهنئة للملازم إبراهيم حليم، ومكافأة لخطوبة لم تتم، وخطابات من إقليم الرول، من الملازم خلاف لأصدقائه العرابيين، ذكر فى خطابه إلى اليوزباشي أن خلافا قويا نشب بينه وبين قومندان الرول محمد افندى الصياد، بسبب طريقته الشاذة التى يتبعها في جمع السلاح من القبائل، وقد تأكد له أن هناك ضغينة لدى القومندان لقبائل الآجار، الذي اتهمهم زورا باللصوصية، وأصر بطريقة جائرة على اقتحام القرى، وإخراج النساء والأطفال منها تحت النيران، وفتش الأكواخ بحثا عن السلاح، ولما لم يجده، جمع الفؤوس والبلط وتفتيش الناس العرايا، فألقى الرجال الخرق عن عورتهم، وبكت النساء والأطفال، وقال زعيمهم، أن محاربى الآجار ارتدوا هذه الوزرات إرضاء للحكومة المصرية، فلا داعى لأن تكون مدعاة للإهانة.

كانت رسالة فرانسوا تخبره إنها عزمت على الزواج من كابتن كازاتى، رغم أنها علمت بوجود ابنة له اسمها ازهيرالدا، وأنها فى كل الأحوال ترسل له قبلات حارة وفي شوق شديد له

وأردف خلاف، أن ثورة الرول لن تهدأ، وسوف تسوء الأوضاع قريبا.

حاشية: "فقدت ابنا لى قبل أن يولد أثناء قمع تمرد الرول، وأن من دواعى حزنى، أننى تسببت فى ألم شديد لزوجتى، وهي لن تغفر لى فقدان جنين فى الشهر الخامس، أتمنى لو يعود الزمن بى إلى يوم غادرت الحملة مرفأ القناطر الخيرية، وهي تأتى هاربة من أهلها، وهو ما لم أقدره، وأقسم لكم

حضـرة اليوزباشـى لـيس عـن سـوء نفـس، ولكنـه الجـبن الـذي تعلـل بـالخوف عليهـا، وعلـى ابنتنـا فريـدة مـن مجهـول. وأعلـم حضـرتكم أننـى لم أفهـم مخـاوفى إلا بعـد أن علمـت بمـوت الجـنين فـى رحمهـا، لكـن أسـوء مـا حـدث لى عنـدما تفوهـت بـالقول إننـى أخشـى مـوتى وتركهمـا للمجهـول فـى أراضـى يأكـل فيهـا لحـم البشـر، ويسـاق الأسـرى رقيقـا يبـاع ويشـتري، فقفـزت فـى وجهي، وكشفت عن أنياب لوحش ضارى، وهي تقول:

- "الضـابط الـذي لا يعلـم أن المـوت ظلـه، لـيس ضـابطا... الضـابط الـذي لا يعلـم أن المـوت قـدره لـيس ضـابطا... الضـابط الـذي لا يبحـث عـن الشـرف فـى المـوت لـيس ضـابطا... الضـابط الـذي يخـاف علـى زوجتـه وابنتـه مـن موتـه فهـو فـلاح، لا يعـرف شـرف ونبالـة الفروسـية... وإذا كنـتم تريـدون جيشـا لمصـر، يجـب أن تطـردوا منـه كـل مـن يخشـى المـوت، ويعـيش العسـكرية بـروح فلاح...

لا افنـدم عنـدما تكـون ضـابطا لـيس مـن حقـك أن تفكـر فـى زوجتـك، ولا ابنتك ولا أبوك أو أمك، لأن عليك أن تكون مستعدا لمواجهة الموت بشرف...

... المـوت!! المـوت تـاج العـزة والكبريـاء علـى رءوس الفرسـان. وتركتنـى وهي تبكي.

وكـأنى أتعـرف للمـرة الأولى علـى المـرأة التـى تزوجتهـا، لمـاذا أقـول ذلـك، لأنـك الأخ الأكـبر لنـا، ولـيس لـدينا مـن نبـوح لـه بهمومنـا، وأنـا الآن أبحـث عـن الحياة معها، طالما أن الموت يحلق على رؤوسنا نحن ضباط سلاح الصوارى.

فى مسـاء ليلـة الرحيـل نامـت الست تيريـزا جـوار زوجهـا، تحـاول أن تنسـى مـا حـدث فـى عتمـة الليـل، عنـدما جاءتهـا دميانـة تخبرهـا أن عبـد الواحـد أفنـدى يطلـب لقاءهـا، فخرجـت تتوقـع مصـيبة لابنتهـا، وجدتـه وحيـدا تحـت شـجرة الجميـز، يسـألها أن تكـون رسـوله إلى السـيد روفائيـل، ليوافـق علـى زواجـه مـن ابنته، بكت الأم وهي تهتف:

- "يا أبني أزاى... ده مستحيل يا عبد الواحد أفندى.

شيء سقط خلف شجرة الجميز، كانت أنجي قد وقعت مغشيا عليها.

* * * *

علـى مصبـاح زيتـى كتـب الملازم إبـراهيم خطابـا إلى الأشمـونى، يوضـح فيه ما ظن أنها أمور خافية عليه:

لو تعلمون فضيلتكـــم

"هـل يخفـى علـى فضـيلتكم أن الصـراع الـذي جـرى فـى مصـر بـين الحركـة الوطنيـة والخـديوى كـان بـه عنصـر ثالـث، وهـو المطامع الأوروبيـة فـى مصـر، وربمـا تعلمـون أن "ليـون جميتـا" رئـيس وزراء فرنسـا كـان يكـن عـداء محمومـا للحركـة الوطنيـة، خوفـا مـن أن تجتـاح ثورتنـا الجزائـر، ثـم تؤلـب العـالم الإسـلامي علـى أوروبـا، وعنـدما عقـد مجلـس النـواب المصـرى أول اجتمـاع، فطنـت الـدولتان إلى أن الخطر وشـيك الحـدوث، فوصـفت بريطانيـا مجلـس النـواب بأنـه "جمعيـة مـن الجهـلاء المتعجـرفين والمتعصـبين ضـد الأوروبـيين والمسـيحيين"، ورفضـت أن يكـون لـه الحـق فـى مراجعـة الميزانيـة"، ونصـح القنصـل البريطـانى الخـديوى للقبول باحتلال سريع وعاجل.!! ،

وعزمـت أوروبـا ألا تعـترف بحـق المصـريين فـى دولـة دستورية، وبرلمـان علـى غـرار مجلـس العمـوم، أو جمعيـة وطنيـة تجتمـع فيهـا إرادة كافـة طبقـات الأمـة ضـد سلطة طاغية وخـائن، وصـمموا علـى ذبـح أجمـل مـا فـى المصريين.

تكفلـت البـوارج البحريـة البريطانيـة بهـدم أحـلام المصـريين، فشـنت المـدرعتان سـويرب وانفلكسـيل[30] قصـفا محكمـا حيثمـا كـان شريف باشـا يـدخل حـاملا الدسـتور علـى الجمعيـة العموميـة للـبلاد، ودمـرت البـوارج البريطانيـة حصـون الفنـار ورأس الـتين والاسـتبالية، وأصـلت سـويرب وانفلكسـيل وأكسـندرا وسـلطان وتمريـر[31] قلعـة الأطـة نيرانـا حاميـة حتـى انفجـر مسـتودع البـارود عاليـا ليخـيم الضـباب والـدخان علـى سمـاء

وتولت البارجة دكوى وسفينة طوربيد هكلا، وسفينة كشافة هلكون دك المواد 20: للنواب حق الرقابة على موظفى الحكومة جميعا ولهم أن يتقدموا إلى النظار بكل ما يرون ضرورة التحقيق فيه من تعد أو خلل أو قصور من أي موظف خلال تأدية وظيفته.
21: النظار متكافلون فى المسئولية أمام مجلس النواب عن كل أمر يتقرر بمجلس النظار ويترتب عليه إخلال بالقوانين واللوائح المرعية الإجراء.

---

30) سوبرب Superb ـ انفلكسيل Inflexible
31) الكسندرا Alexandra ـ سلطان Sultan ـ تمرير Temerire

المجلس النيابى، فتسوده الظلمة، ويحل به الخراب، وعاقبت المدمرات انفنسيبل ومونارك، وبنلوب[32] المصريين على ما قدموه من حضارة انتشلت الجنس البشرى من كهوف الظلام وصقيع ثلوجهم، بقصف الانتخابات الشرعية وسحق النبهاء والمثقفون وطلبة الأزهر والمدارس، الذين قاموا بشرح المبادئ والأسس الدستورية للفلاحين، وأنا أسأل فضيلتكم سؤالا فقهيا فى مسألة الدخول والخروج، والبغى والكفر، التى رميتمونا بها؛ "هل يحق لضابط فى الجيش، أن يفتح أبواب حصون بلاده على مصراعيها للغزاة؟"

*　　*　　*　　*

على مصب بحيرة إبراهيم[33] اندفع النيل من ارتفاع 1072 مترا، ثائرا جموحا، يغالب أراضى صخرية تضيق خناقها، وانعطف إلى سيل جارف على هيئة أنشوطة، يطيح بكل من يحاول ترويضه، عابرا جنادل وشلالات، ثم يخر بمهابة باتجاه بحيرة "لوتانزيغا" تستقبله البحيرة الملقاة على هيئة جرة عملاقة، تنام على صدر البسطة السفلية للهضبة الاستوائية العظمى، لتسلمه هادئا حكيما وقورا إلى مصبها الغربى ليعود في بحر الجبل نحو الشمال؛ حيث طريقه الذي خلقه الله من أجله، وسخر له نصف محيطات الأرض ورياحها.

رفعت البعثة البحيرة، ذات البسطة الممتدة 236 كيلومترا، تكسو معالمها بساط من زهور (النيلوفر)[34] مرصعة بكؤوس ذهبية، تفيض بزرقة سماوية، وينفرج مسار البحيرة الأوسط عن أربعة فروع كبيرة اتخذت هيئة أكثر أوراق الأشجار انتشار في وادى النيل، وهي ورقة الطلح.

غمغم اليوزباشى وهو يمسك غرين البحيرة فى يده:

"وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ"[35].

*　　*　　*　　*

---

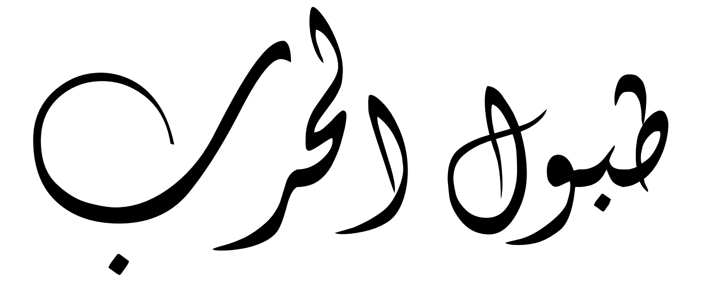
32) انفنسيبل Invincible ،مونارك Monark ،بنلوب Panelop

33) بحيرة إبراهيم: مسماة باسم القائد إبراهيم باشا، وأسمها الوطنى بحيرة كيوغا

34) النيلوفر: نبات ينبت فى المياه الراكدة يزهر ويورق على سطح الماء.

35) (سورة المؤمنون: 12).

العتبة السابعة



وللجحيم عتباته



- 31 -

علــى الجنــاح الغربــي لقــوس الميــاه الــذي يرفــد حــوض نهــر النيــل، دارت المعــارك الأخــيرة لحمــلات الجـيـش المصــري في القــارة الســوداء، الــتي بــدأها محمــد علــى باشــا عــام 1821؛ بخيــال وطمــوح لا حــدود لــه، جعــل مــن نهــر النيــل والمصــالح المصــرية بوصــلة واتجاهــا، وفــى الربــع الأخــير مــن القــرن التاســع عشــر قــاد ضــابط مصــري الموجــة الأخــيرة منهــا، والــتي تهــدف لمــد سـيـطرة الحكومــة المصــرية علــى شمــال حــوض نهــر الكونغــو، وقــد قـيـض لهــذا الأســطورة، الــتي حــددت معاركــه المــدى الأقصــى لخــط الحــدود الــذي بلغــة الجـيـش المصــري فــى القــارة الأفريـقـية، أن يــكون شخصـية مجهولــة فى صفحــات التاريــخ.

عنــد تقــاطع خطــى طــول {26^0:5} وعــرض{4^0} أقــام الصــاغ حــواش منتصــر بعــد انتصــاره في الحــرب الــتي خاضــها ضــد ملــك مونبوتــو، حاميــة عســكرية أطلق عليه اسمه؛ "محطة حواش".

وكــان الصــاغ قــد تمكــن مــن أســر الملــك، وأصــر أمــين بــك علــى إعدامــه فــى مشــهد مأســوي، رغــم أن منتصــر، وكبــار ضــباط المديريــة أوضــحوا للحكمدار؛ أن هذا ضد مصالح الحكومة المصرية.

فــى لادو عاصــمة المديريــة دارت معركــة أخــرى، عنــدما اقــتحم كــابتن رودولفــو كــازاتى مكتــب أمــين بــك، وحــذره تحــذيرا شــديدا مــن النجــاح والتأييــد الــذي يلقــاه الضــابط حــواش منتصــر الــذي ورث التقاليــد العســكرية لجـيـش محمــد علــى باشــا العظـيـم، وهــو ينــاور الآن علــى جنــاح القــارة الغربــي لخــط الاســتواء، ويلقــي ترحيبــا وســط قبائــل النيــام نيــام والأرامــوس والمبــوروس، حتــى أصــبح هنــاك مــن ينــادي بــه ملكــا علــى هضــبة البحيرات العظمــى، وهــو مــا يتعــارض مــع المصــالح الحيويــة للممالــك الأوروبيــة، وأضــاف ينــاشــد فــى أمــين بــك أصــوله الجرمانيــة؛ الحــذر كــل الحــذر، فبمقــدور هــذا الضــابط المخبــول،

إنشاء مملكة تطيح بكل الآمال التي يسعى الأوروبيون لتحقيقها فى القارة العذراء.

وخلال نقاش طويل اقترح كازاتى مخاطبة ملك البلجيك "ليوبولد الثاني" لتمويل إنشاء مستعمرات، يستوطن فيها الرجل الأبيض فى الكونغو، ومخاطبة الجمعية الجغرافية البريطانية، وتعريفها بالمنافع التي ستعود على الحكومة البريطانية، من الدفع قدما بمخططات الكومبانية البريطانية الجديدة فى منطقة البحيرات العظمى.

وأشار إلى نقطة صغيرة على الخريطة؛ وقال بغضب" إنه إذا كان للعاقل الحصيف أن يطلع على الخرائط الجغرافية للمديرية الاستوائية، كي يتعرف على الطموحات المهولة للصاغ منتصر، فعليه أن يمد خطا على استقامته بين موقع المحطة العسكرية، التي أقامها على نهر (ويلي)، ومهرها باسمه، إلى البحر المتوسط، لاتضح المغزي، والدلالات المستترة من اختيار هذا الفلاح لموقعها، إذ أنها (للغرابة الشديدة) امتداد لخط الحدود الغربية المصرية.

"ومساهمة منى لتقليم أظافره، اقدم لكم عريضة تضم شكوى عساكر الدناقلة ضده، تتهمه بالقسوة، والتميز بين عسكر التراجمة والخطرية، وفى كل الأحوال أقترح استدعاءه قبل أن ينهي مهمته، حتى لا تنسب إليه أعمال كبار، وإذا تعذر ذلك، فيجب عليكم إرسال قادة يفوقونه فى الرتبة، للتقليل من شأنه وسط الأهالي، والتعتيم على إنجازاته العسكرية، وأقترح إرسال القائمقام بخيت بك بتراكي ، وهو قائد محبوب من أبناء الجنوب، وصاحب خبرة فى حرب المكسيك.

ما أثار غضب وسخرية أمين بك قول كازاتى: "لقد سمحت لنفسي، مخاطبة قداسة البابا ليون الثالث عشر بابا الفاتيكان، حيث إني أعلم رغبته فى نشر رسالة أبونا وربنا السيد المسيح بين القبائل الوثنية، وقد وعدني نيافته بإرسال مبشرين للتبشير للرب المقدس اسمه، وعاهدته بأنكم ستقدمون العون للبعثات التبشيرية، لمواجهة التغلغل الذي يقوم به الجيش المصري ، والتجار العرب المحمديون[1].

1) ديانة المحمديون: الديانة الإسلامية.

رفض أمين بك اقتراحات كازاتى، وقال عن ما تريده سيجعل المديرية الاستوائية، محلا لصراع الدول الأوروبية، ما يوقع الضرر بالأهالي، وهم على طبع البراءة والسذاجة، وسأله: "لماذا تعطون منتصر كل هذا الاهتمام، فهو ذئب وحيد، وأنا اتركه يعوى كما يريد، ففي نهاية المطاف، فإن الحدود التي يرسمها بوله سوف تخصنا".

- أمين بك.
- أذهب واسترح كابتن ، وأمض بعض الوقت مع خطيبتك، قد بدت محبطة وتشعر بالملل، وحدثتني أنها ربما ترغب في العودة إلى أوربا.

شعر كازاتى بالإذلال، ضرب حذائه بعصاه، وقال يقتص من إهانته:

-" أعلم أن فخامة الحكمدار يحمل أسما مسلما، وعقلا بروتستانتيا، وقلبا يهوديا، ولهذا أذكرَ فخامته، إن نشأة وتوطيد إمبراطورية مصرية فى حوض نهر النيل له أثار سلبية على أحلام سعادة الحكمدار، صاحب العلاقة الحميمة بجمعية الهيكل الألمانية؛ المهتمة بالاستيطان اليهودي فى فلسطين، والمساهم فى تأسيس مستوطنة "مكفا إسرائيل"[2]؛ ومن المهم القول إنه إذا كان يمكن لهذا الحلم المستحيل أن يتحقق، فلن تتوفر له إمكانية إلا بتهشيم عظام الإمبراطورية المصرية الناشئة فى حوض نهر النيل، وهي ما زلت بعد غضة نيئة لم تتصلب بعد.

سعادة الحكمدار تقبل نصيحتي، وأنظر إلى الخريطة بعين بروتستانتية، لتجد أن المصريين يبنون فى خط الاستواء إمبراطورية تضم حوض نهر النيل، وهذا الفلاح يضع أقدامه العسكرية على الجزء الأخير من تخومها الشمالية لحوض الكونغو، التي تمد نهر النيل بالمياه الغزيرة، وبهذه المنطقة يسيطر الجيش المصري على القوس الجنوبي بأكمله، الذي يمد حوض نهر النيل بالمياه.

وإذا كانت كتابي إلى نيافة بابا الفاتيكان أثارت استيائكم، فالأمر لا يتعلق باهتماماتي الدينية، فكما تعلمون أن ديانة المحمديين انتشرت فى أفريقيا بالتجارة وليس بالحرب، والرأسمالية الأوروبية وتجارها أكثر إلحادا من فلاسفة اليونان الأوائل، وليس هناك من يقدر على ملء

2) مستوطنة مكفا إسرائيل: (أمل إسرائيل) تأسست عام 1870م، في لواء القدس، وأنشأت مدرسه تهدف إلى تزويد المستوطنين اليهود بالخبرة الزراعية وتقديم التسهيلات لهم.

الفـــراغ الروحـــي فـــى أفريقيـــا الســـوداء، فـــى مواجهـــة التجـــار العـــرب، ســـوى الكنيسة البيضاء، التي ستمهد الطريق حتما للرأسمالية الأوروبية...

هز الحكمدار رأسه، وقال مستسلما:

- عاوز تتخلص من الصاغ منتصر، أحرقه في الزيت.

...وبعـدما اتفـق الـرجلين علـى الـتخلص مـن منتصـر، اختلفـا علـى مـن يخلفـه، بـدا الإيطـالي أكثـر خيـالا مـن الألمـاني؛ فالدقـة الألمانيـة لـدى أمـين بـك دفعتـه إلى اختيـار القائمقـام النـور بـك محمـد[3]، قومنـدان لادو، كـي يريحـه من وجع الـرأس الـذي تسـببه أوهـام كـازاتى، لكـن الأخـير أجـبر أمـين بـك علـى التخلي عـن اختيـار قائـد سـوداني عربـي، مفضـلا قائمقـام بخيـت بـك بتراكـي الـذي ينتمـي إلى السـودان الأسـود، وإذا كـان الاثنـان مسـلمين، فسـيكون للصراع العرقي بينهما أوانه.

* * * *

كانـت معركـة (تنجـازي)[4] الواقعـة علـى نهـر (بوموكانـدى) أولى معـارك الصـاغ داخـل أراضـي الكونغـو، أخفـى قواتـه فـى طيـات الـوادي الـذي تقـع القريـة فـى قاعـه، وفـى الهزيـع الأخـير مـن الليـل تقـدم الجنـود النظـاميون مـن حافـة الـوادي العليـا ، وحلفـاؤه مـن محـاربي القبائـل، حـاملين المشـاعل، وسـط دوى قـرع الطبـول، بـدا المشـهد مهيبـا يـثير الرهبـة، وعلـى مـداخل القريـة أعطـى أوامـره بـإطلاق نـيران كثيـف فـى الهـواء، لتشـتعل زعجـة وجلجلـة عظـيمين، نشـرت الزعـر والهلـع بـين الأهـالي، وأثنـاء ذلـك أطبقـت سـرية البيـادة بقيـادة سـر الختـم الميرغـني علـى كـوخ الـزعيم "جنجـارا"[5] وأخذتـه أسيرا.

انتهـت المعركـة قبـل أن تبـدأ، وفـى دروب (مباجـا) عاصـمة إقلـيم (مونبوتـو) دار الصـبي الضـارب علـى النقـارة، وخلفـه زعـيم (تنجـازي)، مقيـد بـالأغلال داخـل قفـص خشـبي، يعلـن القـبض علـى زعـيم المتمـردين، وتجريسـه وسط الأهالي.

---

3) القائمقام النور بك محمد أغا: راجع ترجمة سابقه له صفحة 132

4) تنجازي Tingazi

5) جنجارا: Gangara

فـى سـاحة القريـة وقـف الأسـير غاضـبا، للإبقـاء علـى حياتـه، يسـتمع إلى التهمة الموجهـة إليـه بتحـريض ملـك مونبوتـو علـى ذبـح حاميـة محطـة (تنجـازي) العسـكرية. اتهمـه الصـاغ بأنـه مـذنب بـالتحريض علـى قتـل ثمـانين جهاديـا، لم يفهم معنـى الاتهـام، وقـال "إنـه ذبـح المئـات"، وسـأل منتصـر "ألم يفعـل؟"، فقـال الصـاغ "أن هـذه أراضـي تابعـة لخـديوي مصـر المعظـم، وأنـت مـتهم بقتـل عسـاكره"، فأجابـه (جنجـارا) "أنـه ولـد هنـا، وروح الأسـلاف ترعـاه، وعظـامهم مدفونة فى المقابر التي تجلسون فوقها، وهو لم يسمع عن اسم هذا الخديوي.

* * * *

في المسـاء جـاء كـازاتى يحمـل إلى منتصـر تعليمـات بتسـليم قيـادة القـوات المصـرية إلى القائمقـام بخيـت بـك بتراكـي الـذي سيصـل خـلال أيـام، كانـت ضـربة قاصـمة مـن العاصـمة لادو الـتي تخونـه، غلـت الـدماء فـى عـروق الصـاغ، الـذي انـدفع فـى الغابـات وحيـدا، دون قـوة ضـاربة سـوى سمعتـه بـين القبائـل. وسـط هـذه الظـروف طلـب الملازم عبـد المـبين شـلعى أن يسـمح الصـاغ لـه بالبحـث عـن الملازم علـى شمـروخ، أجابـه بـتهكم: "أتفضـل يـا افنـدي، روح دور عليه".

- "محتاج فصيلة من العسكر، ودليل من التراجمة".

غلى الدم فى عروق منتصر، فتراجع شلعى قائلا:

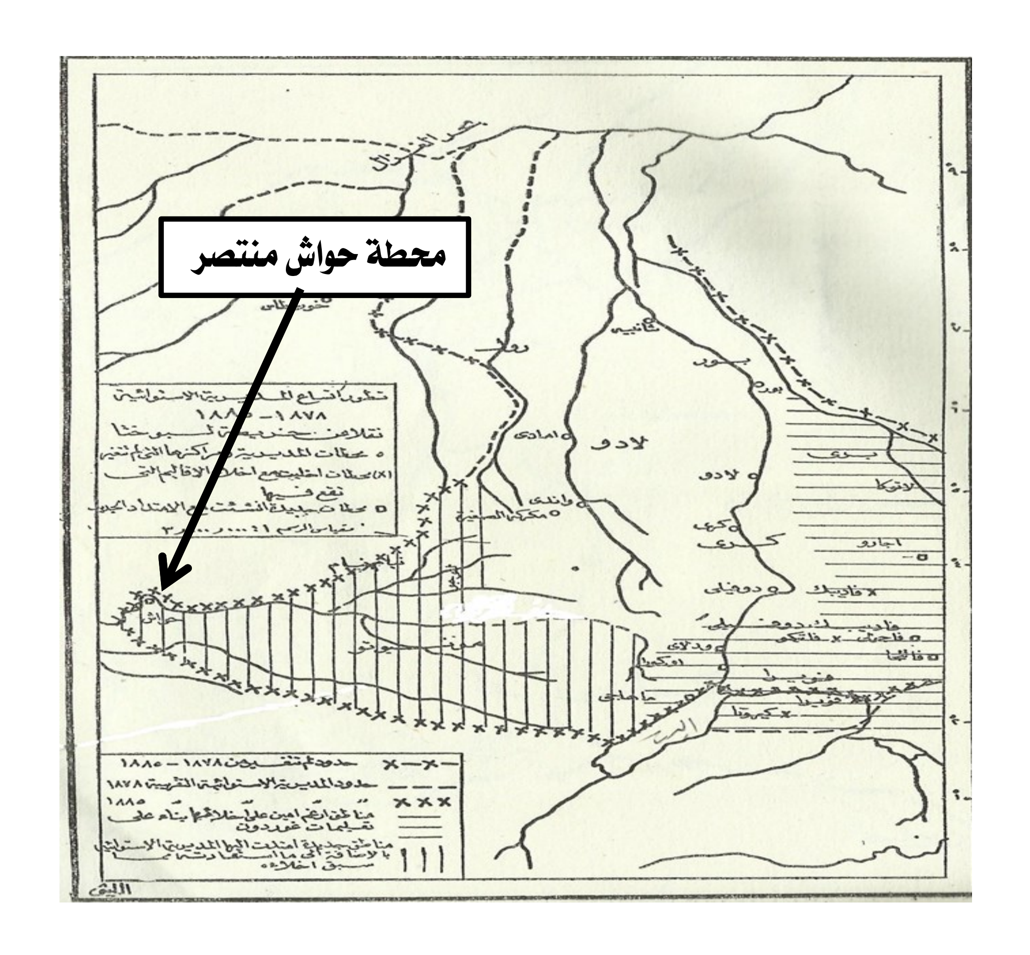
- "يا افندم الملازم شمروخ يبقى ابن عم مراتى".
- هـو أنـا حلاقيهـا مـن عصـابة متمـردين، ولا مـن شـغل العواطـف، يـا فنـدي أنا مش فاضي، لما نستقر فى حته، نشوف شمروخ والذي منه.

لاحظ الصاغ الاستياء على وجوه الضباط، تساءل متعاطفا:

- " إيه أخبار صاحبكم؟ عايش ولا ميت؟"
- "تجار عرب قالوا (إنهم قابلوا مصري عايش مستوحد فى الأدغال)".
- ليه مش كان معاه سرية.
- نبوءة سعادتك تحققت، الخطرية تركوه وهربوا.
- طب وإيه اللي عرفكم أن المصري ده صاحبكم.
- بيقولوا (قابلوه قرب محطة حضرتك).
- محطة حضرتي! طب لما قاعد لوحده، مرجعش ليه؟

- معندوش أوامر بمغادرة موقعه.
- يا افندم شمروخ بيحترم سعادتك، استحالة يتخلى عن محطتك.
- طبعا ده لو كان لسه عايش.
- جرى إيه يا شلعى، إذا كنت واثق منه قوى كده، ح تلاقيه عايش.
استطرد: أدونى فرصة نرتب أحوالنا، أنتم شايفين، معنديش قوات أقدر استغنى عنها"، تبادلوا النظر، قال فوزي: "أنا مستعد أدور عليه لوحدى".
- يا فندي مينفعش، ح تعملى فيها بطل! أصبروا شوية يا حضرات.

* * * *



الإقليم العاشر (مونبوتو)

- 32 -

طبول الحرب

قرعت طبول الحرب، وخرجت النساء يحملن على رؤوسهن جرار الماء، يسكبونها لليل، وهن يبتهلن للقمر أن يحمي الرجال الذين خرجوا للموت، أن يمنحهم الحكمة ويعيدهم سالمين، تضرعن للشمس أن تهب ا لمحاربين البأس، توسلن إلى السيدين الرعد والبرق جسدا القوة، أن يصعقا أعداءهم، توسلن للإله الثعبان أن يهب ا لمحاربين ليونته وجبروته، ويزيل من أمامهم العقبات، التمسن من العنكبوت أن يهبهم سمومه لهزيمة الأعداء.

احتشد محاربي قبائل الأبراموس[6] بسواعدهم، وأفخاذهم المفتولة العضلات، المحاطة بالأساور الملونة، يرقصون فى مآزرهم المصنوعة من جلد النمور المبرقش، ورؤوسهم المتوجة بريش الطيور الملون، يلوحون بالحراب، ويدكون دروعهم، وهم يطلقون صيحات الحرب.

جلس الملك على مصطبة مكسوة بجلد الثور، رَبْعَة متين البنيان، حليق الرأس، حول عنقه عقد من أنياب الأفاعي، يحيط به زعماء قرى الأبراموس، وعصابات تجار الرقيق، يتقدمهم الشيخ عبد اللطيف أبو السعود، يتابعون القتال الذي يجرى أمامهم، حيث الموت والعار نصيب الخاسرين.

من تخوم الغابة اقتحم عدد من المحاربين الساحة، يفرون أمام فيل هائج، رُشق جسده بالحراب، وقف الأمير (سالومو) ابن الشيخ (مبورو) يتحدى الفيل، ويلوح له بشجاعة، وسط صمت الجميع، توقف الفيل عن النهيم، أدنى رأسه، ورفع قدمه الأمامية، واندفع يهرول نحوه، يريد أن يسحقه،

---

6) ابراموس: Abramos

عندما صار قريبا للغابة، غرز الأمير حربته بقوة فى فمه المفتوح، وقفز مبتعدا عن الفيل المتهاوي، ليجد نفسه يتدحرج تحت أقدام تجار العبيد.

دوى الهتاف، وهللت الجموع تحية للأمير الشجاع، بقرت بطن الفيل، وقطعوه أربا، وأشعلت النار للطعام، وقرعت الطبول للرقص والغناء، أنتحى (سالومو) جانبا وطلب من أبيه الرحيل عن معسكر الملك (مامبا نجا)، والعودة إلى قريتهم، فلا يوجد مكان لعشيرة (المبورو) بين تجار العبيد.

قفز الساحر أمام الملك قفزات مفزعة، وقرع جرسين صغيرين، يستدعى الأرواح، ورفع دمية على هيئة الصاغ، غرزها بشوك مسموم، انثال منها سائل لزج، مسح به وجهه وجسده، وتهاوى على الأرض متشنجا، فى شجرة الطلح العملاقة حيث تسكن روح الغابة، وضع الساحر دميته، وذبح قرد، وبخ الدمية بالدم الملعون، ثم غرز في قلبها وتدا مغموسا بالدم، وهو يصرخ بها، أن تكون أكثر قوة، أكثر قدرة، كي تصل إلى روح الصاغ وتدمره.

* * * *

في قريته دخل الشيخ مبورو كوخه المزين بأقنعة تحمل أرواح الآلهة، ليرى حفيديه للمرة الأولى، وهو يأمل ألا تسحرهما روح الغابة إلى سحلية صغيرة، سمع بكاء طفلين، أحدهما بين يدي ابنته روح القمر، والأخر على صدر الأم الكبيرة، حمل حفيديه، تملى وجهيهما، ولونهما المصنوع من الكاكاو، يوصوصان بعيون مغمضة مثل ليوث صغيرة، ملس شعريهما الناعم، وهو يغمغم سنرحل بكما إلى والدكما.

* * * *

على أسوار حامية (مباجا) عاصمة إقليم (مونبوتو)[7] وقف محارب عملاق، يعلن أنه رسول ملك (مونبوتو). أدخلوه، فوقف أمام منتصر ينقل

7) مونبوتو: الإقليم العاشر من أقاليم المديرية الاستوائية. واسع ممتد الأطراف، يفصله عن نهر الكونغو لسان تعلوه الغابات عرضه عشرون كيلومترا. وتمتلك الحكومة المصرية فوق ذلك جزءا من هذا اللسان، وأخضع حواش أفندي منتصر أقزام أكا Akka لمسافة تمتد مسيرة خمسة عشر يوما في الغابة. ويعمر هذا الإقليم؛ قبائل النيام نيام، وقبائل المونبوتو، وهم من آكلي لحوم البشر. والأولون ضاربون في القسم

إليـه تحيـات (مامبا نجـا)، وقـدم حسـب الأصـول هـدايا الملـك، ثـم أشـار لاتباعـه فأحضروا سلال ممتلئة بالتبن، وقال بصوت له جرس ورنين:

- "إن سـيدي الملـك يخـبرك أن لديـه رجـالا يضـارع عـددهم الـتبن الموضـوع في هذه السـلال الـتي أمامـك، وهـو ينصـحك أن تكـف عـن مطاردتـه، وتطلـق سـراح الزعيم جنجارا، وتعود من حيث أتيت".

عنـدما أتم الرسـول كلامـه، قـال الصـاغ إنـه يـود تفـادى القتـال، لكـن الملك ذبـح حاميـة تنجـازي، وإذا رغـب فـى السـلام، فيجـب أن يسـلم البنـادق الـتي اسـتولى عليهـا، ويـأتي خاضـعا مستسـلما، لمنـدوب الحكومـة المصـرية حتـى ننظر فـى أمـره، أضـاف الصـاغ: "إن عليـك حـال وصـولك لسـيدك، أن تفعـل مثـل ما أنا قادم على عمله، وقل له بالذي سأقوله لك".

قلـب الصـاغ سـلال الـتبن علـى رؤوسـها، وأشـعل عـود ثقـاب، وأضـرم النـار فـى الـتبن، فـاحترق كـالهشـيم، تراجـع الرسـول للـوراء، وهـو يـرى الـنيران تأكـل محاربيه وتحولهم إلى رماد.

قـال الصـاغ باسـتعلاء: "قـل لسـيدك وإن كانـت جنـودي ليسـت أكثـر عـددا مـن الـتبن الـذي أرسـلته في سـلالك، إلا أن الواحـد مـنهم هـو نـار تكفـي للقضاء على جيش عرمرم، وتحوله إلى رماد.

* * * *

حملـت الريـاح صـوت الحـرب، ودوت الطبـول إيـذانا بقـرب الهجـوم، قبـل الفجـر حملـت الأخبـار اقـتراب الملـك، ومعـه آلاف مـن محـاربي (الأبرامـوس)، نفـخ البروجى نوبة استعداد، واشتعل الحماس فى معسكر الجيش.

رتـب الصـاغ سـراياه خلـف سـور مـن دعامـات خشـبية، وأعطـى أوامـر مشـددة لضـباطه بعـدم مغـادرة المتـاريس قبـل دخـول العـدو مرمـى نـيران البنـادق، فـى

الشـمالي مـن الهضـبة، وفي جنـوب مديريـة بحـر الغـزل. أمـا المونبوتـو فيشـتغلون جميـع جنـوب المركـز حتـى حـدود الغابـة. وتنقسـم هاتـان القبيلتـان إلى عشـائر تسـمى كـل عشـيرة باسـم كبيرهـا. وهـم مـن أذكـى سـكان أفريقيـا أسـفل الصـحراء الكـبرى، ويميلـون للنظـام والطاعـة، ولهـم مهـارة واضـحة فـى الأعمـال اليدويـة وصـناعة الحـراب والأسـنة، ويهتمـون بالنظافـة، ويلونـون مسـاكنهم مـن الـداخل، النظـام الطـوطمى يؤمنون بالسحر وابتهالاتهم لروح السلف وشيخهم ملهم ديانتهم.

وأهـم محطـات هـذا المركـز العسـكرية هـي: مونبوتـو Monbuttu – جورجـورو Gurguru ـ العاصـمة مباجـا Mbaga، وأهـم محطاتهـا جـا نجو Gango، كـوبي Kubi، تنجـازي Tingazi، غـادا Gadda، بليمـا Bellima، د نجـو Dongu(54)، أونيبـورون Uniboro، مبيريـا Mperia، جا نجـا Ganga، رينسـي Rensi، مسوه Maswa.

الظهيرة تسلل عدد من محاربي الملك يستطلعون المكان، فبدا لهم أن كل شيء هادئ لا ينم عما يخفيه.

قرعت الطبول وظهر المحاربون من الأحراش يدقون دروعهم، ويصيحون صيحات القتال، عمر الجنود بنادقهم، تابع الصاغ تقدم المحاربين من نظارته المعظمة، حتى دخلوا مرمى النيران.

أعطى الصاغ إشارة الضرب، فأطلق الجنود النار بتبادل وانتظام بين الصفين الأول والثاني، وانهمرت النيران الحامية على المهاجمين، ومع كل طلقة كان أحد محاربي الملك يسقط صريعا.

تقدم المحاربون وسط النار لا يخشون الموت، وعندما بلغوا الصفوف الأولى أشرع الضباط العرابيون سيوفهم، وانطلقوا يقودون جنودهم، ويهاجمون العدو في قتال متلاحم، في الثامنة مساء انسحب العدو متراجعا إلى منطقة قريبة، وقد بلغت خسارته ثلاثمئة وستين محاربا.

أمر الصاغ بأخلاء الأكواخ القريبة من الغابة، وإخفاء جنوده خلف أشجارها، في منتصف الليل أضرمت النار في تلك الأكواخ، فأضاءت سماء الغابة، انقض مامبا نجا على المنطقة المشتعلة، يساوره الأمل بأنه سيعوض خسائر اليوم، ويعود محملا بالغنائم.

طقوس
ع: عدالة
أعطه محاكمة، لكن لتبدأ بمحاكمة ذاتك.

تحولت الموقعة لمذبحة، دفعت مامبا نجا إلى الانسحاب ممتلئا خوفا ورهبة، وخلفه أربعمائة قتيل، قرر منتصر سحق خصمه، وتحقيق نصر حاسم قبل وصول بخيت بك بتراكي، فبادر بشن هجوم، باغت الملك وهو في فراشه، لكنه تمكن من الفرار وأسرع بالهرب إلى أعماق الأدغال.

* * * *

جاءت الأنباء بمغادرة القائمقام بخيت بك بتراكي مكراكا، ومعه جيش عرمرم، وكانت ذخيرة الصاغ قد قاربت على النفاد، وأصبح المتبقي لا يتجاوز ثلاثة آلاف ظرف جبخانة، بينما قام تجار الرقيق، بمد خصمه بالبنادق والذخيرة، فكر أن يقوم بإرسال الملازم نظيم عبد الملاك إلى

الرحالة الطبيب جونكر، الذي يقيم في قرية (مدوروما)[8]، يطلب منه التدخل لدى الملك (مامبا نجا)، واستعمال صداقته به ونفوذه لديه لإنهاء الحرب.

وما أن غادر الملازم نظيم مباجا، ورد خطاب من بخيت بك يطلب من الصاغ استحضار أكبر عدد من القوارب ليعبر عليها وقواته نهر (كيبالى)[9]، ما أثار حفيظته، هتف بحنق:

- "ولاد "القحبة"، فاضل أديله مؤخرتى، يركب عليها، عشان سعادته ما يتبلش".

أوى العسكر إلى مهاجعهم، وجلس الصاغ يعلوه التجهم، كان يرى قادة المديرية يعملون ما في وسعهم لسرقة نصره. وبينما هو منهمك في البحث مع الأدلاء، عن الأماكن التي يمكن لملك مونبوتو أن يختفي فيها؛ دخل مباجا رسول يحمل أنباء مفزعة، بقيام عصابات الرقيق بمعاونة قبائل الأبراموس، بحرق القرى التي تحالفت مع الصاغ.

انتشرت الضوضاء في أرجاء المعسكر، وتجمع زعماء المحاربون يعصف بهم الغضب، كان الهجوم قد طال قرى (برنجي) الصغير، و(الطويل)، و (بمبا). أوقدت المشاعل وافترش الجميع الأرض حول الصاغ، يتباحثون فيما يتوجب عمله، دار حوار وجدال صاخب طلب المحاربون العودة إلى قراهم للدفاع عنها، والصاغ صامت، قال جملة واحدة:

- "إنهم يرغبون في تشتيت قواته".

كان يعلم أن أغلب قواته تتشكل من محاربي القرى التي تهاجم الآن، وإذا رحلت، فلن يبقى معه سوى سرية البيادة، سيكون أمام بتراكي قائد بلا قوات. قال منتصر لحلفائه "إن مباجا عصية على الاقتحام، ويمكن الدفاع عنها بأقل القوات، يمكنكم الرحيل، اذهبوا لحماية نسائكم وأطفالكم".

وقف زعماء القبائل وسط صمت مطبق، يغادرون المجلس، تاركين خلفهم نظرات تحمل قدرا من الغضب، وقدرا من العتب، سمعت الطبول تدق

8) مدروما: Mdoruma
9) كيبالى: Kibbali

فى أرجاء القرية، ولم يمض وقت حتى غادر المحاربين مباجا إلى ظلام البرارى ووحشة الغابات.

تصدر الصاغ دائرة الرجال الصلبة، وقد تثاقلت همومه، واجتمعت عليه رياح الغدر؛ مكائد الإدارة، وطموح بتراكي، لم يبق حوله سوى عدد قليل من المحاربين، وضباط حانقون، منكفئون على أنفسهم، يشاهدون أسطورتهم، يجلس على الأرض مربع القدمين، منكس الرأس مهزوما، تزوى أمامه حلقات النار، ويغيب دخان غليونه فى الظلام، وقد بدا أن الكلمة الأخيرة ستكون لتحالف ملك مونبوتو وتجار الرقيق.

ما هى حدود الطاقة البشرية.

عندما رفع رأسه لم يرى أحدا، كان وحيدا وسط الجمع، تلاشت طبول الحرب مع المحاربين العائدين إلى قراهم، اختفت برارى الهضبة الاستوائية، مناقعها المكدسة بالتماسيح والثعابين السامة، غابات الكونغو المعرشة بالتهلكة، محاربيها الطوال، أقزامها القصار، سهامهم المسمومة؛ عالم سكن إليه وارتاح، عالم تآلف معه، وحوله إلى حليف يبجله ويكرسه إلى تخوم الآلهة، عالم أكثر اطمئنان من قادة ورؤساء، يدعون الشرف العسكري والنزاهة الأخلاقية.

تنحنح الملازم فوزي مرتين، الأولى خافتة، الثانية تجرأ، فالتفت إليه محدقا: عاوز تقول حاجة يا فوزي.

للمرة الأولى سمع فى نبرة صوته الأجش رنين انكسار.

- حضرتك، مش معقول تتركهم وحدهم.

- "عاوزنى أعمل إيه، أروح معاهم".

- سعادتك الناس دى خرجت للقتال لأنها مؤمنة بكم.

- وعشان الغنائم.

- لا يا افندم أنت الوحيد اللي ممكن يخرجوا للحرب تحت رايته، من غير طمع فى غنائم. مسد الصاغ شاربه باعتزاز، وخفت نبرة تهكمه:

- أروح أنا معاهم؟

- لا يا افندم، أروح أنا معاهم.

- لوحدك يا فوزي؟ قالوا جميعا: "كلنا فداك يا افندم".

- جرى إيه يا أفندية، أنتم فاكريني عرابي.

ـ يـا افنـدم المهـاجمين ماشـيين علـى طريـق حملـة (مونبوتـو)، متوقـع أن المحطة التالية للهجوم تكون (بنجيدى) أو (كوبى).

ـ كلام معقول يا فولى.

ـ نشكل قوة خفيفة من القوات النظامية فى مواجهة الضربة الجاية.

ـ تمـام، خـد فصـيلتين مـن القـوات النظاميـة، ح يتبقـى معانـا قـوات مكراكـا وفصـيلة البيـادة الأولى، كـويس، اسـتني، خـد معـاك اللغمجيـة، وقـال بـاعتزاز وفخـر، كأنـه اسـتعاد عزتـه، طبعـا طبعـا لازم نكـون معـاهم، تمـام كـويس كـده". شـعر بالارتيـاح، كهـذا يبقـى علـى شـرفه وسمعتـه، ويرضى حلفاءه، تدخل فوزي: "تسمح لى انضم للقوة".

ـ وليه ما نسند القيادة للميرغني.

ـ لا يا افندم، لازم سعادتك تقابل بتراكي بك وسط ضباطك.

ـ ليه يا فولى، أنت خايف عليَّ من بتراكي ؟

ـ يـا افنـدم أنـت بالنسـبة لنـا أسـطورة، محـدش يعـرف يعمـل اللـي أنـت بتعمله، لكن أعتقد برضه أن وجود الضباط حواليك مهم وضروري.

تـدخل الميرغـني وقـال بحسـم: "مـش ممكـن نسـيبك لوحـدك، ح اطلـع أنـا مع القوة، والفولى ينتظر مع سعادتك".

ـ شايف كده يا ميرغني؟

ـ أوامر سعادتك.

أطرق الصاغ برأسه وصمت، كان يفكر.

ـ استأذن حضرتك عشان أجهز القوات.

ـ تمام يا ميرغني، يلا، ربنا معاكم.

* * * *



- 33 -

طقوس العقاب

مع أول ضوء للفجر تحركت القوة الخفيفة التي اقتطعها الصاغ منتصر من خيرة قواته العسكرية، للدفاع عن القرى التي ساندته، عبرت غابات مونبوتو، وتوغلت داخل براري السافانا، وسط موسم الجفاف، لا سحب لا أمطار، حرائق تشتعل من تلقاء نفسها، لتحول البراري إلى جحيم.

مع المغيب دخلت القوة قرية كوبى، حظر الملازم أول سر الختم الميرغني الأمير جمعة من الخطر الذي يحدق بقريته، طالبه باليقظة، وتعيين حراسة ليلية لتفادى المباغتة، قبل الرحيل خرجت الأميرة عائشة، ووضعت ملابسها تحت أقدام الملازم أول سر الختم الميرغني، وقالت بلغة عربية سليمة إن على المسلم أن يستر المسلمة، وستر العفيفة عودة أبيها الشيخ من أسره، كان مشهدا شديد القسوة، انحنى يعيد إليها ملابسها، ووقف فوزي يشعر بالسخط على الطريقة التي يعامل بها أمين بك حلفاء الجيش المصري فى خط الاستواء، قال سر الختم الميرغني للأميرة "إن العفة تستر نفسها بنفسها، ولن أكذب عليك فالأمر ليس بيدي، لكنى أعد سموك بأن أفعل ما فى وسعى"، وقبل أن يغادر (كوبى) أرسل خطابا، إلى الصاغ، يطلب منه تنفيذ وعده لحلفائه فى كوبى.

فى خطابه لأمين بك قال منتصر "أن توطيد الاستقرار والأمن لصالح الحكم المصري ، يستوجب مد أواصر الصداقة والتحالف لكل من يمد يده، فالمستقبل كما تعلمون مجهول، وقد كان شيخ (كوبى) وأخيه الزعيم (أزنجا) حاكم (بمبا)، نعم العون للقوات المصرية فى حملة مونبوتو، ما يوجب على الحكومة المصرية أن تؤاجرهم على موقفهم، وأنهى خطابه بتهديد أمين بك، بضرورة مخاطبة سلاطين بك، معاون حكمدار كردفان، للإفراج عن الشيخ، وإلا سوف يفعل ذلك بنفسه.

كـان خطـاب منتصـر قويـا للدرجـة الـتي دفعـت أمـين بـك، لإرسـال رسـل إلى سـلاطين بـك، وبعـد أسـابيع قليلـة ظهـر الشـيخ (جمبـارى) فـى كـوبى، وأقـام بين أبنائه بين عشيرته سليما معافى.

* * * *

عنـدما غـادرت القـوة "كـوبى" تركـت وراءهـا غابـات مونبوتـو الشـامخة، المعرشـة بأشـجار الباسـيا، لتتوغـل داخـل مراعـى السـافانا البسـتانية الشاسـعة الأرجـاء، وسـارت فـى أعشـاب تجـاوز ارتفاعهـا الأربعـة أمتـار شـديد الصـعوبة والخطـورة معـا، وفـى النهايـة أوكـل المـلازم شـلعى للشـاويش مسـعد الرفـاعي مهمـة مداومـة البحـث عـن منـاطق مرتفعـة وسـط الهضـبة العشـبية، لاكتشـاف الاتجاهات، وتفادى بؤر الحرائق المشتعلة فى أرجاء السافانا

أول مشـاهد الرعـب كانـت فـى قريـة الطويـل، الـتي التهمتهـا الحرائـق، وتنـاثرت بـين إرجائهـا الجثـث، وفـى أطرافهـا وجـدت جثـث ملقـاة علـى وجوههـا، وقـد حولـت طلقـات بنـادق الشوشـخانة، الخاصـة بصـيد الفيلـة، مـؤخرات رءوسـهم إلى شـظايا متنـاثرة، وطـوال الطريـق حملـت القـرى نفـس المشـهد، مـا الذي يدعوهم لحرق قرى بأكملها، وقتل أبنائها بهذه الوحشية؟

فـى قريـة برنجـى الصـغير وقـف الضـباط يـرون الجثـث المحترقـة مـدلاة مـن فـروع الأشـجار، كـان مشـهدا يـثير الرعـب، ولثلاثـة أيـام متواصـلة قـام المـلازم أول سـر الخـتم بقيـادة القـوة الخفيفـة فـى الأحـراش والـبراري بـالخطوة السـريعة، دون أن تتوقـف للراحـة، أو التقـاط الأنفـاس، وقـد أمسـك عسـكر المقدمـة بسـيوف معقوفـة، يشـقون الطريـق داخـل بـراري يكتـوي السـادرين فيهـا بلـهيبها، وكـأنهم يطـاردون أشـباحا فـى غابـة سـحرية، لا تعـرف مداخلـها من مخارجها، طلب الجنود التوقف للراحة، فرفض غاضبا وقال:

- "نحن قوات عسكرية تهيم فى عماء".

عنـدما علـم الشـاويش (مسـامبا) ترجمـان الحملـة، أن الميرغـني يريـد النـزول إلى إقلـيم الـرول، لمطـاردة عصـابات الرقيـق، قـال إن الرقيـق الـذي نبحـث عنـه موجود أمام أعيننا جثثا متفحمة، قال فوزي:

- "نحن نطارد عصابات من الدناقلة ومحاربي قبائل الأراموس.

أوضح الميرغني: القتل المجاني عادة غير متبعه بين القبائل، فبعد المعارك تكون مهمة المنتصر جمع الأسرى، وبيعهم لتجار الرقيق. وما يجرى ليس بحثا عن رقيق، وإنما حرقهم بدون نفع ولا منفعة.

قال الشاويش (مسامبا): حضرة الملازم هذه ليست طقوس الحرب، هذه طقوس الانتقام. وعندما طلب منه أن يفسر الأمر، أكتفى بالصمت.

فى تلك الليلة، وبعد تشديد الحراسات والمناوبات الليلة، تناولنا عشاء صنعه الشاويش مسعد الرفاعي من البط البرى، والصمت يخيم على الجميع، كنا نستعيد حصار حرائق زريبة (نيا نجارا) [10]، وجثث صائدي العبيد تسقط مشتعلة بالنيران.

عبارة وحيدة قالها بحسم الملازم أول الميرغني: حضرات الضباط هذا الانتقام موجه لنا، انسحبوا خارج مراعى السافانا، وإلا سوف نشوى مثل حبوب الكستناء".

جاء الصباح وليته لم يأت، استيقظ فوزي على صوت إطلاق نيران مخلوطا بالعواء، قفز من خيمته إلى الخارج، كان الهرج يسود المعسكر، شاهد جنود يجلسون القرفصاء تحت أشجار السنط، يبكون ويفقهون كالنساء، أخبره الملازم أول سر الختم الميرغني، (وهو مرهق) عن اختفاء جنود الحراسة. تساءل عن إطلاق النار، أشار الميرغني إلى الأطراف الشمالية للمعسكر، وهناك وقف مذهولا أمام نفر حراسة سيد المحمدي، يتدلى معلقا من رقبته، من إحدى أشجار السنط، بينما نصفه الأسفل نهشته الضباع، ليبقى ساعد وحيد مثبت يشير زريبة (نيا نجارا).

صرخ فوزي وقد داهمه قلق شديد:

- فين الشاويش مسعد الرفاعي؟

- أختفي.

انطلقت القوة السريعة فى مراعى السافانا، فى عماء مضاء بالشمس، بلغوا ضفاف نهر ويلي، اندفع الجنود يستروحون فى مياه مفعمة بالنقاء،

---

10) نيا نجارا: Niangara

حيث كانت قطرات من دماء تلون تيار المياه. التفاتة من أحد العسكر لأعلى جعلته يرى الجثة الثانية المعلقة للنفر سليمان الباجوري تشير إلى الغرب. حيث تقع زريبة (نيا نجارا).

الآن يعلم الجميع أنهم مساقون لكمين أعد في (نيا نجارا)، لكن هذا لم يمنع الملازم فوزي من إصدار الأوامر للقوات بالإسراع باتجاهها، ووجه مبروكة يطل عليه بأعاصير السخط والغضب... غمغم لو أن مكروه حدث لزوجها، ماذا سأقول لها... كنا نسير إلى ما نبحث عنه، ويبحث عنا، نتفادى ما حذرنا منه الميرغني في الليلة الماضية، السير في مراعي السافانا.

صورة أطلت من الماضي القريب، أخذت تملأ الفضاء. منزل الصيدلاني فيتا حسان يتصدره تاجر العاج الشيخ عبد اللطيف أبو السعود؛ عباءته المقصبة بخيوط الذهب والفضة، أصابعه المكسوة بخواتم الأحجار الكريمة، خنجره المزين بالياقوت، حذاءه المصنوع من أغلى جلود القارة كلاب البحر؛ الآن يبزغ على نهر ويلي وجهه الموفور الصحة السمين، تتوسطه عينان مشبعتان بروح الانتقام.

عند المنعطف لاحت زريبة (نيا نجارا)، أعطيت الأوامر بالسيطرة على حركة القوات، لكن المفاجأة التي تنتظرهم، كانت أكثر بشاعة مما يمكن أن يتوقعه شخص من البشر، فداخل الزريبة، أقام صائدو الطرائد البشرية مسلخا بشريا.

على الأرض فاضت بركة واسعة من الدماء، بينما قطيع من الضباع من الضباع عاكف على نهش جنود قيدت معاصمهم بالسلاسل، وعلقوا من أكتافهم بخطافات الجزارة أحياء.

سادت فوضى عارمة، أطلقت النار على القطيع الذي استدار يهاجم الجنود، واندفع الجنود لإنقاذ رفاقهم، لكن الأوان قد فات، ولأول مرة واجهوا كارثة ستعلق بروح الملازم فوزي إلى الأبد، تاركة مرضا وسقما لا يشفي، عندما أصدر الأمر بأطلاق النيران على الجنود المعلقين، كي يخلصهم من عذاب الشيخ عبد اللطيف؛ كيف اختار الشيطان من أسماء الجلالة صفة اللطف؟

والآن أين البقية؟ أين أنت يا مسعد؟ زوجتك أرسلت تقول أن طمسها قد توقف، وأن بذرتك تنمو في أحشائها... كيف عرفت؟ لا تأخذك الظنون يا رجل، لقد أرسلت لي شقيقتي ألفت هانم خطاب، و نحن في **عاصمة** مونبوتو "**مباجا**"[11]، لم أعرف كيف انقله لك... كم أشعر بالخجل، ولكن كيف للسادة أن يخجلوا من خدمهم...

والآن أين بقية الجنود؟ أين أنت يا مسعد؟

اندفعنا نبحث عن جنود الحراسة المختطفين، وعنمسعد ابن الخولي الذى نشأ وترعرع في أبعادية السلحدار، غير قادر على تصور موته، كرهت الموت، خاصة أن كان بهذه البشاعة الشنعاء... مبروكة... سوف تلومونني على موته، الآن اتمني لو أنه لم يأتي، ولم تأخذه الجرأة كي يتزوجك..

أركض بحثا عنه فى قيعان الزريبة ووجهك الخمري لا يفارقني، أصعد السلالم ركضا إلى السطح، ربما ينتظرني مصير من الهلع. لكنه كان خاليا إلا من جسد أخر أكل نصفه وبقى له زراع وحيد يشير إلى البرارى.

ثمة إشارات تحملها انعكاسات الشمس، صرخت كالمهوس أطلب من الجنود منظار مكبر وعلى تل عال يبعد قرابة مأتي متر، رأيته هناك مصلوب على صاري وسط البرارى، حر اليدين اللتين حملتا أعلام الإشارة، فى يده اليمنى حمل علم الخطر، وفى اليسرى علم "توقف.. لا تتقدم".. فى أسفل العمود الذى علق عليه ثمة إشارات من السنا تنعكس على أشعة الشمس، ثمة شعلة من النيران تتراقص تحت قدميه.

قفزت أعدو السلالم أغادر الزريبة، اندفعت وسط أعشاب السافانا باتجاه أعواد الصلب الخمسة التي رأيتها تنتشر على قوس واسع والقوات تندفع خلفي، وأنا أقودها نحو هلاك محتوم..

سمع فى الفضاء صوت هسيس وكأنه نابع من وكر للأفاعي: "يا مصري هذا انتقام الشيخ عبد اللطيف أبو السعود لقتلكم ابنه يوسف في هذا المكان، وسليمان الأسود وتحريركم قافلة العبيد في زريبة بيكر".

---

[11]) مباجا: **Mbaga**

وقف الميرغني أعلى الزريبة يتطلع لساحة المعركة من منظاره المكبر، كان رجال الشيخ عبد اللطيف يحملون المشاعل، بانتظار دخول القوة الكمين الذي صنعوه، صرخ غاضبا:

- "شنو هذا، يا الله ما تضيع مني قوات منتصر". أسرع يطلب من البروجي أن ينفخ في نفير الانسحاب، لكن الوقت قد فات.

انتشر الدخان يحمل بين ثناياه ألسنة اللهب، وذاع في أعشاب السافانا كالهشيم، تقدم الجنود باتجاه النيران تحملها أجنحة الرياح...

..."حضرة الصاغ منتصر.. حضرة اليوزباشي الحسيني، سيدي وقائدي أمير لاي محمد بك عبيد، أبي وجدي شوكت باشا السلحدار... نجحنا في تفادي كل أنواع الموت المشهرة ضدنا؛ الموت شنقا.. الموت رميا بالرصاص.. الموت بدانات مدفعية الدونامة البريطانية.. الموت في زرائب المدارس الخديوية العسكرية.. الموت في زرائب العبيد.. إلا أن نموت حرقا.. هذه خاتمة مفزعة تخلو من الشرف.. ولا مفر من التقدم باتجاه ألسنة اللهب... تعبرنا أسراب النعام والوعول، وهي تنظرنا بدهشة... إلى أين تذهبون؟ نجيب دون أن نملك القدرة على التراجع:

- ".. هناك جندي مصري معلق على صاري يحترق".

تختفي دوامات الدخان، ينتهي اختناقك، يقاربك صهد النيران الذى تحمله حشائش المراعي الجافة، ترى من ألسنة اللهب جمع من الأسود، يربض كبيرهم أمامك ناشرا عباءته الملكية تحميك من النيران، يحيط بك حملة العرش، يلتفون حولك في نصف قوس، تستمر النيران في التقدم لكنها تلتف حولهم لتنطلق على أطراف القوس، لتستمر كي تلتهم ما ورائك..

يغشى عليك لتفيق لتجد نفسك وسط الرماد المحترق، وبجوارك سبعة عشر جثة متفحمة، ماتوا في حرائق السافانا، تشهق للضحايا، ولكن أين مسعد الرفاعي، تقبض عليك ساحرة عجوز بكلابتين من الحديد، تغطي ساعدك المحترق بسائل اسود لزج من المطاط، تحاول القيام نصف قومه لتشهد قتالا ضاريا، تدفعك العجوز إلى الخلف كي تستلقي، تلقي بخورها في موقدها الحجري، يعلو دبيب أقدام تدك الأرض، وولولة حادة،

وضباب بخور، ورقصات تطلب معاونة أرواح الأسلاف للشفاء، لتروح فى سبات عميق..

تستيقظ لتري العالم حلقة من النيران، وبقايا جمر ورماد متطاير، وأصوات طلقات النار، وقد أتت الحرائق على زريبة نيا نجارا، ولا تزال جثث الجنود الثمانية عشر ممددة، والملازم الميرغني يخوض معركة ضد هجوم ضار صد قواته المحاصرة، وفى المقدمة وقف محاربو قرية كوبى، وعلى رأسهم الأمير جمعة يقاتلون بشراسة، يصرخ أمير (كوبي):

- "لا شيء يصمد أمام حرائق الجفاف سوى النهر".

أسأل أين الشاويش مسعد الرفاعي، أشاروا إلى منطقة لم تحترق من السافانا، حيث انتصبت ثلاث صواري تحمل ثلاث رجال من عساكرنا.

حاولت أن أهرع إليه، هذه المرة لم يمكنني أحدا، نظرت إلى الميرغني برجاء لكنه تجاهلني، وأكتفي بعبارة وحيدة:"

- هذا كمين آخر، ويكفينا تهورك"، وتركني يدعو الجنود للاحتماء بالنهر لتفادى موجة النيران التي تتقدم باتجاه الزريبة بثبات.

عندما توقفت الرياح وهمدت النيران جاء صوته واضحا يطالبني بأطلاق النار عليه، تبادلت وقائد القوة الخفيفة نظرات حملت معني صارما... لا اندفاع فى البراري، لا تهور، لا خسائر غير الخسائر، وإنما مهمة وحيدة، هي إنقاذ الجنود المعلقين من الموت حرقا.

لم ينجو أحد كي يحكي القصة، لكني ظللت أتمنى برجاء أن يطل علي بابتسامته الواسعة وبهجته التي توارت منذ غادرنا (لادو)، وعينه الحولاء بطريقة ظهر وجهه الصامد من وراء الدخان، ينظر ناحية النهر، كان يبحث عني، وأنا أحاول الاختفاء بكل وسيلة ممكنة، كلانا يعلم ما سوف يطلبه منى بصوته الجهوري.

لحظة أن وقع بصره علي، كان ينظر بغضب، وصوته يطرق أذني: أطلق على النار.. أضرب يا أفندم.. أرجوك، عشان خاطر الحاج مصطفي الرفاعي. مد ساعديه للفضاء وفتح صدره، وهو يشير بأصبعه إلى قلبه.

دار الملازم فوزي حول نفسه المرة بعد الأخرى، وهو يضرب رأسه بيده، ويطرق الأرض بقدمه، كمجنون وقع أسير حفرة لن يصعد منها طيلة

حياتـه. هـا هــي ألسـنـة النـار تتصـاعد بطيئـة أسـفله، يـرفـع البندقيـة وينظـر مـن مرقابها، يحاول تصويبها ناحيته، تحول الدموع بينه وبين رؤيته.

ينـزل البندقيــة، يمسـح دموعـه، وهــو يفكـر، وكيــف سـألقي أبــوك مصـطفي ، كيـف سـألقي مبروكـة...يعود يرفعهـا ويصـوب ناحيتـه، يـرى وجهـه مـن خـلال عدسـة المنظـار يبتسـم ، يسـأل نفسـه... كيـف لـي أن أقتلـك؟ مـاذا سـأقول لابنـة الرجـل الطيـب سـائس القصـر، ؟ كيـف سـأواجه نظـرات أصـدقائك مـن الجنـود، كيـف سـأواجه زملائـي العـرابيين... تخـترق الفضـاء صوت إطلاق نيران من بندقية مجاورة، تخطئ الهدف..

كيـف أطلقـت ثـلاث رصاصـات؛ واحـدة تلـو الأخـرى.. لا أدرى.. ربمـا مـرأي الألم والشدة، اللذان يملأن عينيي والنيران تشتعل به...

لكــن راحــة عميقــة حلـت بوجهـه وهــو يتوجـه نـاحيتي بإيمـاءة تتـدفق بالارتيــاح. بعــدها جلسـت علــى الأرض القرفصــاء أبكــي، وأنــا أشــعر بالكراهية للرجل العجوز الذى علمني، وأنا بعد طفل صغير دقة الرماية.

* * * *

كـان المـلازم الميرغـني (أكثـر ضـباط القـوة تماسـكا وخـبرة بالقتـال فـى الـبرارى والغابـات)، قـد أمـر بإزالـة الأخشـاب المحترقـة، وهـدم الجـدران المعرضـة للسـقوط، وجعـل مـن بقايـا الزريبـة سـاترا للحمايـة، ومنصـة لإطـلاق الـنيران، وبـدأ يعيـد ترتيـب القــوات ضـد الهجـوم القـادم، وعنـدما انتهـي كـان للقــوة ساتر تستطيع الدفاع منه عن نفسها.

علــى مبعـدة مائـة مـتر قـام العريـف فضـل الله الـدنقلاوى بـزرع ألغامـه، هجــوم اليــوم التـالي ألحـق بالمهـاجمين خسـائر فادحـة، لكـنهم تمكنـوا مـن تخطـى حـاجز الألغـام، فأشـرع الضـباط سـيوفهم، وانـدفعوا يتقـدمون قـواتهم، يقاتلون فى معركة متلاحمة بالسلاح الأبيض.

قاتـل المـلازم فـوزي عصـابات الرقيـق ومحـاربي الأبرامـوس بتطـرف؛ بنيتـه الثقيلـة، وجهـه الغاضـب مثـل ثـور منـتقم، حـاول شـلعى إثنـاءه عـن المغـالاة فـى

التقـدم أثنـاء القتـال المتلاحم، لكنـه كـان يدفعـه بعيـدا، ويتقـدم غـير عابئـا بالخطر.

مـع نهايـات اليـوم دفنـت جثـث الجنـود الـذين قتلـوا بـالأمس، مضـى الليـل بطيئـا وقـد فقـد فـى الحصـار نصـف القـوات النظاميـة، نحـن فـى حاجـة لـدعم عسكري.

قبـل بـزوغ الفجـر دخلـت زريبـة نيا نجـارا مـن الشـرق سـرية بيـادة بقيـادة يوزباشـي عبـد الله العبـد، ومعهـا مائتـان وسـبعون محاربـا مـن قبائـل الكوكـويين، ولدهشـة الجنـود سـأله أحـدهم إذا كـان قـد بلغتـه اسـتغاثتنا؟ ضـحك وقـال إن قبائـل الكوكـويين الـتي تنتمـي إلـيهم زوجـة اليوزباشـي الرابعـة، أرسـلت تحـذره قائلـة "إن قـوات الصـاغ منتصـر محاصـرة فـى زريبـة نيا نجـارا، وهـي الآن تشـوى"، وأضـاف: أن سـرية مـدافع جبليـة محملـة علـى قـوارب قادمـة مـن لادو بقيـادة الملازم مصـطفى العجيمـى عـبرت منـذ قليـل، والآن ما هو المطلوب؟

تحـت ضـوء القمـر انسـحبت السـرية الثانيـة مـن مواقعهـا إلى القـوارب الخاصـة بسـرية دوفـيلأي ، وانهمكـت جنـود المدفعيـة فـى تسـوية مـرابض المـدافع الجبليـة، واتخـذت سـرية البيـادة مواقـع جديـدة غـرب زريبـة المـوت، وانتشـر محـاربو الكوكـويين فـى المراعـي، سـأل العريـف فضـل الله الـدنقلاوى الـذي رقـى لرتبـة شـاويش بعـد هـذه المقتلـة، إذا كـان فـى نيتنـا عمـل محرقـة أجـاب الميرغـني بغضـب: "إذا كنـا لا نعـرف فـردوس الله مـن جحيمه، فلنراهن على نعيمه".

قبـل شـروق الشـمس تسـللت القـوات داخـل مراعـى السـافانا، الرجـل الأول الـذي قطعـت عنقـه كـان مـن صـيادي الرقيـق، فـى البكـور تولـت ألغـام العريـف فضـل الله ولـد الحـاج (الـتي وضـعها بعنايـة)، الإطاحـة بعشـرات مـن محاربين الأبراموس، مما اضطرهم للتراجع.

شـهوة الشـيخ عبـد اللطيـف للانتقـام جعلتـه يعـاود الهجـوم، لم يكـن يـدرك حجـم الإمـدادات الـتي وصـلت الليلـة الماضـية، بعـد عبـوره حـاجز الألغـام أصـلاه الملازم مصـطفى العجيمـى بقصـف مـدفعي مفـاجئ أثـار الـذعر والهلـع بـين المهـاجمين، وشـن هجـوم مـن الجـانبين، انتهـي بمذبحـة لعصـابات الرقيـق وحلفائهم، تناثرت جثثهم على امتداد البرارى المحترقة.

أقيمـت الصـلاة علـى القتلـى، وواروهـم الـتراب علـى نهـر (ويلـي)، فـى فجـر اليوم التـالي دخلـت القـوة الخفيفـة مباجـا قبـل قـدوم قـوات بخيـت بـك بتراكـي بساعات قليلة.

* * * *

- 34 -

عـبر القائمقـام بخيـت بـك بتراكـي ، نهـر (كيبـالى)[12] ، ودخـل عاصـمة (مونبوتـو)، تتقدمـه الموسـيقى العسـكرية تعـزف مـارش "سـلام البـاب العـالي"، وخلفهـا البلـوك الخـامس بيـادة المكـون مـن الجنـود السـودانيين النظـاميين مسـلحين ببنـادق ريمنجتـون بقيـادة اليوزباشـي ريحـان أغـا، وعبـد الله فنـدي أبى زيد مـأمور (ريمـو) يتقـدم حاميتهـا مـن الخطريـة، فـى المـؤخرة سـار مئـات مـن محـاربي القبائـل الزنجيـة الموالية للحكومـة، بقيـادة كـبرائهم، ومـن خلفهـم الحمّالون ينقلون المؤن والمهمات.

فـى دروب مباجـا وقـف الأهـالي يتـابعون الجنـود المجنـدة الـذين لم يـروا لهـا مثـيلا، مبهـورين بكسـاوي العسـاكر النظاميـة الجديـدة، الـتي وردت مـن الديار المصرية، فكـان تأثيرهـا فـى بـلاد تعـيش العـرى المطلـق، أشـد فعاليـة مـن نيران البنادق المهلكة.

أقـام الصـاغ منتصـر وليمـة فـاخرة علـى شـرف قائـده الجديـد، وقـدم لضـيوفه أفخـر أنـواع الجعـة، والنبيـذ، والعـرق السـوداني، والقهـوة، فـى أطقـم مـن الخـزف المزخـرف، ووزع علـى الضـباط التمبـاك الفـاخر مـع غليـون مـن العـاج، فـى كـرم لا يسـتطيع أن يقدمـه فـى أدغـال أفريقيـا سـوى الصـاغ، دون أن يشـفع ذلـك في تفادى الصدام المحتوم مع القائد الجديد.

فـى الصـباح البـاكر حضـر الصـاغ إلى قاعـة الاجتمـاع، وانتحـى مقعـدا جانبيـا، تاركـا المقعـد الرئيسـي للقائـد الجديـد، مضـى الوقـت بطيئـا دون أن يظهـر أحـد، نظـر فـى سـاعة الجيـب، كانـت العاشـرة، أشـار للفـولى أن يقـوم بزيـارة بخيـت بـك للاستفسـار عـن تـأخره، توقـع الصـاغ أي بلـوى مـن أي نـوع،

---

12) كيبالى: Kibbali

إلا أن يعود الفولى بعد دقائق ويخبره، أن القائم مقام بدأ اجتماعه منذ الصباح الباكر.

- الله، هو إحنا ح نبتدي الغم من بدري!

فى خيمة واسعة نصبها جنوده جلس بخيت بك، وحوله كبار الضباط وزعماء القبائل، احتل كابتن كازاتى مكان الصاغ، وجلس الطبيب جونكر على يساره، وبجواره اليوزباشي أبو زيد، واليوزباشي ريحان أغا السودانى، وهو من الذين حاربوا مع الفرقة المصرية فى المكسيك، كان واضحا أن القائمقام لم يترك للصاغ مقعدا يناسب رتبته.

تجاهل بتراكي قدوم منتصر، الذي استقبله زعماء القبائل بإجلال ورهبة، واستمر فى حوار ضاحك مع جونكر، آثر منتصر الصمت، وجلس فى الصف الخلفي يستمع لهم يثرثرون، وعندما علم أن كازاتى انتهي من عرض خطته الخاصة بالهجوم، طلب من بخيت بك أن يعيد كازاتى خطته، لم يعره انتباها وأصر على تجاهله، وعاد يحدث جونكر الذي نبهه بلطف لطلب الصاغ، فأشار لكازاتى أن يفعل، فقال فى اختصار إن الحملة ستنقسم إلى ثلاث فرق ستتقدم لمحاصرة الملك (مامبا نجا) من ثلاثة اتجاهات، واكتفى ليعود إلى حديثه مع جونكر، لكن صوت منتصر ارتفع حادا وهو يسأله:

- "وإيه الهدف؟".

التفت كازاتى وقال باستعلاء: "حصار (مامبا نجا) بالطبع، هل تعتقد إننا سنحاصر لادو"، ونظر وهو يضحك إلى بخيت بك الذي بادله الضحك، لكن منتصر قاطعه مستفسرا عن تشكيل القوات، قال كازاتى بنفاد صبر وهو يشعر أنه قائد الحملة الحقيقي: "القوة الأولى بقيادة اليوزباشي أبو زيد، وسيتحرك من الميمنة بامتداد نهر (ويلي)، القوة الثانية بقيادة الملازم الترجمان محبوب، وسيتحرك من الميسرة على نهر (بوموكاندى)، أما القوة الثالثة فسوف تتحرك مباشرة إلى (مامبا نجا) بقيادة سعادة القائمقام بخيت بك".

- وإيه دورى فى اللعب ده؟

- أنت؟ قالها كازاتى بزهو وهو يشعر أنه حقق أهدافه، وحول منتصر من عملاق إلى قزم، قال باستخفاف وصلف: "ستتولى بناء الأكواخ لحملة بخيت بك". ضحك، واستطرد بابتسامة صفراء: "هل يغضبك هذا؟"

- يوزباشي كازاتى، عارف أن غضبى يسعدكم، خصوصا لأن جدك كان قيصر روما، أنا مش فاهم، أزاي تستخدم ميمنة، وميسرة، فى قتال جيش مالوش جسد، ده تفريق للقوات، و(مامبا نجا) مش غبى عشان توقعه فى مصيدة، أنتم أحرار، بس خليني أقول لكم أن مصيدتكم ح تكون غربال مخروم عند ولية[13] غلبانة، أنا غضبان، وأغضب ليه، طالما أن دى رغبة بخيت بك، حضرته عقد النية على استبعادنا من البداية، وبدأ اجتماع القيادة من غير دعوتنا للحضور، وسابنا ملطوعين تلات ساعات زي الكلاب الجربانة فى انتظار فخامته، وإذا كان يسعدكم إننا نمسح مؤخراتكم فمفيش مانع، وقام مغادرا الاجتماع وخلفه ضباطه.

فى تعليمات الصباح أوقف بخيت بك بتراكي العمل فى سرية الإشارة بالأعلام، التي أدارت عمليات الاتصال بين القوات طوال تحركها من لادو إلى مباجا، وأشار وهو يستعرض القوات، إلى رفضه الخلط بين فروع القوات العسكرية، وأن ما هو مناسب للقوات البحرية لا يناسب قوات البر، وأعلن وقف الخدمة الليلة؛ ترفقا بالعسكر، وعدم إجهادهم فيما ليس له قيمة، وهو ينتظر أن يظهر الجنود شجاعتهم فى خدمة الحكومة المصرية، وسيدنا جناب الخديوي، ونحن على ثقة من أنه ليس فى استطاعة كائن من كان، أن يقاوم عساكره المحمية بملائكة من عند الله عز وجل.

وفى إهانة تفوق كل احتمال، وبخ بخيت بك الجنود المصريين التابعين لمنتصر، وأمرهم بمغادرة الطابور، والجمع فى طابور إذلال، وقام بإلحاق العار بهم أمام ثلاث أورطات عسكرية، ضمت سودانيين وخطرية وتراجمة، فقال "أن عددا من العسكر وضباط الصف أعلنوا تذمرهم من الانضباط العسكري الذي أوقعه عليهم الصاغ منتصر، وقدموا شكوى ضده إلى ضيف الحكومة المصرية الطبيب جونكر، ورغم قولهم أن الصاغ هو جندي محنك، وله إلمام تام بدروب الإقليم ومسالكه، إلا أنه صارم لا يغتفر الهنات والزلل، وتعطفوا من الطبيب جونكر ألا يغادر محطة مباجا

13) ولية: امرأة فقيرة

العسكرية، ويتركهم خوفا من هجوم الملك، وأن الملك لن يهاجمهم طالما بقى جونكر معهم، وعللوا مطلبهم بنفاذ الذخيرة، وإصابتهم بالإجهاد، وطالبوه بالتدخل لدى سعادة الحمكدار أمين بك بأن يعيدهم إلى إقليم مكراكا، لأنهم سئموا صعوبة الحياة فى الغابات والبراري، لكن الطبيب جونكر غضب، ورفض وقال "إن الشجاعة والقدرة على تحمل الصعاب، هو معدن الجندى الذي يقيم الإمبراطوريات، وأن الأمم ترفع أعلامها فى الأفاق بدمائه، وصبره علي الشدائد، وما يكابده من مشاق، وحذرهم أنهم لو كانوا ينتمون لجيش أمة أخرى، لأعدموا واحدا بعد الآخر".

توقف للحظات وقال: "وبهذا الفعل الشائن يكونوا قد أعلنوا فرضا، أنهم ليسوا جنودا، وإنما مجموعة من المخنثين والنساء تبحث عن رجل يحميها، وعاهرات يطلبون رغد العيش.

.. شق الفضاء صوت الصاغ حواش منتصر مقاطعا إياه، مطلقا صيحة قوية للعسكر الموجودين فى طابور الذنب:

- انتباااااااااااه. للخلف در.

- للخارج سر.

انتفض طابور الذنب من الرعب الذي حل بهم، ونفذ أوامر الصاغ متحركا إلى الخارج، وعندما حاول بخيت بك الاعتراض، صرخ منتصر:

- "سعادة قائمقام، أنتم تخالفون الانضباط العسكري، بإهانة جماعية للجنود أمام بقية القوات".

حاول بتراكي وقف القوات، لكن نظرات حواش منتصر لم تسمح لأحد من جنوده بالتوقف، تدخل يوزباشي كازاتى موجها حديثه الساخر لكل منهما:

- "بخيت بك، حواش فندي: حلوا مشاكلكم بعيدا عن العسكر".

فى مكتبه دار حوار عنيف، حاول فيه القائمقام أن يتحدث بهدوء، لكن الصاغ هاجمه قائلا: "مفيش حد عنده الحق فى إهانتى".

- وإيه دخلك حواش فندي؟ هذا تذمر من العسكر يستحق العقاب، وأنا أوبخ من طلبوا مساندة الطبيب بيكر.

ـ من ساعة ما وصلت وأنت تفعل، أنت جيت ومفيش في قواتك عنصر مصري ، والآن تهيني وتهين قواتي، وتعرض بالعنصر المصري في جيش حكومة الخديوي المعظم، وهذه إهانة للخديوي شخصيا، كان لازم تأخذ إفادتي أولا، أنت تتعدى التسلسل القيادي، وإذا كان هناك خرق للضبط والربط فهذا ما تفعله أنت. ضرب الطاولة وأضاف: "وأنا أحذرك لا تستهين بي، أنا الصاغ حواش منتصر".

تدخل كازاتي ثانية موجها حديثه الساخر لهما: "بخيت بك، حواش فندي حلوا مشاكلكم بعيدا عنا". نظر إليه الصاغ بكراهية ورحل.

"سنحاصره كما يحاصر الذئاب بقرة، وعندما يدخل الفخ، سننتف ريش الطاووس"، هذا ما أعلنه القائمقام بخيت بتراكي ، وهو يعطي تعليماته الأخيرة للقوات، قبل مغادرة بخيت بك التقى الأربعة، قال بتراكي لجونكر بعتاب أنه كان يرغب لو كان معه، فهو يأنس بوجوده، أجابه بلطف أنه سيبقى في مباجا لدراسة الأدغال، وأشار إلى منتصر، أن الذي يستحق وجوده بجانبك هو حضرة الصاغ، وهذا ليس من العدل.

هز بخيت بك رأسه متفهما وأجاب بلهجة مهذبة: "نحن نعلم خبرات منتصر فندي، لكنها رغبة أمين بك"، وانطلق متقدما قواته وبجواره كازاتي يتقدمان حملة الأعلام المصرية بعد التخلص من الجنود والضباط المصريين.

اشتعل النشاط في المعسكر، وأعطى حواش أوامر مشددة بضرورة الانتهاء من بناء الأكواخ في يومين، وفي اليوم الثالث قام على إعطاء جنوده راحة مفتوحة، وجلس تحت شمس شتوية وسط أكواخ جنوده ومحاربيه، مكتفيا بعدد من جنود المراقبة والاستطلاع.

بحث الضباط العرابيون عنه، وجدوه ممددا على بطنه على ضفاف نهر بوموكاندي، عاريا إلا من منشفة بيضاء، وحوله نساؤه عاكفات على تدليك جسده بدهن الطيب، عندما شعر بوجودهم، قال دون أن يرفع رأسه نحوه:

ـ لسه عندكم جيش للثورة؟

أصاب الضباط الخرس، وقال بسخرية مُرة:

- الفلاحين بتوعكم ميعرفوش أعدائهم، شفتم حملة محمد أمين وكازاتى، مفيهاش ضابط أو جندي مصري واحد، بيعزلوا المصريين عن الإقليم، وفلاحيكم يتوجهون للأوروبيين بالشكاية؛ يشتكوا التعب، والإرهاق، والضبط والربط، فيتم اتهامهم بأنهم "خولات"،"نسوان"، أولاد "القحبة" ألفين وخمسمائة، عام وهم يمدون إمبراطوريات العالم بالقمح.

همس الفولى بابتسامته التائهة: "لا يوجد أكثر من النساء شقاء فى العالم".

ضحكوا للمفارقة، قال الصاغ:

- "يعنى هو ربنا قدر للفلاحين بتوعكم يكونوا نسوان".

- ليه القسوة، ممكن حضرتك تقول خدم، عبيد.

ضحك بصفاء وقد أعجبته الفكرة، وأزاحت عن صدره هما ثقيلا، قال:

- لا، المصريين مش نسوان، عندهم جلد وصبر، بس ينقصهم عزة النفس، والكرامة، تنقصهم الإرادة، عاد الصمت طويلا قبل أن ينطق ثانية: دلوقت ممكن تروحوا تدوروا على صاحبكم، تفضلوا، أنا محتاج أنام.

* * * *

العتبة السحرية

فردوس الفطرة



- 35 -

فردوس الفطرة

في الفردوس الذي احتضنت أشجار الغابات الاستوائية العملاقة الحيوات الأولى لأسلاف البشر، توارى بين الأحراش حيوان وحيد تدثر بجلد رباح يافع، سلخته وأعادت حياكته أنثى ماهرة، تطلع إلى مورد المياه والخوف يرشح من مسامه، ثمة حُمُر وحشية ترتع على العشب بطمأنينة، وأيائل تروى عطشها، وكركي تقف بخيلاء في مخاضة البر، ونورس يحلق فوق النهر، وزراف يقف على حافة المياه، يباعد بين ساقيه الأماميتين كي يبلغ خطمه الماء، عاين الرباح أماكن هروبه حال الخطر، وتقدم يروى عطشه.

من الأفق أطلت خيول الرياح تحمل السحاب معبأة بماء السماء، تلفت الرباح حوله في ذعر، وأسرع يتوارى في جوف السكون الحي للغابة الاستوائية المطيرة، حيث الظباء، والشمبانزي، والضواري، والرَّتّ[14]، والقوارض تتجول على أرضيتها الدبقة ضئيلة الغذاء[15].

تلمس طريقه في بقايا الضوء الراشح من الظلة العليا لتيجان الأشجار السامقة، يجمع البذور، وثمار التوت البري من ثنايا جذور الأشجار العملاقة، والنباتات الهوائية[16]، اجترها كحيوان عشبي، وهو يأمل النجاة من اللاحمات الضارية، التي وهبتها الأحراش حلبة مثالية لألعاب القنص والمطاردة.

ضرب البرق السماء، وانهمرت الأمطار الرعدية غزيرة كاسحة، تسلق الرباح المستوحد مع ذاته جذع شجرة ترك بوله علامة تدله عليها، متوجها

---

14) رَتّ: خنزير

15) فقر أرضية الغابة: أدى قلة كثافة الضوء إلى فقر أرضية الغابة من الغذاء، ما دفع كثير من الكائنات خلال حلقات تطورها، إلى الاختيار بين مهارة تسلق الأشجار العالية، والانتقال بين مستويات ظلالها المختلفة، أو الطيران.

16) النبات الهوائي: Epiphyte نبات ينمو على نبات آخر، ويصنع غذاءه بذاته، يستمد القدر الأكبر من الرطوبة والمواد الضرورية التي يحتاجها (كغذاء) مباشرة من الهواء المجاور له، أو من مخلفات النباتات المتراكمة حول جذوره.

إلى كهفه المستتر بين تيجانها دائمة الخضرة، حيث تهجع حيوانات لم تهبط أرض الأدغال طيلة حياتها، وتمرح أخرى أتقنت التسلق، والجميع قانع بالمائدة التي تقدمها بسخاء الظلتان العلوية والوسطى لشجرة الحياة العملاقة.

ثبت الرباح اليافع قناعه المصنوع من جمجمة بشعة، واستتر داخل لوحة الطبيعة التي رسمتها قردة، وسلاحف، وعظايات، وعصافير، وببغاوات، وخفافيش، وبعوض، ونمل، و نحل يذوب في ألوان، تنبض بحيوية، وخبث، وخيانة، ودهاء، ومكر طبيعة غادرة.

استغرقه المشهد الماثل أمامه؛ طائر (تنوط)[17] متعلق بمنقاره الأحمر في أقصى أطراف شجرة الورد، يفلت من طمع الأفاعي، ضفدع نفخ أوداجه، ليصبح حجمه أكثر ضخامة من أن يبتلعه ثعبان، طيور تلتهم عناكب، وظباء في حجم الرَّت، ورَتّ ملتحية تلبسها شياطين الجحيم، وطوابير نمل تهرب من آكلات النمل، تحمل أوراقا تزن أضعاف وزنها، وتنانين طائرة تنفث أفواهها ألسنة النار.

أخذ بمجامع لبه (حبَاك) أصفر، انهمك في نسج عش لأنثاه، يغزل بمنقاره غرفة لمأواه، يعقد أطرافها بمهارة، وحوله مئات (الحباكين) مستغرقين في بناء قرية من أعشاش في أفنان[18] الشجرة، تصدح الذكور التي أنهت أعشاشها بالغناء، وتصفق بأجنحتها، تلفت نظر الإناث إلى ما أنجزته، وتدعوها للقدوم، شهق قلبه؛ لو أن هذا استمالة للمعاشرة، وعرض بالزواج.

دهن غصن الشجرة بدم جرذ قنصته فخاخه، المخبأة بعناية بين السرخسيات، وثبت أنشوطة صيده، وتمدد بانتظار الفريسة، تاركا ذاكرته المتهاوية تطفو على مهاد تلك الأيام، التي كانت تعنى له الشبع حتى التخمة، والاسترخاء في عالم النعمة، والراحة من أيام الشقاء، التي يقضيها جامع الطعام البدائي، مرغما في البحث عن طعامه، تتبع ما علمته أميرات الممبورو من طرائق وسبل من أجل البقاء.

17) التنوط: طائر يعلق قشورا من قشور الشجر ويعيش في أطرافها لتحفظه من الحيات والناس والذر

18) أفنان: الأغصان المستقيمة

التماهي مع الطبيعة، الاختفاء بين طياتها؛ صبغ جسده بألوانها، حتى يضلل عيون الضواري، درء الجوع بتوسيع دائرة طعامه، ليأكل كل شيء يمكن هضمه، ويبقيه على قيد الحياة، متغاضيا عما يستساغ، التخلي عن حلاوة لحم الظباء حين يصعب قنصها، إلى القبول بمرارة السحالي، والتهام الفئران، والديدان، والحشرات، والبحث فى بقايا الرمة التي تتخلف من فرائس الكواسر.

الأكل بشراهة ونهم حتى التخمة؛ حين يتوفر الطعام، تحمل الجوع حين ينفد، الاكتفاء بما يتمكن من الحصول عليه من دوبال الغابة؛ بذور، وثمار، وأوراق، وبيض فاسد، ليُؤتي المعنى العميق للتكيف من أجل البقاء؛ ذلك ما علمته الأخوات الخمسة فى عالم الأدغال، بصبر لا ينضب وحب لا يُفهم، وعطاء يصعب إدراكه.

في العتمة ومضت عينا الرباح (الذي اختاره رفاقه لحدة بصره، وثبات أعصابه، لتنفيذ رغبة عبَّر عنها الأمير لاي محمد عبيد، لاغتيال الخديوي، وإعلان الجمهورية)، نقب عن حيوانات ليلية تماهت ألوانها وسط الطبيعة، بحث عن إيماءة أو علامة، حركة لحرباء تدل عن نفسها، وسط براعة التخفي، وبطء يضاهي السكون.

من خلف الغمام تسللت أشعة قمر شتوي، تعكس على مرآة نهر (ويلي) الداكن، المصقول ببريق الليل، قافلة من (السعادين العاوية)[19] تعبر النهر إلى الغابة فى طابور يتقدمه الزعيم، ويتبعه الذكور، ثم الإناث تحمل صغارها وتمسك أطفالها.

عبر طابور السعادين فى هدوء حذر الأدغال المتشابكة، وبين فينة وأخرى يشق الغابة عواء أحد الذكور، منبها إلى فتحة فى الأحراش، وعندما تسمع الغابة صوت ارتطام جسد أحد صغار السعادين، بأرضيتها الرطبة المظلمة، وتبرق فى الدجى عينا فهد أرقط بشهوة الصيد، تسرع الذكور وتجتمع فى حلقة أعلى الأشجار، (حول المكان الذي سقط فيه الصغير)، تطلق عواءها عاليا كي تحميه من هلاك محتوم، دون أن تتجاوز شهامتها هذا الحد، تاركة إلى أمه، مهمة الهبوط إلى أرض الغابة المرعبة، تجذبه من قفاه وتعود مسرعة إلى أعلى، يومئ زعيم السعادين نحو الرباح اليافع

19) السعادين العاوية: نوع من القردة، تعبر عن حاجيتها المختلفة بالعواء والصراخ

بالسلام، ويتحرك إلى قلب الأدغال وخلفه عشيرته، لتتوارى، ويتلاشى عواؤها.

تمدد مسترخيا فى الكهف الذي نقرته لهما، فى جوف الشجرة العملاق أصغر الممبوريات؛ الأميرة (جنجي)[20] روح الغابة، يوم قادته بحواسها المرهفة إلى عالم الأدغال، يستعيد جسدها المحجوب فى جسد الغابة الحي، يتنفس روحها، وأرجها الذي ذاع شذاه فى الوجود، حتى غفا، ليطفو جسدها الحي فى ذاكرته المشوشة، وهي ممددة جواره فى هذا الكهف تسلم له جنانها.

*   *   *   *

فى تلك الأيام الخريفية تحولت محطة حواش إلى كهف بدائى يفتك الجوع بقاطنيه، وثلاث من الأميرات الخمس يرقدن عاجزات عن الخروج لجمع الطعام، وأرحامهن حبليات بأجنة فى حاجة لمن يبقيها على قيد الحياة، بينما الرابعة ترقد جريحة من جراء ضربة من مخالب فهد أسود، تركت آثارها خطوطا دموية محفورة على بطنها، كان عليهن إما الموت جوعا، أو الدفع بالذكر الوحيد القاطن فى الكهف للخروج للقنص.

حلَّ السكون على ساحة المحطة، فلا أرانب تقفز هربا من ثعلب يتربص بها، ولا ثعابين تقتنص فأر، ولا عقاب ينقض ليحمل بين مخالبه سنورا صغيرا.

من النهر أخرجت الأميرة لولايا شباكها، محملة بأسماك اللازورد، ومن الأدغال عادت الأميرة أبرافو وفى جعبتها طيور وعظايات، وسلال تحوي أوراقا من شجر الداتورا السام، وزهورا فواحة بعطر ظل ليل قاتل، وبذورا فتاكة لفاصوليا نملية، وعناقيد بيضاء من عنب الهدال، تحوي حباتها وعدا بالهلاك

يتوقف الزمن، يتوقف كل شيء، يغرق الرباح اليافع فى سؤال يطرق عقله؛ هل كان عليك أن تترك زعيم

20) جنجي: Jengi روح الغابة

الرياحين وعشيرته يغادرون المحطة ؟ هل يحق لرياح يافع مغادرة موقعه العسكري، دون أوامر من قيادة جيشه في لادو ؟ هل يعتقد قادته أنه على قيد الحياة ؟

تحلقت الأميرات الأربع حول أختهن الصغرى الأميرة (جنجي) ؛ روح الغابة، اللاهية عما يجري حولها، وبين فينة وأخرى يتطلعن نحوه، عادت توجساته أن يضحي طعامهن، وقد تيقن خلال معاشرتهن، أنهن لن يتورعن أن يتلذذن بلحمه، عندما تلم بهن الضرورة، هتفت (جنجي) ؛ روح الغابة، وهي تنظر نحوه باستنكار :

– " أيه ؟ ! عاوزين أيه" ؟

قالت روح القمر :

– "لتمنحه الغابة بركاتها قبل أن يخرج للقنص" .

وقالت شجرة السماء :

– "ستضلل روحه ولن تجد مأوى بعد الموت" .

وقالت روح النهر : "يا أختاه، يجب أن يمتزج في روح النهر، حتى لا يجف جسده" .

وهمست المحاربة : "يا أختاه، علمته فنون القنص، ولن ينجو دون أن تهبه الغابة روحها" .

تأملته الأميرة الصغيرة، وعيناها السعيدتان تتجليان بالرضا، وعادت تنظرهن، وهن بانتظار أن تفصح ما عزمت عليه، تطلعت إليه ترشفه بعينيها، ونحرها المتخم بلحم الشهوة يفتر برائحة الاشتهاء، وأومأت برأسها موافقة .

من حقله الذي عثر فيه على مقبرة للعظام، عادت روح القمر وهي تحمل جماجم بشرية .

والدنيا غياب وحضور، وفراق وجنون، وتحايل ومراوغة، أشعلت النيران في الموقد الحجري، نثرت مسحوق الجماجم على قلب الرياح وهي تبتهل برَقَى، وطلاسم سحرية.

ابتهلـت الأمـيرة أيلاكـا إلى روح الأسـلاف، فأنبتـت الأرض شجرة عملاقة رائعة الجمـال، أورقـت بَـرق، نشـر جناحيـه المهـولين على قبة السماء، وضربت الأرض صواعق نار.

تشـهد الغابـة الاسـتوائية المطـيرة الأمـيرة (أبرافـو)؛ المحاربة، تحمل فـي شـباكها جثـة ريـاح يـافع، سـلخنه وحـيكن من جلده ثوبا لرجلهن الوحيد.

جنَّ الليـل واكتمـل القمـر، ورصـعت السـماء حبـات المطـر، ونهـر (ويلـي) مصـقول بلـون الأبنـوس السـاكن، يعكـس علـى صـفحته الظلمـة الأبديـة، فـإذا مـرق شـهاب وحـلَّ الظـلام، وأصبحت الغابـة غيلانـا ترتـل فحـيح الريـاح، سـلخت الأخـوات جلد العظايات السـام، وطحنتهـا مـع أحشـاء السـمك الـلازوردي، وأوراق زهور الهذيان، ونقعن مسـحوق السـم القاتـل فـي خمـر المـوز المسكر. تحلقن حـول المـذبح الحجـري، تخفـي وجـوهن أقنعـة مـن خشـب الـورد، محفـور بجنيـات الغابـة، رقصـن يستحضـرن أرواح الأسـلاف، تجـرعن دمـاء طيـور مذبوحـة، يـذرونها علـى جسـده المشبوح على المذبح قرابين بشرية، وهن يغنين:

(شيشا)[21] أيها المحبوب الأقوى

هل اللبؤة موت وهلاك؟

لا، ليست اللبؤة موت وهلاك.

إذن، فما عسى اللبؤة أن تكون؟

إنها امـرأة.

....

شيشا) أيها المحبوب الأكبر

هل البرق شجرة؟

لا، ليس البرق شجرة

فما عسى البرق أن يكون؟

إنه امـرأة.

....

---

21) شيشا: CHICHA المحبوب

(شيشا) أيها المحبوب الأعظم
هل النهر سمكة ؟
لا، ليس النهر سمكة
فما عسى النهر أن يكون ؟
إنه امــرأة .
. . . .
(شيشا) أيها المحبوب المحارب
هل القنص رمحا ؟
لا، ليس القنص رمحا
فما عسى القنص أن يكون ؟
إنه امــرأة .
. . . .

تجرع الرياح اليافع السم المنقوع في الخمرة، ارتوى وثمل، ماد الوجود حوله، وهامت به هلوسات رؤى وأحلام، فرأي فيما يرى النائم الأميرات الخمس يقودنه خارج الحامية، على حافة الغابة خلعن عنه وزرته، حتى صار عاريا مثل الطبيعة.

قالت الأميرة جنجي:
"أيها المحبوب (شيشا)
انضو عنك الرياح والأشياء
من جديد تتعلم الأسماء
الكلمة هي الشيء نفسه
اسمك هو المكتوب منذ الأزل
أسمى هو الذي وجد منذ كان الوجود
مفطورا بالبداءة
أيها المحبوب (شيشا)
أنت تولد معي من جديد" . . . .

لماذا تنشغل بالعرى
إذا كان الوجود حولك عاريا
إذا كان الله خلق مخلوقاته
عرايا

*   *   *   *

يستعيد الرباح اليافع ما لقنته المحاربة (أبرافو) أصول الصيد؛ أساليب التواري وطرائق التخفي، والسير في عتمة الغابة بحذر، والكمون بانتظار الفرائس بصبر وجلد، لا يتحمله إنسي، يتذكر ضربة كوعها المؤلمة، وهي تحذره من الاقتراب من معرض الألوان الزاهية الذي يخفي الضفدع صاحب السهم السام، وتجنب الورل الذي تقطع أنيابه الأصابع في قضمة واحدة، والتهام (يسروع)؛ تماهت ألوانه الزاهية بألوان الأوراق التي يزحف عليها كما لو كان جزءا منها.

ببطء مضغ الرباح اليافع الديدان التي فرزتها عيناه عما يحيط بها، بحرص يجنبه جذب انتباه جاره النمر، الرابض في سكون، حاول من فرط وحدته أن يبادله التحية، بعدما تركته الأميرات ورحلن، أن يخبره إلى أي حد يتشابهان، كلاهما انعزالي مستوحد، يتجول نهارا، ويستريح في الظهيرة، ويصطاد في الليل، يتسلقان الأشجار في مهارة، يتعرف النمر على منطقته برائحة بوله، والرباح اليافع بذاكرته، يمارس النمر صيده، معتمدا على سرعة الركض، وقوة أقدامه القصيرة، والرباح اليافع على دهائه في التخفي وصناعة الكمائن، يستخدم النمر قوة فكه، وأنيابه الطويلة الحادة، كأداة قتل سريعة، والرباح اليافع يعتمد على مدية بندقيته، والوقت يمر بينهما بانتظار معركة فاصلة.

* * * *

تدخلك الأميرة الصغيرة جنجي روح الغابة في سكون شرنقتها، تلف حولك شبكة من خيوط الحرير، تصبح جزءا لا يتجزأ من ذاتها المفعمة بالطبيعة؛ تندمج في عالم الرياح والمطر، الأشجار والزهور، الطيور والضواري ورائحة الخطر، تحل كينونتك في الوجود الحي لروحها الذي تتنفسه الجمادات، والكائنات حية؛ جذع شجرة عملاقة، ورقة من سحلبية وارفة، قطرة خمر في نهر، ساق بردي تعزف ألحان الرياح، قارض لا تتوقف أسنانه عن قرض الوجود الصلب، ماء سلسبيل يجري في الغدائر، يرقة تسافر رحلة العمر، آكل عشب بين الطرائد، ولاحم بين الضواري..

نـام، وتمـد فالصيد يستلهم مـن روح الغابـة الصراع حـول الشـمس؛ واسـتعن بالصـبر والأنـاة والجلد، فإذا دخلا الغابة كانا عاريين، غمغم:

"وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ".[22]

".. فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ."
(سورة الأعراف 22)

قالت روح الغابة:

"أيها المحبوب شيشا
اغسل جسدك وتطهر
روحك في روحي يندمجان"

. . . . .

أيها المحبوب شيشا
لست آدم وما كنت بحوائك،
وما أنا بأنثاك.
أنا روح الغابة، فيَّ يحيا كل حي ويموت
أنا الفردوس
في جنانه كل شيء مباح لك. . .
تقطف من ثمراتي ما شئت. . .
وتأكل من أنعامي كيفما شئت. . .
أنا الجنة. أنا فردوس النعيم
وليس فيَّ من شجرة أو طير أو حيوان
محرم عليك.

* * * *

22) (سورة الأعراف ـ من الآية 19)

لمح ورل يتلمس بلسانه رائحة الدم، كمن فى سكون حتى عبر برأسه حلقة الأنشوطة، جذبها في سرعة البرق، فارتفعت بالورل، جدف بذيله، وأقدامه القصيرة فى الفضاء، دفع به إلى مخلته، متحاشيا ضربات ذيله القوية، وقام عائدا إلى مأواه، الذي يؤوب إليه فى نهاية يوم صيده.

فى طريق عودته لمح الرباح اليافع عددا من القردة قطعت حدود غيطه، وانثنت تسرق الخضار والفاكهة، أسرع يجرى حانقا، وهو مستعد للموت دفاعا عن حقله، صاح يشوح بها بأن تبتعد، لكنه توقف وقد لبسته الدهشة، وهو يرى القرود تتحول إلى حوريات صغيرة، فاحمات السواد، لا يدري من أين قدمن، تراجعن بخوف شديد، أشار يطمئنهن، واقترب بلطف كي لا يصبن بالذعر، مال على شجيراته، جمع منها طماطم، وقرعا، وباذ نجانا، وأحضر شَمَّامَة طيبة، وضع ما جمعه فى سلة وقدمه لهن.

تبادلن الصياح والبكاء، وعدون إلى الغابة، تلاشى نواحهن، ليس ثمة صوت سوى صرير الرياح، وخرير مياه نهر (ويلي)، فرك عينيه متأسيا، إذا كان للأشياء وجود حقيقي، ترك سلته على رأس الغيط، وحمل مخلاته على كتفه، وآبَ حبيس وحدته شطر كهفه الكبير.

يشهد نهر ويلي حيوان منبوذ من القردة الرئيسية، على جسده أثار جروح رسمتها مخالب هررة وحشية، وندوب نحل ولدغات أفاعى، وجراح الأحراش، يغادر فى البكور كهفه، يحمل مِخلاته، مُيمِّما شطر حقله، قفز يرقص، لقد قبلت الحوريات هداياه، حانت التفاتة إلى سلته الفارغة، داعب عينيه بريق يلمع تحت أشعة الشمس، نظر مرة واثنتين قبل أن يعود غير مصدق، لقد أثابته حوريات الغابة بقطعتين من ذهب الجنة.

*   *   *   *

على شرفة مغاراته الزمنية خلع الرباح جمجمته العظمية، ونضى جلده الذي حاكته الأميرات المبوريات قبل رحليهن، ودمعهن يبتهل إلى الآلهة أن تبقيه على قيد الحياة، تعبر الأسماء صفحة الوقت، تهيم فى هلوسات الوحشة.

يتـداعى غبـار الـزمن بالضوضـاء والرغـام والهبـاء يكشـف عـن جماعـة الربـاحين يصـطفون فـى طـابور تحيـة العلـم، تضـيع اللوحـة، يتسـاءل إذا مـا كـانوا رحلـوا دون وداعـك، تغـوص فـى مغـارة الهـذيان، تحـدث نفسـك بصـوت صـاخب حبـيس محبسـه، لا يسـمعه سـواك، إذا مـا خانـك زعـيمهم الـذي جـاورك شـهورا جالسـا علـى مقعـد السـاحر الكـبير، تحـيط بكمـا إناثـك وإناثـه، كـل منكمـا يتـابع قطيعـه بمهابـة ووقـار، يزجـرهم ويطلـق عـواءه فـى وجـوههم، يتراجعـن فـى خضـوع وامتثـال، ويقمـن علـى خدمتكما بـالاحترام الواجب، بانتظار قعقعة المضاجعة الصاخب.

فهـل تـذكرك؟ وهـو يقـف أمامـك مرتـديا طربـوش جيشـكما، تؤديـان التحيـة للـبيرق المصـري ، ثـم تتبـادلان السـلام كفـا بكـف، تتعانقـان عنـاق الأخ لأخيـه والصـديق لصـديقه؟ هـل ربـت بيديـه المشـعرة علـى كتفيـك؟ وخمشتك أظافره الصلدة بالمودة؟ أم أنك أسير هذيان وهلوسات التوحد؟

تتـابعهم يعـبرون النهـر فـى طـابور طويـل، و يختفـون فـى ظـلال الغابـة، هـل استدار وهـو يغـادر بوابـة المحطـة؟ هـل لمحـت دمـوع الربـاحين؟ هـل اخـتلط عليـك إذا مـا كـان الانضـباط طبيعـة عـالم الربـاحين؟ أم أنـك اسـتخدمت قـدراتك لتدربهم على الانضباط الذي ينبغي أن يكون عليه الجندي؟

يمضـــي الوقـــت، تحـــل الظلمـــة، يغلـــق الجـــوع العقـــل بمزلاجـــه، تتوقـــف الأسـئلة، لا يكفيـك الانغمـاس فـى تجـرع خمـر المـوز، لتركـب خيـول الـزمن، وترحـل بعيـدا عـن سـجن الجغرافيـا إلى حريـة التـاريخ، أو تسـقط فـى نـوم مـر، لتسـتيقظ علـى معـدة خاويـة، تقرصـها زبانيـة الجـوع، الآن يـتعين عليـك أن تخرج للقنص.

تخفف أيها ا لمحبوب من ثقلك المادى .

اصرف الروح كي تغادر الجسد

تذوب فى روح الغابة وأحراشها .

تتدفق على جسد الغابة آلاف الحيوات

المتآلفة فى روحها

يصعد الحبيبان أعلى الظلة العليا

حيث تتقاتل أشجارها السامقة

حول ضوء الشمس الذهبي .

تسلقا سحلبيّات الغابة

وتوسدا أزهارها الحمراء الضخمة

تبادلا القبلات ، دموية بلون الياقوت

رشف السكر الحلو من ربلة وركيها

غرقا في مجرات الشهوة

ألوف الورود الصاخبة بالنشوة .

تقلبا على مدبول الغابة الإسفنجي الطاعن في القدم

تنبت من جسديهما أغراس جديدة

تهتز أوتار الريح ويطن النحل بنشيد الشهوة الحلوة

يلفهما خريق[23] جبال رونزوري المغطاة بالثلوج

يأويا إلى الكوات العميقة

في جذوع الأشجار الضخمة

يتمددان بين سيقان النموات الضخمة

تسكن روح الغابة دفء أحضانها

يتوسد نهديها الممتلئين نعمة

يرشف من حلمتيهما العسل الإلهي

وكفلاها الممتلئان بركة

يستريح تعبا على فخذيها

يشاهدا البوابين[24] تماثيل سود

تجثم ساكنة بين أغصانها مستورة بالأزهار

والربابيح تلمع أذنابها البيض

تقفز متوثبة نحو الظلة العليا

يروحا في نوم العميق

---

23) الخريق: الريح الباردة الهابة

24) البوابين: جمع البابون وهو القرد الإفريقي الذي هو أقبح القردة منظرا وأحطها عقلا

قبل أن يستيقظ يوما وقد فقد ملازمه .

تخفف أيها المحبوب من ثقلك المادي .

اترك الروح تغادر جسدك تذوب في روح فردوسك .

في جنة نعمتك الإلهية . . .

أنا الأميرة (جنجي) . .

* * * *

تمضي الأيام بالرباح الذي سرقه الزمن، يقف أمام غابة الوفرة، يفك ألغازها، متتبعا الدروس التي علمته إياها الأميرات الخمس، ليطل سؤال عصى يضرب رأسه، كيف لرباح أن يتضور جوعا، حيثما ينبغي أن يموت من التخمة؟

تتابع الطبيعة قسوتها، ويندر الطعام، تتوالى الأيام، ولا تجد ما تأكله، لتنجلي العشوائية الضارية في الوجود إلى نظام صارم، تتجاوز فيه الطبيعة كل ما يحتويه فن الحرب، أين اختفى فردوس السلام السماوي، وهل يمكن القول، إن السلام الأرضي محض دعوة لأنبياء مهزومين.

تشهد الغابة الاستوائية المطيرة جامع قمامة، ينتمي إلى العصر الحجري، ينقب في أديم الأدغال المدبول، يبحث عن قمامة تسد رمقه، مستخدما عصى مدببة الأطراف، شباك رديئة الغزل لصيد السمك، كمائن للزواحف والقوارض.

تكافئك الأميرة (جنجي)؛ روح الغابة، بما لم تحلم به، وتنجلي عن حقل لنبات تكلله أوراق خضراء كثيفة، جرفت سيول المطر التربة عن جذوره، لتكشف عن ثمار حمراء وردية، يدك التي أمسكت بالثمار، فمك الذي تذوقها، كانت دليلك الوحيد كي تصدق، أنك عثرت على حقل للبطاطا[25] البرية.

تأخذ السعادة بعقلك الضال، سوف تتحرر من هستيريا البحث عن الطعام الذي قبض على تلابيب حياتك، تسرع إلى كهفك تضعها على

25) البطاطا: اليام Yam

موقدك الحجري، تتذوق حلاوتها، يسيل لعابك بين ثغري (جنجي) القرمزي الثخين.

يمضي الرباح اليافع وحيدا مع الله، لا وجه له ولا مأوى، يحاول التأقلم مع عالم جديد، لكنها الشمس (التي بزغت من أمواج الشفق السيال) تسحره، تغوص به بهدوء، في عالم جديد يتعايش معه، لا يلقى بالا لحيوانات تتدلى من فروع الأشجار، لا تتحرك قيد أنملة، ولا طيور طنانة عالقة في الفضاء، أو تميرة منكبة على رشف رحيق الأزهار، لا يلقى بالا إلى الثعابين والعظايا الساكنة بين الأغصان، تنساب بضراوة بين ظلالها لتنقض على فرائسها.

يستسلم للأميرة جنجي، وهي تفشي له أسرارها، وتهبه نعمة الوقت، حقل للقلقاس[26] البري، منجم من الكرنب وزيت النخيل، تتوارى أفكاره التي تنغص حياته البربرية، يستقر عزمه على الاستسلام لعالمه، والتوغل فيه، رافعا راية الوحشة، والوحشية التي تمكنه من البقاء.

يتسلق الرباح اليافع الظلة السفلية لشجرة الحياة، حيث الغابة مظلمة رطبة، صاعدا إلى ظلتها العلوية، حيث الشمس سيدة الكون، تسعى إليها الأشجار فائقة العلو، ترتكز على جذوع قوية تمكنها من الوقوف خلال الصراع من أجل اقتناص ضوء الشمس، تحمل على ظهرها النباتات الهوائية والمتسلقة، وآلاف الحشرات والطيور والحيوانات.

على تيجان أشجار الظلة العليا تزهر مئات الأزهار الصغيرة، تلثم الهواء كي يلقحها، يسكن الهواء في الظلتين الوسطى والسفلية ويصبح رطبا، تكشف الأشجار عن أزهارها الاستوائية البديعة؛ كبيرة متعددة الألوان، تفعل كل ما في وسعها كي تستهوي الحشرات والطيور لتقوم عنها بمهمة الإخصاب.

بين أشعة الشمس وخيالات الظل تطير خفافيش عمياء، وقردة وحيات وضفادع الشجر، وحيوانات طائرة تشبه السنجاب، تقفز من فرع لآخر ومن شجرة لأخرى، تتسلق مسرعة قمم الأشجار، والرباح اليافع خلفها يبحث عن طعامه، ليجد بانتظاره الفراشات الملونة بالعطر.

---

26) القلقاس البري: Taro

.. جنجي أين أنت الآن.

تهـبط ممتطـى أشـعـة الشـمس، تطـاردك العناكـب الســوداء، ومعــك العسـل الإلهـي الـذهبي، والشـمع الـذي سيضـيئ ليلـك المظلـم، وبـيض طـازج، تنمـو الأشـجار الطفيليـة فـوق جـذوع الأشـجار، تخنقهـا بـلا رحمـة، تنقـل إلى عقلـك المكـدود قـوانين الحيـاة، تحـط علـى تربـة إسـفنجية عطنـه بالـدوبال، تلقـاك الظبـاء والأيائـل والخنـازير بالتأمـل، وتتجاهلـك القـوارض وهـي تقطـع أرضية الغابة، تتغذى بالجذور وثمار الجوز.

يـتلمس الربـاح طريقـه في العتمـة، وسـط الخطـر مـن أشـباح الظـلام ووحوشـها، الخـوف ظـل الـنفس لا يبارحهـا، لمـاذا كانـت الشـمس طريـق البشـر التعسـاء إلى الله، تتـولاك الحكمـة، تصـرخ فـى رحـاب المخلوقـات "تعـالوا إلى قلب الظلمة، لتعلموا لماذا كان يجب للشمس أن تعبد".

هكـذا يمضـي يومـك، لا تجـد مـا تأكلـه، تجـوب الغابـة وعقلـك مشـغول بإيجـاد إجابـة عـن هـذا الكهـف الـذي أصـبح فـى عهـدتك، إذا كـان يـتعين عليـك أن تحرقـه، بعـد أن فقـدت الصـلة بأصـحابه، وترحـل إلى حيـث يأخـذك نهـر (ويلـي) حيثمـا يتجـه، لا تجـد إجابـة، وكيـف لنسـناس منبـوذ أن يجـد إجابات عـن أسـئلة عصية، كـان لـه عشـيرة، أرسـلته إلى بقـاع البداءة، وألقـت به إلى زوايا النسيان.

تـأتى الظهيرة تحمـل معهـا دقـات طبـول، يـرى مـن نظارتـه المكـبرة، أغـراب علـى رأس حقلـه، فـى اللبـاس العربـى، وزي الأزهـر الشـريف، جـرى يصـرخ، وهـو يشـعر أن عـالم الوحـدة اللانهـائي يوشـك علـى التلاشـي، لكـنهم اختفـوا، وقـد تركـوا علـى الجسـر الواقـع بـين رأس حقلـه وشـفير النهـر صـناديق خشـبية رتبـت بطريقـة غامضـة، دار يلعـن نفسـه، وهـو لا يفهـم إذا كـان يعـيش حيـاة حقيقـة، أم تجاوزها إلى هلوسات أوهامه.

لمـح عـددا مـن الجـن يتسـللون مـن الغابـة، يجتمعـون حـول الصـناديق، يقلبـون مـا بهـا، ويتبـادلون بلغـة غامضـة المشـورة، ثـم وضـعوا أمـام كـل كومة من السلع قطعا من معدن أصفر، قرعوا الطبول وتواروا عن الأنظار.

ظهـر التـاجران ثانيـة، قلبـا قطـع الـذهب، وقـدرا وزنـه بميـزان صـغير، بـدا الرضـا عليهمـا، حملـوا الـذهب وقرعـوا الطبـول، وغـادرت قافلـة التجـار ومشـايخ

الأزهر الشريف، وخرج الجن يحملون ما اشتروه إلى كهوفهم، وعاد هو إلى جحره يملئه العجب، كان يشهد المقايضة الصامتة[27]؛ أقدم أنواع التجارة على نهر الكونغو، بين التجار العرب المسلمين، والسكان المحليين.

في طريق الغابة اعترض القافلة رباح يافع يسير على قدمين، لوح بحربته، واندفع يحتضن التاجر العربي، وفمه يتحرك حركات غريبة، ساد الاضطراب بين الحمالين، صوبوا بنادقهم نحوه، والتاجر يسترضيه، يطلب منه الرحيل، والمشايخ يستعيذون بالله من الشيطان الرجيم؛ هذه أعجوبة من أعاجيب الدنيا، عفريت الغابة، غوريلا فقدت وليفتها، قرد يسير على قدمين، قرد ناطق يحمل حربة، قرد يبكي ، حتى إنهم أسرعوا اكما روى التاجر لأصدقائه في (تمبُكتو) عاصمة مالى)، إلى قواربهم تاركين بعض أغراضهم على البر، وإنسان الغابة يجرى وراءهم، وهو يعوى بصيحات غير مفهومة، وحكي عن أحدهم إنه ويا لغرابة كان يبكي !

تابع الرباح القافلة تغوص إلى أعماق الكونغو على ظهر نهر (ويلي) في طريقها إلى نيل السودان[28] ببلاد النيجر، يمضون قرابة الشهر في (نيامى)[29] عاصمتها، يمارسون التجارة، ويدرسون لعلمائها الدين الحنيف، يلتقي المشايخ الثلاثة بملك تمبُكتو[30]، وعملوا أئمة على مساجدها يدعون إلى دين الإسلام، يترك التجار مالى ويرحلون إلى أقصى الغرب على ساحل المحيط الأطلسي، قبل أن يعودوا أدراجهم مع رحلة الحجيج إلى مكة المشرفة .

زعق الرباح ودار حول نفسه، يبحث في أرجاء الغابة عن صوته الضائع، ثم توقف وقد حل عليه الذهول، وهو يكتشف أن الصوت الوحيد الذي يبلغ مسامعه هو صوت الغابة، صوت الطيور، صوت النهر،

27) المقايضة الصامتة: نوع من التجارة تتم على طول نهر الكونغو وفق ترتيب محدد، حيث يأتى التجار العرب المسلمون يحملون بضاعتهم، ثم يقومون بدق الطبول لإعلام السكان المحليين بقدومهم، يرفض السكان (وخاصة عشائر الأقزام) الخروج من كهوفهم فى وجود التجار الأجانب، لذا اعتاد التجار الاختفاء، عند ذلك يخرج السكان المحليون ليقدروا البضاعة، وليضعوا كمية من الذهب بجوار كل كومة من السلع ثم ينسحبوا، إذا وجد التجار أن هذا يرضيهم، فإنهم يأخذون الذهب، ويدقون الطبول إشارة إلى قبول الصفقة ورحيلهم، وانفضاض السوق.

28) نيل السودان: نهر النيجر

29) نيامى: عاصمة النيجر

30) تمبُكتو: عاصمة أبيدجان Abidjan

تراجع إلى كهف وحدته منبوذا من بنى البشر، وركب نهر ذاكرته بحثا عن مملكته.

مثل الطبيعة كانا

اغتسلا فى مياه الشلالات

وامتطيا غدائر الأحراش

رحلا فوق جداول، فروعها نساء شبقات

تداعبهما أسراب الأسماك والسلاحف النهرية

ينظرهما أبا سُعن[31] فى سكون خادع ووقار حذر

وبجواره الكراكي[32]

تنشر أجنحتها الواسعة وتحوم فوق الماء

سلام للأميرة جنجي؛ روح الغابة

الإلهة التي تلبى احتياجات الجميع...

الإلهة التي تُكرم لشخصها النبيل...

ينزلق الظل من إبط الليل

تداهمه الرياح بلمعان عشب

بساط طائر يحمل على ظهره البرية

حلقا فى السماء عاريين كالحب

تغرد حولهما أعداد هائلة من الطيور

فى مقدمة بساط الريح جلس ضفدع مهذب، ألقى أوامره، فصعدت من الأكمات رقع بيضاء حريرية، تتلألأ بنورات برتقالية، تتحول إلى بلاشين ارتفعت بهما إلى الأدواح النضيرة.

تأرجح المحبوب (شيشا)

والأميرة (جنجي) بين فروع الأشجار

معلقين من ذيلين طويلين...

يمنحاهما التوازن فى الارتفاعات القصية

---

31) أبوسعن: طائفة من الطيور طويلة الأرجل قريبة من اللقلق تعيش فى أفريقية والهند

32) الكراكي: جمع كركي وهو الطائر كبير أغبر اللون طويل العنق والرجلين، أبتر الذنب، قليل اللحم يأوى إلى الماء أحيانا

يتقاطعان جسدا لجسد

ويحلقان روح لروح

تخف هلاوس الرياح اليافع

وروحه تسترد أدراكه

ترتل الأميرة جنجي للرياح

"(شيشا) أيها المحبوب الأجمل

هل الغابة روح الحياة ؟

لا، ليست الغابة روح الحياة

فما عسى الغابة أن تكون ؟

....

إنها امرأة...

إنها جنجي...

* * * *

فـي مخاضـة النهـر وقـف صـياد بـدائي يخفـي عريـه بمـزق مـن بقايـا لبـاس مـن الـدمور، يضـرب رمحـه في أعمـاق المـاء مـرة تلـو مـرة ويفشـل، يمضـي اليـوم بطيئا، وقـد عيـلَ صبره، يقرصـه جـوع مـن نـام علـى الطـوى ثلاثـة أيـام وليـال، تتلـوى أسـراب البلطـي بحيويـة، تغيظـه، يـدفن رمحـه بقـوة، المـرة بعـد المـرة، ليصـطدم بالقـاع الصـخري، تخـرج عصـاه بـلا سـكين، يحـل اليـأس بالمسـكين، هـا أنـت فـى حاجـة لحربـة جديـدة، أيهـا الحمـار الـزَرَد[33] هـذا نهـر لا يسمح للصيد فيه إلا لمن يستخدم منقاره، أو مخالبه، أو يده.

تـابع أسـراب النـورس تصـطاد مـن السـمك مـا يكفـي سـرية مـن العسـكر، يجلـس وقـد خـاب رجـاؤه. لـيس اليـوم يـوم رزقـك، توكـل علـى الله وارحـل للغد، ربما تغير الأقدار حظك.

---

33) زرد: حمار وحشي

تذكر كيف تجلس الأميرات الممبوريات القرفصاء، يدفسن أيديهن تحت الماء، في سكون كالنصب الحجرية، ثم يخرجونها وهي تقبض على صيد وافر، حاول مرة أخيرة، ضع يدك فى الماء، واجلس ساكنا وترقب.

أطبقت على رسغه أنياب حادة، ارتعش جسده بألم طاغ، وقد أمسك بيده جسما ثقيلا ذكره بشراسة التماسيح، لقد أوقعه حظه العاثر فى وحش عملاق ضعيف البصر، كان يبحث عن طعامه بتتبع أي اهتزازات أو ذبذبات تصدر عن فريسة لا يراها.



(مبينجا) وحشية[34]، تجاوز وزنها أربعين أقة، أطبقت أنيابها على رسغه، جذبته وسحبته باندفاعاتها الدودية إلى النهر، جدف بذراعيه وقدميه من الهلع، تعثرت يده فى مدينته المكسورة، طعنها المرة تلو المرة، والتيار يدفعهما إلى جنادل نهر (ويلي) وشلالاته.

غاصت به إلى أعماق النهر، يتبعهما خيط من الدماء، اختنق موشكا على الغرق، وكلما تمكن من التقاط أنفاسه وسط تقلبات التيار الشديد أعاد طعنها، حتى توقفت عن الحركة وتحول جسدها إلى ثقل يأخذه إلى القاع.

كل شيء تحول إلى كابوس؛ لونها البني المبرقش بالحمرة، زعانفها الحمراء، وعيناها تحدقان بشراسة، أنيابها الضخمة مغروسة فى كفه، قاوم كي لا يغيب عن وعيه؛ ليس ثمة من ينقذك من الموت سوى نفسك. هنا مثواك الأخير، لا وداع، لا جنازات، لا كفن يطويك فى التراب.

أرواح وظلال تدفع بهما إلى أعلى، وتتركهما في مخاضة النهر، يسقط مستلقيا على وجهه وسط بركة من الدماء، يكابد هلوسات الموت وبجواره سمكة (المبينجا) الوحشية ممزقة، وأنيابها مغروزة فى رسخه الأيمن، ثمة عظام مكسورة فى فم الوحش، وبقايا جلد يصل جزء من

34) سمكة مبينجا: Mbenga. {النمر} وتسمى سمكة نمر الجالوت Tigerfish Goliath. من الأسماك الضارية، يبلغ طولها 150سم. ويصل وزنها إلى (50-55 كجم)، وهي ذات أسنان حادة وبارزة.

كفه، نـزع المديـة العالقـة بجسـد سمكـة النمـر الوحشـيـة، وأخـذ الحبـل الـذي يجمعهـا بقصـبـة الحربـة، ربـط سـاعده بقـوة ليوقـف نزيـف الـدم، غالـب آلام مبرحـة وهـو يقطـع كفـه بشـفرة المديـة، بعـد لئـي وجهـد جهيـد يحـرر سـاعده الملوث بالدماء من فك المبينجا، وقد فصدت أنيابها "الخنصر والبنصر".

فـى الـبرزخ الكـائن بـين الحيـاة والفنـاء، حيـث لا أشـجار، ولا أزهـار، ولا أنفـاس حيـة، ارتفعـت الحرائـق حمـراء ذهبيـة، تغـيم علـى سـطح هلوسـاته كـوابيس الشـمس الغاربـة، تأخـذه إلى ليـل تضـيئه نـار لا تنطفـئ، واثنـا عشـر قمـرا يحيطـون بـه، وعـرق غزيـر ينثـال مـن جسـده، وحـرارة ملتهبـة تأكـل رأسه، ألست فى الجحيم؟!.

تسـجد أمـام العـرش الإلهـي تطلـب الرحمـة، تعـدد المعاصـي الـتي ستحاسـب عليهـا، وتعـود لتشـهد نسـاءك الخمـس وأطفـالهن الـذين لم يغـادروا أرحـامهن، خطيئـة تسـتوجب العقـاب، تسـأل نفسـك وأنـت علـى صـراط المـوت، إذا كنـت قد خيرت فيما انتهي إليه مصيرك التعس.

يحملـك الجـن علـى محفـة، إلى نهايـات المـوت المحتومـة؛ وجـوههم الهرمـة، سـحنهم الفكهـة، أفـواههم الكـبيرة الضـاحكة، تـزين طلعـتهم غابـات شـعر كثيـف، ولحـى طويلـة، يعـبرون بـك مـن بـرزخ إلى بـرزخ، ويزحفـون مـن ثقـوب كخـروق الفئـران، يحشـرون جسـدك الضـخم فـى فتحـات ضـيقة، يحضـرون أرفاشـهم (المحندقـة)[35]، يوسـعون بوابـاتهم، ويـدفعون بـك إلى كهـوفهم السحرية.

ينتهـي بـك المطـاف فـى كهـوف مضـاءة بالمشـاعل، ممـدد في زريبـة ضـيقة، تتحلـق حولـك حوريـات النهـر الفاحمـات، يطـيبن جروحـك بأعشـاب ومـراهم، تعـود إلى غيبوبتـك، وعيـون لوزيـة تحيطـك بنهـر مـن الشـفقة، تعـاودك جنيـات الغابـة السَـوَدَ، يصـارعن حـرارة جسـدك الملتهبـة، والأيـام تسـافر بـك مـن كوابيسـك لـتحط فـى هلاوسـك، وتصـحى مـن هلاوسـك لتعـود لكوابيسك، لا تدري أين أنت وإلى أين مآلك التعس.

تسـتيقظ علـى جـدران تتسـلقها أشـجار الـذهب، ثمارهـا فصـوص المـاس، وحولـك جنيـات عاريـات لا يسـترهن حلـى ولا قلائـد أو وُشُـوم[36]، وعشـرات

35) محندق: صغير على حجم طفولى

36) وُشوم: جمع وشم وهو الرُسُوم والخطوط الخضر التي ترسَم على الجسم بواسطة غرز الإبرة فيه

الجن يعملون بصبر (تحت إمرة الزعيم)، على فصد عروق الذهب، فى الليل يجتمع الجن حول نار لا تنطفئ، يحيط بهم أبناؤهم، تشيع الألفة والمحبة، يداهمك الحنين، أين رحلت إناثك، وهل رأي أطفالك النور، تتوارد عليك حقول منقباد، وبحر الإسكندرية، وصفوف مدرسة البيادة العسكرية.

تستعيد وعيك، تلمح يدك اليمنى مغلفة بعصابة من مطاط، ترى كهوف لونت جدرانها بحيوانات، وصيادين، ورحلات قنص، وحفلات رقص، مشاهد مليئة بالحياة، وعول وظباء تقفز بحيوية، كركدن، وجاموس وحشي جريح، تخرج منه أحشاؤه، صيادون تحلقوا حول فيل وعيناه مصابة بسهمين.

تقف على قدميك، تصطدم بسقف الكهف، تسير محنيا وسط الدجاج والماعز، والخنازير، تربيها حوريات لا يتجاوز طولهن زراع، تتقن تربية أنعامها الأليفة، وجنيات منهمكات في صناعة سلال وأوانٍ فخارية، يأكلن بشراهة، ويلعبون بنزق، وفى الغروب يعود ذكور الجن فى صمت وترصد، وعلى أكتافهم صيدهم، ظباء، وخنازير، وقردة، وفئران، وجراد، وسمك وأفاعي، وعلى تلك النار التي لا تنطفئ، يشوى العفاريت الصغار لحوم القنص، والطلح، لتدرك أنك بين أقزام قبيلة الآكا، الذين ضم الصاغ الأسطورة مسيرة خمسة عشر يوما من أراضيهم إلى الحكومة المصرية.

تستيقظ على عدد كبير من الأطفال العراة يلتفون حولك، يأخذونك فرحين إلى حقولهم المخفية فى الأدغال، يلعبون ويرقصون، ويزيحون عنك همومك، يساعدون أمهاتهم على جمع التوت والبرقوق البري، تحمل لهم سباط من الموز، يأخذونه سعداء.

فى المساء يجلس يلقى إليك جنى بجرذ مشوى ويقول هذا ما يحبه الساحر الكبير منتصر، يقدم لك لفافات التبغ، تأتى امرأته تحمل لك هدية من حبوب البن المزروع فى حقولهم، تقول:

"لحمك الذي فقدته وضعناه فى طعامك

أكلته فعاد لك . . .

قلب (المبينجا) وأحشاؤها وضعناه فى طعامك . . . .

أكلته فعاد لك . . .

فى روحك تسكن روح المبينجا العملاقة . . .

تتنفس الطباق بعمق، ترشف القهوة، وهي تردد على مسامعك اسم الساحر الصاغ منتصر، تنحني لهما بامتنان، للقهوة وللتبغ، لسحرهم البدائي، لإنقاذهم حياتك، للحب الذي أحاطوك به.

تشاركهم جمع محصول البطاطا، وعزق الأرض لزراعة الذرة البيضاء التي نقلها لهم الصاغ منتصر، تؤثر فيهم مساعدتك، تبدو بينهم عملاقا، يتحلقون حولك، يقيسون عضلات زراعيك، وطول قامتك، وفي عيونهم إعجاب ومحبة.

في قطرات عرقك تنزاح همومك، تعمل صباحا، وتمضي الليل بين حوريات الغابة الفاحمات المولعات بالرقص والموسيقى، تذوب قبضة الحزن التي تقوض قلبك، تنسى وحدتك، وكفك المشوه، يتشكل في عالمك كهف من الفرح تأوي إليه، وسط أولئك الملائكة التي تحيط بك، أطفال ونساء ورجال يغنون أغنيات لا تفهم معناها، سوى أنها اقتناص للسعادة.

تشعر بالتعافي، تبرأ روحك من سقمها، آن وقت الرحيل، تستأذن جني الآكا كي تعود إلى كهفك، يمسد العجوز لحيته الطويلة، وعيناه اللوزيتان تلمعان، يهز رأسه موافقا، تقدم لك حورية الآكا، عِقْدا يضم أنياب سمكة المبينجا؛ اثنان وثلاثون نابا يبلغ أطولها أربعة قراريط، تسرع بالركوع على ركبتيك، تضع العِقْدَ حول عنقك، وتمسد رأسك.

تنهار في بكاء طويل، تهتز كهوف الآكا من بطش الحزن الذي يسكن روحك... تبكي كل شيء يمر على عقلك المصاب بالخبل... تبكي أمومة العجوز، تبكي منقباد، وعائلتك وروح الصعيد الأعلى، تبكي روح القمر، تبكي أيالاكا شجرة السماء، تبكي لولابا روح النهر التي سحقتها الفيلة الهائجة، تبكي أبرافو المحاربة التي أصابتها ضربة من فهد أسود وهي تحميك منه، تبكي جنجي روح الغابة تطعمك وتطعم أخواتها... تربت الحورية العجوز على رأسك وتقول لك:

"الحزن روح شريرة تقتلها الدموع ."

* * * *

حلَّ الربيع، وعادت القوارض تحتل ساحة المحطة، ثم ظهرت السعادين، رحب بها فى مودة، وفى الليل عاد لصحبته نقيق الضفادع، وصرير بنات وردان، ونعيق البوم، فى الصباح فاح الفضاء بعندلة العندليب، وجوقة من زقزقة العصافير، غادر فراشه، وقد عزم على أن يبدأ صيده مبكرا، صعد أعلى علية المحطة يصلح السقف المتهاوي، بدا أن الرباحين قد حلت فى الجوار، تلوح له من فوق أغصان أشجار الغابة، وكأنها افتقدت صحبته.

أصلح صارى العلم وقدم التحية العسكرية، ضحك الرباحين، وأسرعوا يدفعونه ناحية السارية، ليعيد مراسم رفع العلم، فعل عن طيب خاطر، ثم خرج إلى حقله ليجمع ثماره، فى الليل زاره الجنى العجوز، حمل له ظبي على سبيل الهدية، رد هدية الجنى بفخ من فخاخ الصيد الحديدية، وقبل أن يرحل وعده بدليل يقوده إلى بلاد المبورو لاستعادة إناثه وأطفاله.

مضت أيام بانتظار الدليل، استيقظ يوما على دوى الطبول والنقارات، خرج يحمل حربته ليجد الساحة محتلة بمئات العسكر، عبرت رأسه عشرات الأفكار، من هؤلاء، ومن أين جاءوا، وما هذا الزي الغريب الذي يغطى أجسادهم؟! وعما ينبغي فعله للدفاع عن كهفه ضد الغزاة الذين شرعوا فى الاستيلاء على مرابعه.

في ساحة فاضت بفضلات أوراق الشجر وأغصان الحطب الجافة، وقف عسكر الجهادية داخل أسوارها وأبنيتها المتهالكة، يلقون عن أكتافهم حمولاتهم من المخال والسلاح، عبر الضباط الثلاثة الساحة مسرعين، يبحثون عن رفيقهم المفقود.

على مدخل مبنى المحطة رأي الضباط العرابيون رجلا بدائيا مقنع بجمجمة قرد، يسد بقامته البوابة، يدق صدره بقبضته، ويلوح بحربته فى وجوههم، برغبة عارمة فى القتال، كان عاريا إلا من خرقة، يخفى قناعه غابة من شعر ولحية كثيفين، فبدا كساحر في غابة استوائية مطيرة.

رفع الجنود بنادقهم في وجهه، وحل الذعر بشلعى، وهو يحدِّق فى بشرته القمحية، وشعره الناعم الذي تدلى حول كتفيه، هتف:

- جرالك إيه يا على شمروخ؟ يا نهار أسود أنت اجننت!

- "هو ده على شمروخ. هزَّ رأسه موافقا: "متأكد".

أمـر فـوزي الجنـود بالابتعـاد ، واقـترب يحـاول تهدئتـه، لكنـه هـوجم مـن ضـار يكشـر عـن أنيابـه مهـددا، عنـدما أفـاقوا مـن صـدمتهم، كـان فـوزي صـاحب بنيـان المصـارع القـوى يشـل حركـة زميلـه الـذي فقـد عقلـه، لكنـه دفعـه بعيـدا، تقـدم الجنـود يحـاولون ضـربه بالسـناكي ، صـرخ الفـولى يطلـب منهم الانصراف.

شـل الضـباط حركـة زميلـهم، قيـدوه، وجلسـوا حولـه مـنهكين، يطيبونـه، ويهـدئون مـن روعـه، و يخبرونـه أسمـائهم، شـاهدوا رأسـه يرتفـع إلى الـوراء، ووجهـه مفتـوح علـى صـرخة داويـه تشـق الوجـود الصـامت إلى لا نهائيـات الوحدة.

* * * *



سبعة عشر يوما جاب القائم مقام بخيت بك بتراكي ومساعده كازاتى شمال هضبة حوض الكونغو، بحثا عن ملك مونبوتو، الذي نشر عيونه في الأدغال، فصار على بينة من تحركات خصومه، وفى كل مرة حاولت القوات إطباق الحصار عليه، تمكن من الإفلات بسهولة، ومع تكرار محاولات الحصار الفاشلة قوّض مبدأ تقسيم القوات، ولتفادي الحرج من إخفاق خطتهما، أعلنا فرار كبير الزنوج، ومصادرة مقتنياته، وقرر بتراكي خلعه عن عرشه، وتنصب ملكا بدلا منه، دون أن يذكر اسم الملك الجديد.

في محطة حواش قام الصناعية الملحقون بقوات منتصر بترميم وصيانة أبنية المحطة، وإعادة طلائها، وفرشها بالأثاث والمفروشات الفخمة، وإقامة الأكواخ لسكنى الجنود والمحاربين، فأعادوا للمحطة مظهرها الحضارى، وجاءت عشيرة الآكا تقدم التحية والهدايا لصديقهم الزعيم الكبير، وقدم لهم منتصر في المقابل بذورا وحليا وخرزا ملونا.

واستضاف منتصر الطبيب والمستكشف الروسي جونكر، وجرت له مراسم استقبال رسمية، اصطف الجنود خارج المحطة، وأطلقت المدافع حال وصوله، وأدخل إلى قاعة الاستقبال، وقدمت المرطبات والحلوى، ما جعل الطبيب جونكر يشعر بانشراح زائد للحفاوة الكبيرة التي قوبل بها، ومن نظافة المحطة ونظامها، وترنحت أعطافه سرورا، لوجوده مرة أخرى فى عالم متمدين، يتكلم فيه دون حاجة لمن يترجم له.

سجن المجنون المتوحش بتهمة التمرد، ووضع فى حالته البدائية فى قفص خشبي في ساحة المحطة، أمضى الضباط العرابيون وقتهم يتحدثون إليه، ويستفسرون عما صيره إلى هذه الحال، واستفاضوا فى الثرثرة فى شئون حياتهم الخاصة، يدفعهم توق إلى مد حبال الحديث معه، لفك ألغاز

الـزمن الـذي أمضـاه وحيـدا، وهـو مكتفـى بالصـمت، صـار لـديهم يقـين بـأن أصغر الضباط العرابين يفقد شعوره بالواقع.

في المسـاء يتلـو الشـيخ عمـر الشـلح إمـام الحملـة أمامـه سـورة ياسـين والكرسـي، ويصـنع لـه الرقـى والأحجبـة، وفـى النهايـة أعلـن أن الملازم واقـع تحت سطوة السحر الأسود.

نـزول زعـيم الربـاحين، ليجـالس الضـابط الشـاب، بـات مثـار تهكـم الجنـود وسـخريتهم، غضـب العرابيـون، وأعلنـوا أن صـديقهم فـى حاجـة لطبيـب ولـيس لسـجن، وتوجهـوا إلى الصـاغ، وطلبـوا منـه إعطـاء صـديقهم إجـازة للاستشـفاء ولـيس للعقـاب، وأصـر شـلعى أن يقـيم صـديقه فـى غرفتـه، وكـان أول مـا فعله أن استدعى الحلاق كي يقص شعره ولحيته.

تـاه شمـروخ في عالمـه الخـاص، لا يعـير بـالا للأحاديـث الـتي تجـرى بـين أصـدقائه، وعنـدما تفـرغ الغرفـة، يقـرأ شـلعى لـه خطاباتـه إلى سـهيلة، ينقـل إليهـا أخبـار ابـن عمهـا، وشمـروخ مبقيـا علـى عـالم الصـمت، الـذي انكسـر ذات صـباح عنـدما دخـل عليـه الملازم فـوزي حـاملا بنـدقيتين، وطلـب منـه أن يتبعـه إلى الغابـة، أمضـى اليـوم فـى الصـيد، وفـى تلـك الليلـة كتـب الملازم قصاصـة لصديقه شلعى يعلن عن رغبته فى الذهاب لإحضار زوجاته وأطفاله.

* * * *

متلفعـة بأسـتار الليـل، دخلـت "محطـة حـواش" الأمـيرة عائشـة ابنـة الشـيخ جنجارى، طلبت مقابلة الصاغ على انفراد، وأمامه قالت:

- "بسـم الله الـرحمن الـرحيم، والحمـد لله الـذي أدخلنـا ديـن الإسـلام الحنيـف، اعلـم سـيدي الصـاغ أن أبـى الشـيخ جنجـارى يشـكركم علـى تـدخلكم لـدى مولانـا ملـك مصـر المعظـم للإفـراج عنـه، ويشـكركم لتحريـركم بناتـه، مـن صـيادي الرقيـق، ويخـبركم أن تحـالف الـدم الـذي تم بيـنكم وبـين ابنـه الأمـير جمعـة قـائم، لا يمكـن فضـه، فمـا يربطـه الـدم لا تحلـه الخطـوب، وهـو يقـول اعلـم أن الملـك (مامبا نجـا) يختبـئ الآن فـى بنجيدى، وأنه باقى حتى تستتب الأوضاع وترحلون.



- من قال إن الجيش سيرحل عن مونبوتو؟
- هذا ما تنقله أشجار الغابة.
- منتصر يقول إن الجيش لن يرحل عن مونبوتو.
- والله هذا ما نريده، وما يبتغيه أبى وأخي وعشيرتنا.

تساءل الصاغ هل يخون شيخ بنجيدى معاهدة الدم التي بيننا؟ قالت الأميرة: "إن على الصاغ أن يتذكر أن الدناقلة حرقوا قرى برنجى الصغير والطويل وبمبا، وكادوا يحرقون كوبى، ولولا حضرة الملازم سر الختم الميرغني، لكنا الآن قتلى، أو نباع فى الفاشر بيع العبيد، ولكن الحمد لله يقدر الأسباب وما شاء فعل". وتساءلت سؤال حمل فى ثناياه إجاباته:

- " حضرة الصاغ لماذا بقت (بنجيدى) سليمة؟".
- من أجل إنقاذ شيخ بنجيدى لعشيرته، هذا يكشف المستور.

شكرها الصاغ، وأهداها ثوب من الحرير الدمشقي، وطلب من جنوده حراستها حتى بلوغ موطنها، وقال إنه عندما تستقر الأحوال وتهدأ، سوف ينزل في ضيافة الشيخ جنجارى، ولو أراد أن يقول لها ابْقيِ معي زوجة شرعية، أو أمة ومحظية لقبلت، قالت بصوت دافئ:

- "على الرحب والسعة، سيدي ومولأي حضرة الصاغ منتصر".

ظهر الصاغ بصحبة صديقه الجنى في حالة طيبة، تبادلا الطباق، وكؤوس الخمر، وأسبغ على الجميع روحه المرحة، همس شلعى أن الأميرة السوداء بلغتها العربية الفصيحة أسرت لب قائدهم، وراهن فوزي بأن قرانا سيعقد قريبا، وقبل شلعى رهانه، لكن على أمر آخر.

كتم الفولى ابتسامة الخبيث، فقصاصة صديقهم التي تتحدث عن زوجات وأطفال، أقنعتهم بأن عزلته ذهبت بعقله، حاولا أن يمنعا شلعى من أن يعرض برفيقهم على مرأي الجميع، لكنه قدم إلى الصاغ الورقة التي

أعطاها له شمروخ، وضع الصاغ كأسه جانبا، وبعد أن قرأها عاد يتناول لحم الظبي الذي تصدر المائدة، وبعد مدة نظر إلى شلعى وقال:

- "أنت بتنام مع النسوان من ورانا يا شلعى؟".

- أنا! أبدا يا فندم.

- من امتى تجوزت على مراتك، ومن امتى خلفت.

- الطلب اللي قدام حضرتك مش بتاعي.

- أمال بتاع مين؟

- الملازم على شمروخ.

- وهو أتجوز امتى؟ وأتجوز مين؟

- مش عارفين يا افندم. حاولنا نعرف، ما بيتكلمش.

- طب وأنت عرفت أزاي أنه عاوز يدور على عياله؟

- هو اللي كتب الورقة اللي قدام حضرتك.

- طب لما تعرف يا اخوى.

ساد الصمت وأصلى فوزي شلعى بنظرته الصقرية، وعادت ابتسامة الفولى التائهة تتسع بارتياح، بعد زمن وجيز شوهد الصاغ يلقى بفوطته جانبا، وينتصب بقامته، ويتساءل:

- "مش كان فى عهدته بنات الشيخ مبورو، وكان المفروض يرجعهم بلادهم".

- تمام يا افندم.

- أتأكدتم من الكلام ده؟

- ما بينطقش يا افندم.

- جرى أيه يا شلعى، أيوة أنت تخين، بس معرفش إن مخك تخين برضه.

- يا افندم.

نظر لهم بغضب وقال: "بالورق يا أخوي أنت وهو، زي ما كتب لكم اكتبوله".

أمضى الضباط ليلة كاملة فى صحبة رفيقهم، خلفت شعورا بالشفقة والحزن، انكبوا على قراءة قصاصاته التي كتبها واحدة بعد أخرى، وكل منها تضم حكاية، عن المجاعة التي ضربت المحطة، والخطر الذي حل بالمكان، والطبيعة العاتية المدمرة، والرحيمة الطيبة، والأميرات اللائى

دافعـن عـن حياتـه، وحملـن أطفالـه فـى أرحـامهن، والأجنـة الـتي سمـع خفقـان قلوبها، ومن سـحقتها أقـدام الفيلـة الهائجـة، وهـي تجمـع الطعـام، وعـن تلـك الـتي جرحتها مخالب النمر، وهي تحميه من هجوم كاد يودي بحياته.

هتـف الصـاغ غـير مصـدق مـا يسـمعه، مـن حكايـات ألـف ليلـة وليلـة: "يـا حظـك يـا منتصـر، هديـة مـن السـما، بكـرة الصـبح تبعـت رسـول إلى الشـيخ مبورو، بلغه أن الجيش المصري ح يزور القرية".

- بكرة يا افندم؟

- عـاوز صـاحبكم علـى رأس سـرية بيـادة كاملـة التجهيـز بالتشـريفة، ح يدخلـها وقدامـه البيـارق، والموسـيقى العسـكرية، فـاهمين يـا افنديـه، والله ولا أنتم فاهمين ولا حاجة، أفكار التمرد والعصيان أكلت مخكم؟

توجـه إلى خزانـة مكتبـه، وأخـرج غليونـا مـن العـاج، وغـدارة مشـغولة بالفضة، وضعها أمامه بحرص وقال:

- "يـا افنديـه معنـدناش ذخـيرة ولا خـراطيش ولا كبسـول لمواجهـة أي هجـوم يقـوم بـه مامبا نجـا، بكـرة صـاحبكم يقـدم مهـر للشـيخ مبـورو للجـواز مـن ابنتـه، يـا فنـدي أنـت وهـو تروحـوا معانـا، عشـان تتعلمـوا أهـم درس عسكري فى الاستوائية، التحالفات... التحالفات يا افنديه".

- "يا افندم دى مش زوجة واحدة؟".

- أمال كام؟

- منعرفش، هو بيقول خمسة، واحدة منهم ماتت.

- يعنى أربعة، زي شرع ربنا.

ابتسم الصاغ ثم استغرق فى الضحك، وقال:

- لا والله راجـل يـا شمـروخ، وبتسـتهبل وعامـل مجنـون، هـي دى الرجالـة. سيبونى وأنا ح أشوف حل.

* * * *

طقوس العبـــــادة

استـدعي الصـاغ منتصـر المـلازم شمـروخ إلى مكتبـه، ثـم توجهـا إلى الأحـراش، وجلسـا سـوية علـى حافـة نهـر ويلـى، والصـاغ يثنـى علـى شـجاعته، وإصـراره في

الحفاظ على موقعه العسكري، وعدم التخلي عنه، وقال يواسيه: " اعلم أن حياة الجندي هي سيرة المحارب، وسيرة المحارب هي حياة الوحوش والضواري، وأنت نجحت فى الاختبار، وصرت تعلم أن الصراع قانون الحياة، والبحث عن الموت شرف العسكرية".

هتف الصاغ بروح السعادة: "فى مسوح الليل تشرق الأمنيات، وعندما يشرق الصباح يكون قد آن الأوان لتقديم التحية لحلفائنا، غدا سوف ندخل مبورو نقدم التحية لحلفائنا"، علينا أن نحتفل ملازم على شمروخ وأضاف وهو ينظر إلى نظرة خالية من المعنى:

ـ " هذا نصرك؛ غدا سوف تتقدم القوات...:

ـ اتقدم القوات؟! إجابة حملت كل معانى الدهشة

دفعني إلى قلب الغابة، وفى العتمة الحالكة، قال يواسيني: أجلس يا أبن لم ألده. تعلم الآن حياة المقاتل فى الغابة هي حياة الوحوش والضواري، القتل قانون الحياة خذ.

وأعطاني كأس خلته من النبيذ الأحمر القاني، عندما شربته شعرت بالقشعريرة تسرى فى جسدي، وقبل أن أرفع عيناي إليه، قذف إلى بقطعة من الكبد النيئ، وقال لى كُل .. ألا تأكلون كبد أعدائكم فى الصعيد؟

ـ حضرة الصاغ افندم.. فى الصعيد نأكل قلوب أعدائنا.

ـ وهذا قلب بشري. امضغه جيدا، واستطعم اللحم، حتى تكون خليفة لي فى غابات أفريقيا وبراريها المقفرة.

* * * *

على تبه مكسوة بالعشب انتصب قوس من الأعمدة الخشبية، حفر الفنان الأفريقي البدائى على جوانبها الأربعة رءوس لهررة وحشية تبعث على الجلال، وأقنعة لوجوه تثير الهلع، جلس الشيخ مبورو الذي بدا حكيما مثل الإله (توت)(37) على مقعد يكسوه جلد الجاموس، فى مئزر

---

37) توت: جحوتي، تحوت، توت، هي أسماء لرب الحكمة والحسابات والفلك عند قدماء المصريين، تم عبادته فى العصر الفرعونى على هيئة قرد البابون، وأشكال أخرى، وكانت الاشمونين مركز عبادته الرئيسى

من جلد الأسد، يحيط به أبناؤه العشرة، يغطون رءوسهم بمَعْرَفة الحيوان الذي صيرته العشيرة طوطمها المقدس، ورمز ألسَلف الذي تنتمى إليه، يستمدون من روحه الكائنة فى الزمن القديم القوة والعون، ويتبركون بوجوده الحى، يمتنعون عن صيده، و يحرمون أكل لحمه، وفى المقابل يسبغ عليهم حمايته.

بجواره جلس الصاغ حواش منتصر شامخا منتصب القامة، تحيط به هالة من الخوف والرهبة، وبجواره صديقه جنى الآكا الذي جلس كالملوك الغوابر، وخلفه وقف قادته فى حلقة من زعماء القبائل التي ساندت حملة مونبوتو.

فى ساحة القرية وقف أبناء عشيرة المبورو، يشهدون (بعيون مفتوحة وأفواه فاغرة)، القوات النظامية المصرية، تدخل القرية شاكية السلاح فى زيها المثير للإعجاب، وتسير بانضباط على أنغام مارش "الجناب العالى".

اصطف عسكر الجهادية أمام مجلس الزعماء فى استعراض للقوة، يظهرون للأهالى هيبتهم، والشاويش (مسامبا) ترجمان الحملة يحذر العسكر من وجود الهررة الوحشية فى ربوع مبورو، لكن أعدادها المتزايد، وانتشارها فى كل مكان بالقرية، جعل القلق يتحول إلى غليان وترقب.

شاهد العسكر حلقة من لبُؤات صغيرات انبطحت باسترخاء وكسل، تمدد بينهم، رضع يجدفون بأقدامهم الصغيرة فى الفضاء، التعجب الذي تناقله العسكر، حسمه الشاويش (مسامبا)، وقال بيقين رجل يعلم المستور، إن هؤلاء طعوم بشرية، وأضاحى مقدمة من عشيرة الممبورو لأسلافهم.

مثل نخلة شامخة تقدم الملازم على شمروخ سرية البيادة؛ بذته المنسوجة من الجوخ، تبرق بأزرار نحاسية لامعة، بنطال (دمور أبيض) زين جانبيه بشريط أرجوانى، تدلى من خاصرته غدارة وسيف، ويداه فى قفاز ناصع البياض، وحذاء من جلد الجاموس، لامست نساء القبائل المحارب الذي أنقذ أطفالهم من أغلال العبودية.

خـاض أطفـال العشـيرة بـين صـفوف الجنـد يلعبـون ويمرحـون، والأهـالي يتـابعون مراسـم تحيـة العلـم المصـري بابتهـاج، وهـم يتسـاءلون لمـاذا يـتجهم هـؤلاء المحـاربون أمـام بيرقهـم الخفـاق، بـدلا مـن أن ينخرطـوا فـى بهجـة الـرقص الجماعـى ونشوته.

نـادى الملازم أول الميرغـني حـرس الشـرف، فتقـدم الملازم شمـروخ يتبعـه رهـط من حـرس الشـرف، وقـف أمـام السـارية، نفـخ البروجـى نفـير تحيـة العلـم، وعزفت النقـارة والطبلـة، فـأطلق العلـم مـن عقالـه يرفـرف فـى سمـاء القريـة وسـط طلقات البنادق، فى مشهد مهيب، يجمع بين القوة والنظام الصارم.

محفوظ فى تابوت التاريخ، لكنه كلما خرج، أشرق سليما معافى قويا عملاقا، يشهد على أراضى قدمت نفسها طواعية لأحفاد من غادروها منذ عقود سحيقة، وعادوا يحملون

تسـاءل الضـباط العرابيـون بانزعـاج عـن العـالم الـوهمى لشـعوب تلقـى صـولجانها تحـت أقـدامهم، كـأنهم يعيشـون ويتنفسـون داخـل حكايـة مـن الحكـايـات الخرافيـة، تـروى عـن جـزر سـحيقة فـى عـالم مسـحور؛ أقـزام، وغـيلان، وأمـيرات مـن بنـات ملـوك الجـان الأسـود، بوابـات سـحرية، تحرسـها ثعـابين عملاقـة، وهـررة وحشـية، يجلـس القـرد الحكـيم (تـوت) علـى عرشـها، يبحثـون فـى ذاكـرتهم عـن حكايـة روتهـا أمهـاتهم، وهـم يغفـون علـى حجرهـا فـى ليـال الشـتاء القارص، فلا يجدون حكاية تشبه تلك الخرافة التي يقفون داخلها الآن.

..لـن تجـد حكايـة تـروى عـن جـيش منتصـر يأخـذ البيعـة لسـلطان مهزوم... لن تجد حكاية عـن جيش يهتـف باسـم ملـك بـاع الـبلاد لتـوه، وآثـر أن يحـل جيشـه، ويعيـده مهزومـا إلى حقولـه، ثـم يسـتدعيه ليلقـى بـه إلى مـذابح السـودان، ليكـون علـى يقـين وحلفـاؤه الـبيض؛ أن الجـيش الـذي أقامـه جـده محمـد علـى باشـا، وأثـار الـذعر لـدى الإمبراطوريـات، وهـدد بـه عاصـمة الخلافة، تم الإجهاز عليه إلى الأبد...

...لـن تجـد خرافـة تـروى أسـطورة الأمـيرات الأخـوات الخمـس، اللائـي جعلـن مـن أرواحهـن مـأوى لأصـغر ضـباطهم في غابـات الوحـدة، وعـالم البـداءة، ومـن قلوبهن شهدا، ومن حياتهن قربانا لبقائه حيا...

...لـن تجـد أسـطورة تشـبه حكايـة الفـارس الأسمـر الـذي جـاب منـابع النيـل، وعـبر صـرة الأرض، إلى حـوض نهـر الكونغـو العظـيم، ولـيس فـى

جعبته سوى حب الأهالي، واحترام الخصوم، وغدر الصحاب، فلا جمعية جغرافية ملكية تدون كشوفاته الجغرافية، وتسجل اسمه فى خرائط العالم، ولا كتاب يروى سيرته، ولا مدرسة حربية تدرس فنه العسكري، ولا شاعر يروى للأجيال ملحمته...

يا الله يا فاطرا السماوات والأرض أعطنا إشارة... علامة على ما قدرته لنا... نتضرع إليك بكل ما تسعه مشيئتك من رحمة... أرشدنا للخروج من متاهة الجنون...

بين البهجة والخوف، والحسد والغيرة تبادل العسكر الشائعات التي سرت حول الضابط اليافع الذي بقى وحيدا فى الأدغال شهورا طويلة، فأصابته جنيات الغابة بالخبل، وأن الصاغ الذي شعر بأنه يتحمل قدرا ما من المسئولية لفقدان الضابط الشاب عقله، أقسم أنه لو تطلب الأمر سيقتحم مملكة الجن حتى يستعيد نساءه الخمس، وقيل إنهن أربع، وقال العالمون إن عددهن الحقيقى لا تكفى لعدهن أصابع الرجل الراشد البالغ، وكلما بلغت الروايات الجزء الخاص بحياة ضابطهم الشاب، الذي عاش وحيدا مع أميرات أخوات شقيقات، ينتمون إلى عشيرة تعيش الهررة الوحشية بين ظهرانها، ويتزاوجون فيما بينم، سرت بين المتيمين بالنميمة رعدة من غموض شهواني، يزيد من حرارته تساؤل ماكر طرحه شخص فصيح، حول شرعية معاشرة خمس نساء فى ذات الوقت، أو هل يجوز معاشرة أختين؟ وما القول فيمن عاشر خمس أخوات، وما حكم الفقه فى أطفال هذه العلاقات المحرمة.

تطبخ النميمة على مواقد الليل، يتغاضون عن الولوج إلى حياة الرذيلة وحكايات الفسق، التي تفوح فى فضاء الحكاية، أوليس كل حكايات ألف ليلة وليلة سرد للرذائل، وعوضا عن الترفق برجل معدوم الحيلة، يستغرقون فى التهام لحم الشاب، الذي تحرك الجيش لاستعادة نسائه من قبائل تتزاوج مع الهررة الوحشية، وتطعمها أطفالها، وتأكل لحم البشر.

يهز شمروخ رأسه نفيا، يستطرد فوزي وهو يؤكد عدم استغرابه: "يا أبني أنت مستغرب ليه! سيدنا إبراهيم قدم ابنه ضحية لربنا سبحانه وتعالى، الحاجات دى مفيهاش لعب، عاوز ولادك، ولا مش عاوزهم، خلصنا".

يلقى أحدهم بقول فصل فى تلك المسائل الفقهية الصعبة، تخفت الأسئلة وتزوى، ثم تعود تكبر من جديد، والجميع بانتظار ظهور نسائه المبوريات، ومن هي التي ماتت من أجله.

من بين الأحراش تطل صبية من الأبنوس، تسير على مهل، تقفز حولها هررة وحشية صغيرات، تداعب رؤوسهن بأناملها، وترسل إليه ابتساماتها.

وسط محاولات لكبح الهلع تقدمت اللبؤات التي صاحبت ابنة زعيم المبورو واحدة وراء أخرى نحو الضابط الشاب، وجلسن تحت أقدامه بكسل، تلقاهن بمودة، أعادت اللغط حول صحة الحكاية الخرافية التي أصبحت تحكي بأكثر من رواية، ها هي إحدى الأميرات، أين بقيتهن؟

تصعد سحابات الغموض من كهف الخيالات الممتعة بشهد الرزيلة، وكما درج العقلاء على تأكيد ما هو فى ظاهره نفى، قالوا إنه حكم الضرورة.

تتوه عما يجرى حولك، تدفع ببصرك إلى ما وراء أشجار الأبنوس العملاقة...
ها هو البرق يومض من السنا تشرق عليك بابتسامة من بين فُرُوج الظل والضوء.
ها هى ابتسامة القدر تطل عليك من وراء الغابات، تحمل اللحظة التي تخص شمسك.

المسارات العشوائية للشائعات تنتهي عند إمام الحملة الشيخ عمر الشلح؛ الذي فجر أخطر ما فى الموضوع، وقال إن الضابط الشاب فعل ما حرمه الله من الجمع بين أختين، وفى قوله تعالى "وأنْ تجْمَعُوا بَيْنَ الأخْتَيْنِ إلا مَا قدْ سَلفَ..."، ورجلنا عاشر خمس أخوات وجمع بينهن فى نفس الوقت، وهو ما لا يحل شرعا، غضب شلعى، هذا ليس الوقت المناسب للنيل من صديقه.

- يا عم الشيخ هو أتجوز من أصله، عشان تقولي جمع ولا ما جمعش.
- نعم. نعم. لا ضرر ولا ضرار، فهن إماء له، أي فى حكم الجواري.

..."إماء له" عبارة تلقاها الجميع بترحاب ورضا، كمخرج فقهي لورطة شرعية، تحل مشكلات العدد، والنوع، والجنس، والفصيلة، وتفصل فصلا قطعيا بين الرذيلة، والفضيلة، لكن هذا لم يعجب شلعى فقال:

- بس هو متجوز يعنى.
- يعنى إيه؟

ـ متجوز على شرعهم يا عم الحاج، يعنى متوجعش دماغنا، أما نشوف ح نعمل إيه فى المصيبة اللي أحنا فيها.

استخدام مصطلح "زواج" مجازا فى بلاد لا تؤمن بشريعة الإسلام، "فهن إماء له". لم يعجب الملازم فوزي السلحدار، سمعه أصدقاؤه يردد لنفسه وعيناه تومضان بنظرات الجوارح:

"إماء له! أمال الزياط اللي عاملينه حوالين حروب الرق معناها إيه؟"

وأضاف يقطع الأمر، كضابط أرستقراطي ينتمي إلى أصول تركية:

ـ "هذا نفاق".

رجاه الفولى: "والنبى متحبكهاش يا فوزي".

ـ محبكهاش.

ـ استنى أما نشوف إيه اللي ح يحصل.

ـ "أيوه هو أنت شفت حاجة ولا حد شاف حاجة!".

وقع تحالف الدم بين الزعيم مبورو والصاغ، وانتهت مراسم الاحتفال، ودعى مبورو الملازم ليأخذ ما له، اتسعت حلقة الأهالي، وتراجعت إلى الوراء، تكشف عن الأم الكبيرة تحمل رضيعين.

أخذ شمروخ طفليه بين يديه، وعاد بهما إلى زملائه الضباط، الذين أحاطوا بهما يبادلونهما، يلاعبون الطفلين، ويتحققون من طرف خفي من علامات نسليهما؛ البشرة البرونزية التي فقدت حدة قتامة الليل الأفريقي، الوجه الذي تخلص من استدارته الزنجية الصارمة ونتوء الفكين، ليعود مماثلا لوجه أبيهما، الشفاه التي تخلصت من غلظتهما، وأخيرا والقول الفصل فى الشعر الأسود الناعم، علامات الذكورة الفاضحة... لا لا. مؤكد، هما أبناء شمروخ... وهذا يعنى أن طرفا من حكاياته صحيحة...

تصاعد صراخ الرضيعين لشعورهما بالغربة، فارتج زئير مخيف فى الجوار، انفض الجميع وأسرعوا يتوارون من الهررة القادمة، ليبقى شمروخ وحيدا يحمل طفليه، تقدمت روح القمر فى ابتسامة واسعة، وخلفها والدها والأم الكبيرة وحولهما أبناؤهما العشرة يهللون بالفرح

قادوهما معا إلى الكوخ الكبير، دخلاه معا، وأغلقا عليهما بابه، وعاد الجميع سعيدا مبتسما كل إلى شئونه، ثلاث لبؤات تسللت خلفهما، وقال البعض أنهم لم يخرجن حتى هذه اللحظة.

بعد يومين خرج على شمروخ فى بنطاله، نظر فى وجوه الرجال الذين وقفوا يتطلعون إليه بانتظار أن يفصح عما يريده، بحث عن صديقه شلعى، حدثه دون صوت، سأله فوزي متجهما عما يريد، تغضنت ملامح شمروخ، أمسك فوزي ساعده، وطلب من عسكري الخدمة أن يحضر ورقة وقلم، فجاءوا بهما على عجل، كتب عدة كلمات ودفع بها إلى عبد المبين شلعى، نظر إليه بدهشة تحولت إلى ضحكة صاخبة، رفع الورقة إلى الفضاء وهو يصرخ: "هاتوا لنا الشيخ عمر الشلح في التو والساعة، الشاب عاوز يتجوز الأميرة على سنة الله ورسوله. يا اخذى هوةةةةةةةةة".

هاج الرجال واندفعوا في الغناء والرقص، وعبر الصاغ عن سعادته بضابطه الشاب، وأرسل عبد المبين شلعى إلى لادو يستدعى زوجته سهيلة لتحضر حفل زفاف ابن عمها.

- ". وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلا مَا قَدْ سَلَفَ..."، آية قرآنية رددها الشيخ عمر الشلح، وهمس بصوت خافت بالقول: "هذا زواج غير شرعي"، وأعقب بقول حازم، وأنا لن أخالف شرع الله.

اخترق هذا القول مسامع منتصر، مثل قذيفة مدفع تدك آمال حصونه، فاستدعاه وعنفه، وقال له إن فتاويه يجب أن تصب فى المصلحة العامة، وأن الآية تقول: " إلا مَا قَدْ سَلَفَ"، تسمح له بالاجتهاد.

- أي اجتهاد يا حضرة الصاغ فيما لا اجتهاد فيه، قوله تعالى: "وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ"؛ معناه أن الله حرم الجمع بين الأختين فإن زوجتهما في عقد واحد، بأن قال أبوهما زوجتك ابنتي، فكلا العقدين باطل، وإن سبق أحدهما الآخر فالسابق هو الصحيح، فلو زوج رجلا ابنته في أول النهار ثم زَوَّجَهُ أختها في اليوم التالي مع بقاء الأولى، فنكاح الثانية باطل، وإما قوله تعالى "إلا مَا قَدْ سَلَفَ" يعني ما قد سلف لكم في الجاهلية فلا حرج عليكم فيه.

- طيب يا عم الشيخ هو فيه جاهلية أكتر من اللي إحنا فيها، اجتهد، اجتهد الله يرضى عليك، مش لازم أنت، كفاية على كازاتى، وأمين بك، وبخيت بتراكي ، غير العيال الثورجية.

ـ إلا فيما يخص الدين.
ـ أنت ح توجع دماغي، روح دلوقتي، وبكرة يحلها ربنا.

* * * *

بعد ثلاثة أسابيع وصلت إلى محطة "حواش"؛ السيدة سهيلة وبصحبتها السيدتين صفية وسنية زوجتي الأخوين العجيمي، والسيدة أميرة زوجة الملازم حسن سليمان، اللائي أصررن على مرافقتها لحضور عرس أثار البهجة الغامرة، وقد حملن معهن أربع فساتين للعروس.

وقد حملن معهن من لادو أحداث وشائعات، أكثرها قسوة كان خبر أمر من العلقم، أنتشر في قرية ممبورو لتوه، وهو انتحار مبروكة!.. قيل أن نساء لادو ارتدين الحداد على موت الشاويش مسعد الرفاعي، وأنها صبغت وجهها وجسدها بالنيلة، وأنها تخرج فى ليل لادو شعثاء سافرة الوجه، محلولة الشعر، تدور تبحث عنه بين البراري، ثم فوجئوا بها وقد جزت جدائل شعرها التي كانت تطول الأرض، وهى تعدد وتقول: بيقوللي أرجعي مصر.. أرجع لمين، هو أنا لي حد هناك؟

تخبرهم بأنه قد هيئ لها قيام شبحه بزيارتها كل ليلة، وقالت أنه يضاجعها، وهو الذى لم تمكنه منها وهو حي، فلماذا وهو فى رحاب الله.

... كنت عاوزني ألفك بشعرى يا حبيبي، واتمنعت عليك.. ... يا حزنك يا "وكستك" يا مبروكة.. كان بيحبك... ويبوس التراب اللي بتمشي عليه... دا جزاته.. يا بنت الناس عملت فيه إيه يا قاسية.

تناوبت النسوة على حمايتها قيدوها ليلا، ومنعوها من الخروج صباحا، وأرسل ضباط لادو يطلبون من الملازم فوزي المعونة فى عودتها إلى مصر. وطلب العجيمى منه فى خطاب خاص، أن يبحث لها عن زوج، فهي فى البداية والنهاية خادمتك.

عندما علمت مبروكة بما يخططون له، وجاءتها زوجات الضباط يعرضن عليها الزواج، قالوا أنها ضحكت بهستيريا، وقالت: الباشا الصغير ح يجوزوني وماله، أهو كان صاحبه، وهو اللي جوزني ليه، وهو اللي قتله برضه... يا فرحتك يا مبروكة.. يا فرحتك يا مسعد يا رفاعي.

استبشر الضباط وزوجاتهم خيرا، لكن الليل جاء، ولم يأتي الصباح، حتى وكانت قد ألقت نفسها ليلا فى النيل، وهى تقول: "بتطفي" النار اللى ولعت فى جتتك يا أخوى.. وقال أيه بيقوللي اللي قتل جوزك ح يشوف لك عريس..

* * * *

كان هناك إشاعة أخرى حملها القادمون من لادو، وهو استدعاء أمين بك للقائمقام بخيت بك بتراكي إلى لادو على وجه السرعة، لضرورات السفر إلى الخرطوم بناء على طلب حاكم الخرطوم العام للمشاركة في مواجهة الثورة المهدية، ثم تأكدت الشائعات بوصول رسول من بخيت بك إلى الصاغ منتصر لتسليمه قيادة القوات، فطلب منه أن يلتقيه على تخوم قرية بنجيدى.

أعاد بخيت بك الرسول وهو مستاء، وحمله رسالة غاضبة، يسأله فيها؛ كيف له أن يحدد وجهة من هو أعلى منه رتبه. أجابه منتصر بغطرسة:

- "بخيت بك، عدوك الذي يحدد وجهتك".

كانت فحوى الإجابة تعنى أن لدى الصاغ معلومات عن ملاذ مامبا نجا الأخير، ما جعل بتراكي ينصاع مرغما.

تحركت الحملة فى غابات مونبوتو، بقيادة بخيت بك بتراكي ، ومعه الصاغ حواش منتصر قائدا ثانيا، يتبعهم آلاف المحاربين من عشيرة المبورو وعشائر الأقزام وخلفهم الحمّالين المرافقين للحملة، وقد انتشر بينهم الاضطراب والفوضى، وأثناء الطريق قام الضباط بتدريب المحاربين على الانضباط، انتظمت الأحوال مع الوقت واستتب النظام.

على تخوم (بنجيدى) عسكرت القوات، وجاءت مكاتبات لبخيت بك من الحكمدار يوبخه على تأخيره، ويطلب عودته على وجه السرعة، فسافر من فوره، وترك القوات التي جاء بها من مكراكا تحت قيادة الصاغ منتصر، الذي تهيأ لقطف ثمار جهوده.

أحكم الصاغ الحصار على بنجيدى، وانتشر الأقزام فى الأدغال يقيمون كمائن للموت، واختفوا بمهارة بين فروع الأغصان، دفع بمحاربي المبورو إلى المقدمة بقيادة الملازم شمروخ ، وخلفهم المكراكيين المشهورين بولائهم للحكومة المصرية تحت قيادة اليوزباشي أبو زيد، وأسند قيادة القوات النظامية إلى الملازم أول سر الختم الميرغني، مع الفجر دارت المعركة الأخيرة للصاغ على هضبة الكونغو، وشن هجوما مباغتا شكل مفاجأة للمدافعين، الذين خدعوا فى المحاربين الأفارقة، ومع ظهور القوات النظامية، انتشر الذعر في صفوفهم، واندفعوا يهربون إلى الأدغال، يقنصهم الأقزام بسهامهم المسمومة، وكمائنهم المصنوعة من الأوتاد المسنونة.

هاجمت القوات النظامية معسكر الملك، وتمكنت من أسر مائة من نسائه، وابنة وولدين من أبنائه، وأسر خلقا كثيرا، انتشرت الطبول فى الغابة تنقل انتصار الصاغ على الملك الذي تمكن من الهرب في اتجاه قرية (ابرامو)[38]، لكنه وجدها خالية على عروشها، فاندفع يهيم فى الغابات طريدا.

* * * *

جلس الصاغ فى مقر قيادة القوات المصرية، يتصدر مشهدا من امتزاج الطبيعة البدائية، والعظمة والافتخار، ومحاربي الأبراماوس، يلقون البنادق والرماح تحت قدميه، ويقدمون الولاء والطاعة.

وخلفهم رؤساء القبائل يحملون الهدايا والطيور الداجنة، وهو جالس فوق كرسي عال، بمسندين، يقدم لكل زعيم خنجرا موشى بالعاج، فيجلسون بين قدميه معلنين مراسم الطاعة الواجبة، وهو يوصيهم أن يخلدوا إلى الهدوء، والعودة إلى ديارهم، ويتفرغوا لأعمالهم، و يخلصون للحكومة المصرية، التي ترعاهم كما يرعى الأب أطفاله، وفي نهاية اليوم خطب فيهم قائلا:

---

38) ابرامو: Abramo

"لا يوجد قائد مصري أو سوداني من أبناء النيل سرق حبوبكم أو أبقاركم، أو حرق قراكم، أو اغتصب نساءكم، دفعنا أجور الحمّالين، وتبادلنا السلع بسلع، لم نزرع الفتن والحروب بين القبائل، ولم نصطفِ قبائل على أخرى، وسعينا للسلام، فتح أبناء الأزهر الشريف المدارس والكتاتيب لتعليم أبنائكم القراءة والكتابة، وفتحوا قلوبهم لمن يرغب في اعتناق الدين الإسلامي الحنيف، بلا عنوة ولا قهر، فدخله الناس أفواجاً . . .

. . . تذكروا حين يكون للتذكر أسبابه، أن الجندي المصري لم يأت لمنابع النيل غازيا، تذكروا إن الجيش المصري لم يطرد وطنيين من قراهم، ويأتي بجنس آخر ليحتلها، تاركا لكم التعاسة والقهر، بل جعلنا من بناتكم زوجات لنا، وأمهات لأطفالنا، ولم يكن أطفالنا أبناء سفاح، كما فعلت الإمبراطوريات بالشعوب المغلوبة على أمرها، بل أصبحوا أبناء شرعيين لنا، لا غصب، ولا قهر، ولا عدوان، بل حب، وسلام، وعمران، نعم نحن مصريون نفتخر بكوننا مصريين وسودانيين وأفارقه.

في ساحة المحطة العسكرية، وعلى ضفاف النهر، ارتفعت أكوام سن الفيل وريش النعام، وجلد الجاموس، وبدأ البناؤون في بناء مخازن إضافية، وكوخ خاص للملازم قبل حفل زفافه، ووصلت رسائل من السيدة ألفت زوجة الملازم خلاف، والسيدة حباب زوجة الملازم أحمد سليمان يؤكدان ضرورة تأجيل حفل الزفاف لحين وصولهما، وأن كلا منهما تعكف على صناعة أفضل ثوب زفاف على الإطلاق، همس البعض فى أذن الشيخ عمر.

- بيقولوا ستة أثواب زفاف حتى الآن.
- أوعى تقولى إن دى متفصلة لعروسة واحدة.
- يا عم دول نسوان أصحابه وعارفين عدد نسوانه المضبوط.
- يا ترى حواش بيه عارف؟

* * * *

أعطى تحالف الصاغ مع قبائل المبورو القوة اللازمة لتقدم الجيش المصري داخل إقليم مونبوتو، الضارب بجذوره فى ربوع هضبة الكونغو، بغرض جمع شمل القبائل الصغيرة، تحت إدارة حكومة الإقليم التابع للحكومة المصرية، وضم جميع أراضيهم بالتدريج.

تحركت القوات المصرية، تتقدمها الأعلام والموسيقى العسكرية، والصاغ يتقدم جنوده، وقد نشر وحدات استطلاع من محاربي القبائل، للحيطة من قبائل الأبراموس الذين عقدوا الخناصر على القتال، لكنهم لم يقدموا على هذه الحماقة، فاسم الصاغ كان يتقدم جيشه بالرعب، والاحترام الواجب، والفرار بمجرد سماع اسمه، كتب الضباط العرابين فى خطاباتهم لأصدقائهم:

"سرنا وراء قائد عظيم، يمد سيادة العلم المصري فوق الهضبة الشمالية لحوض نهر الكونغو، ونحن نتمنى لو كان هو القائد العسكري للثورة الدستورية الأولى، لقد استقر فى يقيننا أن الثورة هزمت لأن قادتها كان لديهم حماس وعاطفة يفوق ما يملكون من البصيرة والفن العسكري، والعلم بقوانين الثورات، أجادوا نظم الشعر، وفن الخطابة، ووضعوا ثقتهم فى الدول الأوربية، لعدم اطلاعهم على التاريخ، وحكايات الخيانة، المليئة بالعظات والعبر"

ونظم عبد المبين شلعى أبياتا ينهون بها خطابهم:

إن الأوطان بالمعالى تذكر
وما الجيوش لتنتصر أو تدحر
إلا بفضل قيادة من معدن لا يقهر

* * * *

سدرة المنتهى

﴿ وعلى العرش استوى ﴾

... قال الشسخ أبو المكارم راوي سيرة الأمصار، وسائق النيل من الحبشة إلى السودان:

...كل شيء مقدر ومكتوب على اللوح المسطور، قال تعالى للقلم اكتب فقال القلم المشقوق الذي ينبع منه المداد ليوم القيامة يا رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب علمي في خلقي بما هو كائن إلى يوم القيامة، وكان أول ما كتب القلم أن رحمتي سبقت غضبي" ....

في الأرض التي وهبها الله عطر البكارة، جلس الشيخ عبد المعز أبو المكارم، في المدرسة التي بناها الملازم حسن سليمان قومندان حامية الرجاف على نفقة المديرية، وأمامه أطفال الحامية من أبناء ضباط وجنود وموظفي الحكومة المصرية، يرتلون خلفه بصوت مرتفع آيات القرآن الكريم، ويكتبون على الألواح بأقلام البوص حروف الأبجدية العربية، يطلب منهم تسميع ما حفظوه، يثيب المجدون بالحلوى والمسكرات، ويعاقب المخطئ بالحلوى والمسكرات، يضحك ويبتسم ولا يعبس في وجههم، ويشاطرهم النكات والأمثال، غأحب الأطفال مدرسته، وداوموا على الحضور، حتي ولو منعهم أباءهم بحجة أمر ما.

يوم أن رددوا خلفة آيات من سورة النجم، فتحوا عيونهم للعالم الذي يحيط بهم، وارتفع صوتهم العذري يغرد يزقزقة العصافير، تنشد أغنية الكون.....

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

:"وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى(1) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى(2) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى(3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى(4) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى(5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى(6) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى(7) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى(8) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى(9) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى(10) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى(11) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى(12) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى(13) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى(14) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى(15) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى(16) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى(17) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى(18)".

حول المدرسة المشيدة من قاعة كبيرة من الطوب الآجر، وغطي سقفها بالحديد المموج، تجمع أطفال قبيلة (البارى)، تلفح جلودهم الرياح الموسمية، وتستر أجسادهم أشعة الشمس الذهبية، يتطلعون إلى أقرانهم من أطفال الحامية، وقد اجتمعوا حول الشيخ أبو المكارم في سعادة وبهجة، يستمعون إليهم وهم يرددون جميعا، فى صوت واحد تراتيل لا يفهمون معناها، وبين فنية وأخري يغادر الشيخ القاعة إلى الخارج، ويضع قطع الحلوى على النافذة الخارجية، ينظره أطفال البارى بقلق، فيتشاغل عنهم متعمدا، يتسللون و يخطفون الحلوى، ويهربون مبتعدين.

بعد شهرين من حيله، التي أصبحت مع الوقت لا تثير القلق، تجرأ أحد أطفال القبيلة ودخل القاعة، وتقدم من فوره وجلس بجوار الشيخ أبو المكارم، وعلى وجهه ارتسمت الابتسامة المضية لطفل أفريقي

في الرابعة من عمره، مزق الشيخ أبو المكارم قميصه، وأعطاه قطعة يستر بها عورته، ووجبة من الطعام، وهو يبتسم ويقول:

- فيه بنات هنا يا عفريت، غطي البضاعة يا نمس.

لم يفهم الطفل لغة الشيخ، وإنما فهم المعني، في اليوم التالي أرسل الشيخ أبو المكارم رسول يشترى من تجار العاصمة (لادو) عشرين ياردة من قماش الدمور، وعندما حصل عليها، قطعها إلى كساوى صغيرة، رتبها بعناية، ووضعها بجواره، وكلما دخل عليه طفل من أطفال قبيلة الباري أعطاه الحلوى، وكسوة تستر عورته، وشرع يعلم الجميع الأبجدية العربية.

رحل أطفال قبيلة الباري بكسائهم إلى أكواخهم، وعادو عرايا، مرة بعد أخري طلب منهم أن يتركوا الكسوة بجوار باب المدرسة، ومع الأيام أقبل أطفال الباري على المدرسة، واندمجوا مع أبناء الحامية، يدخلون عرايا، ويأخذون قطع الكساء مرتبة نظيفة، يسترون عوراتهم أثناء الدرس، ثم يرحلون عرايا، بينما تكسو عقولهم عالم متنامي من المعرفة.

* * * *

- 37 -

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ﴾

بعد منتصف الليل أشرق في مدارج السماء نجم "سعد الذابح[1]، خافتا يترنح بين الشمال والجنوب، ليبدأ سادس منزلة من منازل الشتاء، شف الليل أسْدَاله، والزمن دقات لبندول القدر، على إيقاعه شقت البعثة طريقها إلى أعلى، تقارب حافة السماء، والنيل سيل جبار، مجراه شديدة الانحدار، يكسوه آكام وأدغال عذراء، ويلامس زبده الشبقى غابات بلا تخوم، توقفت البعثة بين محلتى (نباميو نجو) و(أورندجانى)، وقامت على رفع القياسات، وعادت للمسير؛ يداهمهم شعور بأنهم يسبحون فى جوف الشجرة التى حدثهم عنها الملازم على شمروخ؛ (أيالاكا) شجرة الحياة، التى تصل السماء بالأرض، على غصونها المباركة سكن طير السماء الميمون، الذي حمل فى منقاره الحيوات الأولى إلى الأرض.

اليوم يكتب كتاب النيل فصوله الأخيرة.

هنا نيل يخطر بين الغابات البكر، فتى يلهو فى جنته، تحيط بضفتيه عرائس من جنيات تتبدى على شكل أجمات، ونبات معرش بزهور التهلكة، هنا ملائكة تحرس ذاك الفتى النزق، وقد مضى

---

1) نجم سعد الذابح: من كوكبة الجدي، وهما نجمان غير نيران بينهما في رأي العين قدر ذراع، أحدهما مرتفع في الشمال والآخر هابط في الجنوب، يظهر فى سادس منزلة من منازل الشتاء، وسمي ذابح لأن برده قوي ويقتل كما يقتل السم.

عليهـا حَـرْس[2] مــن الــدهر، فاتخــذت هيئــة طيــور البلشــون[3]، هنــا حوريـات تحلـق فـوق ميـاه الفـردوس علـى هيئـة طيـور القاونـد الفـيروزى، تـرقص بانتظـار أمـير يأتيهـا علـى هيئـة ثعبـان نيلـى، هنـا عصـافير تغـرد علــى لــبلاب قرمــزى متــوج بأزهــار المســتحية، وأدغــال تخفــى صــراع الضــوارى، وغــيلان تخطـر علـى بسـط البريـة تـدق صـدورها، فتـدوى طبـول الهـلاك، هنـا سـحلبيات شـاهقة الخضـرة، تتسـلق جـذوع أشـجار الـتين الموجـودة منـذ الأزليـة، يـأوى الأنـس والجـن فـى كـواتها وقـت المطـر، يسـطروا علـى جـدران تجاويفهـا الزمنيـة كتابـات للغـات قديمـة، وحكايـات مطمـورة، تـروى أسـاطير النيـل وأسراره.

يا الله ... الرحمـــة... أبمداد هذه البحيرة سطرت قصة الخلق!

ولج الليـل عـالم النهـار، وقـبض علـى الفضـاء دوِيّ يصـم الآذان، بلغـت البعثـة شـلالات (جنجـا)[4]، ووقـف الضـباط يَشْـهَدُونَ النيـل المقـدس ينسـكب مـن السـماء، خمـرة تشـع بلـون الـذهب، مقتحمـا خلـيج (جنجـا)، ينزلـق بـين صـخوره البكـر، يهـوى مـن عـل، ويهـدر ببهـاء، يندفع سيله وقد غشاه زبدُ ضـارب إلى خضـرة، يأتى جلالتـه فـى ضـجيج، ويرحـل فـى شمـوخ صـاخب، وبـين لجـب، وهـدر يصـم الآذان، يولـد النيـل الخالـد مـيلادا متجددا، لينطلـق مـن قلب القـارة الأفريقيـة صـوب عشـيقته "إيـزيس" المقيمـة فـى الشـمال البعيـد، عاشـقان معـا، محبـان للخـير معـا، مغرمـان بالحيـاة معـا... أزليـان، أبديان، خالدان.

---

2) الحَرْس: الوقت الطويل.
3) طائر البلشون: مالك الحزين
4) شلالات جنجا Janja: مساقط ريبون. أطلق عليها الأوربيون أسم لورد ريبون رئيس الجمعية الجغرافية الملكية.

نصبت البعثة خيامها جوار الشلالات، واستقرت للمبيت، وفى بكارة الفجر انبعث من وراءه الرابية هدير ناعم للمياه، تسلقوها وعلى قمتها ظهرت بحرة الأبدية، شاسعة، نشر عليها الضباب سِتره.

هتف: يا الله ... الرحمة... أبمداد هذه البحيرة سطرت قصة الخلق!

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾

مع أشعة السحر تسللت الشمس من وراء جبل الجون[5]، وخلعت البحيرة أزار عذريتها، لصباح ندى يكشف على مدى البصر؛ كثبان رملية، عشرات الخلجان الصغيرة، جزر تلثم الأمواج، وسلاسل من تلال تتوارى فى الزرقة البعيدة، ومراكب مسطحة، وبطاح من مدرجات، ومراعى تطوى المدى، تنتشر على أديمها؛ أشجار المرجان القرمزى، والسنط العملاق، يبسطا فى الفضاء مظلات مخملية، معرشة بسلاسل النور، تنشر فيئا ناعما على المروج.

بين الظل والنور انتصبت أشجار تين عملاقة، وجميز ملكى فى أرض سطا عليها السحر والجمال؛ عماليق ترفع قبة السماء، تسترسل حولها أكاليل من نبات العشق[6]، بين ثناياهما توارت كهوف الغيلان وحورياته الوردية الزاهية.

---

5) تمتد بحذاء جبل الجون سلسلة مرتفعات كينيا بارتفاع خمسة كيلومترات ونصف، ليشكلا معا حاجز الطبيعة الشرقى لخزان الهضبة الاستوائية العظمى.

6) العشق: جمع العشقة وهي نبات يلتوى على الشجرة ويلزمها

بصعوبة حرر الضباط أرواحهم المشدوهة من أسر النعيم، وشرعوا فى رفع قطاعات مساقط "جنجا"، فى الصباح جاء النسيم الطازج من قلب البحيرة الواقعة على ارتفاع 1200 متر فوق سطح البحر إلى البر، تحيط به تيجان الوهج البرتقالى، حتى تبلغ الشمس من السماء موقع الهجير[7]، تتجمع السحب، يغير النسيم اتجاهه، ويتحول عائدا من البر إلى البحيرة، تلبد السماء بالغيوم، يومض البرق، يزمجر الرعد، تهدر شلالات المطر، تصحبها عواصف وأمواج شديدة، تدفع السفن الماخرة عباب البحيرة إلى البر أو تقلبها على ظهرها، تنقشع الغيوم ثانية، وتصفو السماء.

أنهت البعثة عملها، وسط عالم اقتطع من فردوس الله، وغادرت إلى "روباجا" عاصمة مملكة أوغندا.

شق عسكر المقدمة طريقهم بالفؤوس والبلط، خلال الجدران النباتية العريضة الصلبة، المكونة من تلاحم السرخسيات وكلأ الفيل، حل صمت مريب على الأيكة الكثيفة، تقطعه أصوات طيور تختفى داخل أستار الطبيعة، ضحك[8] قرد، يكشف عن عمق الأيكة، فإذا انهارت الجدر النباتية الصلدة، انفجر طنين الحشرات، وحفيف الدوح التى يعوزها الهواء، وسمع نقيق الضفادع، وصفير الشحرور، وحسيس حيوانات الورلان[9]، وهي تندفع مبتعدة عن الأقدام الثقيلة للجنود.

تقدمت البعثة بين أوراق وارفة؛ ملائكة هبطت من الفردوس، وعفاريت صعدت من الجحيم، تقعد ساكنة فوق أشجار البوباب[10]، على هيئة بوابين[11].

7) الهجير: ويقال الهاجرة، وهو نصف النهار عند زوال الشمس مع الظهر

8) ضحك القردة: صوت

9) الورلان: جمع ورل وهو دابة على خلقة الضب أعظم منه طويل الذنب دقيقة

10) البوباب: من أعظم نباتات البلاد الحارة وهو قليل الارتفاع ولكن دائرة ساقه تزيد على عشرين مترا

11) البوابين: جمع البابون وهو القرد الإفريقى الذي هو أقبح القردة منظرا وأحطها عقلا

جرح الفضاء صفير نسر، أثار ظله الرعب فى الغابة، ميكائيل القوى الجبار، وعزرائيل قابض الأرواح، يسَمعُ "ضغيب"[12] أرنب، وصفير ببغاوات، وفحيح أفعى تخدش بساط الخضرة، وصرصرة بازى، وسجع قمرى، يسبح

اليوم يبلغ كتاب النيل صفحاته الأخيرة، لم نشهد من حكايات أبو المكارم (راوى سيرة الأمصار وسائق النيل من الحبشة والسودان)، سوى ما ذكره عن لعنة نوح عليه السلام، على ابنه الملعون "حام"، الذي كان جالسا لسوء حظه السخام، عند قدمي أبيه النائم، فكشفت الرياح اللئيمة عن عورة أبيه الدفينة، ما أغاظ نوح اغتياظا شديدا، فدعا على ابنه "حام" بالسودان[13]، وأن تكون ذريته عبيدا وخدما لدى سام.

ها نحن نقف

على عتبات نعيم

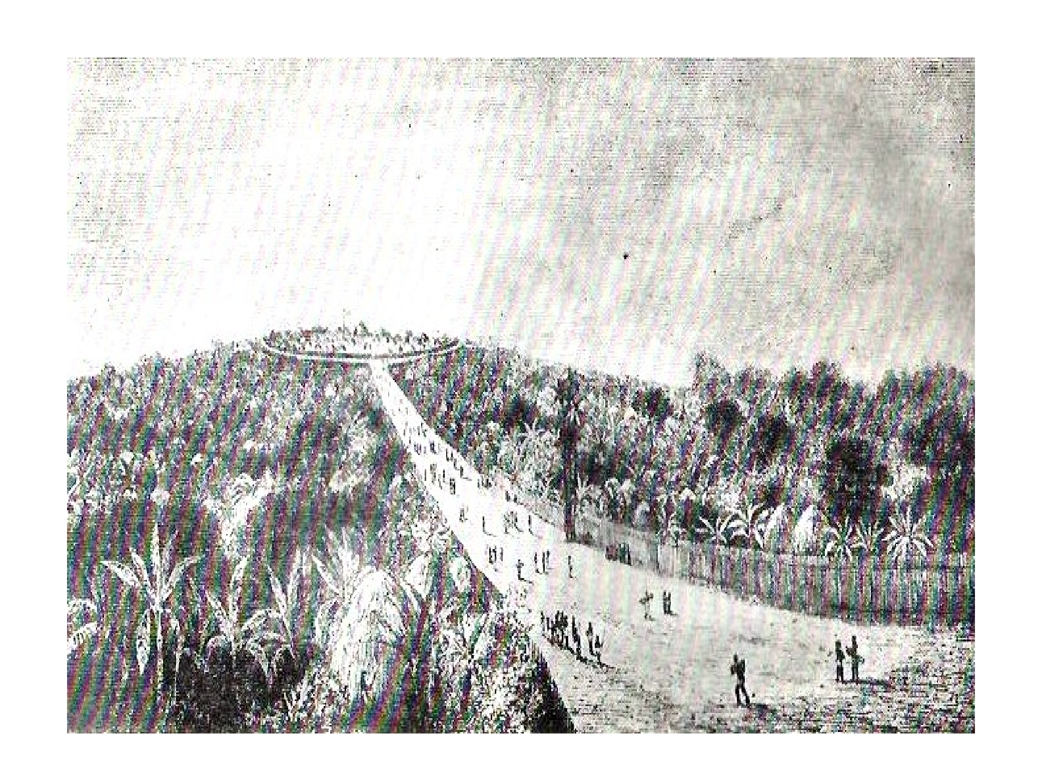
لم يتسن للابن الاعتذار، ووقع المقدر وصار، وها هي اللعنة المشؤومة، بالذل والعار منحوسة، وما خلا ذلك فهو الزمان، والنيل الخالد سيد الأبدية والأوان.

اللحن فى فضاء الغابة سيمفونية الجمال والخطر، وفى السابع عشر من فبراير 1883 بلغت البعثة روباجا عاصمة مملكة أوغندا، فدخلتها مع الشفق.

* * * *

12) ضغيب: صوت الأرنب

13) السودان: أن يكون أسود اللون



"روباجا"

عاصمة الملك موتيسيا ملك يوغندا[14]

---

14) عن كتاب ستانلى القارة المظلمة 1878

﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾

أنشأ الملك "إم تيسا" عاصمة مملكته أعلى تل، يبعد بضعة أميال عن البحيرة العظمى، تحسبا لفيضانها، يدخلها القادم عبر طريق عريض، مسيج بسور من بوص جدل بمهارة، وهي من الداخل نظيفة رحبة، تتميز بالتناسق البديع، وسوقها عامر بالعاج والريش، والحبوب، والخمور، والملح، والسلاح والعطور، في ساحاتها انتشرت حلقات العزف والغناء والراقصون.

في الدار الضخمة التابعة للحكومة المصرية، استقبلهم اليوزباشي سليم مطر قومندان القوات المصرية المقيمة في العاصمة الأوغندية، منذ عام 1874[15]، روى عليهم قصة الملك، والتي بدت حكاية من حكايات كتاب النيل؛ فالملك بدأ حكمه وهو شاب صغير يعشق سفك الدماء، وقتل الفتيات والفتيان، كان يعبد

---

15) في عام 1874 طلب الملك "ريونجا" ملك مملكة يوغندا مشفوعا بولائه للخديوي إسماعيل، إرسال قوة عسكرية مصرية للإقامة في عاصمة المملكة. استجابت الحكومة لطلبه، وتم توقيع معاهدة رسمية أصبحت بعدها أوغندا رسميا داخل الحدود المصرية، وبناء عليه أبلغت مصر دول العالم؛ إن جميع البلاد الواقعة حول بحيرة فيكتوريا، وبحيرة ألبرت قد أصبحت تابعة للدولة المصرية، وتبع ذلك نشر الجيش المصري وأقام عشرات المحطات العسكرية في منطقة البحيرات والهضبة الاستوائية. وقد ساهم ذلك في اكتشاف الجيش المصري لبحيرة "إبراهيم" عام 1874, وكان الوطنيون يطلقون عليها (كيوجا).

الأوثـان، ويشـرب الـدم، ويـبتر آذان ضـحاياه وأيـاديهم، يحـرقهم أحيـاء دون إنـذار، والنـاس لا تغضـب ولا تثـور، طالمـا أن هـذا حكـم المقـدر والمقدور.

لكـن الله سـبحانه وتعـالى؛ رضـى عنـه وهـداه إلى الإسـلام، والتقـى قاضـى وإمـام لادو، الـذي تلـى عليـه مـن سـورة النحـل: "هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ(10) يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(11)"، حتـى قولـه تعـالى" إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(90)".

فكـان أن أحـب الآيـة الكريمـة، حتـى إنـه يبكـي كلمـا اسـتمع إليهـا، وأصـبح رجـلا نابهـا، وديعـا، لا تنطبـق عليـه صـورته الشـيطانية، وانصرف عـن الإسـراف فـى الملـذات، فتحسـنت طباعـه، وأصـبح يرعـى الله فـى رعايـاه، وتخلـى عـن القتـل والتعـذيب، وارتكـاب الفظـائع بـين شـعبه، ففاضـت مملكتـه بـالخيرات، وامـتلأ قصـره بالريـاش والأثـاث المفتخـر، وزخـر بـالتحف، وأدوات المائـدة، ومقاعـد الاسـتقبال، وأقـام جيشا محاربا بمساعدة الجيش المصرى، وأسطول حربي يبلغ الآلاف.

أضـاف القومنـدان: "إن أحـد المغـامرين الأجانـب، ويـدعى سـتانلى حـاول أن يُسـفه ديـن الإسـلام، و يحسـن لديـه فضـائل المسـيحية، والحـق يقال إن الملك "إم تيسـا" رجـل فطـن، لديـه عقـل يتفكـر بـه، فهـو لا يأخـذ الأمـور مـن قشـورها، فلمـا عـرض عليـه السـاحر سـتانلى دخـول ديـن المسـيحية، قـرر أن يتعـرف علـى الـدين الـذي يـدعو إليـه الكـاهن النصـرانى أولا، فأرسـل سـتانلى مبشـرين مـن لونـدره، فاسـتقبلهم الملـك المسـلم، وأحسـن وفـادتهم، وابـتهج المبشـرون بضـيافة الملـك، فقـدموا هـدايا ملوك أوروبا وأحبارها، ورسالة من الملكة فيكتوريا.

عقد فى قصره جلسات لقراءة كتاب المسيحية المقدس، فكان يصغى بإمعان وتأمل، ويتبصر فى كل أمر يعرض عليه، وأكد المبشرون أن الملك سوف يتحول عن الإسلام، ويعتنق النصرانية، وعندما تفهم الملك الأمور، وتبين له ما تبين، أصدر أوامره إلى المبشرين بالكف عن إقامة القداس فى البلاط، وطالبهم بالتحول إلى عمل نافع، مثل إصلاح القصر، وصيانة مدافع الملك وبنادقه، وخاصة أنه يستعد للحرب ضد الملك "كابريجا" ملك مملكة اليني‍ورو.

وأفاد بريد لادو، بهزيمة الجيش المصرى فى 5 نوفمبر 1883، فى موقعة شيكان[16]، الواقعة فى مديرية دارفور، بين مدينتى الرهد والنهود، فقد انقض جيش المهدية، بهجوم مباغت على الجيش المصرى الذي يقوده جنرال هيكس باشا، الذي قال "إذا سقطت السماء رفعناها بأسنتنا، وإذا اهتزت الأرض ثبتناها بأقدامنا"، وألحق به هزيمة مروعة، أبيد فيها عشرة آلاف ضابط وجندى من المصريين والسودانيين، وحملت الأخبار مقتل هيكس، وعلاء الدين باشا حاكم السودان العام، وسقطت دارفور في قبضة الإمام المهدى.

صعق الضباط الذين كانوا يعولون على نجاح حملة جنرال هيكس، فى فتح الطريق بين لادو والخرطوم، فتحوا خرائطهم، فتبين أن سيطرة المهدي على مدينة الأبيَض "عروس الرمال" أصبحت نهائية، وأن أحكم هيمنته على النيل الأبيض، وأن قطع الإمدادات والاتصال بين الجيش المصرى فى مديرية الاستوائية والخرطوم أصبح وشيكا.

في المساء جاءتهم دعوة من الإرساليتين اللتين أقامتهما بعثات التبشير فى روباجا؛ الأولى تابعة للكنيسة الكاثوليكية، يبشر فيها الآباء البيض الفرنسيس، وهناك التقوا الأب (لوردل)، فسلمه

16) غابة "شيكان: اشتق اسمها من وادي الشائك، المليء بأشجار الشوك.

اليوزباشى خطابا من أمين بك حكمدار المديرية، واستلم منه ردا للحكمدار.

الزيارة الثانية كانت لجمعية التبشير الكنسية، التابعة للكنيسة البروتستانتية، المقامة فى نهاية روباجا في بناء من طابقين، التقوا بالقس ألكسندر ماكاى الاسكتلندى، حيث دار حديث ودود، قال فيه إن الملك "إم تيسا"، منفتح على الملل والعقائد، ولديه ميل لديانات التوحيد.

شعر الملازمان حليم ومقلد بانقباض لرؤية الرجل الذي سيستقبلهما بعد خمس سنوات وهما على شفا الموت، فى إرساليته المقامة جنوب بحيرة فيكتوريا، بالقرب من قرية (أنكولة)"[17]، ليلفظا أنفاسهما الأخيرة على يديه، وهما فى رَيْعَان الشباب، وحيدان مبعدان عن أرض الوطن.

* * * *

في الساحة الخارجية للقصر الملكى (المقام أعلى التل)، استقبل رجال الحاشية البعثة، تحيطه منازل الوزراء، يغطون رءوسهم بقَلَنسُوَات من جلد الغزال، ويرتدون أوشحة مسدله، تشبه عباءات حجاج مكة المكرمة، ينتعلون نعالا طائرة، ويهرولون على ارتفاع قدم من اليابسة، ساروا إلى داخل القصر تصحبهم الفرقة الموسيقية الملكية، تعزف على قيثارات خماسية الأوتار، وأبواق من قرون البقر.

فى مملكة الجَانّ الأسود اضطجع كبير الجنّ على عرشه؛ فراش وثير، ووسائد لينة، بساط فارسى أحمر، يرتدى طربوشا وعباءة عربية مزركشة، وقميصا حريريا سمنى اللون، تمنطق بحزام موشى بالذهب والفضة، بجانبه سيفه مرصع بالأحجار الكريمة، لا

---

17) محلة أنكولة: Nkole

يـزال كمـا وصـفه سـليم مطـر، لم يتقـدم بـه الـزمن، علـى مظهـره الـذي كـان عليـه منـذ سـالف الزمـان؛ نحـيلا، متناسـق القـوام، مقـاتلا شرسـا، يعقـد وشـاحه علـى كتفـه الأيمـن بعنايـة الملـوك، تـزين سـاعديه وسـاقيه أسـاور عريضـة، وخلاخيـل مـن الخـرز الملـون، وفصـوص العقيـق، تفـيض عينـاه الواسـعتين حـدة، تحـت أقدامـه جلسـت نسـاؤه الأربـع، وحـولهن إمـاؤه المـائتين، أغلـبهن مـن جـنس الجـن، وأقلـهن مـن بنـى البشـر، عـذارى لم يمسـهن إنـسِيٌ، يحلقـن فـى ركابـه عاريـات عـرى حـواء فـى فردوسـه السـماوى، وبعضـهن ينشـرن أمـام عـورتهن قطعـة صـغيرة مـن لحاء الشجر.

أمـام الملـك انبطحـت الحاشـية فـى خشـيه واحـترام، وتحـت قدميـه رمـوز الملـك؛ حربـة، ودرع، وصـولجان، وحولـه رجـال الـبلاط؛ وزيـره الأول، ومجلسـه الاستشـارى المكـون مـن أمـين الخزانـة، وقائـد الجـيش، وقائـد الأسطول، وأمين دق الطبول وعزف الموسيقى.

تقضـى تقاليـد الـبلاط الملكـى بعـدم الجلـوس فـى حضـرة الملـك، والوقـوف فـى طاعـة وخضـوع، والصـمت وعـدم الكـلام حتـى انتهـاء حديثـه؛ الوحيـد الـذي سمـح لـه بـالجلوس علـى يمينـه كـان الشـيخ عبـد الفضـيل الأشمـونى، وخلفـه وقـف الخواجـة روفائيـل صـبرة، والسـيد محمـد بـرى الطرابلسـى، أشـار الملـك للشـيخ، فبسـمل وحوقـل، وتلـي مـن آيات من الذكر الحكيم بصوت رخيم آيات من سورة النحل.

دمعـت عينـا الملـك، وسـكنت رأسـه إلى الأرض، بسـمل وحوقـل، وسـأل عـن معـاني بعـض الكلمـات، والشـيخ يشـرح بصـبر، والملـك يهـز رأسه مستوعبا ما يقال، فإذا انتهى دعى اليوزباشى للجلوس أمامه.

أبلـغ اليوزباشـى الملـك تحيـات الخـديوى المعظـم، ثـم قـدم غـدارة ملكيـة مشـغولة بالـذهب، وبندقيـة صـيد، وعشـرة أثـواب مـن الحريـر لحريمـه، وصـندوقا مـن الخـرز الملـون، وصـندوقا يحـوي سـاعة حـائط ضـخمة يبلـغ ارتفاعهـا قامـة إنسـان، قـال اليوزباشـى إنهـا آلـة لقيـاس

الـزمن، تفـرق بـين سـاعات الليـل والنهـار، مـا أثـار اسـتغراب ملـك الجـان وتعجبه.

تركـت هـدايا الخـديوى أثـرا مبهجـا، وبـدا الملـك سـعيدا، فعـاد يتنسـم أخبـار الخـديوى، وإذا كـان لديـه أبنـاء ذكـور، فأجابـه اليوزباشـى أن لديـه ولـدين، تعجـب الملـك، فكيـف يـترك وراثـة عرشـه لغـدر الأقـدار، طلـب مـن اليوزباشـى أن يحدثـه عـن الأهرامـات، وإذا مـا كـانـت مـن صـنع الجـان، وإلى أى مـدى يبلـغ ثقلـها، وهـل حقـا أن الملـك سـليمان أمـر أتباعـه مـن الجـان بنقلـها إلى بيـت المقـدس، ليقـدمها إلى بلقـيس ملكـة سـبأ، مهـرا لنكـاحهـا، اسـتفاض اليوزباشـى فـى الحـديث، وأوفـى مـن الحقـائق، وأخـبره أن الأهرامـات أعجوبـة الـدنيا، مـن الضـخامة والثقـل مـا لا يقـدر علـى نقلـها كـائن مـا كـان، وأن الـذي بناهـا جـنس قـديم قـدم الزمـان، هـم أجـداد المصـريين الأوائـل، جـاؤوا مـن منـابع النيـل، أى مـن مملكـة أوغندا، وما حولها، وهو ما أدهش الملك، وأثار استغرابه.

وأضـاف: "إن علمـاء المصريات المحـدثين، يرجحـون أن أصـل كلمـة "أفريقيـا" مسـتمد مـن الكلمـة المصـرية *أفـروي كـا*، {Afru- إي- كـا} أى الـرحم وأرض المـيلاد [18]. لهـذا سـيدي الملـك، نحـن المصـريين نعتـبر أنفسـنا إننـا هنـا بـين أهلنـا، وفـى مسـقط رأس أجـدادنا المصـريين الأوائل".

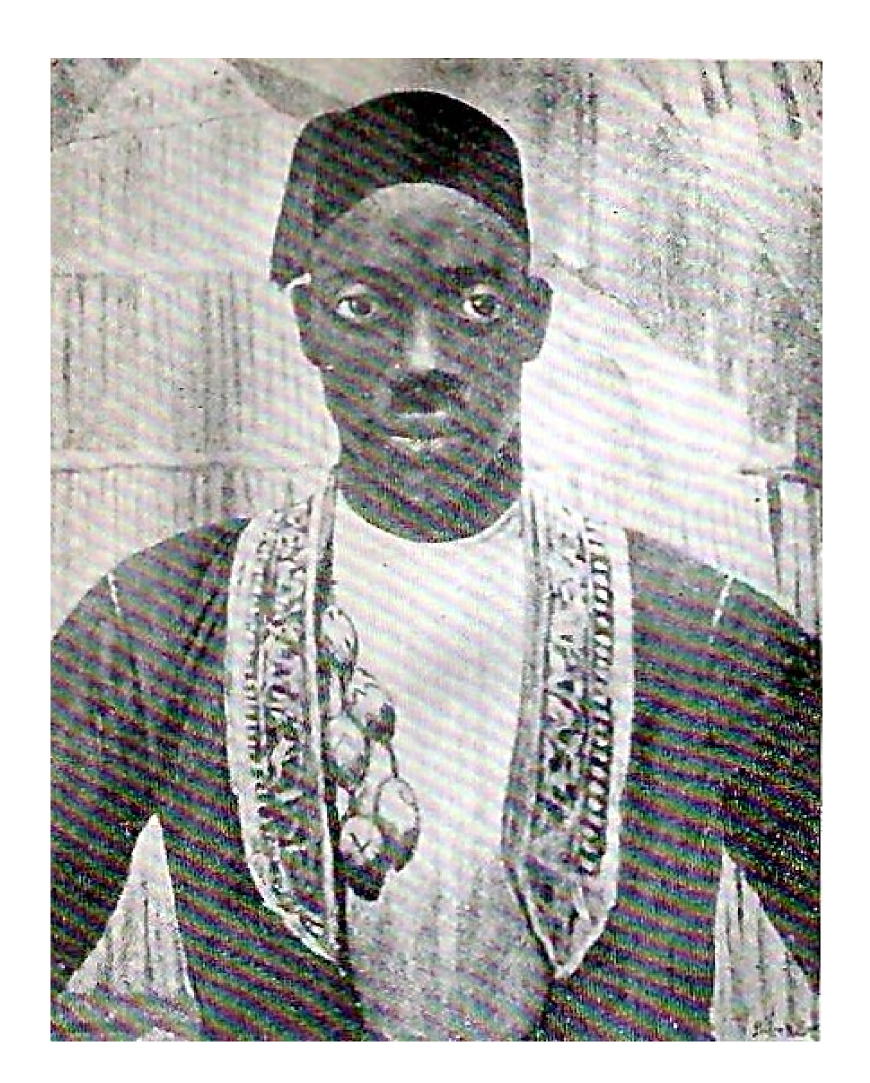
بهت الملك وجميع الحاضرين، وقال لليوزباشى:

- "أفضت وأحسنت القول، وإن من الكلام لسحر وبيان".

ثـم باغتـه بسـؤال إذا مـا كـان لـدى الخـديوى بنـات، فأجابـه بـنعم، فكر قليلا ثم قـال: "إنـه ينـوى إرسـال رسـل، يعـرض الـزواج علـى ملكـة إنجلترا، ولكن ربما يفكر فى تغيير رأيه".

---

18) جيرالد ماسى: تكوين النيل



موتسيا ملك يوجندا[19]

19) رسم لمسز استانلى نقلا عن صورة التقطها للملك موتسيا ستانلي

دقت الساعة، فانزعج الملك، وانتشر الذعر في البلاط، فقام اليوزباشي بشرح المستور من طبيعة الساعات، وحركة بندولها العجيب، والعلاقة بين دقاتها والوقت، فلما انتهى كان الملك قد نسى موضوع الزواج، فدعى ضيوفه للطعام.

غسل الملك وحاشيته أيديهم، وتطهروا بالمياه، فكان لديهم تقاليد للنظافة تستدعى الإعجاب، مضت الأمور على ما يرام، حتى باغت الملك اليوزباشى بسؤال عما يفعله فى أعالى النيل، وطبيعة مهمته، وأضاف أن الوزير أخبره، أنك لست ضابطا عاديا فى جيش مولانا الخديوى، فأنت تقوم بتقليب مياه النهر، وسبر غوره، وتبحث عن الأرواح النائمة وتوقظها، وتطلب كنوزا يحرسها الجان فى قاع النيل، وأنك أيقظت الأرواح النائمة فى بحيرة "لوتانزيغا"، فثارت عليك، وقتلت عساكرك.

أجاب اليوزباشى أنه جاء فى مهمة، كلفته بها هيئة أركان الجيش المصرى، وهي خاصة بالنيل العظيم، والذي لا يفوقه نهر من أنهار الدنيا المعروفة أو المستورة، ذلك يا سيدى الملك العظيم أن النيل يأتى مصر على أحوال مختلفة، حينا يكون مسالما، وحينا يكون شرسا هائجا، يُدمر القرى والجسور، وينشر الموت فى الكفور، وحينا بخيلا شحيحا فتندر المياه، وتنتشر المجاعات والطواعين، ويسود القحط والموت، لهذا تهتم الحكومة المصرية بمعرفة أحواله، ودراسة تقلباته، لتخفيف النتائج التى تعقب الأحوال الصعبة، واتخاذ الحيطة اللازمة لدرء المهالك عند المخاطر.

فكر الملك وقد انطوى على دهشة، ثم رفع رأسه وقال إنه سيلقى فى النهر بمائة بقرة، ومائة شاة، حتى ترضى روح النيل الغاضبة، كى يذهب إلى أراضى مولانا الخديوى المعظم راضيا مرضيا.

* * * *

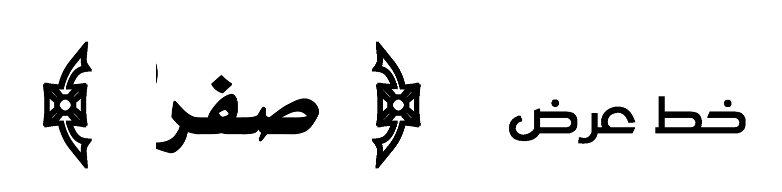
حـان وقـت مغـادرة الـبلاط الملكـى، تمنـى اليوزباشـى علـى الملـك طـول العمـر ودوام الصـحة، وطلـب الاسـتئذان بالرحيـل، وقبـل أن يسـتدير راحـلا، نـاداه الملـك: "حضـرة اليوزباشـى، غمرنـا الخـديوى بكرمـه"، ثـم نظـر إلى الصـبايا الأبكَـارَ الجالسـات حولـه، وقـال لـه: "تخير بعضهن".

- "ماذا تقولون جلالتكم؟"
- "هل أنت متزوج؟"
- لا؟

أشـار الملـك لصـبية بكـر مـن إمائـه فقامـت تهـرول ناحيـة الضـابط، التقـت عيناهمـا لبرهـة مثـل بـرق يضـئ سمـاء مظلمـة، انحنـى اليوزباشى يشكر الملك على كرمه، وعاد بظهره خارجا.

غـادر الضـباط الـبلاط الملكـى، يحملـون هـدايا الملـك؛ ماشـية، ومـاعزا، وطيـورا ملونـة، وفئرانـا مجنحـة (أرسـلها خصيصـا لحكمـدار المديريـة، لمعرفتـه بولعـه بالغرائـب مـن الكـائنـات)، وجاريـة تهـرول وراء الراحلين.

* * * *



خط عرض
صفر

وما وراء ذلك
سلطان إلا الجنة..

فإن مصرانيم لما بلغ منابع النيل وجد قبة من الذهب، فإذا النيل ينحدر من جوف تلك القبة، فلما أراد أن يمضي إلى ما وراءها، أتاه ملك وقال قف يا مصرانيم فقد انتهي إليك علم النيل وما وراء ذلك إلا الجنة...

فوقف مذهولا، يري الفلك الذي يدور بالشمس، والقمر، والنجوم يشبه الرحا... ركبه ودار الدنيا كلها... وقيل إنه لم يركبه، وقيل إن الملك أحضر له عنقودا من عنب الجنة، وقال "كل فهذا حصرم الجنة"، فلما أكل ظل عشرين عاما لا يأكل، حتى مات....

﴿ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى

ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾

فـي ضـباب الفجـر تكـوم شـبحا فـاحم السـواد، (مغمـورا بعتمـة الليـل)، بجـوار جـدران الثكنـة، انـتفض مـن رقـاده لحظـة مغـادرة البعثـة، وانسـل خلـف الجنـود حتـى بلـغ المرفـأ، وقـف فـي حـيرة، يـرى السـفينة (الرجـاف) تسـتعد للإبحـار، تسـلل إلى جوفهـا فـي غفلـة مـن النوتيـة، وتكـوم فـي باطنهـا، لا يـدري أي مصـير ينتظـره مـع رجـال يعـافون النساء.

قـادت الريـاح السـفينة إلى عبـاب البحيرة، متفاديـة خلجانـا صـخرية، عـبر خلـيج ميرشيسـون[20]، وأبحـرت في عـالم المـاء الرحـب، تمـده سـيول تنحـدر مـن جبـل الجـون، يهـدر ماؤهـا علـى ضـفاف البحيرة العظمى.

اليوم يبلغ كتاب النيل صفحته الأخيرة.

يـا الله يـا صـاحب الملـك العظـيم، مديريـة خـط الاسـتواء التـي اقتطعـت مـن فردوسـك السـماوي، مـن هنـا نبعـت حيـوات المصـريين الأوائـل، مـن هنـا نبتـت حيـاة الأجـداد، وأينعـت جـذورهم فـي عـالم القـدم، هنـا كتـب النيـل الخالـد الحـروف الأولى لحيـاتهم، وهنـا تتجـدد كـل عـام.

20) خليج ميرشيسون: Murchison Bay

علـى جـزرا نحسـر عنهـا طوفانــه، وقــف الرسـل، يعلنــون بــزوغ الحيــاة من العماء، مــن الخـراب والفوضــى، مــن رمــاد المــوت، عنقــاء تنــبلج مــن حافــة الأفــق الشــرقى، حاملــة شمســا جديــدة، تصــعد مــن خريــر المــاء، وتلاطــم الأمواج، إلى كبد السماء، تعلن عن يوم جديد.

الكـــل مـــأخوذ بجمـــال يجـــاوز الكمـــال، يحملــهم طــير أبــيس المقــدس علــى أجنحتــه، حــاملا علــى رأســه المكــرس بالحكمــة، قــرص الشــمس الــذهبى، يســبقه بعاقــه[21]، نافخــا فى الصُورْ مبشرا، بأن الخالق خلق خلقه.

داخل متون الحكمة القديمة يجثم طائر أبيس المقدس فوق شجرة السدر المباركة، مطلقا صيحته الكبرى "أيها المصريون من قلب الفوضى والخراب، تبعثون من جديد، خالدين خلود الدهر . . .

تحلــق الملائكــة علــى هيئــة أســراب مــن طيــور، يتقــدمهم طــائر أبــو منجــل ســيد المنــاقع والبطـــاح، أمـــير الأراضـــي المفتوحـــة، محـــارب السافانا والغابات الاستوائية العنيد، بنظر الدينونة بشموخ.

يخترق الفضــاء طــائر البلشــون، رشــيقا مثــل ســهم، يتبعــه أبــو ملعقــة صــاحب المنقــار العــريض، صــائد الســمك، وأســراب الكركــى، ســيد الــبحيرة الأعظــم، يســتطلع العــالم قبــل أن يعطــى أتباعه قرارا مــن صــوته القــوى، لتبــدأ فــى التحليــق، ترتفــع ولا تتوقــف عــن الصــعود، تخــبر الســماء عن أحوال الأرض والبشر.

قال كعب الأحبار: بين السماء والأرض بحر لطيف لا تبلغه إلا البازات الشهب. على زبد أمواجه تسبح طير رؤوسها كرؤوس الخيل . . وذوائبها سلطان كذوائب النساء . . أجنحتها طول السماء . . وملائكة نصف أبدانهم من ثلج . . سلطان ونصفها من نار . . كتب على أطرافها أربعة انهار؛ النيل وسيحان وجيحان والفرات . .

فـــى ظـــلال الشـــمس، حلقـــت ملائكـــة الريــاح بالســفينة فــوق بحــر البــداءة، ترتفــع دون أن تتوقــف، حتــى تخــدش قلاعهــا ســفوح الســماء، علــى المقدمــة تمــدد اليوزباشــى علــى ســرير مــن الحبــال، مختليــا بنفســه، يقــرأ بريــد "روباجــا"، يحمــل دعــوة الضــباط العــرابين المنتشــرين فــى أنحــاء المديريــة لحضــور حفــل

21) البعاق: الصراخ

زفاف الملازم على شمروخ، وقرار زوجاتهم بعزمهن على السفر، بهم أو بدونهم، لمجاملة صديقتهن سهيلة رفيقة المنفى، فى حفل زواج ابن عمها.

تضمنت الخطابات الإشادة بالفتوحات التى حققها الصاغ الأسطورة حواش منتصر، وقدرته على بلوغ النصر فى المعارك، وصناعة التحالفات، مهما ساءت الظروف المحيطة، قال بعضهم إنه لو قدر لهم الحياة فسوف يطالبون، تدريس شخصية ومعارك القائد، الذي رفع العلم المصرى على شمال هضبة الكونغو فى مدرسة أركان الحرب.

وقال الفولى فى خطابه لزملائه، إن رؤساء القبائل المتحالفة طالبوا الصاغ بإيعاز من الدناقلة، أن يتفضل عليهم طبقا لأصول الشريعة المحمدية، بتوزيع نساء الملك مامبا نجا المائة، وأبنائه، وبناته، غنائم حرب على المحاربين، أو بيعهم فى أسواق مشرع الرق بمديرية بحر الغزال، وقد رفض الصاغ، وقال: "إن الله خلق أبناءه على صورته، وهي أحسن صورة، فكيف يُذل أو يُقهر من هو على صورة الله عز وجل، إن خطف البشر من بلادهم جريمة يحاسب عليها الأمر السامى، فاعلموا أن عهد الرقيق فى الأراضى التابعة للحكومة المصرية انتهى، بأمر من مولانا جناب الخديوى المعظم، وأننى سأضرب بيد من حديد على كل من تسول له نفسه المتاجرة فى البشر".

تضمنت الخطابات حكايات وشائعات تبعث على البهجة، وقيام نساء الضباط المنفيين الست بحياكة ثوب للعروس الأفريقية المجهولة لديهم، العزيزة على قلب أصغر ضباط الحملة، ما جعل البعض يؤكد أن الملازم على شمروخ سيتزوج بست من بنات الشيخ مبورو، وأن أصدقاء العريس من الضباط العرابيين يعلمون حقيقة الأمر و يخفونه.

وذكـر فـوزي أن هـذه الشـائعة تلاقـى هـوى الشـيخ عمـر الشـلح، وربمـا يكـون مصـدرها، وهـو الـذي أقسـم أن الأمـيرة المبوريـة عاشـرت الضـابط المصـرى، علـى أربـع إنـاث مـن جـنس الجـن، لم تكشـف إحـداهن عـن طبيعتهـا فـى عـالم الظـاهر، وهـن يقمـن تحـت الأرض، ويتقمصـن فوقها صورة اللبؤات، اللائى يتبعن ابنة الشيخ مبورو كظلها.

بريـد فـويرا التـى حـرمتهم مـن بهجـة زواج إبـراهيم حلـيم بابنـة قاضـى دوفـلاى، وداهمـتهم بالحـب الـذي عصـف بـأ نجي الشـفيفة وعبـد الواحـد مقلـد، فغادرهـا علـى وهـم بوعـد مـن الأم بمفاتحـة الأب، وانتظـار إجابـة هـي الـرفض المؤكـد، حمـل خطـاب إلى المـلازم عبـد الواحـد مقلـد أضـجَت مضـجعه، وأسـلمته للانطـواء، ليرحـل بقلبـه ا فـى سمـاء الوحـدة، وهـو يقـرأ كلماتهـا التـى ترشـح مرضـا عضـالا، وسـقما ملعونـا يسـمى الحب.

حضـرة المـلازم المحتـرم/ عبـد الواحـد أفندى مقلد

تحيـاتى وسـلامى أرسـلها كـى تبلغونهـا لأصـدقائى مـن ضـباط مصـر الثـوار والبواسـل، حملـة لـواء الوطنيـة المصـرية، وأشـواقي الخاصة أرسـلها إلـيكم مـن قلـب مـدمى، وعلـة القلب لا شفاء منها إلا بالموت.

... اليوم الذي اعترضت فيه حياتى، هو اليوم الذي عرفت فيه السعادة، وتجرعت الألم، ومن يومها لم تعد عينىّ ترى سواك، أتقلب فى اليوم مئات المرات بين الخريف والربيع، والهجير والصقيع، وأنا لا أعرف إلى أين سيأخذنى هواك؟ إلى الفرح أم الحزن؟

هل كان هذا خطأى؟ أرجوك قل لى.

أرى وجهك الساخر، الذي اجتمع فيه البراءة والرجولة، فعشقته بجنون، أسمع نبرة صوتك المتهكمة التى تمزقنى حلاوتها تقول:

"وكيف لى أن أعرف!"

ولكن كيف لى أنا أيضا أن أعرف؟ وليس لدى سوى حلم ينادينى صوتك الرخيم، ويهمس:

أنا أنجي حبيبتك الوحيدة، أنا شغفك الذي تُيمت به.

أسمعك تقول لأصدقائك: أنجي تعيش سرابا... سامحنى على تخيلاتى، فأنا أصحو ولا أعرف إن كنت غفوت، أعرف فقط أننى كنت أبكى.

لماذا أبكى، الشوق يؤلم قلبى، لقد فطنت بعد أن ذهبت السكرة، وأفقت من الغفلة، أن الحب "يا حبيبى" ليس سوى جرح.

حضرة الضابط عبد الواحد أفندى المحترم.

طول حياتى كنت أشعر أن الحب الحقيقى لا يمكن أن يوجد، لكن الرب المحب، الذي يدعو البشرية للمحبة، وضعك أمامى كى يذيقنى حلاوة النعيم، ومرارة الجحيم... كى تصبح أنت سيدا،

وأصبح أنا أمتك المجنونة بك، تتجاهل ما هو صواب، وتندفع كالفراشة نحو النار، وكلها شوق أن تحرقها الخطية...

أرجوك قل لى إنك تفهمنى، قل لى إنك تشعر الشيء نفسه، قل لى إن الرب هيأ لنا أن نكون معا، قل لى أننى حبك الذي رسمته فى أحلامك.

أعلم أن الحياة لا تعرف الرحمة، أعلم أنها قاسية بطريقة يصعب فهمها، ليس لى سوى أن اختار بين ملجأين؛ الأول أنتظر حبيبى يقول لى بلا تفكير، بلا اعتبار، بلا حسبان، أنا بانتظارك، تعالى نهرب إلى برارى وغابات الله الواسعة، نعيش بين الضوارى، وستحمينا السيدة العذراء؛ الأم الرحيمة والدة الرب.

والثانى اللجوء إلى الخلاص فى

كنفهـــا الوالـــدة أم الإلـــه، الطـــاهرة الرحيمـــة صـــاحبة العطـــف، التـــى أدعوهـا كـل وقـت أن تنجينـى مـن الخطية.

يــا والــدة الإلــه، وحاملــة عنقــود الحيـاة، أسـألك أيتهـا الممتلئـة نعمـة من أجل خلاص نفسي.

أيتهـــا القديســـة مـــريم الممتلئـــة مجــداً، افتحــي لــى بــاب الرحمــة، (العــذراء كــل حــين)، اصــعدي صلواتى إلى ابنـك الحبيـب، ليغفـر لـى خطاياى بشفاعتك...

نعظمك يا أم النور، فأنـا بـك أتوسـل إلــى الــذي ولــد منــك، هيئــي لــي أســباب التوبــة، اســبلي ظلــك علــي عبــدتك المســكينة أنجيــل، امســحى عنــى الخطيــة، فقــد عزمــت الســير على طريقـك، فأصـير مثلـك بـلا زواج، وأرحــل إليــك حيــث الســماوات

تطوبك أيتها العروس بلا زواج.

حضـرة الضـابط المحتـرم: سـلمت نفسـي للقديسـة مـريم والـدة الإلـه، الآن أشعر أننى أتخلص من خوفى.

أمتك المتيمة فى حبك

أنجيل بنت المعلم روفائيل صبرة

* * * *

خاتمـــة

اليــــوم كتـــب
كتــاب النيــل فصــوله
الأخـيرة، هــا هــي الريــاح
الــدوارة؛ ريــاح الجنــوب
والشــمال والصــبا والــدبور، تصــعد
بنا إلى الحد الفاصل بين السماء والأرض....

صعدنا الرحا الدوارة
ورأينا الفلك تدور فى السما
ولم نلتق سيدى الخضر

لـيس ثمـة طبقـات سـبع، ولا بسـيط ولا ثقيـل، ولا بطـيم، ولا سـكان يـدعون الطمـس، لم نـر أناسـا قـط طعـامهم مـن لحـومهم، وشـرابهم مـن دمـائهم، ولا أممـا لهـم خطـوم تشـبه أفـواه الكـلاب، وعلـى أجسـادهم صـوف الغـنم، لم نـر أممـا يقـال لهـم "الحلـهام" لـيس لهـم أعـين ولا أقـدام، ولا أممـا تـدعى "الخـش"، أنيـابهم كأنيـاب الجمـال، وأذنـابهم حيـات كالنخل الطوال....

رأينـا أجـدادنا مـن البشـر القـديم، يحلقـون بـالفطرة في المـاء المقـدس تصـديقا لقولـه تعـالى فـى كتابـه العزيـز: "وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ"[22].

22) سورة الأنبياء: 30

- 40 -

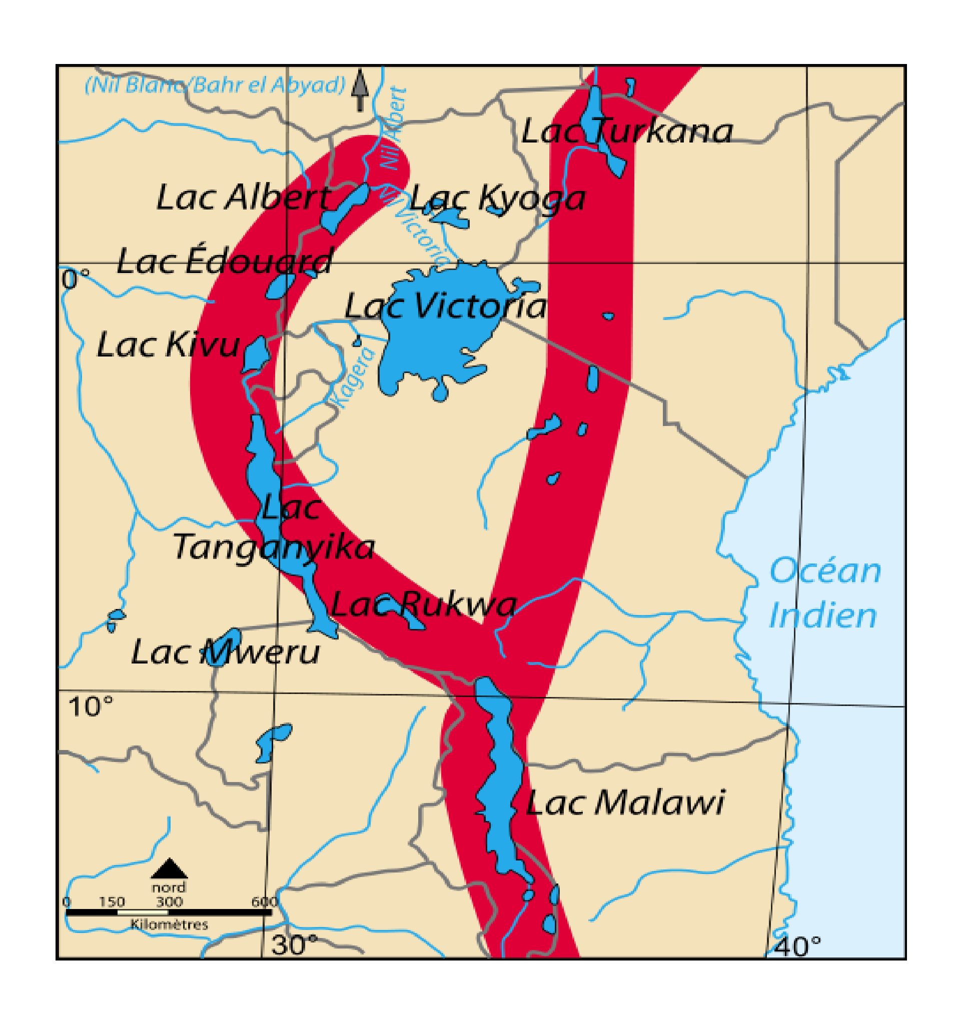
وهذه أسطورة من رحم الطبيعة

منذ آلاف السنين أوقد الفخارى الأول نيران كيره، ووضع أفريقيا على رحاه الدوارة، نحت بازميله أخدودين، يمتدان مئات الأميال، أحاطا بالقلب، ونفخ فى جوف الأرض، من روحه الأزلية لهبا وبراكين، رفعت بجلاميد عظيمة على الجانبين، وضع إبهاميه الإلهين على حافتى الأخدود الذي شقه لتوه، ودفع بهما إلى الخارج لتصعد فى الشرق جبال كلِيمنجارُو والجون، وفى الغرب جبال تطال قممها القمر[23].

مسح الفخارى الأول بإبهامه القلب، صانعا هضبة منبسطة من مدرجين، الأول على ارتفاع ستمائة متر، والثانى على ارتفاع ألف ومائتى متر، وقبل أن ينام طلبا للراحة، نحت فى الهضبة السفلى، بظفره المخصب بالطمى المقدس، جرة ضخمة جاعلا فوهتها إلى الشمال.

---

23) جبال القمر: جبال روينزورى



الفالق الأفريقى الأعظم

سلطان

خسف الهضبة العليا برسغه العريض القوى، فجعلها على هيئة قدر هائلة، وبإبهامه دفع قاع القدر إلى أسفل، وبعد أن سعد بما صنعت يداه، غفا يوما، ويوم الآلهة بألوف من أيام البشر.

على طاولته الذهبية، فكر الفخارى الأول؛ حان الوقت كى يُعطى للبشر أسرار المعرفة الأولى؛ نهر وشمس متعامدان وصيرورة، ووادي من فردوس الرب.

دفع بقدميه رحاه الدوارة، وأطلق عواصف وأعاصير، نادت رياح الجهات الأربع، فجاءت من بحار الدنيا العظمى، تحمل بطون أشرعتها الكونية ماء زلالا، فإذا فاضت القدر الإلهية والجرة العملاقة بماء السماء، تدفقت السيول فوق ظهر الجَانّ[24] الخرافى، لا يلويها شيء عن وجهتها نحو الشمال، وعلى ظهرها، ركب الإنسان الأول وامرأته، ليصنعا جنة أرضية أو ليشقيا فى الجحيم.

فى يومه السابع، داهمته الوحدة، غفا فى سنة من نوم، غافلا عن رحاه الدوارة والآلهة لا يغفلون، وهناك فى الوادى الخصيب، شيد الإنسان أهرامات ثلاثة، ومسلات تعكس قممها الذهبية أشعة الشمس، تقدم آيات الحمد والعرفان بالخلود السماوى للذى لا ينام.

* * * *

24) الجَانُّ ضَرْبٌ من الحيَّات، أكحلُ العينين يَضرب إِلى الصُّفرة، لا يُؤذي .وفي التنزيل العزيز: النمل آية 10 "فلمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً" وفي الحديث الشريف: إِنَّ فيها جِنَّاناً كثيراً. المعجم الوسيط

﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى
عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾

اليـوم كتـب كتـاب النيـل فصـوله الأخـيرة ، اليـوم اتصـل البحـر بـالأفق، والتحمـت شـجرة الأرض بالسـماء، وحلقـت بجعاتـك فـى فضـاء الأزلية.

هنا جنة المأوى...

لـيس هنـاك مـن مرجانـة وزيـرة الزمـان، ولا الملكـة منيـة النفـوس، ولا الملـك سـيف ذى يـزن يقطـع بسـيفه الجنـوب والضـلوع، ويقطف الكفوف والرؤوس، من الأعناق كأوراق الشجر.

لم تكـن هنـاك الكاهنـة زعزوعـة، ولا سـيدي الخضـر أبـو العبـاس، الـذي أرسـل سـتين ألفـا مـن العسـكر لإنقـاذ سـيف ذى يـزن مـن الهزيمـة، وأن يصـبح أسـيرا، وعبـدا ذلـيلا فـى الجزيـرة السـابعة لمدينة البنات(25).

25)) سـيرة الملـك سـيف ذى يـزن المجلـد الثـانى صـفحة {570 ـ 602}ـ الناشـر الهيئـة العامـة لقصور الثقافة

﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (16) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (17) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ (18)

هنا جنة المأوى التى أبدعها الله سبحانه، حوريات ناعمة كالحرير، تتريض فوق البحيرة، قبل أن تتحول إلى بلاشين، تتلألأ بلون البرتقال، جنيات فاحمة ترقص بقلوب بيضاء، خطاف يبلل صدره الأغبر بمياه البحيرة، فيختفى طائر ويبزغ جنى، عفريت أسود يغطس فى الماء، ويخرج على هيئة طائر اللقلق، وفى منقاره حوريات البحيرة، هنا (فى البطاح والمناقع) يقف جنى عابد محنى الجذع، منعطف العنق، ينشر بشموخ جناحيه الواسعين الضاربين إلى الزرقة، على هيئة كرك ، يتحول رأسه المسحور إلى لون الذهب، ينطلق متثاقلا، يحوم، قبل أن يغيب فى السماوات العلا.

ينهض من فوق الماء ملك، يتقدم رافعا رأسه، يصفق بجناحيه المدمجين بالصفرة، ينطلق طائرا يسبح فى فضاء أسطورى، فهذا هو طائر النيل المقدس أيبس[26].

اليوم حلقت أشرعتك على صرة الأرض، تتفرس فى أفق الماء السماوى، ممزقا بين لانهائيات التاريخ والجغرافيا، أين أنت بين الزمن والمدى؟ ترهقك مشاعر الأسى والوحدة، ها هي مهمة هيئة الأركان، شارفت على نهاياتها، بعد رحلة على ظهر النيل المقدس، امتدت آلاف الكيلومترات، وتحت إمرتك ضباطك العرابيين وأطفالهم، ونسائهم

---

26) أيبس: هو الطير الذي يعرف فى بلاد النوبة بأبى خنجر.

الصـــغيرات؛ إيزيـــات[27] بـــالفطرة، تعلقـــن بـــأزواجهن، بمـــا لا يحلـــم بـــه رجل.

* * * *

ليولامبا؛ جنة الله الواقعة على صرة الأرض ومنافيها

تحـــط البعثـــة رحالهـــا علـــى جزيـــرة (ليولامبـــا)[28]؛ الواقعـــة علـــى صـــرة الأرض ومحورهـــا، ومهـــاد اليابســـة ورحاهـــا، تغشـــاها آلاف الحوريـــات، تبعـــث مـــن شـــاطئ العشـــب والمروج جوقة سماوية مـن سـدرة المنتهـى، ترحـب بضـباط وجنـود البعثـة، علـى الشـاطئ تنضـو طيـور ملونـة أثوابهـا المصـنوعة مـن ريـش السـحاب، وزغـب الضـباب، تبـزغ حوريـات سـوداء، يخـتلط بعاقهـا بخرير الغدائر، ونسيمها.

هنـا فـى الجزيـرة الواقعـة علـى سمـت خـط الاسـتواء، التـى لم يطأهـا إنسِـيٌ، ألقـت البجعـة مراسـيها، وحطـت البعثـة في أوكارهـا، ونصـب العسكر خيامهم.

تـوارى الملازم عبـد الواحـد مقلـد حزينـا، بـالأمس طـرق الكـوخ الـذي يقـيم فيـه السـيد روفائيـل، والشـيخ عبـد الفضـيل الأشمـونى، وطلـب منه الموافقة علـى زواجـه مـن ابنتـه أنجـي، أصـيب الرجـل بصـدمة، جعلتـه يسـأل الضـابط الشـاب أن يـدخل لتنـاول طعـام العشـاء، وهـو يشـعر أن الفـردوس السـماوى الـذي يقـف هـؤلاء الشـباب علـى حافتـه، يحيلـهم إلى الجنون، والإتيان بتصرفات لا يأتى بها عاقل.

فـى البـدء حـاول التـاجر القبطـى أن يتأكـد مـن أنـه فهـم مطلـب الضـابط الشـاب، فاستفسـر منـه إذا كـان يقصـد التـدخل لـدى الشـيخ

---

27) إيزيات: نسبة إلى إيزيس الآلهة المصرية القديمة.

28) جزيرة ليولامبا: Lulamba

الأشمـونى مـن أجـل قبـول زواج إبـراهيم أفنـدى بابنتـه، فلمـا أكـد لـه مقلـد أن مقصـده الاقـتران بابنتـه أ نجـي، وقـف التـاجر القبطـى حـائرا، ينظر إلى صديقه الشيخ لا يصدق ما يسمعه.

- مستحيل يا أبني.

- حضرتك وافق، وأنا مش ح خليها تسيب دينها.

- يعنى إيه مش ح تسيب دينها؟

- يعنى أنا ح أفضل فى ديـن الإسـلام، وهـي تفضـل علـى ديـن سـيدنا المسيح.

- "يـا سـلام، وأنـا بقـي اسـتفدت إيـه يـا فرحتـى، لا يـا عبـد الواحـد أفنـدى مـش ح ينفـع، وبعـدين يـا بنـى هـو إيـه اللـى حصـل لكـم، أنـتم أجننتم ولا إيه؟

سأله صديقه إبراهيم حليم: يعنى قال لا.

- أمال ح يقول أيوه موافق. خش خدها من الزريبة اللى جوه.

- أديك عملت اللى عليك.

- لا ... أنا ح أقدم استقالتى من الجيش وأتجوزها.

نظر اليوزباشى له مليا فأضاف:

- متخافش حضرتك، بعد ما ننتهي من مهمة البعثة.

قال حليم: "إيه يعنى، ح تتجوزها غصب عن أبوها!"

اكتفى عبد الواحد بالصمت، قال اليوزباشى:

- "الصبر، بكره يحلها الحلال، يلا يا افنديه على طابور العلم".

- فيه خبر تانى.

- خير يا عبد الواحد افندى مش مكفيك أخبار؟

- النهاردة وصل بريد لادو يحمل أنباء سيئة.

- وهو فيه أسوأ من كده؟

- الخرطوم جارى حصارها من قوات المهدية.

- بتقول أيه؟

ـ تلاثين ألف مقاتل تحت قيادة الشيخ عبيد، بدأوا حصار المدينة، العباس بن العبيد عبر النيل الأزرق، وحاصرها من الجريف، والشيخ عبد القادر ولد أم مريوم حاصرها من (الكلاكلة)، ويقال إن قوات من الجيش المصرى بدأت تنضم إلى المهدية.

* * * *

الحصار إذن.

دار جدال بين الضباط، بدا بجلاء أن وضع الجيش المصرى فى خط الاستواء بات معرضا للخطر، وطوال العام التالى ساد الارتباك والحيرة، لدى ضباط مديرية خط الاستواء؛ راودتهم أفكار كثيرة، وبدا منطقيا أن يتم التحالف بين الثورتين المهدية، وأنصار الثورة العرابية في خط الاستواء، لكن اتساع الفجوة الحضارية، وصعوبة الانسجام مع عقيدة المهدى الأصولية المغرقة فى بدائيتها، وعقيدة الضباط العرابيين التى تنتمي لدولة دستورية مدنية حديثة، عرقل حدوثه.

وطوال الحرب التى دارت لأعوام في الاستوائية بين قوات الأنصار التابعة للحركة المهدية، والتى تمكنت من الاستيلاء على شمال ووسط السودان، وإحكام الحصار، وبين الجيش المصرى الذي تخلت عنه حكومة نوبار باشا رسميا، لم يرد للحظة واحدة لدى القوات المصرية (مصريون، وسودانيون؛ عرب وأفارقة) مبدأ الاستسلام، وهو أمر يدعو للدهشة.

* * * *

يقـول الشـيخ أبـو المكـارم، رواى روايـة الأمصـار، وموصـل الليل بالنهار:

اليـوم كتـب كتـاب النيـل صـفحاته الأخـيرة، لم يكـن هنـاك الشـيخ أبـو النـور الزيتـونى ولا المـارد الجنـى خيرقـان، ولا جـزر الوقـواق السـبع، لم يكـن هنـاك بحـر عجـاج، ولا جـزر نحاس، ولا شـجر عـالى علـى قـدر البصـر، أوراقهـا تحـير النظـر، أثمارها بنـات أبكـار علـى هيئـة البشـر، معلقـات مـن شـعورهن كـالثمر، تطـوحهن الريـاح ذات الـيمين واليسـار، وهـن كمـا قال الجنى خيرقان للملك سيف ذى اليزن؛

ألـذ مـن نسـاء بنـى آدم، لكـونهن فاكهـة أباحهـا الله لخلقـه، مـنهم مـن يأكلـها أكـل الفاكهـة، ومـنهم مـن يطبخهـا، ومـنهم مـن يملحهـا كـى يتناولهـا فـى غـير أوانهـا، وهـن يصـلحن للجمـاع، ولـديهن مـن أسـاليب النكـاح، مـا يخلـب المهجـة والفـؤاد، ويـذهب العقـل والخـاطر، فهـن يفـوقن قـدرة الإنسيات، ومـا علـى الرجـل مـن ذلـك فحـش أو عصـيان، لأنهـن بمنزلـة الرقيـق المملـوك للملـوك والمـؤمنين العابـدين من عباد الله الصالحين.

﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾

على شاطئ اقتطع من جنة المأوى، اصطفت فصيلتا المساحة فى ملابس التشريفة، تتطلع إلى البيرق المصرى، يرفرف فوق شجرة السدر المباركة، ويصل بين خط الاستواء وصفحة السماء، سيذكر الضباط العرابيون تلك اللحظات، وهم يقاتلون معركة الرجاف، التى حاصر الدراويش خلالها البلوك الأول، وأسر نساء وأطفال القوات المصرية وباعهم رقيقا فى "مشرع الرق".

سيذكرون تلك اللحظات التى وقفوا يحيون العلم المصرى على خط الاستواء، وهم مشدودون إليه بقوة قاهرة، وقد أخذت تتشكل ملامح لجمهورية تمتد على الأراضى التى يظللها علم الخديوية، من المنابع وحتى المصب.

ستتوه من الذاكرة وتتلاشى؛ تلك اللحظة المقتطعة من الوجود المصرى الحديث؛ خليط من الكرامة والفخر، والخوف والوحدة، وقد عين حقيقة كينونتهم، هذا العلم الذي يخفق عاليا فى السماء.

- سرية.... انتباه.

دق الجنود بكعوبهم أرض المعسكر، فاهتزت الأرض، شق صوت اليوزباشى ثانية السماء:

- سرية... صفا...

- سرية... انتباه...

- كتفا!!!!!!... سلاح...

- جنبا سلاح....

تحت المطر المنهمر، امتشق الملازم إبراهيم حليم سيفه ووضعه باستقامة ملامسا أنفه، تقدم خطوتين إلى الأمام، نادى على طابور الشرف لتحية العلم.

- كتفااااااا... سلاح.
- جنبا سلاح....

ضرب الجنود أكتافهم بدبشك البنادق

- عمر...
- صوب... **يا أخى ى ى**
- اضراااااب **هوهههههههه**

أطلق الجنود النار ثلاث مرات.

نادى قائد البعثة على الجنود بالانصراف، فانطلقوا نحو البحيرة يصرخون: "يا أخى هوهههههه.

تخلصوا من ملابسهم، ولوحوا بها في الفضاء، واندفعوا إلى بحيرة السماء، يخوضون في زبدها، ويسبحون فى الماء الذي خلق الله منه الخليقة.

* * * *

الأسى والوحدة

هو الحصار إذن، يعبر ذاكرتك وجه خالك البك، يأخذك من سجن القلعة إلى ثكنات القناطر، لتشهد عودة الجيش من الاستيداع، كى يتم التخلص منه نهائيا فى مذابح السودان، آلاف الجنود سيحصدون كالغلة فى بيادر القمح، يدخلون الثكنات فى جلاليبهم الكتانى، لتحصدهم سيوف الدراويش القصيرة، من حصاد إلى حصاد، ومن موت إلى موت، ومن تراب إلى تراب،

إنه الحصار إذن، تعبرك وجوه الرجال والنساء الذين أتيت بهم فى رحلة المنفى إلى الجذور العميقة للنيل.

.. تـذكر وجـه السـيدة حبـاب، زوجـة المـلازم أحمـد سـليمان، وكبرياءهـا المنتمـى للقبائـل العربيـة الشـريفة النسـب، وشمـم طفلـها جعفر الذي سمـى علـى أسـم جـده الأكـبر جعفـر الطيـار ابـن عـم الرسـول، ولا تذكر وجه أمك.

تـذكر وجـه السـيدة أمـيرة، زوجـه المـلازم حسـن سـليمان، صـاحبة البهجـة الإسـكندرانية، المرطبـة بزرقـة البحـر المتوسـط، ورياحـه الشـمالية العذبـة، وابنتهمـا مـريم، سـتقطف رءوسـهم قبائـل اللـورين، وهـم في منـاقع بحـر الـزراف، وترسـل تحـت حصـار الـدراويش فـى سـلال، يلقى بها على أسوار أمادى، ولن تذكر وجها لأمك.

.. سـتذكر وجـه الأخـتين سـنية وصـفية اللتـان حملـت فـراش عرسـيهما علـى ظهـر النيـل، في رحلـة المنفـى مـع الملازمـين محمـود ومصـطفى العجيمـى، وصـوت ضـحكاتهما يجلجـل بالبهجـة، قبـل أن يمـوت محمـود العجيمـى وهـو يطـارد الـدراويش فـى معركـة "ريلـى، ولـن تذكر وجه أمك.

يطـاردك وجهـا أنجـي وخضـرة، الصـبيتان اللتـان ستنضـمان إلى قافلـة "الإيزيـات" مـن نسـاء الحملـة قريبـا؛ وكلتاهمـا تسـافران علـى سـهوب الـبرارى، والبطـاح، والمنـاقع، بـين غابـات البكـارة، وأكمـات الأدغـال، تتبعـان شـبح ضـابطين، حكـم عليهمـا بـالموت علـى ضـفاف بحـيرة الهضـبة الاسـتوائية العظمـى، بينمـا تبحـث لأمـك عـن وجـه فـلا تجده.

فمـن سـيموت أيضـا، مـن سـتناله يـد المنيـة، ومـن سـيباع في مشـرع الـرق، فـى أسـواق النخاسـة، أطفـال فـى عمـر الزهـور، وأطفـال ولـدن لتـوهن، وأطفـال لايزالـون فـى رحـم أمهـاتهم، فهـل تعـرف مصـائرهم بعـد، من يقرأ كتاب الغيب.

.. ستذكر وجه فرانسوا، التى حذرتك، بأن وعد الحب غير قادر على حمايتها من الرغبة فى ممارسة الحب مع الغلمان، تدب فى أذنيك عبارتها "أعذرنى لا أستطيع المقاومة".

تستعيد وجوههن جميعا، ولا تذكر وجه أمك، تكبر بين يدي جدتك المعروقة، فى أحضانها العبقة بعرق السحر والشعوذة، ورائحة الجن والعفاريت، وفى حناياك كهف فارغ لا يمكن ملؤه، تولد يتيما، وتموت وحيدا، بلا أخوة ولا أشقاء، لعنة قدرها لك المكتوب، فانتبه فلن تجد رفيقا فى الحياة.

إنه الحصار بين قضبان الأسى، وزنازين الوحدة.

لماذا مات الأميرلاى محمد عبيد وعاش عرابى؟

لماذا ظهرت الحركة المهدية فى هذه اللحظة من التاريخ؟

لماذا ماتت الجمهورية قبل أن تولد؟

كان باستطاعتنا؛ نحن الضباط من أبناء وأدى النيل؛ مصريين، سودانيين عرب وأفارقة إعلان الجمهورية من خط الاستواء إلى البحر المتوسط، لكنها ماتت قبل أن تولد، مثل ابن ألفت السلحدار وسالم خلاف، لأن أباه لم يكن يؤمن بقدومه... أترى!!

كيف للحلم أن يولد فى رحم المستقبل، إذا لم يجد آباء يؤمنون به؟ تقبل مصيرك؛ الحصار بين الأسى وزنازين الوحدة.

ولو شئت أن تحمى نفسك من الجنون، اذهب إلى خيمتك فقد حلَّ الليل، إلى فراشك البارد، وأحلامك التى ماتت فى مهدها، وأمالك المهدرة، وتلك الصبية السوداء التى لا تستطيع أن تفرق بينها وبين الليل المدلهم، لا يدلك على وجودها سوى تلك العينين اللتين تلمعان بالألق الاستوائي فى دياجير الظلمة.

* * * *

سدرة المنتهى

اليوم بتنا في سدرة المنتهي... لم يكن مسطورا على سطحها أساطير الغيلان، والساحرة الألعوبان، لم نر ملك الجان "ملكان"، ولا ابنته الأميرة "عاقصة" أخت الملك سيف، ولا خراق الشجر، ولا الملك "أفراح" وزوجته "دهشانة"، وابنتهما الأميرة "شامة"، ولا سقرديون حكيم الزمان اللئيم، الذي طلب مهرا للأميرة؛ كتاب النيل الذي يحميه ملك الجان علقم، وهو الذي استعصى على الملكة بلقيس والنبى الملك سليمان الحكيم؟

فسأله الأمير "يا حكيم وما أهمية هذا الكتاب الطلسم".

فقال اللئيم: اعلم يا أمير أن من يملك كتاب النيل، يصير حاكما على مصر والحبشة والسودان، ويصبح في نعليه جميع ملوك الزمان.

* * * *

انتهـــــــت

القاهرة: 14 أكتوبر2007
29 نوفمبر 2013

أهم المراجع التى استند عليها النص الروائى.

مديرية خط الاستواء المصرية

الأمير عمر طوسن تاريخ مديرية خط الاستواء المصرية الجزء الثانى والثالث مطبعة العدل الإسكندرية 1937

د. جميل عبيد. المديرية الاستوائية، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر، القاهرة 1968

النيل:

سليم القبودان – الرحلة الأولى للبحث عن منابع النيل الأبيض - ترجمة محمد مسعود – الناشر مكتبة مدبولى – الطبعة الثانية -1996

وليم جاستن الدليل فى موارد أعالى النيل. مكتبة مدبولى القاهرة 2000.

أمسل لودفج النيل حياة نهر. ترجمة عادل زعيتر – مكتبة الأسرة 1997

آلان مورهيد النيل الأبيض الهيئة المصرية العامة للكتاب 2011

د. رشدى سعيد نهر النيل – الناشر دار الهلال .1993

د. عبد العليم خلاف -كشوف مصر الأفريقية فى عهد الخديوى إسماعيل -الهيئة المصرية العامة للكتاب 1999

كولين ماكيفيدى -أطلس التاريخ الأفريقى -ترجمة مختار السويفى - الهيئة المصرية العامة للكتاب 1987

الثورة العرابية

عبد الرحمن الرافعى-عصر إسماعيل الجزئيين الأول والثانى الناشر: دار المعارف-طبعة رابعة-1987

عبد الرحمن الرافعى-الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزية الناشر: دار المعارف الطبعة الرابعة 1883

جوان كول – الأصول الاجتماعية والثقافية لحركة عرابى فى مصر – ترجمة عنان على الشهاوى – الناشر المجلس الأعلى للثقافة 2001

لورد كرومر-الثورة العرابية – ترجمة عبد العزيز عرابى-الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب 1999

جون مارلو-تاريخ النهب الاستعمارى لمصر -ترجمة د. عبد العظيم رمضان-الناشر الهيئة المصرية العامة للكتاب 1976

جاك كرايس جونيور – كتابة التاريخ فى مصر القرن التاسع عشر- الهيئة المصرية العامة للكتاب 1993

دار الوثائق القومية ببليوجرافيا وثائق الثورة العرابية والوقائع الحربية-الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب 1881

جابرييل بير-دراسات فى التاريخ الاجتماعى لمصر الحديثة-ترجمة عبد الخالق لاشين / عبد الحميد فهمى الجمال – الناشر: الهيئة العمة لقصور الثقافة 2006

محمد بن عمر التونسى – تشحيذ الأذهان بسيرة يلاد العرب والسودان-الناشر: الهيئة العامة للكتاب مكتبة الأسرة-2007

مكي شبيكه – السودان عبر القرون-الناشر: دار الثقافة بيروت

عميد أركان حرب محمد فريد السيد حجاج –مذكرات الزعيم أحمد عرابى -الناشر: دار المعارف -1983
محمد فيصل عبد المنعم-معارك الثورة العرابية -الناشر: مؤسسة دار التعاون للنشر 1977
محمد مورو الثورة العرابية القاهرة 1990
يوزباشى محمد البارودى (بوليس) تاريخ العائلة الخديوية والثورة العرابية. الناشر: دار الهلال 1897
محمود الخفيف – عرابى المفترى عليه-الناشر: الهلال – يونيو 1971
محمود صلاح-محاكمة زعيم – الناشر: مدبولى الصغير 1996

السودان:

عبد الرحمن الرافعى مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال – الناشر: دار المعارف -طبعة رابعة 1883
نعوم شقير – تاريخ السودان – الناشر: دار الجيل بيروت 1881
د. أحمد سيد أحمد -تاريخ مدينة الخرطوم تحت الحكم المصرى – الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب 2000
الشيخ بن عبد الرحمن السعدى – تاريخ السودان –
د. عبد الله عبد الرزاق إبراهيم– د. شوقى الجمل – تاريخ السودان الحديث – الناشر: دار الثقافة للنشر – القاهرة 1997
سلاطين باشا-السيف والنار، الناشر مطبعة البلاغ، 1930
السني بانقا – أضواء على النظام القبلى والإدارة فى السودان الناشر: الخرطوم-المطابع الحكومية
د. صلاح الدين على الشامى-السودان دراسة جغرافية -الناشر: مكتبة المعارف الإسكندرية 1972
الطيب عبد الرحيم الفلانى – الفلاتة فى أفريقيا -الناشر: دار الكتاب الحديث – الكويت 1994
د. محمد إبراهيم أبو سليم –بحوث فى تاريخ السودان-الناشر: دار الجيل – بيروت 1992

المراجع العسكرية:

الجيش المصرى البري والبحرى فى عهد محمد على باشا – الناشر: مطبعة المستقبل الطبعة الثالثة 1935
الأمير طوسن – الجيش المصرى فى الحرب الروسية حرب القرم- الناشر: مكتبة مدبولى – الطبعة الثانية 1996
خالد فهمي-كل رجال الباشا (محمد على وجيشه وبناء مصر الحديثة) ترجمة شريف يونس – الناشر: دار الشروق 2001
وزارة الدفاع – التاريخ العسكرى المصرى عصر محمد على الفترة من {1801 – 1848} الناشر وزارة الدفاع
وزارة الدفاع – التاريخ العسكرى المصرى عصر الخديوى توفيق – الخديوى عباس حلمى الثانى الفترة من {1879-1914} الناشر وزارة الدفاع
د. جاد طه – بريطانيا والجيش المصرى – الناشر: مكتبة سعيد رأفت 1984

د. محمد رفعت عبد العزيز الجيش المصرى وحروب الشام الأولى – الناشر: دار العين 1999

قائمقام عبد الرحمن زكى – ملابس الجيش المصرى فى عهد محمد على-الناشر: المطبعة الأميرية 1949

خلف عبد العظيم سيد المبرى – تاريخ البحرية التجارية المصرية 1854-1879-الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب 2007

الإمبراطورية العثمانية:

محمد فريد بك المحامى- أخبار الدولة العلية، الناشر: دار النفائس، بيروت، 1981

ترجمة د. محمد حرب مذكرات السلطان عبد الحميد -الناشر: دار القلم دمشق – الطبعة الثانية 1991

أفريقيا:

ملفل هيروسوكوفتش – العنصر الإنساني فى التطور الأفريقى- ترجمة جمال محمد احمد – الناشر الهيئة المصرية العامة للكتاب 1984

مسعود الخوند -الموسوعة التاريخية الجغرافية – الجزء الثامن

محمد مروان مراد حيوانات المروج والغابات

ميثولوجيا:

حسان نعمة -ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة – الناشر: دار الفكر اللبنانى بيروت 1994

أدب وأساطير:

سيرة الملك سيف بن ذى يزن-الناشر الهيئة العامة لقصور الثقافة 1999

فتحى امبابى رواية نهر السماء – الناشر دار النهر 1887

الصور والخرائط:

أغلبها منقول عن شبكة العنكبوتية

كتب للمؤلف:

الأعمال الروائية

العرس	رواية	طبعة ماستر الناشر دار ميرت	1980 طبعة أولى 2000 طبعة ثانية
نهر السماء	رواية	مكتبة الأسرة	1987 طبعة أولى 2003 طبعة ثانية
مراعى القتل جائزة الدولة التشجيعية 1995	رواية	دار النهر الناشر 3/15	1994 طبعة أولى 2006 طبعة ثانية
أقنعة الصحراء	رواية	الناشر: دار ميرت	2002 نفـــذ
شرف الله	رواية	الناشر: الورشة	2005
العلم	رواية	الناشر: دار الهلال	2008
السبعينيون	قصص صغيرة	الناشر 3/15	2010

كتابة السيناريو:

مسلسل طيور الشمس	تم عرضه فى التليفزيون المصرى 2003
مسلسل نهر السماء	لم يتم إنتاجه بعد

الأعمال السياسية

جوهر الدساتير	الناشر دار الطنانى	2012

شرائع البحر الأبيض المتوسط القديم		المجلس الأعلى للثقافة	تحت الطبع
الدوافع الاجتماعية والسياسية للحركة الطلابية لجيل السبعينات	مدير الندوة	الناشر: دار الفسطاط	
سهام صبرى زهرة الحركة الطلابية	المحرر	الناشر: دار ميرت	



المديرية الاستوائية التابعة للحكومة المصرية

1890ـ1870

A MAP OF THE EQUATORIAL PROVINCE